سورة ص

ثمانون وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الكلام المستقصى في أمثال هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة ولا بأس بإعادة بعض الوجوه فالأول: أنه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صاد، كقولنا صادق الوعد، صانع المصنوعات، صمد، والثاني: معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله، الثالث: معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧]، الرابع: معناه أن القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن، فدل ذلك على أن القرآن معجز، الخامس: أن يكون صاد بكسر الدال من المصادة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة، ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه، السادس: أنه اسم السورة والتقدير هذه صاد، فإن قيل ههنا إشكالان أحدهما: أن قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ قسم وأين المقسم عليه؟ والثاني: أن كلمة ﴿بَلِ﴾ تقتضي رفع حكم ثبت قبلها، وإثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق، فأين هذا المعنى ههنا؟ والجواب: عن الأول من وجوه الأول: أن يكون معنى صاد، بمعنى صدق محمد ﷺ، فيكون صاد هو المقسم عليه، وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ هو القسم الثاني: أن يكون المقسم عليه محذوفًا، والتقدير سورة ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنه لكلام معجز، لأنا بينا أن قوله ﴿صٓ﴾ تنبيه على التحدي، والثالث: أن يكون صاد اسمًا للسورة، ويكون التقدير هذه ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، ولما كان المشهور أن محمدًا عليه السلام يدعي في هذه السورة كونها معجزة، كان قوله هذه ﴿صٓ﴾ جاريًا مجرى قوله: هذه هي السورة المعجزة، ونظيره قولك هذا حاتم والله، أي هذا هو المشهور بالسخاء، والجواب عن السؤال الثاني: أن الحكم المذكور قبل كلمة ﴿بَلِ﴾ (١) أما ما ذكره المفسر كون محمد صادقًا في تبليغ

(١) الحكم الذي قبل كلمة (بل) هو وصف القرآن بأنه تذكير لهم بوجوب التوحيد والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر وكل ما تفيده كلمة ذي الذكر وهذا هو الحكم المتبادر من ظاهر الآية وبهذا يكون للإضراب ببل معنى ويجري الكلام على الأساليب العربية فهو قبيل الاستنتاج والاعتماد على ما جاء بعد (بل) من آيات والإضراب لا يكون عن حكم لم يذكر.

الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة ﴿بَلِ﴾ ههنا هو المنازعة والمشاقة في كونه كذلك فحصل المطلوب، والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ الحسن صاد بكسر الدال لأجل التقاء الساكنين، وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وإيصال فعله كقولهم: الله لأفعلن، وأكثر القراء على الجزم لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر.

المسألة الثالثة: في قوله ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ وجهان الأول: المراد ذي الشرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] ومجاز هذا من قولهم: لفلان ذكر في الناس، كما يقولون: له صيت، الثاني: ذي البيانين أي فيه قصص الأولين، والآخرين، وفيه بيان العلوم الأصلية والفرعية ومجازه من قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة القرآن ذي الذكر والذكر محدث، بيان الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وبيان الثاني: قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] والجواب: أنا نصرف دليلكم إلى الحروف والأصوات وهي محدثة.

أما قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الإجماع على الحسد والكبر على الانقياد إلى الحق، والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الإنسان في نفسه من الأحوال التي تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] والشقاق هو إظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضلية عليه، وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق، فيريد أن يكون في شقة نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه، ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما في عدوة والآخر في عدوة، وهي جانب الوادي، وكذلك المحادة أن يكون هذا في حد غير الآخر، ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلانًا أي صار منه على حرف وفي جانب غير جانبه، والله أعلم، ثم إنه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟﴾ والمعنى أنهم نادوا عند نزول العذاب في الدنيا ولم يذكر بأي شيء نادوا، وفيه وجوه:

الأول: وهو الأظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لأن نداء من نزل به العذاب ليس إلا بالاستغاثة.

الثاني: نادوا بالإيمان والتوبة عند معاينة العذاب.

الثالث: نادوا أي رفعوا أصواتهم، يقال: فلان أندى صوتًا من فلان أي أرفع صوتًا، ثم قال: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [غافر: ٨٤] وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤] والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة، وكقوله: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ [يونس: ٩١]، وقوله: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَـٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ [غافر: ٨٥].

بقي هاهنا أبحاث:

البحث الأول: في تحقيق الكلام في لفظ (لات) زعم الخليل وسيبويه أن لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد، وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة، منها أنها لا تدخل إلا على الأحيان، ومنها أن لا يبرز إلا أحد جزأيها، إما الاسم وإما الخبر ويمتنع بروزهما جميعًا، وقال الأخفش: إنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء، وخصت بنفي الأحيان ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب بها كأنك قلت: ولات حين مناص لهم، ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم.

البحث الثاني: الجمهور يقفون على التاء من قوله: ﴿وَّلَاتَ﴾ والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة، قال صاحب (الكشاف): وأما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له، واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط.

البحث الثالث: المناص المنجا والغوث، يقال ناصه إذا أغاثه، واستناص طلب المناص، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَـٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَـٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَـٰقٌ ۝٧﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡۖ﴾ وجهان الأول: أنهم قالوا: إن محمدًا مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة، والثاني: أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة، والتنفير عن الدنيا، ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدًا من الكذب والتهمة؛ وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله، ونظيره قوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ ومعناه أن محمدًا كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساويًا لهم في الأسباب الدنيوية

فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وإنما لم يقل: وقالوا، بل قال: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إظهارًا للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام، فإن الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو إلى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الأشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابًا؟ ثم إنه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في إثبات كونه كاذبًا وهي ثلاثة أشياء أحدها: ما يتعلق بالإلهيات، وثانيها: ما يتعلق بالنبوات، وثالثها: ما يتعلق بالمعاد، أما الشبهة المتعلقة بالإلهيات فهي قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ روي أنه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحًا شديدًا وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفسًا من صناديدهم ومشوا إلى أبي طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا يسألونني، قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك، فقال ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم؟ قالوا: نعم، قال: تقولوا لا إله إلا الله، فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (١).

أي بليغ في التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين الأول: هو أن القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد، فقالوا: لا بد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر، الوجه الثاني: أن أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين، وهذا الإنسان الواحد يكون محقًا صادقًا،

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٦٥) حديث رقم (٣٢٣٢)، وحسن حديثه. والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ٢٣٥)، حديث رقم (٨٧٦٩)، وأيضًا (٦/ ٤٤٢)، حديث رقم (١١٤٣٦)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٢٧)، حديث رقم (٢٠٠٨)، وأبو يعلى في (مسنده) (٤/ ٤٥٥)، حديث رقم (٢٥٨٣)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٦٩)، حديث رقم (٣٦١٧)، وابن حبان في (صحيحه) (١٥/ ٧٩)، حديث رقم (٦٦٨٦)، جميعًا من طريق سفيان... به، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٣٦٢)، حديث رقم (٣٤١٩)، قال حدثنا حماد بن أسامة... به، والنسائي في (السنن الكبرى) (٦/ ٤٤٢)، حديث رقم (١١٤٣٧) من طريق أبي أسامة عن الأعمش... به.

وأقول: لعمري لو سلمنا إجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة، لكانت الشبهة الأولى لازمة، ولما توافقنا على فسادها علمنا أن إجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعًا، وإذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الأفعال، أما المشبهة في الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسمًا ومختصًا بحيز وجب في الغائب أن يكون كذلك، وأما المشبهة في الأفعال فهم المعتزلة الذين يقولون إن الأمر الفلاني قبيح منا، فوجب أن يكون قبيحًا من الله، فثبت بما ذكرنا أنه إن صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الأفعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين، وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد. وأما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقًّا لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل.

بقي هاهنا أبحاث:

البحث الأولى: أن العجاب هو العجيب إلا أنه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

الثاني: قال صاحب (الكشاف): قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد، فقال: والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ [نوح: ٢٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين إذا حضروا في المجلس فإنه تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم وعظمتهم، قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من قريش انطلقوا عن مجلس أبي طالب، بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: القراءة المشهورة (أَنِ امْشُوا) وقرأ ابن أبي عبلة امشوا بحذف أن، قال صاحب: (الكشاف) (أَنْ) بمعنى أي لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجري في المجلس المتقدم، فكان انطلاقهم مضمنًا معنى القول، وعن ابن عباس: وانطلق الملأ منهم يمشون.

البحث الثاني: معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد، إن هذا لشيء يراد، وفيه ثلاثة أوجه أحدها: ظهور دين محمد ﷺ ليس له سبب ظاهر يثبت أن تزايد ظهوره، ليس إلا لأن الله يريده، وما أراد الله كونه فلا دافع له، وثانيها: أن الأمر كشيء من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه، وثالثها: أن دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم، قال القفال: هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها أنه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين، وإنما غرضه أن يستولى علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد.

ثم قال: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ والملة الآخرة هي ملة النصارى فقالوا: إن هذا التوحيد الذي أتى به محمد ﷺ ما سمعناه في دين النصارى، أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التي أدركوا آباءهم عليها، ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ افتعال وكذب، وحاصل الكلام من هذا الوجه أنهم قالوا: نحن ما سمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد، فوجب أن يكون باطلاً، ولو كان القول بالتقليد حقًّا لكان كلام هؤلاء المشركين حقًّا، وحيث كان باطلاً علمنا أن القول بالتقليد باطل.

قوله تعالى: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهي الشبهة المتعلقة بالنبوات وهي قولهم إن محمدًا لما كان مساويًا لغيره في الذات والصفات والخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة؟ وهو المراد من قولهم: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ فإنه استفهام على سبيل الإنكار، وحكى الله تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا مثل هذا القول فقالوا: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] وحكى الله تعالى عن قوم محمد ﷺ أيضًا أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وتمام الكلام في تقرير هذه الشبهة: أنهم قالوا النبوة أشرف المراتب، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس، فوجب أن لا تحصل له النبوة، والمقدمتان الأوليان حقيقتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل، فإن مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه، فالقوم عكسوا القضية وظنوا بأخس المراتب أشرافها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا أن غيره أشرف منه، فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ وفيه وجهان أحدهما: أن قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي من الدلائل التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لأن كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة وأما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته، فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في إبطال النبوة، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته، فحيث لم يعرفوا ذلك كان لأجل أنهم تركوا النظر والاستدلال، فأما قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ فموقعه من هذا الكلام أنه تعالى يقول: هؤلاء إنما تركوا النظر والاستدلال لأني لم أذقهم عذابي، ولو ذاقوه لم يقع منهم

إلا الإقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات، وثانيها: أن يكون المراد من قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ هو أن النبي ﷺ كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر، ثم إنهم أصروا على الكفر، ولم ينزل عليهم العذاب، فصار ذلك سببًا لشكهم في صدقه، وقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ معناه ما ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ معناه أن ذلك الشك إنما حصل بسبب عدم نزول العذاب.

والوجه الثاني: من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزًا أي كامل القدرة ووهابًا أي عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى، وإذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود، لم يتوقف كونه واهبًا لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنيًّا أو فقيرًا، ولم يختلف ذلك أيضًا بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه.

والوجه الثالث: في الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايرًا للمراد من قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والأرض، فلما ذكرنا الخزائن أولاً على عمومها أردفها بذكر ﴿مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني أن هذه الأشياء أحد أنواع خزائن الله، فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم، فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى، فهذا ما أمكنني ذكره في الفرق بين الكلامين، أما قوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ فالمعنى أنهم إن ادعوا أن لهم ملك السموات والأرض فعند هذا يقال لهم: ارتقوا في الأسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي على من يختارون، واعلم أن حكماء الإسلام استدلوا بقوله: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ على أن الأجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلي لأن الله تعالى سمى الفلكيات أسبابًا وذلك يدل على ما قلناه، والله أعلم، أما قوله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ ففيه مقامان من البحث أحدهما: في تفسير هذه الألفاظ، والثاني: في كيفية تعلقها بما قبلها أما المقام الأول: فقوله: ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ وما للإيهام كقوله: جئت لأمر ما، وعندي طعام ما، و﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ صفة لجند و﴿مَهْزُومٌ﴾ خبر المبتدأ وأما قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ فيجوز أن يكون صفة لجند أي جند ثابت هنالك، ويجوز أن يكون متعلقًا بمهزوم معناه أن الجند من الأحزاب مهزوم هنالك، أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد ﷺ، وأما المقام الثاني: فهو أنه تعالى لما

قال: إن كانوا يملكون السموات والأرض فليرتقوا في الأسباب، ذكر عقيبه أنهم جند من الأحزاب منهزمون ضعيفون، فكيف يكونون مالكي السموات والأرض وما بينهما، قال قتادة: هنالك إشارة إلى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر، وقيل يوم الخندق، والأصوب عندي حمله على يوم فتح مكة، وذلك لأن المعنى أنهم جند سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة، فوجب أن يكون المراد أنهم سيصيرون منهزمين في مكة وما ذاك إلا يوم الفتح، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم أنهم إنما توانوا وتكاسلوا في النظر والاستدلال، لأجل أنهم لم ينزل بهم العذاب، بيّن تعالى في هذه الآية أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب، والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في إخباره عن نزول العقاب عليهم، فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحًا أهلكهم الله بالغرق والطوفان، والثاني: عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح، والثالث: فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق، والرابع: ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة، والخامس: قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف، والسادس: أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة، قالوا: وإنما وصف الله فرعون بكونه ذا الأوتاد لوجوه الأول: أن أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده، ثم استعير لإثبات العز والملك قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ(١)

قال القاضي: حمل الكلام على هذا الوجه أولى لأنه وصف بتكذيب الرسل، فيجب فيما وصف به أن يكون تفخيمًا لأمر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة أمره أبلغ، والثاني: أنه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي المعذب ورجليه إلى تلك الخشب الأربع، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتدًا، ويتركه معلقًا في الهواء إلى أن يموت، والثالث: أنه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات، والرابع: قال قتادة: كانت أوتادًا وأرسانًا وملاعب يلعب بها عنده، والخامس: أن عساكره كانوا كثيرين، وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم، وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل وهو للأسود بن يعفر النهشلي وقد تقدمت ترجمته.

الخيام فعرف بها، والسادس: ذو الأوتاد والجموع الكثيرة، وسميت الجموع أوتادًا لأنهم يقرون أمره ويشدون مملكته كما يقوي الوتد البناء. وأما الأيكة فهي الغيضة الملتفة.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ وفيه أقوال الأول: أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم، فكذلك نفعل بقومك، لأنه تعالى بيَّن بقوله: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] أن قوم محمد ﷺ جند من الأحزاب، أي من جنس الأحزاب المتقدمين، فلما ذكر أنه عامل الأحزاب المتقدمين بالإهلاك كان ذلك تخويفًا شديدًا لقوم محمد ﷺ، الثاني: أن معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة، كما يقال فلان هو الرجل، والمعنى أن حال أولئك الأحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين.

واعلم أن هؤلاء الأقوام إن صدقوا بهذه الأخبار فهو تحذير، وإن لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضًا، لأن آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوي فيحذرون، ولأن ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضًا ثم قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم في الترغيب والترهيب، لا جرم نزل العقاب عليهم وإن كان ذلك بعد حين، والمقصود منه زجر السامعين، ثم بين تعالى أن هؤلاء المكذبين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ وفي تفسير هذه الصيحة قولان الأول: أن يكون المراد عذابًا يفجؤهم ويجيئهم دفعة واحدة، كما يقال: صاح الزمان بهم، إذا هلكوا قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَك صَيحَةً ... خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الْأَذْقَانِ

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة إذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢] الآية، والقول الثاني: أن هذه الصيحة هي صيحة النفخة الأولى في الصور، كما قال تعالى في سورة يس: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] والمعنى أنهم وإن لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة، فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم، كالرجل الذي ينتظر الشيء فهو ماد الطرف إليه يطمع كل ساعة في حضوره، ثم إنه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي (فواق) بضم الفاء، والباقون بفتحها، قال الكسائي والفراء وأبو عبيدة والأخفش: هما لغتان من فواق الناقة، وهو ما بين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع، يقال: أفاق من مرضه، أي رجع إلى الصحة، فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن إلى الضرع يسمى فواقًا بالفتح وبالضم، كقولك: قصاص الشعر وقصاصه، قال الواحدي: والفواق والفواق اسمان من الإفاقة، والإفاقة معناها الرجوع والسكون كإفاقة المريض، إلا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر، والفواق بالضم

اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن إلى الضرع، وروى الواحدي في البسيط عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «يأمر الله إِسْرَافِيلَ فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الْفَزَعِ، قَالَ فَيَمِدُّهَا وَيُطَوِّلُهَا» وهي التي يقول: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ ثم قال الواحدي: وهذا يحتمل معنيين أحدهما: ما لها سكون، والثاني: ما لها رجوع، والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع إلى السكون، ويقال لكل من بقي على حالة واحدة: إنه لا يفيق منه ولا يستفيق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

اعلم أنا ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاثة أولها: تتعلق بالإلهيات، وهو قوله: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] والثانية: تتعلق بالنبوات، وهو قوله: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] والثالثة: تتعلق ١ بالمعاد، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته، والقط القطعة من الشيء لأنه قطع منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط، ولما ذكر رسول الله ﷺ وعد المؤمنين بالجنة، قالوا على سبيل الاستهزاء: عجل لنا نصيبنا من الجنة، أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها.

واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا: إنه ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أمره الله بالصبر على سفاهتهم، فقال: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فإن قيل. أي تعلق بين قوله: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وبين قوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾؟ قلنا: بيان هذا التعلق من وجوه الأول: كأنه قيل إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر، فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر، فإن بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفًا يزداد الضد الآخر نقصانًا، والثاني: كأنه قيل لمحمد ﷺ: لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك، فإنهم إذا خالفوك فالأكابر من الأنبياء وافقوك، والثالث: أن للناس في قصة داود قولين: منهم من قال: إنها تدل على ذنبه، ومنهم من قال: إنها لا تدل عليه (فمن قال بالأول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل

لمحمد ﷺ: إن حزنك ليس إلا لأن الكفار يكذبونك، وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد، فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثاني) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر، وإنما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود، ومع ذلك لم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمدًا عليه السلام بأن يقتدي به في حسن الخلق، والخامس: أن قريشًا إنما كذبوا محمدًا عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الأمر إنه يتيم فقير، ثم إنه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود، ثم بين أنه مع ذلك ما سلم من الأحزان والغموم، ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل إليه في الدنيا، والسادس: أن قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء فكأنه قال: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ واعتبر بحال سائر الأنبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولاً بهمٍّ خاص وحزن خاص، فحينئذٍ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان، وأن استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا، وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم، وسيجيء ذكره إن شاء الله تعالى عند الانتهاء إلى تفسير قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] واعلم أنه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الإجمال.

فالقصة الأولى: قصة داود، واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام فالأول: تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا، والثاني: شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين، والثالث: استخلاف الله تعالى إياه بعد وقوع تلك الواقعة، أما النوع الأول: وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة، الأول: قوله لمحمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فأمر محمدًا ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمدًا ﷺ بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق، والثاني: أنه قال في حقه: ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ فوصفه بكونه عبدًا له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم، وذلك غاية التشريف، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمدًا عليه السلام ليلة المعراج قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] فهاهنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلاً على علو درجته أيضًا، فإن وصف الله تعالى الأنبياء بعبوديته مشعر بأنهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة، والثالث: قوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحترازعن المعاصي، وذلك لأنه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح، والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على

فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه و﴿ٱلۡأَيۡدِ﴾ المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي باجتهاد في أداء الأمانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف والأيد والقوة سواء ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ٨٧] وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذاريات: ٤٧] وعن قتادة: أعطي قوة في العبادة وفقهًا في الدين، وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر، الرابع: قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي أن داود كان رجاعًا في أموره كلها إلى طاعتي والأواب فعال من آب إذا رجع كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾ [الغاشية: ٢٥] وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فإنه أبلغ من قاتل وضارب، الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبا: ١٠].

وفيه مباحث:

البحث الأول: وفيه وجوه:

الأول: أن الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلاً وقدرة ومنطقًا وحينئذٍ صار الجبل مسبحًا لله تعالى ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإن معناه أنه تعالى خلق في الجبل عقلاً وفهمًا، ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا.

الثاني: في التأويل ما رواه القفال في تفسيره أنه يجوز أن يقال: إن داود عليه السلام قد أوتي من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوي حسن، وما يصغي الطير إليه لحسنه فيكون دوي الجبال وتصويت الطير معه وإصغاؤه إليه تسبيحًا، وذكر محمد بن إسحاق أن الله تعالى لم يعط أحدًا من خلقه مثل صوت داود حتى إنه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها.

الثالث: أن الله سبحانه سخر الجبال حتى إنها كانت تسير إلى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحًا لأنه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ في معنى مسبحات، فإن قالوا: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلنا: نعم، فإن صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد، وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوي في كتاب دلائل الإعجاز، إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء وحالاً بعد حال وكأن السامع حاضر تلك الجبال يسمعها تسبح.

البحث الثالث: قال الزجاج: يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت وقيل هما بمعنى، والأول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق.

البحث الرابع: احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية، عن أم هانئ قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى، وقال: «يا أُمَّ هَانِئٍ هَذِهِ صَلَاةُ

الْإِشْرَاقِ»(١) وعن طاوس عن ابن عباس قال: «هَلْ تَجِدُونَ ذِكْرَ صَلَاةِ الضُّحَى فِي الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: لاَ، فَقَرأَ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾» وقال: كان يصليها داود عليه السلام، وقال: لم يزل في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

الصفة السادسة: من صفات داود عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قوله: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان داود إذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت إليه الطير فسبحت معه، واجتماعها إليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فإن قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها؟ قلنا: لا يبعد أن يقال: إن الله تعالى كان يخلق لها عقلاً حتى تعرف الله فتسبحه حينئذٍ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿مَحْشُورَةً﴾ في مقابلة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ إلا أنه ليس في الحشر مثل ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئًا بعد شيء، فلا جرم جيء به اسمًا لا فعلاً، وذلك أنه لو قيل: وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير أن الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور، والله أعلم.

البحث الثالث: قرئ (والطير محشورة) بالرفع.

الصفة السابعة: من صفات داود عليه السلام، قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أي رجاع، أي كلما رجع داود إلى التسبيح جاوبته، فهذه الأشياء أيضًا كانت ترجع إلى تسبيحاتها، والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا أن الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام، وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لله تعالى أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي قويناه وقال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] وقيل شددنا على المبالغة، وأما الأسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة، وهي إما الأسباب الدنيوية أو الدينية، أما الأول فذكروا فيه وجهين الأول: روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضي عنكم نبي الله، وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفًا. قالوا: وكان أشد ملوك الأرض سلطانًا، وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً ادعى عند داود على رجل أخذ

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) (٢٤/ ٤٠٦)، حديث رقم (٩٨٦) من طريق حجاج بن نصير حدثنا أبو بكر الهذلي واسمه سلمي عن عطاء عن ابن عباس . . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٢٣٨). وقال: رواه الطبراني وفيه حجاج بن نصير ضعفه ابن المديني وجماعة ووثقه ابن معين وابن حبان.

منه بقرة فأنكر المدعى عليه، فقال داود للمدعي: أقم البينة، فلم يقمها، فرأى داود في منامه أن الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن تقتله فأحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله، فقال المدعى عليه: صدق الله إني كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة، فقتله داود. فهذه الواقعة شددت ملكه، وأما الأسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهي الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ واعلم أنه تعالى قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام: النفسانية والبدنية والخارجية، والفضائل النفسانية محصورة في قسمين العلم والعمل، أما العلم فهو أن تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية، وأما العمل فهو أن يكون الإنسان آتيًا بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا والآخرة، فهذا هو الحكمة وإنما سمي هذا بالحكمة لأن اشتقاق الحكمة من إحكام الأمور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف، والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت في غاية الإحكام، وأما الأعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فإنها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ، فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الأعمال بالحكمة.

الصفة العاشرة: قوله: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ واعلم أن أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام أحدها: ما تكون خالية عن الإدراك والشعور وهي الجمادات والنباتات، وثانيها: التي يحصل لها إدراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفوها في الأكثر، وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان، وثالثها: الذي يحصل له إدراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له، وذلك هو الإنسان وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب، ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادرًا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف، ولما بيّن الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التي لداود بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ وهذا الترتيب في غاية الجلالة، ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال في كلامه: أما بعد، وأقول حقًّا إن الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله تعالى حرمانًا عظيمًا، والله أعلم، وقول من قال المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضًا، لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرًا على التعبير عن كل ما يخطر

بالبال ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام، والله أعلم، وههنا آخر الكلام في الصفات العشرة التي ذكرها الله تعالى في مدح داود عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يبين شيء منها كونه عليه السلام مستحقًّا للثناء والمدح العظيم.

أما قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فهو نظير قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩] وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها، ليكون داعيًا إلى الإصغاء لها والاعتبار بها، وأقول: للناس في هذه القصة ثلاثة أقوال أحدها: ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه، وثانيها: دلالتها على الصغيرة، وثالثها: بحيث لا تدل على الكبيرة ولا على الصغيرة.

فأما القول الأول فحاصل كلامهم فيها؛ أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبًا، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة.

والذي أدين به وأذهب إليه أن ذلك باطل ويدل عليه وجوه الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس وأشدهم فجورًا لاستنكف منها والرجل الحشوي الخبيث الذي يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه، الثاني: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق وإلى الطمع في زوجته؛ أما الأول: فأمر منكر قال ﷺ: «مَنْ سَعَى فِي

دَم مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ»[١] وأما الثاني: فمنكر عظيم قال ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٢] وإن أوريا لم يسلم من داود لا في روحه ولا في منكوحه، والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة، ووصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفًا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح، ولا بأس بإعادة هذه الصفات لأجل المبالغة في البيان.

فنقول: أما الصفات الأولى: فهي أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يقتدي بداود في المصابرة مع المكابدة، ولو قلنا إن داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى في إراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدًا أفضل الرسل بأن يقتدي بداود في الصبر على طاعة الله.

وأما الصفة الثانية: فهي أن وصفه بكونه عبدًا له، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملاً في موقف العبودية تامًّا في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات، ولو قلنا إن داود عليه السلام اشتغل بتلك الأعمال الباطلة، فحينئذٍ ما كان داود كاملا في عبوديته لله تعالى بل كان كاملاً في طاعة الهوى والشهوة.

الصفة الثالثة: هو قوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧] أي ذا القوة، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين، لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات، والاجتناب عن المحظورات، وأي قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة في زوجة المسلم؟

الصفة الرابعة: كونه أوابًا كثير الرجوع إلى الله تعالى، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفًا بالقتل والفجور؟.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: ١٨] أفترى أنه سخرت له الجبال

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ٨٧٤)، حديث رقم (٢٦٢٠)، وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٣٠٦)، حديث رقم (٥٩٠٠)، وابن أبي عاصم في (الديات) (١/ ١٠/ ٦)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٢٢)، والعقيلي في (الضعفاء الكبير) (٩/ ٢٣٢)، حديث رقم (٢١٨١)، جميعًا من طريق يزيد بن أبي زياد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. . . به. وفي إسناده يزيد بن زياد وهو ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (١/ ٦٩)، حديث رقم (١٠)، وأبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (في الهجرة هل انقطعت) (٣/ ١٠٧٢)، حديث رقم (٢٤٨١)، والنسائي في كتاب (الإيمان)، باب: (صفة المسلم) (٨/ ٤٧٩)، حديث رقم (٥٠١١)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٣)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (١٠/ ٢٣)، حديث رقم (٦٥١٥)، والبيهقي (١٠/ ١٨٧)، جميعًا من طريق عامر عن عبد الله بن عمرو. . . به، وأخرجه مسلم أيضًا في (صحيحه) (١/ ٦٥/ ٤٠) من طريق أبي الخير عن عبد الله بن عمرو. . . به. وأيضًا في (١/ ٦٥/ ٤١) من طريق أبي الزبير عن جابر. . . به.

ليتخذه وسيلة إلى القتل والفجور؟ .

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗ﴾ [ص: ١٩]، وقيل إنه كان محرمًا عليه صيد شيء من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنًا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه؟ .

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا، بل المراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوي الدين وأسباب سعادة الآخرة، والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك؟ .

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علمًا وعملاً، فكيف يجوز أن يقول الله تعالى: إنا ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ مع إصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح، فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب.

وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشر الأولى: قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ لائقًا به، الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه، أحدها: أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيابتي، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر، فأما جعله نائبًا وخليفة لنفسه فذلك ألبتة مما لا يليق، وثانيها: أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة، ثم قال بعده: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أشعر هذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة؛ ومعلوم أن هذا فاسد، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذٍ يناسب أن يذكر عقيبه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فثبت أن هذا الذي نختاره أولى، والثالثة: وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضًا دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال: فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزني ويسرق وقد جعله الله خليفة في أرضه وصوب أحكامه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب، والرابعة: وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار وحصل

للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة، فنقول: أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب إخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها، الخامسة: أن داود عليه السلام قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا إنه كان موصوفًا بالبغي لزم أن يقال إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه وذلك باطل، السادسة: حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، فقلت له: لا شك أن داود عليه السلام كان من أكابر الأنبياء والرسل، ولقد قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ الطعن فيه، وأيضًا فبتقدير أنه ما كان نبيًا فلا شك أنه كان مسلمًا، ولقد قال ﷺ: «لاَ تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ»(١) ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقية صحيحة فإن روايتها وذكرها لا يوجب شيئًا من الثواب، لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة، فإن ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها، فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا إليه، وأن شرح تلك القصة محرم محظور، فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت، ولم يذكر شيئًا، السابعة: أن ذكر هذه القصة، وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النور: ١٩]الثامنة: لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله: «مَنْ سَعَى فِي دَمِ مُسْلِمٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» وأيضًا لو فعل ذلك لكان ظالمًا فكان يدخل تحت قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] التاسعة: عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «مَنْ حَدَّثَكُمْ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عَلَى مَا يَرْوِيهِ الْقَصَّاصُ جَلَدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ» وهو حد الفرية على الأنبياء، ومما يقوي هذا أنهم لما قالوا: إن المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك، وأما الرابع فإنه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل. يعني فإن عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في (الصمت) (١/ ٣٠٢)، حديث رقم (٧٠٩) من طريق إياس الأفطسي حدثنا عطاء بن أبي رباح قال ذكر رجل عند عائشة رضي الله عنها... فذكره، وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٠٦)، وقال: روى أبو داود الطيالسي عن عائشة بلفظ: (لا تذكروا هلكاكم وفي رواية موتاكم إلا بخير) وإسناده جيد.

ثمانين جلدة لأجل أنهم قذفوا، وإذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك، فكيف الحال مع داود عليه السلام مع أنه من أكابر الأنبياء عليهم السلام، العاشرة: روي أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال لا ينبغي أن يزاد عليها، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت، ثم إنه تعالى لم يذكرها لأجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام، فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر، فقال عمر: «سَمَاعِي هَذَا الْكَلَامَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها أن القصة التي ذكروها فاسدة باطلة، فإن قال قائل: إن كثيرًا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ فالجواب الحقيقي أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى، وأيضًا فالأصل براءة الذمة، وأيضًا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى، وأيضًا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا، وأيضًا فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة: لِمَ لم تسعوا في تشهير هذه الواقعة؟ وأما بتقدير كونها باطلة فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب، وأيضًا فقال عليه السلام: «إِذَا عَلِمْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ» وههنا لم يحصل العلم ولا الظن في صحة هذه الحكاية، بل الدلائل القاهرة التي ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها، وأيضًا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الأكثرون المحقون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد، وأيضًا إذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقي الرجوع إلى الدلائل التي ذكرناها فهذا تمام الكلام في هذه القصة.

أما الاحتمال الثاني: وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة، فنقول في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه، الثاني: قالوا إنه وقع بصره عليها فمال قلبه إليها وليس له في هذا ذنب ألبتة، أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب، وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضًا ذنبًا لأن هذا الميل ليس في وسعه، فلا يكون مكلفًا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيًا عظيمًا بسبب قتله لأجل أنه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو أنه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل، والثالث: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضًا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معروفة أو أن الأنصار كانوا يساوون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهي أم سليمان فقيل له هذا وإن كان جائزًا في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل والأولى.

وأما الاحتمال الثالث: وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام، بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روي أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقوامًا يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبًا، فقالوا: خصمان بغى بعضنا على بعض: إلى آخر القصة، وليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة أحدهما: قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾، وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَابَ﴾ ورابعها: قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ ثم نقول، وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه، وتقريره من وجوه الأول: أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصفح والتجاوز عنهم طلبًا لمرضاة الله، قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء والامتحان، ثم إنه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم، والثاني: أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه، إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال: لما لم تقم دلالة ولا أمارة على أن الأمر كذلك، فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ منه فغفر الله له ذلك، الثالث: أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله، كما قال في حق محمد ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب، أي رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي غفرنا له ذلك الذنب لأجل احترام داود ولتعظيمه، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢] أن معناه أن الله تعالى يغفر لك ولأجلك ما تقدم من ذنب أمتك، الرابع: هب أنه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه، لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة، فلم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة إنما حصلت، لأنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني، فإنه لما قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فحكم عليه بكونه ظالمًا بمجرد دعوى الخصم بغير بينة، لكون هذا الحكم مخالفًا للصواب، فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة، إلا أن هذا في باب ترك الأفضل والأولى [(١)]. فثبت بهذه البيانات أنا إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه، فإنه لا

---

(١) أقول: لم لا تكون هذه القصة راجعة إلى قصة الغنم التي نفشت في الزرع وجاء ذكرها في سورة الأنبياء وقد ذكرت هناك بلفظ الغنم وهنا بلفظ النعاج وفتنة داود كانت بالاجتهاد في الحكم والخطأ فيه وقد نص الله على أنه فهمها سليمان عليه السلام والقاعدة أن من اجتهد في حكم وأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران وكأنه عليه السلام لم=

يلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود عليه السلام، بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه، ثم نقول: وحمل الآية عليه أولى لوجوه الأول: أن الأصل في حال المسلم البعد عن المناهي، لا سيما وهو رجل من أكابر الأنبياء والرسل، والثاني: أنه أحوط، والثالث: أنه تعالى قال في أول الآية لمحمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] فإن قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] واستهزءوا به حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] فقال تعالى في أول الآية: اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود، فهذا الذكر إنما يحسن إذا كان داود عليه السلام قد صبر على إيذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب، وهذا المعنى إنما يحصل إذا حملنا الآية على ما ذكرناه، أما إذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضًا فاسدًا، والرابع: أن تلك الرواية إنما تتمشى إذا قلنا الخصمان كانا ملكين، ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كذبًا، فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين أحدهما: إسناد الكذب إلى الملائكة والثاني: أن يتوسل بإسناد الكذب إلى الملائكة إلى إسناد أفحش القبائح إلى رجل كبير من أكابر الأنبياء، فأما إذا حملنا الآية على ما ذكرنا استغنينا عن إسناد الكذب إلى الملائكة، وعن إسناد القبيح إلى الأنبياء، فكان قولنا أولى، فهذا ما عندنا في هذا الباب، والله أعلم بأسرار كلامه.

ونرجع الآن إلى تفسير الآيات. أما قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ قال الواحدي: الخصم مصدر خصمته أخصمه خصمًا، ثم يسمى به الاثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع، يقال هما خصم وهم خصم، كما يقال هما عدل وهم عدل، والمعنى ذوا خصم وذوو خصم، وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ يقال تسورت السور تسورًا إذا علوته، ومعنى: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي أتوه من سوره وهو أعلاه، يقال تسور فلان الدار إذا أتاها من قبل سورها. وأما المحراب فالمراد منه البيت الذي كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه، وسمي ذلك البيت المحراب لاشتماله على المحراب، كما يسمى الشيء بأشرف أجزائه، وههنا مسألة من علم أصول الفقه، وهي أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس، وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية، لأنه تعالى ذكر صيغة الجمع في هذه الآيات في أربعة مواضع أحدهما: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾، وثانيها: قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾. وثالثها: قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، ورابعها: قوله: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ فهذه الألفاظ الأربعة كلها صيغ الجمع، وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا: خصمان، قالوا: فهذه الآية تدل على أن أقل الجمع اثنان والجواب: لا يمتنع أن يكون كل واحد

=يدرك هذه القاعدة أو لم يكن العمل عليها في عهده ولهذا استغفر ربه والدلائل على ذلك كثيرة منها ظاهر الآية ولا داعي إلى التأويل بالمرأة أو غيرها ومنها قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والتعقيب بقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

من الخصمين جمعًا كثيرين، لأنا بينا أن الخصم إذا جعل اسمًا فإنه لا يثنى ولا يجمع، ثم قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ﴾ والفائدة فيه أنهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه، فلما قال: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ دل على أنهم بعد التسور دخلوا عليه، قال الفراء: وقد يجاء بإذ مرتين ويكون معناهما كالواحد، كقولك: ضربتك إذ دخلت علي إذ اجترأت، مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحدًا، ثم قال تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد، علم أنهم إنما دخلوا عليه للشر، فلا جرم فزع منهم.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: خصمان خبر مبتدأ محذوف، أي نحن خصمان.

المسألة الثانية: ههنا قولان الأول: أنهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه والثاني: أنهما كانا إنسانين دخلا عليه للشر والقتل، فظنا أنهما يجدانه خاليًا، فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر، وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما ﴿خَصْمَانِ﴾ فإنه ليس بين الملائكة خصومة، ولكانا كاذبين في قولهما: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولكانا كاذبين في قولهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] ولقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا إن الملكين إنما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب، وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل، أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل، فحينئذٍ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الأول، والله أعلم، وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه الأول: اتفاق أكثر المفسرين عليه، والثاني: أنه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة، الثالث: أن قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين لأن من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته، الرابع: أن قولهما: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ كالدلالة على كونهما ملكين لأن أحدًا من رعيته لا يتجاسر أن يقول له: لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق، واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر، ولا حاجة إلى الجواب، والله أعلم.

المسألة الثالثة: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح إذا أفرط وجعه وانتهى إلى الغاية، ويقال: بغت المرأة إذا زنت، لأن الزنى كبيرة منكرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] ثم قال: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ معنى الحكم إحكام الأمر في

إمضاء تكليف الله عليهما في الواقعة، ومنه حَكَمة الدابة لأنها تمنع من الجماح، ومنه بناء محكم إذا كان قويًّا، وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالحكم الحق وهو الذي حكم الله به ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ يقال شط الرجل إذا بعد، ومنه قوله: شطت الدار إذا بعدت، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي قولاً بعيدًا عن الحق، فقوله: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ أي لا تبعد في هذا الحكم عن الحق، ثم قال: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وسواء الصراط هو وسطه، قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] ووسط الشيء أفضله وأعدله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣] وأقول: إنهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات أولها: قولهم فاحكم بالحق، وثانيها: قولهم: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ وهي نهي عن الباطل، وثالثها: قولهم: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يعني يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق. وفي الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل إلى الطريق الحق، وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب، واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صحاب (الكشاف): ﴿أَخِي﴾ بدل من ﴿هَٰذَآ﴾ أو خبر لقوله: ﴿إِنَّ﴾ والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والألفة أو أخوة الشركة والخلطة، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ وكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرئ (تسع وتسعون) بفتح التاء ونعجة بكسر النون، وهذا من اختلاف اللغات نحو نَطِع ونَطع، ولِقوة ولَقوة وهي الأنثى من العقبان.

المسألة الثالثة: قال الليث: النعجة الأنثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية، والجمع النعجات، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة.

المسألة الرابعة: قرأ عبد الله: (تسع وتسعون نعجة أنثى) وهذا يكون لأجل التأكيد كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: ٥١]، ثم قال: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ حقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ﴿وَعَزَّنِي﴾ غلبني، يقال عزه يعزه، والمعنى جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أورده به، وقرئ (وَعَازَنِي) من المعازة، وهي المغالبة، واعلم أن الذين قالوا: إن هذين الخصمين كانا من الملائكة، زعموا أن المقصود من ذكر النعاج التمثيل، لأن داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ أي سؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه، وروي أنه قال له: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، وأشار إلى الأنف والجبهة فقال: يا داود أنت أحق أن نضرب منك هذا وهذا، وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحدًا فعرف

الحال، فإن قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه؟ قلنا ذكروا فيه وجوهًا الأول: قال محمد بن إسحاق: لما فرغ الخصم الأول من كلامه نظر داود إلى الخصم الذي لم يتكلم وقال: لئن صدق لقد ظلمته، والحاصل أن هذا الحكم كان مشروطًا بشرط كونه صادقًا في دعواه، والثاني: قال ابن الأنباري: لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذلك الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه، كما تقول: أمرتك بالتجارة فكسبت، تريد اتجرت فكسبت، وقال تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي فضرب فانفلق، والثالث: أن يكون التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قال: الليث خليط الرجل مخالطه، وقال الزجاج: الخلطاء الشركاء، فإن قيل لم خص داود الخلطاء يبغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك، والجواب لا شك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة، وذلك لأنهما إذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الأشياء النفيسة إذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه، فيفضي ذلك إلى زيادة المخاصمة والمنازعة، فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغي والعدوان، ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن مخالطة هؤلاء لا تكون إلا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية، فلا جرم مخالطتهم لا توجب المنازعة، وأما الذين تكون مخالطتهم لأجل حب الدنيا لا بد وأن تصير مخالطتهم سببًا لمزيد البغي والعدوان، واعلم أن هذا الاستثناء يدل على أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض، فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومعلوم أن ذلك باطل، فثبت أن قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال داود عليه السلام في هذا الموضع ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وحكى تعالى عن إبليس أنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وسبب القلة أن الدواعي إلى الدنيا كثيرة، وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن، وكلها تدعو إلى الخلق والدنيا واللذة الحسية، وأما الداعي إلى الحق والدين فليس إلا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم، فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر، قال صاحب (الكشاف): وما في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ للإبهام وفيه تعجب من قلتهم، قال وإذا أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس:

وحديث ما على قصره

وانظر هل بقي له معنى قط.

ثم قال تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ قالوا: معناه وعلم داود أنما فتناه أي امتحناه، قالوا: والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا أن داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعد إلى السماء قبل وجهه، فعلم داود أن الله ابتلاه بذلك فثبت أن داود علم ذلك وإنما جاز حمل لفظ الظن على العلم لأن العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهة عظيمة، والمشابهة علة لجواز المجاز، وأقول: هذا الكلام إنما يلزم إذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما إذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم، بل لقائل أن يقول إنه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والإنابة.

أما قوله: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾ أي سأل الغفران من ربه، ثم ههنا وجهان إن قلنا بأنه قد صدرت زلة منه، حملنا هذا الاستغفار عليها، وإن لم نقل به قلنا فيه وجوه الأول: أن القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله، وإنه كان سلطانًا شديد القهر عظيم القوة، ثم إنه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئًا قرب الأمر من أن يدخل في قلبه شيء من العجب، فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب إلى الله، واعترف بأن إقدامه على ذلك الخير ما كان إلا بتوفيق الله، فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر، الثاني: لعله هم بإيذاء القوم، ثم قال: إنه لم يدل دليل قاطع على أن هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم، الثالث: لعل القوم تابوا إلى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لأجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع إلى الله، فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه، وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة، والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه وإذا كان اللفظ محتملاً لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها، فما الذي يحملنا على التزامها والقول بها، والذي يؤكد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ومثل هذه الخاتمة إنما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة، وتحمل أنواعًا من الشدائد في الموافقة والانقياد، أما إذا كان المذكور السابق هو الإقدام على الجرم والذنب فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك بن دينار: إذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع في الجنة، ويقال: يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا، والله أعلم، بقي ههنا مباحث فالأول: قرئ (فتناه) وفتناه على أن الألف ضمير الملكين، الثاني: المشهور أن الاستغفار إنما كان بسبب قصة النعجة والنعاج، وقيل أيضًا إنما كان بسبب أنه حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الثاني وذلك غير جائز، الثالث: قوله: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ يدل على حصول الركوع، وأما السجود فقد ثبت بالأخبار وكذلك البكاء الشديد في مدة أربعين يومًا ثبت بالأخبار، الرابع: أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال: لأنه توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة، الخامس: استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية في سجود التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود.

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة، لأن من البعيد جدًّا أن يوصف الرجل بكونه ساعيًا في سفك دماء المسلمين، راغبًا في انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه أن الله تعالى فوض خلافة الأرض إليه، ثم نقول: في تفسير كونه خليفة وجهان الأول: جعلناك تخلف من تقدمك من الأنبياء في الدعاء إلى الله تعالى، وفي سياسة الناس لأن خليفة الرجل من يخلفه، وذلك إنما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة، وذلك على الله محال، الثاني: إنا جعلناك مالكًا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة، ومنه يقال خلفاء الله في أرضه، وحاصله أن خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله، فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ واعلم أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع، لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدينة تامة حتى إن هذا يحرث، وذلك يطحن، وذلك يخبز، وذلك ينسج، وهذا يخيط، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع. فثبت أن الإنسان مدني بالطبع وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحق الإلهية انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه. فهذا هو المراد من قولهم: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن

سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

أما المقام الأول: وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات، لأنهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر.

أما المقام الثاني: وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فالأمر فيه ظاهر لأن الإنسان إذا عظم إلفه بهذه الجسمانيات ونسي بالكلية أحواله الروحانيات، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق، ودخل ديارًا ليس له بأهل تلك الديار إلف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار، فكأنه فارق المحبوب ووصل إلى المكروه، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله. وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، وهذا بيان في غاية الكمال.

ثم قال تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني أن السبب الأول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب، لأنه لو كان متذكرًا ليوم الحساب لما أعرض عن إعداد الزاد ليوم المعاد، ولما صار مستغرقًا في هذه اللذات الفاسدة.

روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال: لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم ولا يكتب عليه معصية؟ فقال: يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقًا لأعمال العباد قال: لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل. فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل، وقد خلق الباطل، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي كل من قال بهذا القول فهو كافر، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر، واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقًا لأعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقًا لكل ما بين السموات والأرض، وأعمال العباد حاصلة بين السماء والأرض، فوجب أن يكون الله تعالى خالقًا لها.

المسألة الثانية: هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة، وذلك لأنه تعالى خلق الخلق في هذا العالم، فإما أن يقال: إنه خلقهم للإضرار أو للإنفاع أو لا للإنفاع ولا للإضرار، والأول باطل لأن ذلك لا يليق بالرحيم الكريم، والثالث أيضًا باطل لأن هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين، فلم يبق إلا أن يقال إنه خلقهم للإنفاع، فنقول وذلك الإنفاع، إما أن يكون في حياة الدنيا أو في حياة الآخرة، والأول باطل لأن منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة، وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة، ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية، وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة، واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة، وقد لخصناها في أول سورة يونس بالاستقصاء، فلا سبيل إلى التكرير فثبت بما ذكرنا أنه تعالى ما خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً وإذا لم يكن خلقهما باطلاً كان القول بالحشر والنشر لازمًا، وأن كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكًّا في حكمة الله في خلق السماء والأرض، وهذا هو المراد من قوله: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل، فقال: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ وتقريره أنا نرى في الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته في الفقر والزمانة وأنواع البلاء، ونرى الكفرة والفساق في الراحة والغبطة، فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم، وإذا كان ذلك قادحًا في الحكمة، ثبت أن إنكار الحشر والنشر يوجب إنكار حكمة الله.

ثم قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن لأجل الخير والرحمة والهداية، وهذا يفيد أمرين أحدهما: أن أفعال الله معللة برعاية المصالح، والثاني: أنه تعالى أراد الإيمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول: إنه أراد الكفر من الكافر.

المسألة الثانية: في تقرير نظم هذه الآيات فنقول، لسائل أن يسأل فيقول: إنه تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار، أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة، وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب، بل قال: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله

وفرع عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولاً متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابًا شريفًا فاضلًا؟ هذا تمام السؤال والجواب أن نقول: إن العقلاء قالوا من أبلى بخصم جاهل مصر متعصب، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار، وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي، بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الأول، فإن ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة، فإذا سلمها، فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول، وحينئذ يصير ذلك الخصم المتعصب منقطعًا مفحمًا، إذا عرفت هذا فنقول إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والنشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] فقال يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة، وهي قصة داود عليه السلام، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر، ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة، ثم قال في آخر القصة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] وكل من سمع هذا قال: نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق، ثم كأنه تعالى قال: وأنا لا آمرك بالحق فقط، بل أنا مع أني رب العالمين لا أفعل إلا بالحق، ولا أقضي بالباطل، فههنا الخصم يقول: نعم ما فعل حيث لم يقض إلا بالحق، فعند هذا يقال: لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل، لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر، لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحًا على المسلم في إيصال الخيرات إليه، وذلك ضد الحكمة وعين الباطل، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيرادًا لا يمكنهم الخلاص عنه، فصار ذلك الخصم الذي بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحمًا ملزمًا بهذا الطريق، ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن، لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم، حيث يراه في ظاهر الحال مقرونًا بسوء الترتيب، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب، فهذا ما حضرنا في تفسير هذه الآيات، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾.

فيه مباحث:

الأول: نقول المخصوص بالمدح في ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ محذوف، فقيل هو سليمان، وقيل داود، والأول أولى لأنه أقرب المذكورين، ولأنه قال بعده ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد هو داود، لأن وصفه بهذا المعنى قد تقدم في الآية المتقدمة حيث قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] فلو قلنا لفظ الأواب ههنا أيضًا صفة داود لزم التكرار، ولو قلنا إنه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيهًا لأبيه في صفات الكمال في الفضيلة، فكان هذا أولى.

الثاني: أنه قال أولاً ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ ثم قال بعده ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وهذه الكلمة للتعليل، فهذا يدل على أنه إنما كان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ لأنه كان أوابًا، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفًا بأنه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شيء من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله تعالى فكان أوابًا، فثبت أن كل من كان أوابًا وجب أن يكون ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾.

أما قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ففيه وجوه الأول: التقدير ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ هو إذ كان من أعماله أنه فعل كذا، الثاني: أنه ابتداء كلام. والتقدير اذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا، والعشي هو من حين العصر إلى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر إليها ويقف على كيفية أحوالها، والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين:

الصفة الأولى: الصافنات، قال صاحب (الصحاح): الصافن الذي يصفن قدميه، وفي الحديث «كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قُمْنَا صُفُونًا» أي قمنا صافنين أقدامنا، وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس.

والصفة الثانية: للخيل في هذه الآية الجياد، قال المبرد: والجياد جمع جواد وهو الشديد الجري، كما أن الجواد من الناس هو السريع البذل، فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها، أما حال وقوفها فوصفها بالصفون، وأما حال حركتها فوصفها بالجودة، يعني أنها إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الأشكال، فإذا جرت كانت سراعًا في

جريها، فإذا طَلبت لحقت، وإذا طُلبت لم تلحق، ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ وفي تفسير هذه اللفظة وجوه الأول: أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن، كأنه قيل أحببت حب الخير عن ذكر ربي، والثاني: أن أحببت بمعنى ألزمت، والمعنى أني ألزمت حب الخيل عن ذكر ربي، أي عن كتاب ربي وهو التوراة، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح، والثالث: أن الإنسان قد يحب شيئًا لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يزيد في مرضه، والأب الذي يحب ولده الرديء، وأما من أحب شيئًا، وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل.

ثم قال: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنى أن هذه المحبة الشديدة إنما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى، وهذا الوجه أظهر الوجوه.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾ أقول الضمير في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ﴾، وفي قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدًا إلى الشمس، لأنه جرى ذكر ما له تعلق بها وهو العشي ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدًا إلى الصافنات، ويحتمل أن يكون الأول متعلقًا بالشمس والثاني بالصافنات، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها فالأول: أن يعود الضميران معًا إلى الصافنات، كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات علي، والاحتمال الثاني: أن يكون الضميران معًا عائدين إلى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس، وروي أنه ﷺ لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر، فسأل الله أن يرد الشمس فقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ إشارة إلى طلب رد الشمس، وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه الأول: أن الصافنات مذكورة تصريحًا، والشمس غير مذكورة وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر، الثاني: أنه قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول: إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي. وكان يعيد هذه الكلمات إلى أن توارت بالحجاب، فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه وذلك مناسب، ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه أنه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب، وهذا في غاية البعد، الثالث: أنا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافيًا لقوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ فإن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله، الرابع: أنه بتقدير أنه عليه السلام بقي مشغولاً بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر؟، فكان ذلك ذنبًا عظيمًا وجرمًا قويًا، فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في إظهار التوبة، فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لإله العالم ورب العالمين: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الأدب

عقيب ذلك الجرم العظيم، فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم!، الخامس: أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها علي ولا يقول ردوها علي، فإن قالوا إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله: ﴿رُدُّوهَا﴾ لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم، السادس: أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهدًا لكل أهل الدنيا ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره، وحيث لم يقل أحد ذلك علمنا فساده، السابع: أنه تعالى قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ ثم قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد، وأما العشي فأبعدهما فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ على تواري الشمس وأن حمل قوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم.

ثم قال تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها، قال الأكثرون معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها، قالوا إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقربًا إلى الله تعالى، وعندي أن هذا أيضًا بعيد، ويدل عليه وجوه الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق قطعها لكان معنى قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قطعها، وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم ألبتة من المسح العقر والذبح، الثاني: القائلون لهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعًا من الأفعال المذمومة فأولها: ترك الصلاة، وثانيها: أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقال ﷺ: «**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ**»(١) وثالثها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والإنابة ألبتة، ورابعها: أنه خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس، وخامسها: أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها، وروي عن النبي ﷺ «**نَهَى عَنْ ذَبْحِ الْحَيَوَانِ إِلاَّ لِمَأْكَلِهِ**» فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها، وسادسها: أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٧] وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد ﷺ: اصبر يا محمد على سفاهتهم ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ وذكر قصة داود، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان، وكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد عليه السلام: اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان، وهذا الكلام إنما يكون لائقًا لو قلنا إن

(١) تقدم.

سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة والأخلاق الحميدة، وصبر على طاعة الله، وأعرض عن الشهوات واللذات، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقًا بهذا الموضع، فثبت أن كتاب الله تعالى ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإفساد والإبطال بل التفسير المطابق للحق لألفاظ القرآن، والصواب أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوبًا إليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربي، ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور الأول: تشريفًا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، الثاني: أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه، الثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقًا مطابقًا موافقًا، ولا يلزمنا نسبة شيء من تلك المنكرات والمحذورات، وأقول: أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها، وليس لهم في إثباتها شبهة فضلًا عن حجة، فإن قيل: فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه، فما قولك فيه؟ فنقول: لنا ههنا مقامان:

المقام الأول: أن ندعي أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرناه، وظهوره لا يرتاب العاقل فيه.

المقام الثاني: أن يقال هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس، فما قولك فيه وجوابنا أن الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية، فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت إلى أقوالهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى
بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ
﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أن هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا في المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ

فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ ولأهل الحشو والرواية فيه قول، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر، أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات:

الرواية الأولى: قالوا: إن سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها، وأخذ بنتًا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبدًا على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة وعشيًا مع جواريها يسجدن لها، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبًا إلى الله تعالى، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يومًا، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال: يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان فأتى عليه الطير والجن والإنس، وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته، فعرف أن الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف وإذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه، ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يومًا عدد ما عبد الوثن في بيته، فأنكر آصف وعظماء بني إسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة، وقيل بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهن، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدًا لله، ورجع إليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر.

والرواية الثانية للحشوية: أن تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها، فقال له آصف إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله.

والرواية الثالثة: لَهُمْ قالوا: إن سليمان قال لبعض الشياطين: كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه، ثم ذكر الحكاية إلى آخرها.

إذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أن الله تعالى ابتلاه وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه.

والرواية الرابعة: أنه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقي على سريره شيطان عقوبة له.

واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه الأول: أن الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالأنبياء، فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا

شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية، الثاني: أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد، وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى، والثالث: كيف يليق بحكمة الله وإحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح، الرابع: لو قلنا إن سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه، وإن لم يأذن فيه ألبتة فالذنب على تلك المرأة، فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه؟ فأما الوجوه التي ذكرها أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء:

الأول: أن فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين إن عاش صار مسلطًا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته إذ ألقي ذلك الولد ميتًا على كرسيه فتنبه على خطيئته في أنه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب.

الثاني: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**قَالَ سُلَيْمَانُ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةٍ كُلُّ وَاحِدَةٍ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ تَحْمَلْ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ فَجِيءَ بِهِ عَلَى كُرْسِيِّهِ فَوُضِعَ فِي حِجْرِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا كُلُّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ**»[1] فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾.

الثالث: قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ منه ﴿جَسَدًا﴾ وذلك لشدة المرض. والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة ألبتة إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة.

الرابع: أقول: لا يبعد أيضًا أن يقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف، وأعاد إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولى، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولأنهم أبدًا في مقام هضم النفس، وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان)، باب: (كيف كانت يمين النبي ﷺ) (١١/ ٥٣٣)، حديث رقم (٦٦٣٩) من طريق شعيب... به، ومسلم في كتاب (الأيمان)، باب: (الاستثناء) (٣/ ٢٣/ ١٢٧٥) من طريق سفيان... به، جميعًا عن أبي الزناد... به.

«إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً»[(1)] ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم بعده طلب المملكة. وأيضًا الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا، لأن سليمان طلب المغفرة أولاً ثم توسل به إلى طلب المملكة، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضًا لأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢] وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] فإن قيل قوله عليه السلام: ﴿مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ مشعر بالحسد، والجواب عنه أن القائلين بأن الشيطان استولى على مملكته قالوا: معنى قوله: ﴿لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ﴾، هو أن يعطيه الله ملكًا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه ألبتة، فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه الأول: أن الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري ألبتة، ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي. والدليل على صحة هذا الكلام أنه تعالى قال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ فكون الريح جاريًا بأمره قدرة عجيبة وملك عجيب، ولا شك أنه معجزة دالة على نبوته فكان قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ هو هذا المعنى لأن شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها، فقوله: ﴿لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ يعني لا يقدر أحد على معارضته، والوجه الثاني: في الجواب أنه عليه السلام لما مرض ثم عاد إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا صائرة إلى الغير بإرث أو بسبب آخر، فسأل ربه ملكًا لا يمكن أن ينتقل منه إلى غيره، وذلك الذي سأله بقوله: ﴿مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ﴾ أي ملكًا لا يمكن أن ينتقل عني إلى غيري، الوجه الثالث في الجواب: أن الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها، فكأنه قال: يا إلهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية، حتى أحترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل، الوجه الرابع: من الناس من يقول إن الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب، لأن هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة، والنقد يصعب بيعه بالنسيئة، فقال سليمان: أعطني يا رب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر، حتى أني أبقى مع تلك القدرة الكاملة في غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق أن حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى، الوجه الخامس: أن من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب إليها فيظن أن فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة، فقال سليمان: يا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب (الذكر)، باب: (استحباب الاستغفار والاستكثار فيه) (٤/ ٢٠٧٥/ ٤١)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (في الاستغفار) (٢/ ٦٥٤)، حديث رقم (١٥١٥)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢١١)، جميعًا من طريق حماد. . . به.

رب العزة أعطني أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها، فحينئذ يظهر للعقل أنه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت إليها، وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا، ثم قال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ رخاء أي رخوة لينة وهي من الرخاوة والريح إذا كانت لينة لا تزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١] قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: لا منافاة بين الآيتين فإن المراد أن تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة إلا أنها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء.

والوجه الثاني: من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الأمرين وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي قصد وأراد، وحكى الأصمعي عن العرب أنهم يقولون: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج إليهما، فقال أين تصيبان؟ فقالا: هذا مطلوبنا. وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بأمره على وفق إرادته، ثم قال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾، قال صاحب (الكشاف): ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف على الريح و﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾، ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عطف على قوله: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ، وقوله: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ يقال قرنهم في الحبال والتشديد للكثرة ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ الأغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضًا، قال النابغة(١):

وَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ بِالصَّفَدِ

فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شدًّا وثيقًا فقد صفدته، وكل من أعطيته عطاء جزيلاً فقد أصفدته، وههنا بحث، وهو أن هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة، وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الأبنية القوية التي لا يقدر عليها البشر، وقدروا على الغوص في البحار، واحتاج سليمان عليه السلام إلى قيدهم، ولقائل أن يقول: إن هذه الشياطين إما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة، فإن كان الأول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة، إذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم، فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها، وذلك دخول في السفسطة، وإن كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة، بل لطيفة رقيقة، فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفًا بالقوة الشديدة، وأيضًا لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا في الحال، وذلك يمنع من وصفهم ببناء الأبنية القوية، وأيضًا الجن والشياطين إن كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة، فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا؟ ولم لا يخربون ديار الناس؟ مع أن المسلمين مبالغون في إظهار لعنهم وعداوتهم. وحيث لم يحس شيء من ذلك، علمنا أن القول بإثبات الجن والشياطين ضعيف.

(١) تقدم ترجمة النابغة.

واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع أنا لا نراها، وأيضًا لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون، ولكنها صلبة بمعنى أنها لا تقبل التفرق والتمزق. وأما الجبائي فقد سلم أنها كانت كثيفة الأجسام، وزعم أن الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان، ثم إنه لما توفي سليمان عليه السلام، أمات الله أولئك الجن والشياطين، وخلق نوعًا آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة، ولا يكون لهم شيء من القوة، والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس إلا من هذا الجنس.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفيه قولان الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب، أي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت، الثاني: أن هذا في أمر الشياطين خاصة، والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فحل عنه، واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب.

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا، أردفه بإنعامه عليه في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وقد سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة، واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليهما أصناف الآلاء والنعماء، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار، كأن الله تعالى قال: يا محمد اصبر على سفاهة قومك فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالاً وجاهًا من داود وسليمان عليهما السلام، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكاره.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): أيوب عطف بيان، وإذ بدل اشتمال منه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ﴾ أي بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه، ولو لم يحك لقال بأنه مسه لأنه غائب، وقرئ: ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها، فالنُّصْب والنَّصَب، كالرُّشْد والرَّشَد، والعدم والعدم، والسقم والسقم، والنصب على أصل المصدر، والنصب

تثقيل نصب، والمعنى واحد، وهو التعب والمشقة والعذاب والألم.

واعلم أنه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه: الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات، والألم الشديد في الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم، ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب.

المسألة الثانية: للناس في هذا الموضع قولان الأول: أن الآلام والأسقام الحاصلة في جسمه إنما حصلت بفعل الشيطان، الثاني: أنها إنما حصلت بفعل الله، والعذاب المضاف في هذه الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة، وإلقاء الخواطر الفاسدة.

وأما القول الأول: فتقريره ما روي أن إبليس سأل ربه، فقال: هل في عبيدك من لو سلطتني عليه يمتنع مني؟ فقال الله: نعم عبدي أيوب، فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى إبليس عيانًا ولا يلتفت إليه، فقال: يا رب إنه قد امتنع علي فسلطني على ماله، وكان يجيئه ويقول له: هلك من مالك كذا وكذا، فيقول: الله أعطى والله أخذ، ثم يحمد الله، فقال: يا رب إن أيوب لا يبالي بماله فسلطني على ولده، فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية، فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه، فقال: يا رب لا يبالي بماله وولده فسلطني على جسده، فأذن فيه، فنفخ في جلد أيوب، وحدثت أسقام عظيمة وآلام شديدة فيه، فمكث في ذلك البلاء سنين، حتى صار بحيث استقذره أهل بلده، فخرج إلى الصحراء وما كان يقرب منه أحد، فجاء الشيطان إلى امرأته، وقال: لو أن زوجك استعان بي لخلصته من هذا البلاء، فذكرت المرأة ذلك لزوجها، فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة، وعند هذه الواقعة قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فأجاب الله دعاءه، وأوحى إليه أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فأظهر الله من تحت رجله عينًا باردة طيبة فاغتسل منها، فأذهب الله عنه كل داء في ظاهره وباطنه، ورد عليه أهله وماله.

والقول الثاني: أن الشيطان لا قدرة له ألبتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، والدليل عليه وجوه الأول: أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، فلعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذٍ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم، هو الله تعالى، الثاني: أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادهم، الثالث: أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، وذلك يدل على قول من يقول إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض والآفات، فإن قال قائل: لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟ قلنا: فإذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأي فائدة في جعل الشيطان واسطة في

ذلك؟ بل الحق أن المراد من قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أنه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوهًا الأول: أن علته كانت شديدة الألم، ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته، ولم يبق له شيء من الأموال ألبتة، وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت، ثم بلغت نفرة الناس عنه إلى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم، والشيطان كان يذكره النعم التي كانت والآفات التي حصلت، وكان يحتال في دفع تلك الوساوس، فلما قويت تلك الوساوس في قلبه خاف وتضرع إلى الله، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ لأنه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد. الثاني: أنها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط في قلبه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾، الثالث: قيل إن الشيطان لما قال لامرأته: لو أطاعني زوجك أزلت عنه هذه الآفات، فذكرت المرأة له ذلك، فغلب على ظنه أن الشيطان طمع في دينه فشق ذلك عليه فتضرع إلى الله تعالى وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، الرابع: روي عن النبي ﷺ: «**أَنَّهُ بَقِيَ أَيُّوبُ فِي الْبَلاَءِ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى رَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَتَى بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَلَوْلاَهُ مَا وَقَعَ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلاَءِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقَالَ: لاَ أَدْرِي مَا تَقُولاَنِ غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ تَعَالَى فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأَنْفِرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إِلاَّ فِي الْحَقِّ**»، الخامس: قيل: إن امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيوب، فاتفق أنهم ما استخدموها ألبتة وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت، ثم في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة، وكان أيوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة، فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتد غمه، فعند ذلك قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. السادس: قال في بعض الأيام: يا رب لقد علمت ما اجتمع علي أمران إلا آثرت طاعتك، ولما أعطيتني المال كنت للأرامل قيمًا، ولابن السبيل معينًا، ولليتامى أبًا! فنودي من غمامة يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق؟ فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه، وقال: منك يا رب ثم خاف من الخاطر الأول فقال: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقد ذكروا أقوالاً أخرى، والله أعلم بحقيقة الحال، وسمعت بعض اليهود يقول: إن لموسى بن عمران عليه السلام كتابًا مفردًا في واقعة أيوب، وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلاً كثير الطاعة لله تعالى مواظبًا على العبادة، مبالغًا في التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله، ثم إنه وقع في البلاء الشديد والعناء العظيم، فهل كان ذلك لحكمة أم لا؟ فإن كان ذلك لحكمة فمن المعلوم أنه ما أتى بجرم في الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب في مقابلة

ذلك الجرم، وإن كان ذلك لكثرة الثواب فالإله الحكيم الرحيم قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والأسقام الكريهة، وحينئذٍ لا يبقى في تلك الأمراض والآفات فائدة، وهذه كلمات ظاهرة جلية وهي دالة على أن أفعال ذي الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد، والحق الصريح أنه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

المسألة الثالثة: لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب إنما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الأول عبارة عما حصل في بدنه من الأمراض، وعلى القول الثاني عبارة عن الأحزان الحاصلة في قلبه بسبب إلقاء الوساوس، وعلى التقديرين فيلزم إثبات الفعل للشيطان، وأجاب أصحابنا رحمهم الله بأنا لا ننكر إثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم.

أما قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فالمعنى أنه لما شكى من الشيطان، فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله إليه بأن قال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ والركض هو الدفع القوي بالرجل، ومنه ركضك الفرس، والتقدير قلنا له: اركض برجلك، قيل: إنه ضرب رجله تلك الأرض فنبعت عين فقيل: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك، وظاهر اللفظ يدل على أنه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه. والمفسرون قالوا: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى، فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه بإذن الله، وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ فقد قيل: هُمْ عين أهله وزيادة مثلهم، وقيل: غيرهم مثلهم، والأول أولى لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة، ثم اختلفوا فقال بعضهم: معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء، وقال بعضهم: بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد أن تفرقوا. وقال بعضهم: بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة.

أما قوله: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فالأقرب أنه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك، وقال الحسن رحمه الله: المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا.

ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة، لا على سبيل اللزوم.

ثم قال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني سلطنا البلاء عليه أولاً فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه إلى الآلاء والنعماء، تنبيهًا لأولي الألباب على أن من صبر ظفر، والمقصود منه التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧] وقالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني إنما فعلناها لهذه الأغراض

والمقاصد، وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالأغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قد مر غير مرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ فهو معطوف على ﴿ٱرۡكُضۡ﴾ والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك. واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه، وفي الخبر أنه حلف على أهله، ثم اختلفوا في السبب الذي لأجله حلف عليها، ويبعد ما قيل إنها رغبته في طاعة الشيطان، ويبعد أيضًا ما روي أنها قطعت الذوائب عن رأسها لأن المضطر إلى الطعام يباح له ذلك بل الأقرب أنها خالفته في بعض المهمات، وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فأبطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة إذا برئ، ولما كانت حسنة الخدمة له لا جرم حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها، وهذه الرخصة باقية، وعن النبي ﷺ أنه أتى بمجذم خبث بأمة فقال: «**خُذُوا عِثْكَالاً فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فَاضْرِبُوهُ بِهِ ضَرْبَةً**» (١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ فإن قيل: كيف وجده صابرًا وقد شكى إليه، والجواب من وجوه الأول: أنه شكى من الشيطان إليه وما شكى منه إلى أحد، الثاني: أن الألم حين كان على الجسد لم يذكر شيئًا فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع، الثالث: أن الشيطان عدو، والشكاية من العدو إلى الحبيب لا تقدح في الصبر، ثم قال: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد، إنما حصل لكونه أوابًا، وسمعت بعضهم قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ في حق سليمان عليه السلام تارة، وفي حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم في قلوب أمة محمد ﷺ وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ في حق سليمان تشريف عظيم، فإن احتجنا إلى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه، وإن احتجنا إلى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه، فكيف السبيل إلى تحصيله؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] والمراد أنك إن لم تكن ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ فأنا ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٠] وإن كان منك الفضول، فمني الفضل، وإن كان منك التقصير، فمني الرحمة والتيسير.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير: (عبدنا) على الواحد وهي قراءة ابن عباس، ويقول إن قوله:

---

(١) تقدم.

(عبدنا) تشريف عظيم، فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصًا بأعظم الناس المذكورين في هذه الآية وهو إبراهيم وقرأ الباقون: ﴿عِبَادَنَآ﴾ قالوا لأن غير إبراهيم من الأنبياء قد أجري عليه هذا الوصف فجاء في عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وفي أيوب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤] وفي نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فمن قرأ (عبدنا) جعل إبراهيم وحده عطف بيان له، ثم عطف ذريته على (عبدنا) وهي إسحاق ويعقوب، ومن قرأ ﴿عِبَادَنَآ﴾ جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عطف بيان لعبادنا.

المسألة الثانية: تقدير الآية كأنه تعالى قال: فاصبر على ما يقولون واذكر عبادنا داود إلى أن قال: واذكر عبادنا إبراهيم أي واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقي في النار، وصبر إسحاق للذبح، وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره. ثم قال: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، واعلم أن اليد آلة لأكثر الأعمال والبصر آلة لأقوى الإدراكات، فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الإدراك بالبصر. إذا عرفت هذا فنقول: النفس الناطقة الإنسانية لها قوتان عاملة وعالمة، أما القوة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله، وأما القوة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله، وما سوى هذين القسمين من الأعمال والمعارف فكالعبث والباطل، فقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ إشارة إلى هاتين الحالتين.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ قرئ بالتنوين والإضافة فمن نون كان التقدير أخلصناهم أي جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهي ذكرى الدار، ومن قرأ بالإضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار، يعني أن ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله، فالمعنى إنا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر.

المسألة الثانية: في ذكرى الدار وجوه الأول: المراد أنهم استغرقوا في ذكرى الدار الآخرة وبلغوا في هذا الذكر إلى حيث نسوا الدنيا، الثاني: المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم في الدار الآخرة، الثالث: المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل في الدنيا وقبل دعاءهم في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي المختارين من أبناء جنسهم والأخياء جمع خير أو خير على التخفيف كأموات في جمع ميت أو ميت، واحتج العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء قالوا، لأنه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارًا على الإطلاق، وهذا يعم حصول الخيرية في جميع الأفعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الإجمال.

ثم قال: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ وهم قوم آخرون من الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله، وقد ذكرنا الكلام في شرح هذه الأسماء وفي صفات هؤلاء الأنبياء في

سورة الأنبياء وفي سورة الأنعام، فلا فائدة في الإعادة، وههنا آخر الكلام في قصص الأنبياء في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

اعلم أن في قوله: ﴿ذِكْرٌ﴾ وجهين الأول: أنه تعالى إنما شرح ذكر أحوال هؤلاء الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقًا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال، وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر، لا جرم قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما أن المصنف إذا تمم كلامًا قال: هذا باب، ثم شرع في باب آخر، وإذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر قال: هذا وقد كان كيت وكيت، والدليل عليه أنما لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ [ص: ٥٥]الوجه الثاني في التأويل: أن المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام يذكرون به أبدًا، والأول هو الصحيح.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي ﷺ بأن وصفوه بأنه ساحر كذاب، وقالوا له على سبيل الاستهزاء ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦]فعند هذا أمر محمدًا بالصبر على تلك السفاهة، وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين الأول: أنه تعالى لما بين أن الأنبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد، فيجب عليك أن تقتدي بهم في هذا المعنى، الثاني: أنه تعالى بين في هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا، وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى، وهذا نظم حسن وترتيب لطيف.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ المآب المرجع. واحتج القائلون بقدم الأرواح بهذه الآية، وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع، ووجه الاستدلال أن لفظ الرجوع إنما يصدق لو كانت هذه الأرواح موجودة قبل الأجساد، وكانت في حضرة جلال الله ثم تعلقت بالأبدان، فعند انفصالها عن الأبدان يسمى ذلك رجوعًا وجوابه: أن هذا إن دل فإنما يدل على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان، ولا يدل على قدم الأرواح.

ثم قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ وهو بدل من قوله: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ثم قال: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تأويل هذا اللفظ وجوهًا الأول: قال الفراء: معناه مفتحة لهم

أبوابها، والعرب تجعل الألف واللام خلفًا من الإضافة، تقول العرب: مررت برجل حسن الوجه، فالألف واللام في الوجه بدل من الإضافة، والثاني: قال الزجاج: المعنى: (مفتحة لهم الأبواب) منها، الثالث: قال صاحب (الكشاف): ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ بدل من الضمير، وتقديره مفتحة هي الأبواب، كقولك: ضرب زيد اليد والرجل، وهو من بدل الاشتمال.

المسألة الثانية: قرئ: (جنات عدن مفتحة) بالرفع على تقدير أن يكون قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ مبتدأ و﴿مُّفَتَّحَةً﴾ خبره، وكلاهما خبر مبتدأ محذوف، أي هو (جناتُ عَدنٍ مُفتَّحةٌ لهم).

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء الأول: أحوال مساكنهم، فقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يدل على أمرين أحدهما: كونها جنات وبساتين والثاني: كونها دائمة آمنة من الانقضاء.

وفي قوله: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ وجوه الأول: أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام، فيدخل كذلك محفوفًا بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. الثاني: أن تلك الأبواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم، وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم، الثالث: المراد من هذا الفتح، وصف تلك المساكن بالسعة، ومسافرة العيون فيها، ومشاهدة الأحوال اللذيذة الطيبة.

ثم قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: أنه تعالى ذكر في هذه الآية كونهم متكئين في الجنة، وذكر في سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء، فقال في آية: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦] وقال في آية أخرى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦].

البحث الثاني: قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال قدمت على العامل فيها وهو قوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ والمعنى يدعون في الجنات ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب، والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير، والسبب في ذكر هذا المعنى أن ديار العرب حارة قليلة الفواكه والأشربة، فرغبهم الله تعالى فيه.

ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح، فقال: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وقد سبق تفسيره في سورة والصافات، وبالجملة فالمعنى كونهن قاصرات عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم، وقوله: ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي على سن واحد، ويحتمل كون الجواري أترابًا، ويحتمل كونهن أترابًا للأزواج، قال القفال: والسبب في اعتبار هذه الصفة، أنهن لما تشابهن في الصفة والسن والحلية كان الميل إليهن على السوية، وذلك يقتضي عدم الغيرة.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ يعني أن الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة، ثم إنه تعالى أخبر عن دوام الثواب فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۝٥٨ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ۝٥٩ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ۝٦١ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۝٦٤ ﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين، وصف بعده عقاب الطاغين، ليكون الوعيد مذكورًا عقيب الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال النار أنواعًا فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ وهذا في مقابلة قوله: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩] فبين تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال المتقين، واختلفوا في المراد بالطاغين، فأكثر المفسرين حملوه على الكفار، وقال الجبائي: إنه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارًا أو لم يكونوا كذلك، واحتج الأولون بوجوه الأول: أن قوله: ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ يقتضي أن يكون مآبهم شرًّا من مآب غيرهم، وذلك لا يليق إلا بالكفار، الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وذلك لا يليق إلا بالكفار، لأن الفاسق لا يتخذ المؤمن سخريًا، الثالث: أنه اسم ذم، والاسم المطلق محمول على الكامل، والكامل في الطغيان هو الكافر، واحتج الجبائي على صحة قوله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل في حق صاحب الكبيرة، ولأن كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى، إذا عرفت هذا فنقول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى أن الذين طغوا وكذبوا رسلي لهم شر مآب، أي شر مرجع ومصير، ثم قال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ والمعنى أنه تعالى لما حكم بأن الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ ثم قال: ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وهو كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه وجهان الأول: أنه على التقديم والتأخير، والتقدير هذا حميم وغساق

فليذوقوه، الثاني: أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه، ثم يبتدئ فيقول: حميم وغساق.

المسألة الثانية: الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه الأول: أنه الذي يغسق من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين إذا سال دمعها. وقال ابن عمر هو القيح الذي يسيل منهم يجتمع فيسقونه، الثاني: قيل الحميم يحرق بحره، والغساق يحرق ببرده، وذكر الأزهري: أن الغاسق البارد، ولهذا قيل لليل غاسق لأنه أبرد من النهار، الثالث: أن الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة في المشرق لأنتنت أهل المغرب، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لأنتنت أهل المشرق، الرابع: قال كعب: الغساق عين في جهنم يسيل إليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية.

المسألة الثالثة: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف، قال أبو علي الفارسي الاختيار التخفيف لأنه إذا شدد لم يخل من أن يكون اسمًا أو صفة، فإن كان اسمًا فالأسماء لم تجئ على هذا الوزن إلا قليلاً، وإن كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والأصل أن لا يجوز ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو (وأُخَرُ) بضم الألف على جمع أخرى أي أصناف أخر من العذاب، وهو قراءة مجاهد، والباقون (آخَرُ) على الواحد أي عذاب آخر، أما على قراءة الأولى فقوله: (وأُخَرُ) أي ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق، أي من مثله في الشدة والفظاعة، أزواج أي أجناس، وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر، وأزواج صفة لآخر لأنه يجوز أن يكون ضروبًا أو صفة للثلاثة وهم: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (من شِكْلِه) بالكسر وهي لغة، وأما الغنج فبالكسر لا غير.

واعلم أنه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم الذين كانوا أحباء لهم في الدنيا أولاً، ثم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانيًا، أما الأول: فهو قوله: ﴿هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡ﴾ واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ما حكى بعد هذا من أقوال الأتباع وهو قوله: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾، وقيل: إن قوله: ﴿هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡ﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم، وقوله: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ كلام الرؤساء، وقوله: ﴿هَٰذَا فَوۡجٌ مُّقۡتَحِمٌ مَّعَكُمۡ﴾ أي هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم في الجهل والضلال، ومعنى اقتحم معكم النار أي دخل النار في صحبتكم، والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها، والقحمة الشدة.

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ دعاء منهم على أتباعهم، يقول الرجل لمن يدعو له: مرحبًا، أي

أتيت رحبًا في البلاد لا ضيقًا أو رحبت بلادك رحبًا، ثم يدخل عليه كلمة لا في دعاء السوء، وقوله: ﴿بِهِمْ﴾ بيان للمدعو عليهم أنهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] قالوا أي الأتباع: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ يريدون أن الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقولهم: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم، فإن قيل: ما معنى تقديمهم العذاب لهم؟ قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢] إلا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل: أنتم قدمتموه لنا، فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم، والضمير في قوله: ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله: ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ وقوله: ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: بئس المستقر والمسكن جهنم، ثم قالت الأتباع: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أي مضاعفًا ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: ٣٨] وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨] فإن قيل كل مقدار يفرض من العذاب فإن كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفًا، وإن كان زائدًا عليه كان ظالمًا وإنه لا يجوز. قلنا: المراد منه قوله عليه السلام: «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) والمعنى أنه يكون أحد القسمين عذاب الضلال، والثاني عذاب الإضلال، والله أعلم.

وهاهنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحبابًا لهم في الدنيا، وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعني أن الكفار إذا نظروا إلى جوانب جهنم فحينئذ يقولون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الأشرار، إما بمعنى الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى، أو لأنهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارًا ثم قالوا: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (من الأشرار اتخذناهم) بوصل ألف ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ والباقون بفتحها على الاستفهام، قال أبو عبيد: وبالوصل يقرأ لأن الاستفهام متقدم في قوله: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾، ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخريًا، لأنه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠] فكيف يحسن أن يستفهموا عن شيء علموه؟ أجاب الفراء عنه بأن قال: هذا من الاستفهام الذي معناه التعجيب والتوبيخ، ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشيء المعلوم، أما

---

(١) تقدم.

وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام أنه لا بد من المصير إليه ليعادل قوله: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بأم في قوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ﴾ فإن قيل: فما الجملة المعادلة لقوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ على القراءة الأولى؟ قلنا: إنها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الأبصار.

المسألة الثانية: قرأ نافع (سخريا) بضم السين والباقون بكسرها، وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزء وبالضم هو التذليل والتسخير.

المسألة الثالثة: اختلفوا في نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الإخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم حاضرين لأجل أنهم لحقارتهم تركوا، أو لأجل أنهم زاغت عنهم الأبصار، ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ وأما القراءة على سبيل الاستفهام، فالتقدير لأجل أنا قد اتخذناهم سخريًا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار، أم لأجل أنه زاغت عنهم الأبصار، واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال: إن ذلك الذي حكينا عنهم لحق لا بد وأن يتكلموا به، ثم بين أن الذي حكيناه عنهم ما هو، فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وإنما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصمًا لأن قول الرؤساء: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ وقول الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمدًا ﷺ لما دعا الناس إلى أنه لا إله إلا إله واحد، وإلى أنه رسول مبين من عند الله، وإلى أن القول بالقيامة حق، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب واستهزءوا بقوله، ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين الأول: ليصير ذلك حاملاً لمحمد ﷺ على التأسي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم، والثاني: ليصير ذلك رادعًا للكفار على الإصرار على الكفر والسفاهة وداعيًا إلى قبول الإيمان، ولما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة وهي تقدير التوحيد والنبوة والبعث، فقال: قل يا محمد: إنما أنا منذر ولا بد من الإقرار بأنه ما من إله إلا الله الواحد القهار، فإن الترتيب الصحيح أن نذكر شبهات الخصوم أولاً ويجاب عنها ثم نذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب، فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم، ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب، لأن إزالة ما لا ينبغي مقدمة على إثبات ما ينبغي، وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه، ومن نظر في هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة إلى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم.

أما قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ يعني أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد، وأحوال ثواب من أقرَّ بها، وكما بدأ في أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فكذلك بدأ هاهنا بتقرير التوحيد فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ وفي هذه الكلمة إشارة إلى الدليل الدال على كونه منزهًا عن الشريك والنظير، وبيانه أن الذي يجعل شريكًا له في الإلهية، إما أن يكون موجودًا قادرًا على الإطلاق على التصرف في العالم أو لا يكون كذلك، بل يكون جمادًا عاجزًا.

والأول: باطل لأنه لو كان شريكه قادرًا على الإطلاق لم يكن هو قادرًا قاهرًا، لأن بتقدير أن يريد هو شيئًا ويريد شريكه ضد ذلك الشيء لم يكن حصول أحد الأمرين أولى من الآخر، فيفضي إلى اندفاع كل واحد منهما بالآخر، وحينئذ لا يكون قادرًا قاهرًا بل كان عاجزًا ضعيفًا، والعاجز لا يصلح للإلهية، فقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ إشارة إلى أن كونه قهارًا يدل على كونه واحدًا.

وأما الثاني: وهو أن يقال إن الذي جعل شريكًا له لا يقدر على شيء ألبتة مثل هذه الأوثان، فهذا أيضًا فاسد لأن صريح العقل يحكم بأن عبادة الإله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا، فقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يدل على هذه الدلائل، واعلم أن كونه سبحانه قهارًا مشعر بالترهيب والتخويف، فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ فكونه ربًّا مشعر بالتربية والإحسان والكرم والجود، وكونه غفارًا مشعر بالترغيب، وهذا الموجود هو الذي تجب عبادته، لأنه هو الذي يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه. ونذكر طريقة أخرى في تفسير هذه الآيات، فنقول: إنه تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار، أما كونه واحدًا فهو الذي وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحدًا بكونه قهارًا وقد بينا وجه هذه الدلالة إلا أن كونه قهارًا وإن دل على إثبات الوحدانية إلا أنه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم.

أولها: كونه ربًّا للسموات والأرض وما بينهما وهذا إنما تتم معرفته بالنظر في آثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض والعناصر الأربعة والمواليد الثلاثة، وذلك بحر لا ساحل له فإذا تأملت في آثار حكمته ورحمته في خلق هذه الأشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم.

وثانيها: كونه عزيزًا والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول: هب أنه رب ومربي وكريم إلا أنه غير قادر على كل المقدورات، فأجاب عنه بأنه عزيز أي قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شيء.

وثالثها: كونه غفارًا والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول: هب أنه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك في حق المطيعين المخلصين في العبادة، فأجاب عنه بأن من بقي على الكفر سبعين سنة ثم تاب فإني أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلي ورحمتي جميع ذنوبه وأوصله إلى درجات الأبرار، واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوهًا فيمكن أن يكون المراد أن القول بأن الإله واحد نبأ عظيم، ويمكن أن يقال المراد أن القول بالنبوة نبأ عظيم، ويمكن أن يقال المراد أن القول بإثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم، وذلك لأن هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة في أول السورة ولأجلها أنجز الكلام إلى كل ما سبق ذكره، ويمكن أيضًا أن يكون المراد كون القرآن معجزًا لأن هذا أيضًا قد تقدم ذكره في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد، لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة، وبتقدير أن يكون الإنسان فيها على الباطل وقع في أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية، وصريح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام وأن لا يكتفي بالمساهلة والمسامحة.

أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فاعلم أنه تعالى رغب المكلفين في الاحتياط في هذه المسائل الأربعة، وبالغ في ذلك الترغيب من وجوه: الأول: أن كل واحد منها نبأ عظيم، والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه، الثاني: أن الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه أنه تعالى لما قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]والمعنى أنهم قالوا: أي فائدة في خلق البشر مع أنهم يشتغلون بقضاء الشهوة، وهو المراد من قوله: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ وبإمضاء الغضب وهو المراد من قوله: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وتقرير هذا الجواب، والله أعلم، أن يقال إن المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة: أحدها: الذين حصل لهم العقل والحكمة، ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط، ثانيها: الذين حصل لهم النفس والشهوة، ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهي البهائم، وثالثها: الأشياء الخالية عن القسمين، وهي الجمادات، وبقي في التقسيم قسم رابع: وهو الذي حصل فيه الأمران وهو الإنسان والمقصود من تخليق الإنسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فإن كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة، فقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن هذا النوع من المخلوقات، وإن حصلت فيه الشهوة الداعية إلى الفساد والغضب الحامل له على

سفك الدماء، لكن حصل فيه العقل الذي يدعوه إلى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة، وإذا ثبت أنه تعالى إنما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الإنسان أن يسعى في تحصيل هذه الصفات، وأن يجتهد في اكتسابها، وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والإصرار والتكبر، وإذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعيًا له إلى الجد والاجتهاد في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة زاجرًا له عن أضدادها ومقابلاتها، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام في هذا المقام. فإن قيل: الملائكة لا يجوز أن يقال إنهم اختصموا بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فإن المخاصمة مع الله كفر، قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه، ولما أمر الله تعالى محمدًا ﷺ لم يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني أنا ما عرفت هذه المخاصمة إلا بالوحي، وإنما أوحى الله إليّ هذه القصة لأنذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الإخلاص في الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار إنما نازعوا محمدًا عليه السلام بسبب الحسد والكبر، فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرًا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد وذكر في تقريره أمورًا أربعة أولها: أنه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه، والثاني: أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر، الثالث: أن إبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد

والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات، واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة، فلا فائدة في الإعادة إلا ما لا بد منه.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ **سؤالات:**

الأول: أن هذا النظم إنما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين، كما إذا قيل أنا متخذ سوارًا من ذهب، فهذا إنما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة.

الثاني: ذكر هاهنا أنه خلق البشر من طين، وفي سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الأشياء كقوله تعالى في آدم إنه خلقه من تراب وكقوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وكقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

الثالث: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشرًا من طين، لم يقولوا شيئًا، وفي الآية الأخرى وهي التي قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض، والجواب عن الأول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولاً أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية، فلما قال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات، إنما أخلقه من الطين، والجواب عن الثاني أن المادة البعيدة هو التراب، وأقرب منه الطين، وأقرب منه الحمأ المسنون، وأقرب منه الصلصال فثبت أنه لا منافاة بين الكل، والجواب عن الثالث أنه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين لهم أنه يخلق في الأرض خليفة، وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين.

المسألة الثانية: قال ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين التسوية أولاً، ثم نفخ الروح ثانيًا، وهذا حق لأن الإنسان مركب من جسد ونفس.

أما الجسد فإنه إنما يتولد من المني، والمني إنما يتولد من دم الطمث وهو إنما يتولد من الأخلاط الأربعة، وهي إنما تتولد من الأركان الأربعة، ولا بد في حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها، ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركيباتها، ومن رعاية المدة التي في مثلها حصل ذلك المزاج الذي لأجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة.

وأما النفس فإليها الإشارة بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي، وذهبت الحلولية إلى أن كلمة (مِنْ) تدل على التبعيض، وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى، وهذا غاية الفساد، لأن كل ما له جزء وكل، فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث.

وأما كيفية نفخ الروح، فاعلم أن الأقرب أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية، علوية العنصر، قدسية الجوهر، وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء، وسريان النار في

الفحم، فهذا القدر معلوم. أما كيفية ذلك النفخ فمما لا يعلمه إلا الله تعالى.

المسألة الثالثة: الفاء في قوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ تدل على أنه كما تم نفخ الروح في الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود، وأما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض، أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل، والروح الأعظم المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] ففيه مباحث عميقة. وقال بعض الصوفية: الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم، هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية، فإنها في بدن الإنسان خوادم النفس الناطقة، وإبليس الذي لم يسجد هو القوة الوهمية التي هي المنازعة لجوهر العقل، والكلام فيه طويل. وأما بقية المسائل وهي: كيفية سجود الملائكة لآدم، وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا، وأن إبليس هل كان من الملائكة أم لا، وأنه هل كان كافرًا، أصليًا أم لا، فكل ذلك تقدم في سورة البقرة وغيرها.

المسألة الرابعة: احتج من أثبت الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ في إثبات يدين لله تعالى، بأن قالوا: ظاهر الآية يدل عليه، فوجب المصير إليه، والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية، فوجب القطع به.

واعلم أن الدلائل الدالة على نفي كونه تعالى جسمًا مركبًا من الأجزاء والأعضاء، قد سبقت إلا أنا نذكر ههنا نكتًا جارية مجرى الإلزامات الظاهرة فالأول: أن من قال: إنه مركب من الأعضاء والأجزاء، فإما أن يثبت الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها، وإما أن يزيد عليها، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح، لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] ويلزمه أن يثبت في تلك الرقعة عيونًا كثيرة لقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وأن يثبت جنبًا واحدًا لقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] وبتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ: «**الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ**» وأن يثبت له ساقًا واحدًا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] فيكون الحاصل من هذه الصورة، مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة، وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد، ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور، ولو كان هذا عبدًا لم يرغب أحد في شرائه، فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة.

وأما القسم الثاني: وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة في القرآن، بل يزيد وينقص على وفق التأويلات، فحينئذ يبطل مذهبه في الحمل على مجرد الظواهر، ولا بد له من قبول دلائل العقل.

الحجة الثانية: في إبطال قولهم إنهم إذا أثبتوا الأعضاء لله تعالى، فإن أثبتوا له عضو الرجل فهو

رجل وأن أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى، وإن نفوهما فهو خصي أو عنين، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

الحجة الثالثة: أنه في ذاته سبحانه وتعالى، إما أن يكون جسمًا صلبًا لا ينغمز ألبتة، فيكون حجرًا صلبًا، وإما أن يكون قابلاً للانغماز، فيكون لينًا قابلاً للتفرق والتمزق. وتعالى الله عن ذلك.

الحجة الرابعة: أنه إن كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه، كان كالزمن المعقد العاجز، وإن كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه، كان محلاً للتغيرات، فدخل تحت قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

الحجة الخامسة: إن كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت، وإن كان يفعل هذه الأشياء، كان إنسانًا كثير التهمة محتاجًا إلى الأكل والشرب والوقاع وذلك باطل.

الحجة السادسة: أنهم يقولون إنه ينزل كل ليلة من العرش إلى السماء الدنيا، فنقول لهم حين نزوله: هل يبقى مدبرًا للعرش ويبقى مدبرًا للسماء الدنيا حين كان على العرش، وحينئذ لا يبقى في النزول فائدة، وإن لم يبق مدبرًا للعرش فعند نزوله يصير معزولاً عن إلهية العرش والسموات.

الحجة السابعة: أنهم يقولون إنه تعالى أعظم من العرش، وإن العرش لا نسبة لعظمته إلى عظمة الكرسي، وعلى هذا الترتيب حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فإذا كان كذلك كانت السماء الدنيا بالنسبة إلى عظمة الله كالذرة بالنسبة إلى البحر، فإذا نزل فإما أن يقال إن الإله يصير صغيرًا بحيث تسعه السماء الدنيا، وإما أن يقال إن السماء الدنيا تصير أعظم من العرش، وكل ذلك باطل.

الحجة الثامنة: ثبت أن العالم كرة، فإن كان فوق بالنسبة إلى قوم كان تحت بالنسبة إلى قوم آخرين وذلك باطل، وإن كان فوق بالنسبة إلى الكل، فحينئذ يكون جسمًا محيطًا بهذا العالم من كل الجوانب، فيكون إله العالم على هذا القول فلكًا من الأفلاك.

الحجة التاسعة: لما كانت الأرض كرة، وكانت السموات كرات، فكل ساعة تفرض الساعات فإنها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض، فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبدًا نازلاً عن العرش، وأن لا يرجع إلى العرش ألبتة.

الحجة العاشرة: أنا إنما زيفنا إلهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب أولها: كونه مؤلفًا من الأجزاء والأبعاض، وثانيها: كونه محدودًا متناهيًا، وثالثها: كونه موصوفًا بالحركة والسكون والطلوع والغروب، فإذا كان إله المشبهة مؤلفًا من الأعضاء والأجزاء كان مركبًا، فإذا كان العرش كان محدودًا متناهيًا، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفًا بالحركة والسكون، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافية للإلهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها، وذلك

يبطل قول المشبهة، وإن لم تكن منافية للإلهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن في إلهية الشمس والقمر.

الحجة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] ولفظ الأحد مبالغة في الوحدة، وذلك ينافي كونه مركبًا من الأجزاء والأبعاض.

الحجة الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] ولو كان مركبًا من الأجزاء والأبعاض لكان محتاجًا إليها وذلك يمنع من كونه غنيًّا على الإطلاق، فثبت بهذه الوجوه أن القول بإثبات الأعضاء والأجزاء لله محال، ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى، عن هذه الأعضاء، فنقول ذكر العلماء في لفظ اليد وجوهًا الأول: أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب: ما لي بهذا الأمر من يد، أي من قوة وطاقة، قال تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] الثاني: اليد عبارة عن النعمة يقال: أيادي فلان في حق فلان ظاهرة، والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا، الثالث: أن لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان، هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ولقائل أن يقول: حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز، ويدل عليه وجوه الأول: أن ظاهر الآية يقتضي إثبات اليدين، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم إثبات قدرتين لله وهو باطل، والثاني: أن الآية تقتضي أن كون آدم مخلوقًا باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجودًا للملائكة، فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقًا بالقدرة، لكن جميع الأشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى، فكذلك إبليس مخلوق بيد الله تعالى، وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة، لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجودًا لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجودًا لآدم، وحينئذٍ يختل نظم الآية ويبطل، الثالث: أنه جاء في الحديث أنه ﷺ قال: «كِلْتَا يَدَيْهِ يُمْنَى» (١) ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة.

وأما التأويل الثاني: وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضًا باطل لوجوه الأول: أن نعم الله تعالى كثيرة كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الاثنتين الثاني: لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذٍ لا يكون آدم مخلوقًا لله تعالى بل يكون مخلوقًا لبعض المخلوقات، وذلك بأن يكون سببًا لمزيد النقصان أولى من أن يكون سببًا لمزيد الكمال، الثالث: لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الإمارة)، باب: (فضيلة الإمام العادل) (٣/ ١٨/ ١٤٥٨)، والنسائي في كتاب (آداب القضاة)، باب: (فضل الحاكم العادل في حُكمه) (٤/ ٦٠٣)، حديث رقم (٥٣٩٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٠)، حديث رقم (٦٤٩٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٢٦٨)، حديث رقم (٥٨٨)، جميعًا عن عمرو بن أوس... به.

قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] معناه تبارك الذي بنعمته الملك ولكان قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] معناه بنعمتك الخير ولكان قوله: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] معناه نعمتاه مبسوطتان، ومعلوم أن كل ذلك فاسد.

وأما التأويل الثالث: وهو قوله: إن لفظ اليد قد يذكر زيادة لأجل التأكيد، فنقول: لفظ اليد قد يستعمل في حق من يكون هذا العضو حاصلاً له وفي حق من لا يكون هذا العضو حاصلاً في حقه، أما الأول: فكقولهم في حق من جنى بلسانه: هذا ما كسبت يداك، والسبب في هذا أن محل القدرة هو اليد فأطلق اسم اليد على القدرة، وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة، وقد تقدم إبطال هذا الوجه، وأما الثاني: فكقوله ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وقوله: (بين يدي الساعة) إلا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطردًا، فلا جرم لا يجوز أن يقال إن هذا المعنى إنما حصل بيد العذاب وبيد الساعة، ونحن نسلم أن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة، أما المذكور في هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وإن كان القياس في المجازات باطلاً فقد سقط كلامكم بالكلية، فهذا منتهى البحث في هذا الباب.

والذي تلخص عندي في هذا الباب أن السلطان العظيم لا يقدر على عمل شيء بيده إلا إذا كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل، فإذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازًا عنه عند قيام الدلائل القاهرة. فهذا ما لخصناه في هذا الباب، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ فالمعنى: أستكبرت الآن أم كنت أبدًا من المتكبرين العالين، فأجاب إبليس بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فالمعنى أني لو كنت مساويًا له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه، ثم بين كونه خيرًا منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين، فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيرًا من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: أن إبليس مخلوق من النار، يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

المقدمة الثانية: أن النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه الأول: أن الأجرام الفلكية أشرف من الأجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والأرض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الأرض، الثاني: أن النار خليفة الشمس والقمر في إضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الأرض، فخليفتهما في الإضاءة أفضل من الأرض، الثالث: أن الكيفية الفاعلة الأصلية، إما الحرارة أو البرودة والحرارة أفضل من البرودة لأن الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت، الرابع: الأرض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة، الخامس: النار مشرقة والأرض مظلمة والنور خير من الظلمة، السادس: النار خفيفة تشبه الروح

والأرض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الأرض ولذلك فإن الأطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الأجساد وأن العنصرين الخفيفين أعون على تولد الأرواح، السابع: النار صاعدة والأرض هابطة والصاعد أفضل من الهابط، الثامن: أن أول بروج الفلك هو الحمل لأنه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي، ثم إن الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان والقلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي، التاسع: أن الأجسام الأرضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالأرض كانت أخس، مثاله الأجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والأحجار الصافية النورانية ومثاله أيضًا من الثياب الإبريسم وما يتخذ منه، وأما أن كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالأمر ظاهر، العاشر: أن القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها إلا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار، الحادي عشر: أن أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك أنه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره، الثاني عشر: أن النضج والهضم والحياة لا تتم إلا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولدت المركبات، الثالث عشر: أن أقوى العناصر الأربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الانفعال هو الأرض والفعل فضل من الانفعال فالنار أفضل من الأرض. أما القائلون بتفضيل الأرض على النار فذكروا أيضًا وجوهًا، الأول: أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته إليها، الثاني: أن الحس البصري أثنى على النار فليستمع ما يقوله الحس اللمسي، الثالث: أن الأرض مستولية على النار فإنها تطفئ النار، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة.

وأما المقدمة الثالثة: فهي أن من كان أصله خيرًا من أصله فهو خير منه، فاعلم أن هذه المقدمة كاذبة جدًّا وذلك لأن أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والأشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد، وأيضًا فهب أن اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضًا بجهة أخرى توجب الرجحان مثل إنسان نسيب عار عن كل الفضائل فإن نسبه يوجب رجحانه، إلا أن الذي لا يكون نسيبًا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها، فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره إبليس هو هذه المقدمة، فإن قال قائل: هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة؟ وبيان هذا السؤال من وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿ٱسْجُدُوا﴾ أمر والأمر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلاً عن الكفر، وأيضًا فالذين يقولون: إن الأمر للوجوب، فهم لا ينكرون كونه محتملاً للندب احتمالاً ظاهرًا ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر.

الثاني: هب أنه للوجوب إلا أن إبليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه إبليس.

الثالث: هب أنه يتناوله إلا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس، الرابع: هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورًا به إلا أن هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر؟ الجواب: هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم إليها من القرائن ما يدل على الوجوب، وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ فلما أتى إبليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه إنما ذكر ذلك القياس ليتوسل به إلى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر. إذا عرفت هذا فنقول: إن إبليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

واعلم أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيمًا ورد عقيب ما حكى عنه أنه خصص النص بالقياس، فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم، وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ أي من الجنة أو من السموات، والرجيم المرجوم وفيه قولان:

القول الأول: أنه مجاز عن الطرد، لأن الظاهر أن من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فإن قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله: ﴿رَجِيمٌ﴾ على الطرد لكان قوله بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ تكرارًا والجواب من وجهين الأول: أنا نحمل الرجم على الطرد من الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله، والثاني: أنا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ على أن ذلك الطرد يمتد إلى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريرًا.

والقول الثاني: في تفسير الرجيم أن نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب، والله أعلم. فإن قيل: كلمة (إلى) لانتهاء الغاية فقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين، أجاب صاحب (الكشاف) بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فإذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية.

واعلم أن إبليس لما صار ملعونًا قال: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: إنما طلب الإنظار إلى يوم يبعثون لأجل أن يتخلص من الموت لأنه إذا نظر إلى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضًا فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ومعناه إنك من المنظرين إلى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه، فقال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ وهو قسم بعزة الله وسلطانه ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فههنا أضاف الإغواء إلى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[الحجر: ٣٩] فأضاف الإغواء إلى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على أنه متحير في هذه المسألة.

وأما قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

ففيه فوائد:

الفائدة الأولى: قيل: غرض إبليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لأنه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى أنه يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن إغواء عباد الله الصالحين، فكأن إبليس قال: إنما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب في هذا الكلام، وعن هذا يقال: إن الكذب شيء يستنكف منه إبليس فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه؟ فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]؟ قلنا: إن إبليس لم يقل إني لم أقصد إغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وإن كان يقصد الإغواء إلا أنه لا يغويهم.

الفائدة الثانية: هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين، وقال تعالى في صفة يوسف: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]فنصل من مجموع هاتين الآيتين أن إبليس ما أغوى يوسف عليه السلام، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف عليه السلام من القبائح.

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة ﴿فَالْحَقُّ﴾ بالرفع ﴿وَالْحَقَّ﴾ بالنصب، والباقون بالنصب فيهما؛ أما الرفع فتقديره فالحق قسمي، وأما النصب فعلى القسم، أي فبالحق، كقولك والله لأفعلن. وأما قوله: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ انتصب قوله: ﴿وَالْحَقَّ﴾ بقوله: ﴿أَقُولُ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِنكَ﴾ أي من جنسك، وهم الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم، فإن قيل قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لماذا؟ قلنا: يحتمل أن يؤكد به الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾، أو الكاف في ﴿مِنكَ﴾ مع من تبعك، ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدًا.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة أن الكل بقضاء الله من وجوه الأول: أنه تعالى قال في حق إبليس: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن، فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذبًا وهو محال، فكان صدور الإيمان منه محالاً مع أنه أمر به، والثاني: أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فالله تعالى علم منه أنه يغويهم، وسمع منه هذه الدعوى، وكان قادرًا على منعه عن ذلك، والقادر على المنع إذا لم يمنع كان راضيًا به، فإن قالوا: لعل ذلك المنع مفسد، قلنا: هذا قول فاسد، لأن ذلك المنع

يخلص إبليس عن الإضلال، ويخلص بني آدم عن الضلال، وهذا عين المصلحة، الثالث: أنه تعالى أخبر أنه يملأ جهنم من الكفرة، فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل في حق الله تعالى، الرابع: أنه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الأنبياء والصالحين، وأن يميت إبليس والشياطين، وحيث قلب الأمر علمنا أنه فاسد، الخامس: أن تكليف أولئك الكفار بالإيمان، يقتضي تكليفهم بالإيمان بهذه الآيات التي هي دالة على أنهم لا يؤمنون ألبتة، وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون ألبتة، وذلك تكليف بما لا يطاق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾

اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقًا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين، ثم قال عند الختم: هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظر في حال الداعي، وفي حال الدعوة ليظهر أنه حق أو باطل؛ أما الداعي وهو أنا فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرًا ومالاً، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال ألبتة، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيدًا عن الدنيا عديم الرغبة فيها، وأما كيفية الدعوة فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله أولاً، ثم أدعوكم ثانيًا إلى تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به، يقوي ذلك قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وأمثاله، ثم أدعوكم ثالثًا إلى الإقرار بكونه موصوفًا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة، ثم أدعوكم رابعًا إلى الإقرار بكونه منزهًا عن الشركاء والأضداد، ثم أدعوكم خامسًا إلى الامتناع عن عبادة هذه الأوثان، التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها، ثم أدعوكم سابعًا إلى الإقرار بالبعث والقيامة: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ثم أدعوكم ثامنًا إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، فهذه الأصول الثمانية، هي الأصول القوية المعتبرة في دين الله تعالى، ودين محمد ﷺ وبدائه العقول، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم، فإنه يشهد بصحتها وجلالتها، وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. ولما بين هذه المقدمات قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ والمعنى أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد، وأبيتم قبول هذه البيانات التي ذكرناها، فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض أو مخطئين، وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب، والله أعلم.

قال المصنف رحمة الله عليه: تم تفسير هذه السورة يوم الخميس في آخر الثلاثاء الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله على آلائه ونعمائه، والصلاة على المطهرين من عباده في أرضه وسمائه، والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه، والتعظيم التام لأنبيائه وأوليائه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

سورة صٓ

مكيةٌ في قول الجميع[١]، وهي ستٌّ وثمانون آية. وقيل: ثمان وثمانون آية[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ① بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ② كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ③﴾

قوله تعالى: ﴿صٓ﴾ قراءةُ العامة «صٓ» بجزم الدال على الوقف؛ لأنه حرفٌ من حروف الهجاء مثل: «الم» و«المر». وقرأ أبيّ بن كعب والحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «صادِ» بكسر الدال بغير تنوين[٣]. ولقراءته مذهبان: أحدهما: أنه من صادَى يُصادي إذا عارض، ومنه «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» [عبس:٦] أي: تعرَّض. والمصاداة المعارضة، ومنه الصَّدَى: وهو ما يُعارض الصوت في الأماكن الخالية.

فالمعنى: صادِ القرآنَ بعملك؛ أي: عارضه بعملك وقابله به، فاعمل بأوامره، وانتهِ عن نواهيه.

النحاس[٤]: وهذا المذهب يُروى عن الحسن أنه فسَّر به قراءته روايةً صحيحةً عنه[٥]، أن المعنى: أُتْله وتعرَّض لقراءته. والمذهب الآخرُ أن تكونَ الدالُ مكسورةً لالتقاء الساكنين. وقرأ عيسى بن عمر «صادَ» بفتح الدال[٦] مثله: «قافَ» و«نونَ» بفتح

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٩٦.

(٢) ذكرهما السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤٩.

(٥) في النسخ: وعنه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، وقول الحسن أخرجه الطبري ٢٠/ ٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠.

آخرها. وله في ذلك ثلاثةُ مذاهب: أحدهنَّ أن يكون بمعنى: اتْلُ صادَ[١]. والثاني: أن يكون فُتِحَ لالتقاء الساكنين، واختار الفتحَ للإتباع، ولأنه أخفُّ الحركات. والثالث: أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف؛ كقولك: اللهَ لأفعلنَّ، وقيل: نُصب على الإغراء.

وقيل: معناه: صادَ محمدٌ قلوب الخَلْق واستمالها حتى آمنوا به[٢].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: «صادٍ» بكسر الدال والتنوين على أن يكون مخفوضاً على حذف حرف القسَم، وهذا بعيدٌ، وإن كان سيبويه قد أجاز مثلَه. ويجوز أن يكون مشبهاً بما لا يتمكن من الأصوات وغيرها[٣].

وقرأ هارونُ الأعور ومحمد بن السَّمَيْفَع: «صادُ» و«قافُ»[٤] [ق: ١] و«نونُ»[٥] [القلم: ١] بضمِّ آخرِهن؛ لأنه المعروفُ بالبناء في غالب الحال، نحو: منذُ وقط وقبلُ وبعدُ.

و«صَ» إذا جعلته اسماً للسورة لم ينصرف؛ كما أنك إذا سمَّيتَ مؤنثاً بمذكر لا ينصرف وإن قلَّتْ حروفه[٦].

وقال ابن عباس وجابر بن عبد الله وقد سُئلا عن «صَ» فقالا: لا ندري ما هي[٧]. وقال عكرمة: سأل نافعُ بن الأزرق ابنَ عباس عن «صَ» فقال: «صَ» كان بحراً بمكة، وكان عليه عرشُ الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال سعيد بن جُبير: «صَ» بحر يُحيي اللهُ به الموتى بين النَّفختين[٨].

---

(١) قوله: صاد، ليس في (م).

(٢) زاد المسير ٧/ ٩٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩ و١٤٤ ونسبها للحسن.

(٥) زاد المسير ٨/ ٣٢٦، وستأتي في موضعها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠.

(٧) أخرجه عبد بن حُميد كما في الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

(٨) أورد هذا الخبر والذي قبله الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦١، ثم قال: الله أعلم بصحة هذين =

وقال الضحاك: معناه: صدق الله[١]. وعنه: أن «صَ» قسمٌ أقسم اللهُ به، وهو من أسمائه تعالى. وقاله السدي، ورُوي عن ابن عباس[٢]. وقال محمد بن كعب: هو مفتاحُ أسماء[٣] الله تعالى: صمدٌ، وصانعُ المصنوعات، وصادقُ الوعد.

وقال قتادة: هو اسمٌ من أسماء الرحمن. وعنه أنه اسمٌ من أسماء القرآن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة[٤].

وقيل: هو مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، وهو معنى القول الأوّل. وقد تقدَّم جميعُ هذا في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ خفض بواو القسم، والواو بدل من الباء[٦]؛ أقسم بالقرآن تنبيهاً على جلالة قدره؛ فإنَّ فيه بيانَ كل شيء، وشفاءً لما في الصدور، ومعجزةً للنبيِّ ﷺ.

﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ خفض على النعت، وعلامة خفضه الياء، وهو اسم معتلٌّ، والأصل فيه: ذَوَي على فَعَل[٧].

قال ابن عباس: ومقاتل: معنى «ذِي الذِّكْرِ»: ذي البيان[٨]. الضحاك: ذي

= الخبرين. ونافع بن الأزرق من رؤوس الخوارج له أسئلة عن ابن عباس أخرج الطبراني بعضها في المعجم الكبير. لسان الميزان ٦/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦ .

(٣) في النسخ الخطية: اسم، والمثبت من (م) .

(٤) هذه الأقوال في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٧٣ .

(٥) ١/ ٢٣٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٠ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٧٥، وزاد المسير ٧/ ٩٨ عن قتادة، وفيهما وفي تفسير الطبري ٢٠/ ٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩١ أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: معناه: ذي الشرف .

الشرف[١]، أي: مَن آمنَ به كان شرفاً له في الدارين؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم. وأيضاً القرآنُ شريفٌ في نفسه، لإعجازه واشتماله على ما لا يشتمل عليه غيره.

وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذِكرُ ما يُحتاج إليه من أمر الدين. وقيل: «ذِي الذِّكْرِ» أي: فيه ذكرُ أسماء الله وتمجيده[٢]. وقيل: أي: ذي الموعظة والذِّكر.

وجوابُ القسم محذوفٌ. واختلف فيه على أوجه: فقيل جوابُ القسم «صَ»؛ لأن معناه: حقّ، فهي جواب لقوله: «وَالْقُرآنِ» كما تقول: حقّاً واللهِ، نزل واللهِ، وجب واللهِ؛ فيكون الوقفُ من هذا الوجه على قوله: «وَالْقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ» حسَناً، وعلى «في عِزَّةٍ وَشِقَاق» تماماً؛ قاله ابن الأنباري[٣]. وحكى معناه الثعلبي عن الفراء[٤].

وقيل: الجواب ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ لأن «بل» نفيٌ لأمر سبقَ وإثباتٌ لغيره؛ قاله القتبيّ[٥]؛ فكأنه قال: «والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ بَل الذين كَفَرُوا في عِزَّة وشِقاق» عن قَبول الحقّ وعداوة لمحمد ﷺ. أو «وَالْقُرْآنِ ذي الذِّكْرِ» ما الأمرُ كما يقولون من أنك ساحرٌ كذّاب؛ لأنهم يعرفونك بالصِّدق والأمانة، بل هم في تكبُّر عن قَبول الحقّ. وهو كقوله: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ [ق: ١-٢].

وقيل: الجواب «كَمْ أَهْلَكْنا» كأنه قال: والقرآنِ، لَكَمْ أهلكنا؛ فلما تأخّرت «كَمْ» حُذفت اللام منها؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ثم قال: «قَدْ أَفْلَحَ» أي: لقد

---

(١) هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما كما ذكرنا في التعليق السابق، وفي المصادر أن الضحاك قال: معناه: ذي التذكير.

(٢) مجمع البيان ٢٣/ ٩٦ بنحوه.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٦.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص٤٠٨ بنحوه.

أفلحَ. قال المهدوي: وهذا مذهبُ الفراء[١].

ابن الأنباري[٢]: فمن هذا الوجه لا يتمّ الوقف على قوله: «في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ».

وقال الأخفش[٣]: جواب القسم ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤] ونحو منه قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:٩٧] وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق:١ و٤]. ابن الأنباري[٤]: وهذا قبيحٌ؛ لأن الكلامَ قد طال فيما بينهما وكَثُرت الآياتُ والقصص.

وقال الكسائي[٥]: جوابُ القسم قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤]. ابن الأنباري[٦]: وهذا أقبحُ من الأوّل؛ لأن الكلامَ أشدُّ طولاً فيما بين القسم وجوابِه.

وقيل: الجواب قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص:٥٤]. وقال قتادة: الجوابُ محذوفٌ تقديره «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» لَتُبعثُنَّ، ونحوه.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ أي: في تكبُّر وامتناع من قَبول الحق؛ كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦] والعِزَّة عند العرب: الغَلَبة والقَهْر. يقال: مَن عَزَّ بَزَّ[٧]؛ يعني: مَن غَلَب سَلَب. ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] أراد: غَلَبني.

وقال جرير:

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧، وينظر زاد المسير ٧/ ٩٩.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠.

(٣) في معاني القرآن ٢// ٦٧٠.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٠.

(٥) ذكره عنه البغوي في تفسيره ٤/ ٤٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٩٩.

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦١.

(٧) ذكره الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧، والزمخشري في المستقصى ٢/ ٣٥٧.

يَـعُـزُّ عـلـى الـطـريـق بِـمَـنْـكِـبـيـهِ   كـمـا ابـتَـرَكَ الـخـلِـيـعُ عـلـى الـقِـداحِ[١]

أراد: يغلب. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: في إظهارِ خلافٍ ومُباينة. وهو من الشَّق، كأنّ هذا في شَقّ وذلك في شَقّ. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[٢].

قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من قومٍ كانوا أمنعَ من هؤلاء. و«كم» لفظة التكثير ﴿فَنَادَوا﴾ أي: بالاستغاثة والتوبة. والنِّداء رفع الصوت، ومنه الخبر: «أَلْقِهِ على بلالٍ، فإنه أَنْدى منك صوتاً»[٣] أي: أرفع.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال الحسن: نادَوْا بالتوبة وليس حين التوبة ولا حين ينفع العمل. النحاس[٤]: وهذا تفسيرٌ منه لقوله عز وجل: «ولات حين مَناصٍ» فأما إسرائيل فروى عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس «ولاتَ حين مَناص» قال: ليس بحين نَزْو ولا فِرار؛ قال: ضَبِط القومُ جميعاً[٥].

قال الكلبي: كانوا إذ قاتلوا فاضطُرُّوا قال بعضهم لبعض: مناص؛ أي: عليكم بالفِرار والهزيمة، فلما أتاهم العذابُ قالوا: مناص؛ فقال الله عز وجل: «ولاتَ حين مَنَاص».

قال القشيري: وعلى هذا فالتقدير: فنادَوا: مَناص، فحذف لدلالة بقيةِ الكلام عليه؛ أي: ليس الوقتُ وقتَ ما تُنادون به. وفي هذا نوع تحكُّم؛ إذْ يَبْعُدُ أن يقال: كلُّ مَن هلك من القرون كانوا يقولون: مناص عند الاضطرار.

وقيل: المعنى «ولاتَ حين مَناص» أي: لا خلاص، وهو نصب بوقوع «لا» عليه. قال القشيري: وفيه نظر؛ لأنه لا معنى على هذا للواو في «ولاتَ حينَ مَناصٍ».

---

(١) ديوان جرير ١/ ٨٨.

(٢) ٢/ ٤١٩.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٧٨)، وأبو داود (٤٩٩) من حديث عبد الله بن زيد ﷺ.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠، وما قبله منه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣. والنَّزو: الوثوب. اللسان (نزو).

وقال الجُرجاني[١]: أي: فنادَوا حين لا مناص، أي: ساعةَ لا مَنْجى ولا فوت. فلما قدَّم «لا» وأخَّر «حين» اقتضى ذلك الواو، كما يقتضي الحال إذا جعل ابتداء وخبراً؛ مثل قولك: جاء زيد راكباً؛ فإذا جعلتَه مبتدأ وخبراً اقتضى الواو مثل: جاءني زيد وهو راكب فـ «حين» ظرف لقوله: «فَنَادَوْا». والمَناص بمعنى التأخّر والفرار والخَلاص؛ أي: نادَوا لطلب الخَلاص في وقتٍ لا يكون لهم فيه خلاص. قال الفرّاء:

أَمِنْ ذكر ليلى إذ نَأتْكَ تَنُوصُ[٢]

يقال: ناص عن قِرْنه يَنُوص نَوْصاً ومَناصاً، أي: فَرَّ وراغ. النحاس[٣]: ويقال: ناص ينوص إذا تقدَّم.

قلت: فعلى هذا يكون من الأضداد، والنَّوْص الحمار الوحشيّ. واستناص، أي: تأخَّر؛ قاله الجوهري[٤].

وتكلَّم النحويون في «ولاتَ حينَ» وفي الوقف عليه، وكثَّر فيه أبو عُبيد[٥] القاسم ابن سلَّام في كتاب «القراءات» وكلُّ ما جاء به إلا يسيراً مردودٌ. فقال سيبويه[٦]: «لات» مُشبَّهة بليس والاسم فيها مضمر؛ أي: ليست أحيانُنا حينَ مناص. وحكَى أن من العرب من يرفع بها فيقول: ولات حِينُ مناص. وحكَى أن الرفعَ قليلٌ، ويكون

(١) ذكره عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٣٥٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (نوص)، وما بعده منه، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٧٧، وفيه سلمى، بدل: ليلى. وعجزه: فتقصُرُ عنها خطوة أو تبوصُ.

(٣) إعراب القرآن ٣/ ٤٥٠.

(٤) في الصحاح (نوص).

(٥) في (م): أبو عبيدة، وهو خطأ.

(٦) في الكتاب ١/ ٥٧ - ٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥١، وما قبله وما بعده منه.

الخبرُ محذوفاً، كما كان الاسم محذوفاً في النصب؛ أي: ولات حينُ مناصٍ لنا. والوقفُ عليها عند سيبويه والفراء(١) «ولات» بالتاء، ثم تبتدئ «حينَ مَنَاص» وهو قولُ ابن كيسان والزجاج(٢). قال أبو الحسن بن كيسان: والقول كما قال سيبويه؛ لأنه شبَّهها بليس، فكما يقال: ليست، يقال: لات. والوقوف عليها عند الكسائي بالهاء: ولاهْ. وهو قول المبرد محمد بن يزيد. وحكى عنه علي بن سليمان أن الحُجَّة في ذلك أنها [لا] دخلتْ عليها الهاء لتأنيث الكلمة، كما يقال: ثُمَّة ورُبَّة(٣).

وقال القشيري: وقد يقال: ثُمَّتْ بمعنى: ثُمَّ، ورُبَّتْ بمعنى: رُبَّ؛ فكأنهم زادوا في «لا» هاء، فقالوا: لاه، كما قالوا في ثُمَّ: ثُمَّهْ، عند الوصل صارت تاء.

وقال الثعلبي: وقال أهل اللغة: و«لاتَ حينَ» مفتوحتان كأنهما كلمة واحدة، وإنما هي «لا» زِيدتْ فيها التاء نحو: رُبَّ ورُبَّتْ، وثُمَّ وثُمَّتْ. قال أبو زُبيد الطائي:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولَاتَ أَوَانٍ ... فأَجَبْنَا أنْ ليس حينَ بقَاءِ

وقال آخر:

تذكَّر حُبَّ ليلى لَاتَ حِينا ... وأمسى الشَّيْبُ قد قَطَعَ القَرِينا(٤)

ومِن العرب من يخفض بها؛ وأنشد الفراء:

فَلَتَعْرِفَنَّ خَلَائقاً مَشْمُولَةً ... ولَتَنْدَمَنَّ ولَاتَ ساعةِ مَنْدَمِ(٥)

وكان الكسائي والفراء والخليل وسيبويه والأخفش(٦) يذهبون إلى أن «ولاتَ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٨.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١، وما بين حاصرتين منه.

(٤) البيتان في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧ - ٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والخزانة ٤/ ١٦٩، والبيت الثاني غير منسوب.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧، والذي فيه قوله: ولات ساعةِ مندم. ثم قال الفراء: ولا أحفظ صدره. والبيت بتمامه في الخزانة ٤/ ١٧٤ وقوله: مشمولة، أي: مشؤومة، وأخلاق سوء، كما في الخزانة.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠.

حينَ» التاء منقطعة من حين، ويقولون: معناها: وليست. وكذلك هو في المصاحف الجُدُدِ والعُتُقِ بقطع التاء من حين. وإلى هذا كان يذهب أبو عُبيدة مَعْمَر بن المُثنَّى(١).

وقال أبو عُبيد القاسم بن سلّام: الوقفُ عندي على هذا الحرف «ولا»، والابتداء «تَحِينَ مَنَاص» فتكون التاء مع حين. وقال بعضهم: «لات» ثم يبتدئ فيقول: «حين مناص». قال المهدوي: وذكر أبو عُبيد أن التاء في المصحف متصلة بحين، وهو غلطٌ عند النحويين، وهو خلافُ قول المفسرين. ومن حُجَّة أبي عُبيد أن قال: إنَّا لم نجد العربَ تزيد هذه التاء إلا في حين وأوان والآن؛ وأنشد لأبي وَجْزَةَ السعديّ:

العاطفُون تَحِينَ مامِنْ عاطِف والمُطْعِمون زَمانَ أيْنَ المُطْعِمُ(٢)

وأنشد لأبي زُبيد الطائي:

طلبوا صُلحنا ولا تَأوانٍ فأجبنا أنْ ليس حين بقاءِ(٣)

فأدخل التاء في أوان. قال أبو عُبيد: ومِن إدخالهم التاء في الآن حديثُ ابن عمر وسأله رجلٌ عن عثمان بن عفان ﷺ، فذكر مَناقِبَه ثم قال: اذهبْ بها تَلَانَ معك(٤).

وكذلك قول الشاعر:

نَوِّلِي قَبل نأي دَارِي جُمَانا وصِلِينا كما زَعمْتِ تَلانا(٥)

قال أبو عُبيد: ثم مع هذا كلِّه إني تعمَّدت النظر في الذي يقال له: الإمام ـ مصحف عثمان ـ فوجدتُ التاءَ مُتَّصلة مع حين قد كُتبت: تحين.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ١٧٦.

(٢) سلف ١/ ٤٧٨.

(٣) سلف قريباً. وينظر الكلام السالف في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١ - ٤٥٢، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والدر المصون ٩/ ٣٤٧ - ٣٤٩.

(٤) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨) بلفظ: اذهب بها الآن معك. وأورده بلفظ المصنف ابن الأثير في النهاية (تلن).

(٥) نسب في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، ونسب في الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر.

قال أبو جعفر النحاس[١]: أما البيت الأول الذي أنشده لأبي وَجْزة فرواه العلماء باللغة على أربعة أوجه، كلُّها على خِلاف ما أنشده؛ وفي أحدها تقديران؛ رواه أبو العباس محمد بن يزيد:

العـاطِفـونَ ولاتَ مـا مِـن عـاطِـف

والرواية الثانية:

العـاطِفـونَ ولَاتَ حِيـنِ تَـعـاطـفِ

والرواية الثالثة رواها ابن كَيْسان:

العـاطِفـونَـةَ حِيـنَ مـا مِـن عـاطِـف

جعلها هاءً في الوقف وتاءً في الإدراج، وزعم أنها لِبَيان الحركة شُبِّهت بهاء التأنيث.

الرواية الرابعة:

العـاطِفـونـهُ حِيـن مـا مِـن عـاطِـفِ

وفي هذه الرواية تقديران؛ أحدهما ـ وهو مذهب إسماعيل بن إسحاق ـ أن الهاء في موضع نصب؛ كما تقول: الضاربون زيداً، فإذا كَنَيت قلت: الضاربوه. وأجاز سيبويه في الشعر: الضاربونهُ، فجاء إسماعيل بالبيت[٢] على مذهب سيبويه في إجازته مثلَه. والتقدير الآخر: العاطفونَهْ، على أن الهاء لِبَيان الحركة، كما تقول: مَرَّ بنا المُسلمونَهْ، في الوقف، ثم أُجريت في الوصل مُجراها في الوقف؛ كما قرأ أهلُ المدينة: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾[٣] [الحاقة: ٢٨-٢٩].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٣ .

(٢) في (م): بالتأنيث، والمثبت من (د) و(ز)، وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه، والعبارة ساقطة في (ظ) و(ف).

(٣) قرأ حمزة بحذف الهاءين في الوصل، والباقون بإثباتها في الحالين. التيسير ص٢١٤ .

وأما البيت الثاني فلا حُجَّة له فيه؛ لأنه يُوقف عليه: ولاتَ أوان، غيرَ أن فيه شيئاً مُشكلاً؛ لأنه يُروى: ولات أوانٍ؛ بالخفض، وإنما يقع ما بعد لات مرفوعاً أو منصوباً. وإنْ كان قد رُوي عن عيسى بن عمر أنه قرأ: «ولاتِ حينِ مناص» [بكسر التاء من لات والنون من حين، فإن الثبت عنه أنه قرأ: «ولاتِ حينَ مناص»][(١)] فبني «لاتِ» على الكسر، ونصبَ «حينَ».

فأما: ولاتَ أوانٍ، ففيه تقديران؛ قال الأخفش[(٢)]: فيه مُضمر، أي: ولات حين أوان. قال النحاس[(٣)]: وهذا القول بيِّنُ الخطأ. والتقدير الآخر عن أبي إسحاق[(٤)] قال: تقديره: ولات أوانِنا فحذف المضاف إليه فوجب ألا يعرب، وكسره لالتقاء الساكنين[(٥)]. وأنشده محمد بن يزيد: ولات أوانُ، بالرفع.

وأما البيت الثالث فبيتٌ مولّد لا يعرف قائله[(٦)] ولا تَصِحُّ به حُجَّة. على أن محمد ابن يزيد رواه: كما زعمتِ الآن. وقال غيره: المعنى: كما زعمتِ أنتِ الآن. فأسقط الهمزةَ من أنت والنون.

وأما احتجاجُه بحديث ابن عمر، لما ذكَر للرجل مناقبَ عثمان فقال له: اذهَبْ بها تَلَانَ إلى أصحابك، فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن المُحدّث إنما يروي هذا على المعنى. والدليلُ على هذا أن مجاهداً يروي عن ابن عمر هذا الحديثَ وقال فيه: اذهب فاجهد

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، وما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٣، والكلام منه.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٧٠.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٤، وما قبله منه.

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٤/ ٣٢٠ - ٣٢١.

(٥) يعني: لما حذف المضاف إليه عوض من المضاف إليه تنويناً، والنون كانت في التقدير ساكنة كسكون ذال «إذ»، فلما لقيها التنوين ساكناً كسرت النون لالتقاء الساكنين، كما كسرت الذال من «إذ» لالتقاء الساكنين. سر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٩.

(٦) نسبه في اللسان (تلن) لجميل بن معمر، وفي الخزانة ٤/ ١٧٩ لابن الأحمر، وقد ذكرناه عند تخريج البيت.

جهدك[١]. ورواه آخر: اذهب بها الآن معك[٢].

وأما احتجاجُه بأنه وجدَها في الإمام «تَحِينَ». فلا حُجَّةَ فيه؛ لأن معنى الإمام أنه إمامُ المصاحف، فإنْ كان مُخالفاً لها فليس بإمام لها، وفي المصاحف كلِّها «ولاتَ» فلو لم يكن في هذا إلا هذا الاحتجاج لكان مُقنعاً. وجمعُ مناصٍ مناوص.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ «أن» في موضع نصب، والمعنى: من أن جاءهم[٣]. قيل: هو مُتَّصل بقوله: ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أي: في عِزَّة وشِقاق وعَجِبوا، وقوله: «كم أَهْلَكْنا» مُعترِض. وقيل: لا، بل هذا ابتداءُ كلام، أي: ومِن جَهْلهم أنهم أظهروا التعجُّبَ مِن أنْ جاءهم منذرٌ منهم.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ﴾ أي: يجيء بالكلام المُموَّه الذي يخدعُ به الناس؛ وقيل: يُفرِّق بسحره بين الوالد وولده والرجلِ وزوجته ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: في دعوى النبوّة.

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ مفعولان، أي: صيَّر الآلهةَ إلهاً واحداً. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ أي: عجيب. وقرأ السُّلمي: «عُجَّابٌ» بالتشديد[٤]. والعُجَاب والعُجَّاب والعَجَب سواء. وقد فرّق الخليل بين عَجِيب وعُجَاب فقال: العَجِيب العَجَب، والعُجَاب الذي قد تجاوز حدَّ العَجَب، والطويل الذي فيه طول، والطُّوال، الذي قد تجاوز حدَّ الطُّول[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤) من طريق سعد بن عبيدة، وابن حبان (٦٩٠٩) من طريق حبيب بن أبي مليكة كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما. ولم نقف عليه من طريق مجاهد

(٢) أخرجه أحمد (٥٧٧٢)، والبخاري (٣٦٩٨).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٧٨ بنحوه.

وقال الجوهري(١): العَجِيب الأمرُ الذي يُتعجَّب منه، وكذلك العُجَاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثرُ منه، وكذلك الأُعجوبة.

وقال مقاتل: «عُجَّابٌ» لغةُ أزد شنوءة(٢).

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فجاءت قريش إليه، وجاء النبيُّ ﷺ، وعند رأس أبي طالب مجلسُ رجل، فقام أبو جهل كي يمنعَه، قال: وشكَوْه إلى أبي طالب، فقال: يا بنَ أخي ما تُريد من قومك؟ فقال: «يا عم، إنما أُريدُ منهم كلمةً تذلُّ لهم بها العربُ، وتُؤدِّي إليهم بها الجزيةَ العَجَمُ» فقال: وما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» قال: فقالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ خرَّجه الترمذي أيضاً بمعناه. وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح(٣).

وقيل: لما أسلمَ عمرُ بن الخطاب ﷺ شقَّ على قريش إسلامُه فاجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا: اقضِ بيننا وبين ابنِ أخيك. فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا ابنَ أخي، هؤلاء قومُك يسألونك ذا السَّواء(٤)، فلا تَمِلْ كلَّ الميل على قومك. قال: «وماذا يسألونني»؟ قالوا: ارفضنا وارفض ذِكْرَ آلهتنا وندعك وإلهكَ. فقال النبيُّ ﷺ: «أَتُعطونني كلمةً واحدةً وتَمْلِكون بها العربَ، وتَدينُ لكم بها العَجَم» فقال أبو جهل: لله أبوك، لَنُعطِينَّكَها وعشرَ أمثالها. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا: لا إله إلا لله»؟ فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فكيف يَسَعُ الخَلْقَ كلَّهم إلهٌ واحد. فأنزل اللهُ فيهم هذه الآياتِ إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الآية: ١٢](٥).

---

(١) في الصحاح (عجب).

(٢) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٦٦ .

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٢)، وليس في مطبوعه قوله: صحيح. وأخرجه أحمد (٢٠٠٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٨ . وفي إسناده يحيى بن عمارة، أو ابن عباد، أو عباد، مجهول، تفرَّد بالرواية عنه الأعمش فيما قاله الذهبي في الميزان ٤/ ٣٩٩ .

(٤) في (م): يسألونك السواء.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٨٧، والبغوي في تفسيره ص٤/ ٤٨ .

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ «الملأ» الأشراف، والانطلاقُ الذَّهابُ بسرعة؛ أي: انطلق هؤلاء الكافرون من عند الرسول عليه الصلاة والسلام يقول بعضُهم لبعض: «أن امْشُو» أي: امضُوا على ما كنتُم عليه، ولا تدخلوا في دينه ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾. وقيل: هو إشارة إلى مَشْيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق.

وفي رواية محمد بن إسحاق أنهم أبو جهل بن هشام، وشيبةُ وعُتبة ابنا[1] ربيعة ابن عبد شمس، وأميّة بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو مُعيط؛ جاؤوا إلى أبي طالب فقالوا: أنت سيدُنا وأنصفُنا في أنفسنا، فاكْفِنا أَمْرَ ابنِ أخيك وسُفهاءَ معه، فقد تركوا آلهتَنا وطَعَنوا في ديننا؛ فأرسل أبو طالب إلى النبيِّ ﷺ فقال له: إنَّ قومَك يدعونك إلى السَّواء والنَّصَفَة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنما أدعوهم إلى كلمةٍ واحدة» فقال أبو جهل: وعشراً. قال: «تقولون: لا إله إلا الله» فقاموا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ الآيات[2].

«أنِ امْشُوا»، «أن» في موضع نصب، والمعنى: بأن امشُوا. وقيل: «أن» بمعنى أي؛ أي: «وانْطَلَقَ المَلأُ منهم» أي: امشُوا؛ وهذا تفسيرُ انطلاقهم، لا أنهم تكلَّموا بهذا اللَّفظ.

وقيل: المعنى: انطلق الأشرافُ منهم فقالوا للعوامِّ: ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: على عبادةِ آلهتكم «إنَّ هذا» أي: هذا الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام

---

(١) في (م): أبناء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٥، وينظر السيرة النبوية ١/ ٢٦٤ - ٢٦٥، وقصة ذهاب كفار قريش إلى أبي طالب سلفت قريباً.

﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُرادُ بأهل الأرض من زوالِ نعم قومٍ وغِيَر تنزِل بهم[١].

وقيل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ كلمة تحذير؛ أي: إنما يُريد محمدٌ بما يقول الانقيادَ له لِيعلوَ علينا، ونكونَ له أتباعاً، فيتحكَّمَ فينا بما يُريد، فاحذروا أن تُطيعوه.

وقال مقاتل: إنَّ عمرَ لما أسلمَ وقَوِي به الإسلامُ شقَّ ذلك على قريش فقالوا: إنَّ إسلامَ عمر في قوّة الإسلام لَشيء يُراد[٢].

قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال ابن عباس والقُرظيّ وقتادة ومقاتل والكلبيّ والسُّديّ: يَعنون مِلَّةَ عيسى النصرانية، وهي آخرُ الملل. والنصارى يجعلون مع الله إلهاً. وقال مجاهد وقتادة أيضاً: يَعنون مِلَّة قريش. وقال الحسن: ماسَمعنا أنَّ هذا يكون في آخر الزمان. وقيل: أي: ماسمعنا من أهل الكتاب أن محمداً رسولٌ حقٌّ[٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي: كذب وتخرُّص؛ عن ابن عباس وغيره[٤]. يقال: خَلَقَ واختلق، أي: ابتدع. وخلقَ اللهُ عزّ وجلّ الخَلْق من هذا؛ أي: ابتدعَهم على غيرِ مثال[٥].

قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ هو استفهامُ إنكار، والذِّكر هاهنا القرآنُ؛ أنكروا اختصاصَه بالوَحْي من بينهم؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: من وحيي، وهو القرآن. أي: قد عَلِموا أنك لم تَزَلْ صَدُوقاً فيما بينهم، وإنما شكُّوا فيما أنزلتُه عليك هل هو من عندي أمْ لا.

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي: إنما اغترُّوا بِطُول الإمهال، ولو ذاقوا عذابي على

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ . وقوله: غِيَر: في القاموس (غير): غِيَر الدهر: أحداثه المتغيرة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٧٩ . وفيه:.. فقالوا: إن إسلام عمر فيه قوة للإسلام وشيء يُراد

(٣) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٤٩، وأقوال ابن عباس ﷺ والقرظي والسدي ومجاهد وقتادة أخرجها الطبري ٢٠/ ٢٢ - ٢٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

الشِّرك لَزال عنهم الشَّكُّ، ولمَا قالوا ذلك؛ ولكن لا ينفع الإيمانُ حينئذ[١]. و«لَمَّا» بمعنى لم، وما زائدةٌ، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] و﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ قيل: أمْ لهم هذا فيمنعوا محمداً عليه الصلاة والسلام مما أنعمَ اللهُ عز وجل به عليه من النبوة[٢]. و«أمْ» قد تَرِدُ بمعنى التقريع إذا كان الكلام مُتَّصلاً بكلام قبلَه؛ كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٣].

وقد قيل: إن قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ مُتَّصلٌ بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ فالمعنى: أنَّ الله عزَّ وجلَّ يُرسل مَن يشاء؛ لأنَّ خزائنَ السماوات والأرض له[٣]، ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: فإنْ ادَّعَوْا ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فَلْيصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكةَ من إنزالِ الوحي على محمد. يقال: رَقِيَ يَرْقَى وارتقى، إذا صَعِدَ. ورَقَى يَرقي رَقْياً، مثل: رَمَى يرمي رَمْياً، من الرُّقْية[٤].

قال الربيع بن أنس: الأسبابُ أرقُّ من الشَّعر وأشدُّ من الحديد، ولكن لا تُرى. والسَّبب في اللغة: كل ما يُوصَل به إلى المَطلوب من حبلٍ أو غيره[٥].

وقيل: الأسباب: أبوابُ السماوات التي تنزلُ الملائكةُ منها؛ قاله مجاهد وقتادة. قال زهير:

ولَو رَامَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ[٦]

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٦ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨١ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٥ .

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٨ ، وفيه : أدقّ، بدل: أرقّ.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٢ - ٨٣، والبيت سلف ٣/ ٩ ، وقول مجاهد وقتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٧ .

وقيل: الأسبابُ السماواتُ نفسُها ؛ أي: فيصعدوا سماءً سماءً. وقال السُّدي: «في الأسبابِ» في الفَضْل والدين. وقيل: أي: فَلْيعلوا في أسبابِ القوَّة إنْ ظنُّوا أنها مانعة. وهو معنى قول أبي عُبيدة[١]. وقيل: الأسبابُ الحبال؛ يعني: إنْ وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فَلْيرتقوا؛ وهذا أمرُ توبيخ وتعجيز[٢].

ثم وعدَ نبيَّه ﷺ النصرَ عليهم فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ «ما» صِلةٌ، وتقديره: هم جند، فـ «جُنْدٌ» خبرُ ابتداء محذوف. ﴿مَهْزُومٌ﴾ أي: مقموعٌ ذليلٌ قد انقطعتْ حُجَّتهم لأنهم لا يَصلون إلى أن يقولوا: هذا لنا. ويقال: تهزَّمت القِربة، إذا انكسرت، وهزمتُ الجيش: كسرته[٣]. والكلام مرتبطٌ بما قبل، أي: ﴿بَلِ الذين كَفَرُوا في عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ من الأحزاب مهزومون، فلا تَغُمُّك عِزَّتُهم وشِقاقهم، فإني أهزمُ جمعَهم وأسلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنبي ﷺ، وقد فُعِل بهم هذا في يوم بدر.

قال قتادة: وعدَ اللهُ أنه سَيهزمهم وهم بمكة، فجاء تأويلُها يومَ بَدْر[٤].

و«هنالك» إشارةٌ لِبدر، وهو موضعُ تحزُّبِهم لِقتال محمد ﷺ. وقيل: المرادُ بالأحزاب الذين أَتَوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ ﷺ. وقد مضى ذلك في «الأحزاب»[٥]. والأحزابُ الجندُ، كما يقال: جندٌ من قبائلَ شتَّى. وقيل: أراد بالأحزاب القُرونَ الماضية من الكُفَّار[٦]. أي: هؤلاء جندٌ على طريقةِ أولئك؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي: على ديني ومذهبي.وقال الفراء[٧]: المعنى: هم جندٌ مغلوب؛ أي: ممنوعٌ عن أن يَصعَدَ إلى السماء. وقال القتبي: يعني: أنهم جندٌ لهذه الآلهة مهزومٌ، فهم لايقدرون على أن

(١) النكت والعيون ٥/ ٧٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٢٧٢ بنحوه.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٢٩ .

(٥) ١٧/ ٧٠ وما بعدها.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٩ ، وزاد المسير ٧/ ١٠٤ - ١٠٥ .

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٩، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٦ .

يدَّعوا الشيء من آلهتم، ولا لأنفسهم شيئاً من خزائن رحمة الله، ولا مِن ملك السماوات والأرض(١).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ ذكرها تعزيةً للنبي ﷺ وتسليةً له(٢)؛ أي: هؤلاء من قومك يا محمد جندٌ من الأحزاب المتقدِّمين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم، وقد كانوا أقوى من هؤلاء فأُهلكوا.

وذكر الله تعالى القوم بلفظ التأنيث، واختلف أهلُ العربية في ذلك على قولين: أحدهما: أنه قد يجوز فيه التذكيرُ والتأنيث. الثاني: أنه مذكَّر اللفظ، لا يجوز تأنيثه، إلا أن يقع المعنى على العشيرة والقبيلة، فيغلبُ في اللفظ حكمُ المعنى المُضمَر تنبيهاً عليه؛ كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ولم يقل: ذكَرها؛ لأنه لما كان المُضمَرُ فيه مذكَّراً ذكَّره، وإنْ كان اللفظُ مُقتضياً للتأنيث(٣).

ووصف فرعون بأنه ذو الأوتاد. وقد اختُلف في تأويل ذلك؛ فقال ابن عباس: المعنى: ذو البِناء المُحكَم. وقال الضحاك: كان كثيرَ البُنيان، والبُنيان يُسمَّى أوتاداً. وعن ابن عباس أيضاً وقتادة وعطاء: أنه كانت له أوتادٌ وأرسان وملاعبُ يُلْعَب له عليها. وعن الضحاك أيضاً: ذو القوَّة والبَطْش. وقال الكلبي ومقاتل: كان يُعذِّب الناس بالأوتاد، وكان إذا غَضِبَ على أحدٍ مدَّه مُستلقياً بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسل عليه العقاربَ والحيَّاتِ حتى يموت. وقيل: كان يشبح المُعذَّب بين أربع

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٢٧٣، والعبارة فيه: .. لأنهم لا يقدرون أن يدَّعوا لآلهتهم شيئاً من هذا، ولا لأنفسهم.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٠ .

سَوارٍ، كلُّ طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وَتِد من حديد ويتركُه حتى يموت. وقيل: ذو الأوتاد، أي: ذو الجنود الكثيرة، فَسُمِّيت الجنودُ أوتاداً؛ لأنهم يُقوُّون أمرَه كما يُقوِّي الوَتِدُ البيت[١].

وقال ابن قتيبة: العربُ تقول: هم في عزٍّ ثابت الأوتاد، يُريدون: دائماً شديداً. وأصلُ هذا أن البيتَ من بيوت الشَّعر إنما يَثبُتُ ويقوم بالأوتاد. قال الأسود بن يَعْفُر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعَمِ عِيْشَةٍ ... في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتادِ[٢]

وواحدُ الأوتاد وَتِد، بالكسر، وبالفتح لغة. وقال الأصمعي: يقال: وَتِدٌ واتدٌ، كما يقال: شُغلٌ شاغل. وأنشد:

لاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدا ... ولم يكن يُخْلِفُها المَوَاعِدا[٣]

قال: شبَّه الرجلَ بالجِذْل.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أي: الغيضة[٤]. وقد مضى ذِكرُها في «الشعراء»[٥].

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: «لَيْكَةَ» بفتح اللام والتاء من غير همز. وهمز الباقون وكسروا التاء[٦]. وقد تقدَّم هذا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي: هم الموصوفون بالقوّة والكَثْرة، كقولك: فلانٌ هو الرجل.

﴿إِن كُلٌّ﴾ بمعنى: ما كلٌّ ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فنزلَ بهم العذابُ لذلك التكذيب.

---

(١) هذه الأقوال في تفسير البغوي ٤/ ٤٩ - ٥٠، وزاد المسير ٧/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) غريب القرآن ص٣٧٧. والبيت في المفضليات ص٢١٧

(٣) نسبه في اللسان (وتد) لأبي محمد الفقعسي، والكلام من الصحاح (وتد).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣١ عن السدي.

(٥) ١٣/ ١٣٤.

(٦) السبعة ص٤٧٣، والتيسير ص١٦٦.

وأثبتَ يعقوبُ الياء في «عَذَابِي» و«عِقَابِي» في الحالين، وحذفَها الباقون في الحالين[١]. ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ . مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣٠-٣١] فسمَّى هذه الأُمَمَ أحزاباً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ «يَنْظُرُ» بمعنى ينتظر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[٢] [الحديد: ١٣]. «هؤلاء» يعني كُفَّار مكة. «إِلَّا صَيْحَةً واحدةً» أي: نفخة القيامة. أي: ما ينتظرون بعد ما أُصيبوا ببدر إلا صيحةَ القيامة. وقيل: ما ينتظرُ أحياؤهم الآن إلا الصيحةَ التي هي النَّفخة في الصُّور، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾[٣] [يس: ٤٩-٥٠]، وهذا إخبارٌ عن قُرب القِيامة والموت. وقيل: أي: ما ينتظر كُفَّارُ آخر هذه الأمة المُتديِّنين بدين أولئك إلا صيحةً واحدة، وهي النَّفخة. وقال عبد الله بن عمرو: لم تكن صيحةٌ في السماء إلا بغضبٍ من الله عزَّ وجلَّ على أهل الأرض[٤].

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: من ترداد؛ عن ابن عباس. مجاهد: ما لها رجوع. قتادة: مالها من مثنوية. السدِّي: مالها من إفاقة[٥].

وقرأ حمزة والكسائي: «ما لها مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء. الباقون بالفتح[٦]. الجوهري[٧]: والفَواق والفُواق ما بين الحَلْبتين من الوقت؛ لأنها تُحلَب، ثم تُترَك

---

(١) النشر ٢/ ١٨٢ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ١٨٢ بنحوه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ . وفي مطبوعه: عبد الله بن عمر.

(٥) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٤ - ٣٥، وقوله: ما لها من مثنوية، ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥٠ عن الضحاك، ثم قال: أي: صَرْفٌ وردٌّ.

(٦) السبعة ص٥٥٢ ، والتيسير ص١٨٧ .

(٧) الصحاح (فوق).

سُويعة يرضَعها الفَصيل لِتَدِرَّ، ثم تُحلَب. يقال: ما أقام عنده إلا فُوَاقاً؛ وفي الحديث: «العِيادةُ قَدْر فُواق الناقة»[(١)]. وقوله تعالى: «مالها مِنْ فَوَاق» يقرأ بالفتح والضم، أي: مالها من نظرة وراحة وإفاقة. والفِيقة، بالكسر: اسمُ اللبن الذي يجتمع بين الحَلْبتين؛ صارت الواو ياءً لِكسر ما قَبْلَها؛ قال الأعشى يَصِفُ بقرةً:

حتى إذا فِيقَةٌ في ضَرعِها اجتمعتْ جاءتْ لِتُرضِع شِقَّ النَّفْسِ لو رَضَعا[(٢)]

والجمع فِيَق، ثم أفواق، مثل: شِبر وأشبار، ثم أفاويق. قال ابن هَمَّام السَّلُوليّ:

وذَمُّوا لنا الدنيا وهم يَرْضَعُونها أَفَاوِيقَ حتى ما يَدُرُّ لها ثُعْلُ[(٣)]

والأفاويق أيضاً ما اجتمع في السحاب من ماء، فهو يمطر ساعةً بعد ساعة. وأفاقت الناقةُ إفاقةً، أي: اجتمعت الفِيقة في ضرعها؛ فهي مُفِيقٌ ومُفِيقَةٌ ـ عن أبي عمرو ـ والجمع مفاويق.

وقال الفرّاء وأبو عُبيدة وغيرهما: «مِنْ فَوَاقٍ» بفتح الفاء، أي: راحة لا يُفيقون فيها، كما يُفيق المريضُ والمَغْشيّ عليه. و«مِنْ فُواقٍ» بضم الفاء من انتظار[(٤)]. وقد تقدَّم أنهما بمعنىً، وهو ما بين الحَلْبتين.

قلت: والمعنى المُراد أنها مُمتدَّة لا تقطيع فيها. وروى أبو هريرة قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن في طائفة من أصحابه، الحديثَ، وفيه «يأمر اللهُ عزَّ وجلَّ إسرافيلَ بالنَّفخة الأُولى، فيقول: انفُخْ نَفْخَةَ الفَزَع، فيفزَعُ أهلُ السماوات وأهلُ الأرض إلا مَن شاء الله، ويأمره فيمدُّها ويُديمها يُطوِّلها يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾» وذكر الحديثَ، خَرَّجه علي بن مَعْبد وغيره

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٩٢٢٢)، في إسناده مندل بن علي أبو عبد الله العنزي الكوفي، ضعَّفه أحمد كما في تهذيب التهذيب ٤/ ١٥٢، وأورد الحديث السيوطي في الجامع الصغير ٤/٣٩٦ (فيض القدير) ورمز لصحته.

(٢) ديوان الأعشى ص١٥٥ .

(٣) الكامل للمبرد ١/ ٧٧، وسمط اللالئ ٣/ ٩٢٣ . والثُّعل: خِلْفٌ زائد صغير في أخلاف الناقة، وضرع الشاة، لا يدرّ. اللسان (ثعل).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٠ ـ وليس فيه هذا التفريق ـ ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٧٩ .

كما ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: عذابَنا. وكذا قال قتادة: نصيبنا من العذاب. الحسن: نصيبنا من الجنة لِنتنعَّم به في الدنيا. وقاله سعيد بن جُبير[(٢)]. ومعروف في اللغة أن يقال للنصيب: قِطّ، وللكتاب المكتوب بالجائزة قطّ[(٣)]. قال الفراء[(٤)]: القِطُّ في كلام العرب: الحظُّ والنصيب. ومنه قيل للصكّ: قِطّ. وقال أبو عُبيدة والكسائي: القِطُّ الكتاب بالجوائز[(٥)]. والجمع القطوط؛ قال الأعشى:

ولا المَلِكُ النُّعمانُ يومَ لَقِيتُهُ بِغِبْطتهِ يُعطي القُطوطَ وَيَأْفِقُ[(٦)]

يعني كتب الجوائز. ويروى: بإمَّتهِ، بدل: بغبطته، أي: بنعمته وحاله الجليلة، ويأفِق يصلحُ. ويقال: في جمع قِطّ أيضاً: قِطَطة، وفي القليل: أَقطّ وأقطاط. ذكره النحاس[(٧)].

وقال السدي: سألوا أن يُمَثَّلَ لهم منازلَهم من الجنةِ ليعلموا حقيقةَ ما يُوعَدون به. وقال إسماعيل بن أبي خالد: المعنى: عجِّل لنا أرزاقَنا[(٨)]. وقيل: معناه: عجِّل لنا ما يَكفينا؛ من قولهم: قَطْني؛ أي: يَكفيني. وقيل: إنهم قالوا ذلك استعجالاً

---

(١) ص١٧٣، والحديث أخرجه مطولاً إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠)، والطبري ٢٠/ ٣٣، وهو حديث ضعيف، وسلف قسم منه ١٦/ ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٣٧ - ٣٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٧ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥١، وقول أبي عُبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٧٩ .

(٦) ديون الأعشى ص٢٦٩ . وفيه، بإمَّته، بدل: بنعمته. وذكره برواية المصنف ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٧ . وما قبله منه.

(٨) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٣٨ - ٣٩ .

لِكُتبهم التي يُعطَوْنها بأيمانهم وشَمائلهم حين تُلي عليهم بذلك القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، وأصلُ القِطِّ القَطُّ، وهو القَطْع، ومنه: قَطَّ القلمَ؛ فالقِطُّ اسمٌ للقطعة من الشيء، كالقَسْمِ والقِسْم، فأُطلق على النصيب والكتاب والرِّزق لِقَطْعه عن غيره، إلا أنه في الكتاب أكثرُ استعمالاً وأقوى حقيقةً. قال أميةُ بن أبي الصَّلْت:

قَومٌ لهم ساحةُ العِراقِ وما ... يُجْبَى إليه والقِطُّ والقَلَمُ[١]

﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: قبلَ يومِ القيامة في الدنيا إنْ كان الأمرُ كما يقول محمد. وكلٌّ هذا استهزاءٌ منهم.

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَ نبيَّه ﷺ بالصبر لما استهزؤوا به. وهذه منسوخةٌ بآية السيف[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ لمَّا ذكر من أخبار الكفار وشِقاقهم وتقريعهم بإهلاك القُرون مِن قبلهم، أمَر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذاهم، وسلَّاه بكلِّ ما تقدَّم ذِكْره. ثم أخذ في ذكر داودَ وقصص الأنبياء؛ لِيتسلَّى بصبر مَن صَبَر منهم؛ ولِيعلمَ أن له في الآخرة أضعافَ ما أُعْطِيَهُ داودُ وغيره من الأنبياء.

وقيل: المعنى: اصبِرْ على قولهم، واذكُر لهم أقاصيصَ الأنبياء؛ لتكون برهاناً على صحة نبوَّتك.

«ذا الأيْدِ» ذا القوَّة في العبادة. وكان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، وذلك أشدُّ الصوم

(١) ديوان أمية بن أبي الصَّلت ص١٢٨، وروايته فيه:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والقط والقلم

وذكره كرواية المصنف الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٣.

(٢) ذكره مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٩١، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١١٠.

وأفضلُه؛ وكان يُصلِّي نصفَ الليل، وكان لا يفرُّ إذا لاقى العدوّ[١]، وكان قويّاً في الدعاء إلى الله تعالى. وقوله: «عَبْدَنا» إظهاراً لِشَرَفِهِ بهذه الإضافة. ويقال: الأَيْد والآدُ، كما تقول: العيب والعاب[٢]. قال:

لـم يَـكُ يَـنْـآد فَـأَمْـسَـى انْـآدا[٣]

ومنه: رجلٌ أَيِّدٌ، أي: قويّ. وتأَيَّدَ الشيء تقوَّى، قال الشاعر:

إِذَا الـقـوسُ وَتَّـرهَـا أَيِّـدٌ   رَمَـى فَـأَصـابَ الـكُـلـى وَالـذُّرا[٤]

يقول: إذا الله وَتَّر القوس التي في السحاب رَمَى كُلى الإبل وأَسْنِمَتَها بالشحم. يعني من النبات الذي يكون من المطر.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ قال الضحاك: أي: توّاب. وعن غيره: أنه كلَّما ذكَر ذَنْبه أو خطَر على باله استغفر منه؛ كما قال النبي ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليومِ والليلة مئةَ مرة»[٥]. ويقال: آبَ يؤوب، إذا رَجَع، كما قال:

وكـلُّ ذي غَـيْـبَـةٍ يـؤوبُ   وغـائـبُ الـمـوت لايـؤوبُ[٦]

فكان داودُ رجَّاعاً إلى طاعة الله ورِضاه في كلِّ أمرٍ، فهو أهلٌ لأن يُقتدَى به.

---

(١) أخرج البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «.. أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه، ويصوم يوماً ويُفطر يوماً»، وفي رواية عند البخاري (٣٤١٩)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٧): «.. ولا يَفِرُّ إذا لاقى». وهو في مسند أحمد (٦٤٧٧).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٥٨.

(٣) الرجز للعجاج كما في إصلاح المنطق ص١٠٧، وقبله: مِن أن تبدَّلتُ بآدي آدا. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٤) في (م): الذُّوا، والبيت في مجالس ثعلب ص٤٤٧ والصحاح (أيد) والكلام منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٨٤٨)، ومسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغرّ المزني ﷺ، وأوله: «إنه لَيُغَانُ على قلبي..» وسلف ٢/١١٧.

(٦) قائله عَبيد بن الأبرص، وهو في ديوانه ص٢٦. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٥٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ «يُسَبِّحْنَ» في موضع نصب على الحال[١]. ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمُعجزة، وهو تسبيحُ الجبال معه.قال مقاتل: كان داودُ إذا ذكَر الله جلَّ وعزَّ ذكَرت الجبالُ معه، وكان يفقهُ تسبيحَ الجبال. وقال ابن عباس: «يُسَبِّحْنَ» يُصلِّين. وإنما يكون هذا معجزةً إذا رآه الناس وعَرَفوه. وقال محمد بن إسحاق: أُوتي داودُ من حُسن الصوت ما يكون له في الجبال دَويٌّ حَسَن، وما تصغَى لحسنه [الطير] وتُصوِّت معه، فهذا تسبيحُ الجبال والطير.

وقيل: سخَّرها اللهُ عز وجل لِتَسيرَ معه، فذلك تسبيحُها، لأنها دالَّةٌ على تنزيهِ الله عن شبه المخلوقين[٢]. وقد مضَى القولُ في هذا في «سبأ»[٣] وفي «سبحان» عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الآية: ٤٤] وأنَّ ذلك تسبيحُ مَقَال على الصحيح من الأقوال. والله أعلم.

﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ الإشراقُ أيضاً ابيضاضُ الشمس بعد طُلوعها. يقال: شَرَقَت الشمسُ، إذا طَلَعت، وأَشرقَتْ، إذا أضاءت[٤]. فكان داودُ يُسبِّح إثرَ صلاتهِ عند طُلوع الشمس وعند غُروبها.

الثانية: روي عن ابن عباس أنه قال: كنت أمرُّ بهذه الآية ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ولا أدري ماهي، حتى حدَّثتني أُمُّ هانئ أن رسولَ الله ﷺ دخلَ عليها، فدعا بِوَضوء فتوضأ، ثم صلَّى صلاةَ الضُّحى، وقال: «يا أُمَّ هانئ، هذه صلاةُ الإشراق»[٥]. وقال

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) ١٧/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٤) الصحاح (شرق) .

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ ٤٠٦ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥١ . وفي إسناده حجَّاج بن نُصير وأبو بكر الهذلي وكلاهما ضعيف. ميزان الاعتدال ١/ ٤٦٥ و ٤/ ٤٩٧ ، ومجمع الزوائد ٢/ ٢٣٨ و٧/ ٩٩ .

عكرمة: قال ابن عباس: كان في نفسي شيء من صلاة الضُّحى حتى وجدتُها في القرآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[(١)]. قال عكرمة: وكان ابن عباس لا يُصلِّي صلاةَ الضُّحى، ثم صلَّاها بعد[(٢)].

وروي أن كعب الأحبار قال لابن عباس: إني أَجِدُ في كُتُبِ اللهِ صلاةً بعدَ طُلوع الشمس هي صلاة الأوَّابين. فقال ابن عباس: وأنا أوجدك في القرآن ذلك في قصة داود ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾.

الثالثة: صلاةُ الضحى نافلةٌ مستحبة، وهي في الغَداة بإزاء العصر في العَشيّ، لا ينبغي أن تُصلَّى حتى تبيضَّ الشمسُ طالعةً؛ ويرتفع كَدَرُها؛ وتُشرق بنورها؛ كما لا تُصلَّى العصر إذا اصفرَّتِ الشمس[(٣)]. وفي «صحيح» مسلم عن زيد بن أَرْقَم، أن رسولَ الله ﷺ قال: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ الفِصالُ»[(٤)].

الفِصال والفُصلان جمع فَصيل، وهو الذي يُفطَم من الرضاعة من الإبل. والرَّمضاء شِدَّةُ الحر في الأرض. وخصَّ الفِصال هنا بالذِّكر؛ لأنها هي التي تَرْمَض قبلَ انتهاء شدَّة الحرّ التي تَرْمَض به[(٥)] أمهاتُها لِقلَّة جَلَدها، وذلك يكون في الضُّحى أو بعده بقليل، وهو الوقتُ المتوسط بين طلوع الشمس وزوالها[(٦)].

قال[(٧)] القاضي أبو بكر بن العربي[(٨)]: ومن الناس من يُبادر بها قبلَ ذلك

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/٢٩٨ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٥/٢٩٨ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦١٣ .

(٤) صحيح مسلم (٧٤٨)، وهو في مسند أحمد (١٩٢٧٠)، وفي هامش (ز) حاشية نصها: تَرْمَض بفتح التاء والميم، يقال: رَمِض يرمَض، كعلم يعلم، والرمضاء: الرَّمْل الذي اشتدت حرارته بالشمس، أي: حين تحترق أخفاف الفصال، وهي الصغار من أولاد الإبل، جمع فَصيل، من شدة حرّ الرمل، والأواب، المطيع، وقيل: الراجع إلى الطاعة. قاله النووي. اهـ[في شرح مسلم ٦/ ٣٠]

(٥) في (م): بها.

(٦) المفهم ٢/٣٥٩ .

(٧) في (م) و(د) و(ظ): قاله.

(٨) في أحكام القرآن ٤/١٦١٣ .

استعجالاً، لأجل شُغله فيخسر عملَه؛ لأنه يُصلِّيها في الوقت المَنْهي عنه، ويأتي بعملٍ هو عليه لا له.

الرابعة: روى الترمذي من حديث أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ صلَّى الضُّحى ثنتي عشرةَ ركعةً بنى اللهُ له قصراً مِن ذَهَبٍ في الجنة» قال: حديث غريب(١).

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُصبح على كلِّ سُلَامَى من أحدِكم صدقةٌ، فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وكلُّ تكبيرةٍ صَدَقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويُجزئ من ذلك ركعتان يَركَعهما من الضُّحى»(٢).

وفي الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حافَظَ على شَفْعةِ الضُّحى غُفر له ذنوبُه وإنْ كانت مثلَ زَبَد البحر»(٣).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «أَوصاني خليلي بثلاث لا أدعُهُنَّ حتى أموتَ: صومِ ثلاثةِ أيام من كلِّ شهر، وصلاةِ الضُّحى، ونومٍ على وتر» لفظ البخاري(٤). وقال مسلم: «وركعتي الضحى»(٥). وخرَّجه من حديث أبي الدرداء كما خرَّجه البخاري من حديث أبي هريرة(٦).

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ أقلَّ الضحى ركعتان وأكثرَه ثنتا عشرة. والله أعلم.

وأصل السُّلامى - بضم السين - عظامُ الأصابع والأَكُفّ والأرجل، ثم استُعمل في سائر عظام الجسد وَمفَاصله(٧).

---

(١) سنن الترمذي، وفي إسناده موسى بن فلان بن أنس بن مالك، ويقال: موسى بن حمزة. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: مجهول.

(٢) صحيح مسلم (٧٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٤٧٥).

(٣) سنن الترمذي (٤٧٦)، وفي إسناده نهَّاس بن قَهْم، ضعفه الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) رقم (١١٧٨).

(٥) رقم (٧٢١)، وهو في مسند أحمد (٧٦٧١).

(٦) صحيح مسلم (٧٢٢)، وهو في مسند أحمد (٢٧٤٨١).

(٧) المفهم ٢/ ٣٦٠ .

وروي من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنه خُلِقَ كلُّ إنسان من بني آدمَ على ستين وثلاث مئة مَفْصِل، فمن كبَّر اللهَ، وحَمِدَ اللهَ، وهلَّل اللهَ، وسبَّح الله، واستغفرَ اللهَ، وعَزَلَ حجراً عن طريق الناس أو شوكةً أو عظماً عن طريق الناس، وأَمَرَ بمعروف، أو نَهَى عن مُنكر عَدَدَ تلك الستين والثلاث مئة سُلامَى فإنه يمشي يومئذ وقد زَحْزحَ نفسَه عن النار» قال أبو تَوْبة: وربما قال: «يُمْسي» كذا خرجه مسلم[١].

وقوله: «ويُجزئ من ذلك ركعتان» أي: يكفي من هذه الصَّدَقات عن هذه الأعضاء ركعتان. وذلك أن الصلاةَ عملٌ بجميع أعضاء الجسد؛ فإذا صلَّى فقد قام كلُّ عضو بوظيفته التي عليه في الأصل. والله أعلم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معطوف على الجبال. قال الفراء[٣]: ولو قرئ: «والطَّيْرُ محشورةٌ» لجاز[٤]؛ لأنه لم يظهر الفعل.

قال ابن عباس: كان داودُ عليه السلام إذا سبَّح جاوبَتْه الجبال واجتمعت إليه الطيرُ فسبَّحتْ معه. فاجتماعها إليه حَشْرُها[٥]. فالمعنى: وسخَّرنا الطيرَ مجموعة إليه لِتُسبِّح الله معه. وقيل: أي: وسخَّرنا الريح لِتَحْشُرَ الطيورَ إليه لِتسبِّح معه، أو أمرنا الملائكةَ تحشر الطيور.

---

(١) في صحيحه (١٠٠٧).

(٢) المفهم ٢/ ٣٦١.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٤) قرأ بها إبراهيم بن أبي عبلة كما في القراءات الشاذة ص١٢٩.

(٥) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤٠١، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٤٥، ولم ينسباه لأحد.

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع؛ أي: تأتيه وتُسبِّحُ معه. وقيل: الهاء لله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوَّيناه حتى ثَبَتَ. قيل: بالهيبة وإلقاء الرُّعب منه في القُلوب. وقيل: بِكَثْرة الجنود. وقيل: بالتأييد والنَّصر. وهذا اختيارُ ابن العربي(١)، فلا ينفع الجيشَ الكثيرَ التفافُه على غيرِ منصور وغير مُعانٍ.

وقال ابن عباس ﷺ: كان داودُ أشدَّ مُلوك الأرض سلطاناً. كان يحرسُ محرابَه كلَّ ليلة نَيِّفٌ وثلاثون ألف رجل، فإذا أصبح قيل: ارجعوا فقد رضي عنكم نبيُّ الله(٢).

والمُلْك عبارة عن كَثْرة المِلْك، فقد يكون للرجلِ مِلك ولكن لا يكون مَلِكاً حتى يكثرَ ذلك؛ فلو مَلَكَ الرجلُ داراً وامرأة لم يكن مَلِكاً حتى يكون له خادمٌ يَكفيه مؤنةَ التصرف في المنافع التي يفتقر إليها لضرورة(٣) الآدمية(٤). وقد مضى هذا المعنى في «براءة»(٥) وحقيقةُ الملك في «النمل» مستوفًى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السدي. مجاهد: العَدْل. أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شُريح: العلم والفقه.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ قال أبو عبد الرحمن السُّلَمي وقتادة: يعني: الفَصْلَ في القضاء. وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل. وقال ابن عباس: بيانُ الكلام. عليّ ابن أبي طالب: هو البيِّنة على المدَّعي واليمينُ على مَن أنكر. وقاله شُرَيح والشعبي

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٤، وما بعده منه.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٥١ مختصراً.

(٣) في (د) و(م): لضرورته، وفي (ز): لضروريّة، والمثبت من (ظ).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٤.

(٥) ١٠/ ٢٥٠.

وقتادة أيضاً. وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضاً: هو قوله: أما بعد، وهو أول مَن تكلَّم بها[١].

وقيل: «فَصْل الخِطاب» البيان الفاصلُ بين الحقّ والباطل. وقيل: هو الإيجازُ بجعل المعنى الكثير في اللَّفظِ القليل[٢]. والمعنى في هذه الأقوال متقاربٌ. وقولُ عليّ ﷺ يجمعه؛ لأن مدارَ الحُكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربى[٣]: فأما علمُ القضاء فَلَعَمْرُ إلهِك إنه لَنوعٌ من العلم مجرد، وفصلٌ منه مؤكَّد، غير معرفة الأحكام والبصر بالحلال والحرام؛ ففي الحديث: «أقضاكم عليٌّ، وأعلمُكم بالحلال والحرام معاذُ بن جبل»[٤]. وقد يكون الرجلُ بصيراً بأحكام الأفعال، عارفاً بالحلال والحرام، ولا يقوم بفصل القضاء.

يُروَى أن عليَّ بن أبي طالب ﷺ قال: لما بعثني رسولُ الله ﷺ إلى اليمن حَفَرَ قومٌ زُبْيَةً للأسد، فوقع فيها الأسدُ وازدحم الناسُ على الزُّبية فوقع فيها رجلٌ وتعلَّق بآخر، وتعلَّق الآخَرُ بآخر، حتى صاروا أربعةً، فجرحهم الأسدُ فيها فَهَلكوا، وحمل القومُ السلاحَ وكاد يكون بينهم قتال؛ قال: فأتيتُهم فقلت: أتقتلون مئتي رجل من أجل أربعة أناس؟! تعالوا أَقْضِ بينَكم بقضاء؛ فإنْ رَضِيتموه فهو قضاء بينكم، وإنْ أَبيتُم رفعتُم ذلك إلى رسول الله ﷺ فهو أحقُّ بالقضاء. فجعل للأوّل رُبُعَ الدِّيَة، وجعل للثاني ثُلثَ الدِّيَة، وجعل للثالث نصفَ الدِّيَة، وجعل للرابع الدِّيَة، وجعل الدِّيَاتِ على من حَفَر الزُّبْيَةَ على قبائل الأربعة؛ فَسَخِطَ بعضُهم ورضي بعضهم، ثم قدموا

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٨ - ٥١، والنكت والعيون ٥/ ٨٤، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٥٤) من حديث أنس ﷺ مطولاً، ولفظه: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر،.. وأقضاهم عليّ.. وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل..» الحديث. وأخرجه أحمد (١٢٩٠٤)، والترمذي (٣٧٩١) دون ذكر علي ﷺ.

على رسول الله ﷺ فقصُّوا عليه القصة؛ فقال: «أنا أقضي بينكم» فقال قائل: إن عليّاً قد قضي بيننا. فأخبروه بما قضي عليّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «القضاءُ كما قَضَى عليٌّ» في رواية: فأمضى رسولُ الله ﷺ قضاءَ عليّ[1].

وكذلك يُروَى في المعرفة بالقضاء أن أبا حنيفة جاء إليه رجلٌ فقال: إن ابن أبي ليلى ـ وكان قاضياً بالكوفة ـ جلد امرأةً مجنونة قالت لرجل: يا ابن الزانيين حدَّين في المسجد وهي قائمة. فقال: أخطأ من ستة أوجه.

قال ابن العربي[2]: وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة لا يُدركه أحدٌ بالروية إلا العلماء، فأما قضيةُ عليٍّ فلا يُدركها الشادي، ولا يلحقها بعد التمرُّن في الأحكام إلا العاكف المُتمادي. وتحقيقُها أن هؤلاء الأربعة مقتولون[3] خطأً بالتدافع على الحُفرة من الحاضرين عليها، فلهم الدّيَات على مَن حَفَر[4]على وجه الخطأ، بَيْد أن الأوّل مقتولٌ بالمُدافَعة قاتلُ ثلاثةٍ بالمُجاذَبة، فله الدِّيةُ بما قُتِل، وعليه ثلاثةُ أرباع الدية بالثلاثة الذين قتلهم. وأما الثاني فله ثلثُ الدِّيَة وعليه الثُّلثان بالاثنين اللذين قَتَلَهما بالمُجاذبة. وأما الثالث فله نصفُ الدِّية وعليه النصف؛ لأنه قتل واحداً بالمُجاذبة، فوقعت المحاصَّة، وغَرِمت العواقلُ هذا التقدير بعد القصاص[5] الجاري فيه. وهذا من بديع الاستنباط.

وأما أبو حنيفة فإنه نَظَر إلى المعاني المتعلقة فرآها ستة: الأوّل: أن المجنون

---

(١) أخرجه أحمد (١٣١٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١١١. وفي إسناده حنش بن المعتمر الكناني، قال البخاري: يتكلمون في حديثه، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن حبان: لا يُحتج به، يتفرد عن علي بأشياء. ميزان الاعتدال ١/ ٦١٩.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٥ - ١٦١٦، وما قبله منه.

(٣) في النسخ الخطية: المقتولون، وفي (م): المقتولين، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٤) في النسخ: حضر، والمثبت من أحكام القرآن.

(٥) في النسخ الخطية ونسخة من أحكام القرآن لابن العربي: القضاء، والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

لا حدَّ عليه؛ لأن الجُنون يُسقِطُ التكليف. وهذا إذا كان القذفُ في حالة الجنون، وأما إذا كان يجنُّ مرةً ويُفيق أُخرى فإنه يُحَدُّ بالقذف في حالة إفاقته.

والثاني: قولها: يا ابن الزانيين، فجلدها حدَّين لكل أبٍ حدٌّ، فإنما خطَّأه أبو حنيفة [فيه بناءً][١] على مذهبه في أن حدَّ القذف يتداخل، لأنه عنده حقُّ اللهِ[٢] تعالى كحدِّ الخمر والزنى. وأما الشافعي ومالك فإنهما يَرَيان أن الحدَّ بالقذف حقٌّ للآدمي، فيتعدَّد بتعدُّد المقذوف.

الثالث: أنه جَلَد بغير مطالبة المقذوف، ولا تجوز إقامةُ حدّ القذف بإجماعٍ من الأمة إلا بعد المُطالبة بإقامته ممن يقول: إنه حق الله تعالى، ومن يقول: إنه حقُّ الآدمي. وبهذا المعنى وقع الاحتجاج لمن يرى أنه حقٌّ للآدميّ؛ إذْ لو كان حقّاً لله لمَا توقّف على المطالبة كحدِّ الزِّنى.

الرابع: أنه والَى بين الحَدَّين، ومَن وجب عليه حدَّان لم يُوالَ بينهما، بل يُحَدُّ لأحدِهما ثم يُترَكُ حتى يندمِلَ الضرب، ثم يقام عليه الحدُّ الآخر.

الخامس: أنه حدَّها قائمةً، ولا تُحَدُّ المرأةُ إلا جالسةً مستورة؛ قال بعض الناس: في زنبيل.

السادس: أنه أقام الحدَّ في المسجد، ولا تُقام الحدود فيه إجماعاً. وفي القضاء[٣] في المسجد والتعزيز فيه خلافٌ.

قال القاضي: فهذا هو فصلُ الخِطاب وعلم القضاء الذي وقعت الإشارةُ إليه على أحد التأويلات في الحديث المرويّ «أقضاكم عليّ»[٤]. وأما مَن قال: إنه الإيجاز فذلك للعرب دون العَجَم، ولمحمد ﷺ دون العرب؛ وقد بيَّن هذا بقوله: «وأُوتيتُ

(١) ما بين حاصرتين من أحكام القرآن لابن العربي.
(٢) في أحكام لقرآن لابن العربي: حقٌّ لله.
(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: القصاص.
(٤) سلف أول المسألة.

جوامعَ الكَلِم»[١].

وأما من قال: إنه قوله: أمَّا بعد؛ فكان النبيُّ ﷺ يقول في خُطبته: «أما بعد»[٢].

ويُروى أن أوّل من قالها في الجاهلية سحبان بن وائل، وهو أوّلُ من آمنَ بالبعث، وأوّل من توكَّأ على عصا، وعُمِّر مئة وثمانين سنة. ولو صحَّ أن داود عليه السلام قالها، لم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النَّظم، وإنما كان بلسانه. والله أعلم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ «الخَصْمُ» يقع على الواحد والاثنين والجماعة[٤]؛ لأن أصلَه المصدر. قال الشاعر:

وَخَصْمٍ غضَابٍ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمُ ... كنفضِ البَرَاذينِ العِرابِ المَخَالِيا[٥]

---

(١) سلف ١٢/ ٢٩٥.

(٢) ثمة عدة أحاديث في أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «أما بعد» منها حديث الكسوف، هو عند البخاري (٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥). وقد ترجم له البخاري: باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد. وترجم في موضع آخر من صحيحه (١٠٦١): باب: قول الإمام في خطبة الكسوف: أما بعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٤.

(٥) قائله الراعي النميري، وهو في ديوانه ص٢٩١.

النحاس[١]: ولا خلاف بين أهل التفسير أنه يُراد به هاهنا مَلَكان.

وقيل: «تَسَوَّرُوا» وإن كانا[٢] اثنين حملاً على الخَصْم، إذ كان بلفظ الجمع ومضارعاً له، مثل الرَّكْب والصَّحْب. تقديره للاثنين: ذوا خَصْم، وللجماعة: ذوو خَصْم.

ومعنى: «تَسَوَّرُوا المِحرابَ» أَتَوْه مِن أعلى سُوره. يقال: تسوَّر الحائطَ: تسلَّقه، والسُّور: حائطُ المدينة، وهو بغير همز، وكذلك السُّوَرُ جمع سورةٍ، مثل: بُسْرَة وبُسَر، وهي كلُّ منزلة من البناء. ومنه سورةُ القرآن؛ لأنها منزلةٌ بعد منزلةٍ مقطوعة عن الأُخرى[٣]. وقد مضى في مقدّمة الكتاب بيانُ هذا[٤]. وقول النابغة:

ألم تَرَ أنَّ اللَّه أعْطاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذب[٥]

يريد شرفاً ومنزلة. فأما السؤر بالهمز، فهو بقيةُ الطعام في الإناء. ابن العربي[٦]: والسُّؤر: الوليمة بالفارسي. وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قال يومَ الأحزاب: «إنَّ جابراً قد صنع لكم سؤراً فحيَّ هلا بكم»[٧].

والمحراب هنا الغُرفة؛ لأنهم تسوَّروا عليه فيها؛ قاله يحيى بن سلام. وقال أبو عُبيدة[٨]: إنه صَدْر المَجْلس، ومنه محرابُ المسجد. وقد مضى القولُ فيه في غير موضع[٩].

---

(١) في معاني القرآن ٦/ ٩٤.

(٢) في (ظ): كانوا، وفي (م): كان.

(٣) الصحاح (سور).

(٤) ١/ ١٠٦.

(٥) ديوان النابغة ص١٨، وسلف ١/ ١٠٦.

(٦) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨، وما قبله منه.

(٧) أخرجه البخاري (٤١٠٢)، ومسلم (٢٠٣٩) مطولاً من حديث جابر ﷺ، وأخرجه أحمد بنحوه مطولاً (١٥٠٢٨).

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٠ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٨٥، وما قبله منه، وقول يحيى بن سلام فيه: إنه المسجد.

(٩) ٥/ ١٠٧ و١٣/ ٢٢٨.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ جاءت «إِذْ» مرتين؛ لأنهما فِعْلان. وزَعَم الفرّاء[١] أن إحداهما بمعنى لمَّا. وقول آخر أن تكون الثانيةُ مع ما بعدها تبييناً لما قبلَها.

قيل: إنهما كانا إنسيين؛ قاله النقَّاش. وقيل: مَلَكَين؛ قاله جماعة. وعيَّنهما جماعة، فقالوا: إنهما جبريلُ وميكائيل[٢]. وقيل: مَلَكَين في صورةِ إنسيَّين بعثهما اللهُ إليه في يوم عبادته. فمنعهما الحرسُ الدخول، فتسوَّروا المحراب عليه، فما شعر وهو في الصلاة إلا وهما بين يدَيْه جالسين؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: عَلَوْا ونزلُوا عليه من فوق المحراب؛ قاله سفيان الثوري وغيره[٣].

وسببُ ذلك ما حكاه ابن عباس أن داود عليه السلام حدَّث نفسَه إن ابتُلي أن يعتصم. فقيل له: إنك ستُبتلى وتَعْلَمُ اليومَ الذي تُبتلَى فيه فَخُذْ حِذرك. فأخذ الزبور ودخل المحرابَ، ومنع من الدخول عليه، فبينا هو يقرأ الزبورَ إذ جاء طائرٌ كأحسن ما يكون من الطير، فجعل يَدرُج بين يديه. فهمَّ أن يتناولَه بيده، فاستدرج حتى وقعَ في كَوَّة المحراب، فدنا منه لِيأخُذَه فطار، فاطلع لِيُبصِرَه فأشرفَ على امرأة تغتسل، فلما رأته غطَّت جسدَها بشعرها. قال السدّي: فوقعت في قلبه.

قال ابن عباس: وكان زوجها غازياً في سبيل الله وهو أوريا بن حنان، فكتب داودُ إلى أمير الغُزاة أن يجعل زوجَها في حَمَلَةِ التابوت، وكان حَمَلَةُ التابوت إما أن يَفتح اللهُ عليهم أو يُقتلوا، فقدَّمه فيهم فقتل، فلما انقضت عِدَّتها خطبها داود، واشترطت عليه إن ولدتْ غلاماً أن يكون الخليفةَ بعده، وكتبت عليه بذلك كتاباً، وأشهدتْ عليه خمسين رجلاً من بني إسرائيل، فلم تستقرَّ نفسُه حتى ولدتْ سليمانَ وشَبَّ، وتسوَّر الملكان وكان من شأنهما ما قصَّ اللهُ في كتابه. ذكره الماوردي وغيره.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٤٠١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩، وما قبله منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦١٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٥٣ ، وزاد المسير ٧/ ١١٥ .

ولا يصح[١].

قال ابن العربي[٢]: وهو أمثلُ ما رُوي في ذلك.

قلت: ورواه مرفوعاً بمعناه الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، سمع أنس بن مالك يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ داودَ النبيَّ عليه السلام حين نظرَ إلى المرأة فهمَّ بها قطع على بني إسرائيل بَعْثاً، وأوصى صاحبَ البَعْث فقال: إذا حضر العدوُّ قَرِّب فلاناً، وسمَّاه، قال: فقرَّبه بين يدي التابوت. قال: وكان ذلك التابوتُ في ذلك الزمان يُستنصَر به، فمن قُدِّم بين يدي التابوت لم يرجعْ حتى يُقتلَ أو ينهزمَ عنه الجيش الذي يُقاتله، فقُدِّم، فَقُتِل زوجُ المرأة، ونزل المَلَكان على داود، فقصَّا عليه القصّة»[٣].

وقال سعيد عن قتادة: كتبَ إلى زوجها وذلك في حصار عَمَّان مدينة بلقاء أن يأخذوا بحلقة الباب، وفيه الموت الأحمر، فتقدَّم فقتل.

وقال الثعلبي[٤]: قال قومٌ من العلماء: إنما امتحنَ اللهُ داودَ بالخطيئة؛ لأنه تمنَّى يوماً على ربِّه منزلةَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه نحوَ ما امتحنهم، ويُعطيه نحو ما أَعطاهم. وكان داودُ قد قسمَ الدهرَ ثلاثةَ أيام، يومٌ يقضي فيه بين الناس، ويومٌ يخلو فيه بعبادة ربِّه، ويومٌ يخلو فيه بنسائه وأشغاله.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٨٥ – ٨٦، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢، وزاد المسير ٧/ ١١٥. وينظر قول الحافظ ابن كثير الذي سنذكره في التعليق بعد التالي.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٢.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٧٤، وابن أبي حاتم والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٠ وضعَّف إسناده. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٠: قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرَّقَاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. اهـ.

(٤) في عرائس المجالس ص٢٨١ – ٢٨٣، والكلام إلى نهاية المسألة فيه، وفي تفسير البغوي ٤/ ٥٢ – ٥٣ بنحوه.

وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فَضْلَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال: يا رب، إنَّ الخيرَ كلَّه قد ذهب به آبائي؛ فأوحى الله تعالى إليه: إنهم ابتُلوا ببلايا لم يُبتَلَ بها غيرُهم فصبروا عليها؛ ابتُلي إبراهيمُ بنمروذ، وبالنار، وبذبح ابنه، وابتُليَ إسحاقُ بالذبح، وابتُلي يعقوبُ بالحزن على يوسف وذهاب بصره، ولم تُبتَلَ أنت بشيء من ذلك. فقال داود عليه السلام: فابتلني بمثل ما ابتليتهم، وأَعطني مثلَ ما أَعطيتَهم، فأوحى الله تعالى إليه: إنك مُبتلىً في شهر كذا في يوم الجمعة. فلما كان ذلك اليوم دخلَ محرابَه، وأغلق بابَه، وجعل يُصلِّي ويقرأ الزبور. فبينا هو كذلك إذ مثلَ له الشيطانُ في صورة حمامة من ذهب، فيها من كلِّ لون حَسَن، فوقف بين رجليه، فمدَّ يدَه لِيأخُذَها فيدفعها لابنٍ له صغير، فطارتْ غيرَ بعيد، ولم تُؤيسه من نفسها، فامتدَّ إليها لِيأخُذَها فتنحَّت، فتبعها فطارتْ حتى وقعتْ في كَوَّة، فذهب لِيأخُذَها فطارت، ونظرُ داودَ يرتفع في إثرها ليبعثَ إليها من يأخذُها، فنظر امرأةً في بستان على شَطِّ بركة تغتسل؛ قاله الكلبي.

وقال السُّدي[(١)]: تغتسل عُريانة على سطحٍ لها؛ فرأى أجملَ النساء خَلْقاً، فأبصرت ظِلَّه فنفضتْ شعرَها فغطَّى بَدَنَها، فزاده إعجاباً بها. وكان زوجُها أوريا بن حنان في غزوة مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود، فكتب داودُ إلى أيوبَ أن ابعثْ بأوريا إلى مكان كذا وكذا، وقَدِّمه قبلَ التابوت، وكان مَن قُدِّم قبل التابوت لا يَحِلُّ له أن يرجعَ وراءه حتى يفتحَ اللهُ عليه أو يستشهد. فقدَّمه ففتح له، فكتب إلى داود يُخبره بذلك.

قال الكلبي: وكان أوريا سيفَ الله في أرضه في زمان داود، وكان إذا ضربَ ضربةً وكبَّر كبَّر جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن شماله، وكبَّرت ملائكةُ السماء بتكبيره حتى ينتهي ذلك إلى العرش، فتُكبِّر ملائكةُ العرش بتكبيره. قال: وكان سيوفُ الله ثلاثة؛ كالب بن يوفنا في زمن موسى، وأوريا في زمن داود، وحمزة بن عبد المطَّلب

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٦٦ .

في زمن رسول الله ﷺ[١].

فلما كتب أيوبُ إلى داود يُخبره أن الله قد فتح على أوريا كتبَ داودُ إليه: أن ابعثه في بَعْثِ كذا وقدِّمه قبل التابوت؛ ففتح الله عليه، فقُتل في الثالثة شهيداً. فتزوَّج داودُ تلك المرأةَ حين انقضت عِدَّتها. فهي أُمُّ سليمان بن داود.

وقيل: سببُ امتحان داود عليه السلام أن نَفْسَه حدَّثته أنه يُطيق قطعَ يومٍ بغير مُقارفة شيء.

قال الحسن: إن داود جزَّأ الدهر أربعةَ أجزاء؛ جُزءاً لنسائه، وجُزءاً للعبادة، وجُزءاً لبني إسرائيل يُذاكرونه ويُذاكرهم ويبكونه ويبكيهم، ويوماً للقضاء. فتذاكروا هل يمرُّ على الإنسان يومٌ لا يُصيب فيه ذنباً؟ فأضمر داودُ أنه يُطيق ذلك؛ فأغلق البابَ على نفسه يومَ عبادته، وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأكبَّ على قراءة الزبور، فوقعت حمامةٌ من ذهب بين يديه. وذكر نحو ما تقدَّم.

قال علماؤنا: وفي هذا دليل، وهي:

الثانية: على أنه ليس على الحاكم أن ينتصب للناس كلَّ يوم، وأنه ليس للإنسان أن يترك وطءَ نسائه وإن كان مشغولاً بالعبادة. وقد مضَى هذا المعنى في «النساء». وحَكَم كعبٌ بذلك في زمن عمرَ بمحضره رضي الله عنهما[٢]. وقد قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو[٣]: «إنّ لِزوجِكَ عليك حقّاً» الحديث.

وقال الحسن أيضاً ومجاهد: إن داودَ عليه السلام قال لبني إسرائيلَ حين استُخلِفَ: والله لأَعْدِلنَّ بينكم، ولم يَسْتثْنِ فابتُلي بهذا.

وقال أبو بكر الورَّاق: كان داودُ كثيرَ العبادة فأُعجب بعمله، وقال: هل في

---

(١) الذي في الصحيح أن خالد بن الوليد ﷺ هو من سمَّاه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله. أخرجه البخاري (٣٧٥٧) من حديث أنس ﷺ، وأحمد (٤٣) من حديث أبي بكر ﷺ.

(٢) سلف ٦/ ٣٦ - ٣٧.

(٣) في (م) عمر، والحديث أرجه أحمد (٦٨٦٧)، والبخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

الأرض أحدٌ يعمل كعملي. فأتاه جبريل[١]؛ فقال: إنَّ الله تعالى يقول لك: أُعجِبْتَ بعبادتك، والعُجب يأكلُ العبادة كما تأكل النارُ الحَطَبَ، فإنْ أُعجبتَ ثانية وَكَلْتُكَ إلى نفسك. قال: يا رب، كِلْني إلى نفسي سنةً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: فشهراً. قال: إنَّ ذلك لكثير. قال: فيوماً. قال: إنَّ ذلك لَكثير. قال: يا ربِّ، فَكِلْني إلى نفسي ساعةً. قال: فشأنك بها. فوكل الأحراسَ، ولَبِسَ الصُّوفَ، ودخل المحرابَ، ووضع الزَّبور بين يديه؛ فبينما هو في عبادته إذ وقع الطائرُ بين يديه، فكان من أمرِ المرأة ما كان.

وقال سفيان الثوري: قال داود ذاتَ يوم: يا ربّ، ما مِنْ يوم إلا ومِن آل داود لك فيه صائم، وما مِنْ ليلةٍ إلا ومِن آل داود لك فيها قائم. فأوحى الله إليه: يا داودُ، منك ذلك أو مني؟ وعِزَّتي لأَكِلَنَّك إلى نفسك. قال: يا رب، اعفُ عنِّي. قال: أَكِلُكَ إلى نفسك سنةً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فشهراً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فأُسبوعاً. قال: لا بِعزَّتك. قال: فيوماً. قال: لا بعزَّتك. قال: فساعة قال: لا بعزَّتك. قال: فلحظةً. فقال له الشيطان: وما قدرُ لحظة. قال: كِلْني إلى نفسي لحظةً. فَوَكَلَهُ اللهُ إلى نفسه لحظةً. وقيل له: هي في يوم كذا في وقت كذا. فلما جاء ذلك اليومُ جعله للعبادة، ووكل الأحراسَ حول مكانه. قيل: أربعة آلاف. وقيل: ثلاثين ألفاً، أو ثلاثة وثلاثين ألفاً. وخلا بعبادة ربِّه، ونشر الزبور بين يديه، فجاءت الحمامةُ فوقعت له، فكان من أمره في لحظته مع المرأة ما كان. وأرسلَ اللهُ عزّ وجلّ إليه المَلَكين بعد ولادة سليمان، وضَرَبا له المثل بالنِّعاج؛ فلما سمع المَثَلَ ذكَر خطيئته فخرَّ ساجداً أربعين ليلةً على ما يأتي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهما أتياه ليلاً في غير وقت دخول الخصوم. وقيل: لِدخولهم عليه بغير إذنه. وقيل: لأنهم تسوَّروا عليه المحراب ولم يأتوه من الباب[٢].

---

(١) في النسخ: فأوحى الله إليه جبريل، والمثبت من عرائس المجالس ص٢٨٣، والكلام منه.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٤، وزاد المسير ٧/ ١١٨ بنحوه.

قال ابن العربي[١]: وكان محرابُ داودَ عليه السلام من الامتناع بالارتفاع، بحيث لا يَرتقي إليه آدميٌّ بحيلة إلا أن يُقيم إليه أياماً أو أشهراً بحسب طاقته، مع أعوانٍ يَكثُر عَدَدُهم، وآلاتٍ جمَّة مختلفة الأنواع. ولو قلنا: إنه يوصَل إليه من باب المحراب لما قال الله تعالى مُخبراً عن ذلك: ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ إذ لا يقال: تسوَّر المحرابَ والغُرفةَ لمن طلع إليها مِن دَرَجِها، وجاءها مِن أسفلها إلا أن يكون ذلك مَجازاً؛ وإذا شاهدت الكَوَّة التي يقال: إنه دخل منها الخَصْمان علمت قطعاً أنهما مَلَكان؛ لأنها من العُلُوِّ بحيث لا يَنالها إلا عُلْويّ.

قال الثعلبي: وقد قيل: كان المُتسوِّران أخوين من بني إسرائيل لأب وأم. فلما قضى داوُد بينهما بقضية قال له مَلَك من الملائكة: فهلا قضيتَ بذلك على نفسكَ يا داود. قال الثعلبي: والأول أحسنُ؛ أنهما كانا مَلَكين نَبَّها داودَ على ما فَعَل.

قلت: وعلى هذا أكثرُ أهل التأويل. فإن قيل: كيف يجوز أن يقول الملكان: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وذلك كَذِبٌ، والملائكة عن مثله مُنزَّهون. فالجواب عنه أنه لابد في الكلام من تقدير؛ فكأنهما قالا: قَدِّرنا كأننا خَصْمان بَغَى بعضُنا على بعض فاحكُمْ بيننا بالحق، وعلى ذلك يُحمل قولُهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ لأن ذلك وإن كان بصورة الخبر فالمرادُ إيرادُه على طريق التقديرِ لينبّه داود على ما فعل؛ والله أعلم[٢].

الرابعة: إن قيل: لِم فَزِعَ داودُ وهو نبيٌّ، وقد قَوِيتْ نفسُه بالنبوّة، واطمأنَّتْ بالوحي، ووَثِقَتْ بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات، وكان من الشجاعة في غاية المكانة؟! قيل له: ذلك سبيل الأنبياء قبلَه، لم يأمنوا القتل والأذِية، ومنهما كان يخاف. ألا ترى إلى موسى وهارون عليهما السلام كيف قالا: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فقال الله عز وجل: ﴿لَا تَخَافَآ﴾. وقالت الرُّسل

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦١٩ .

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٠ .

لـلـوط: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هـود: ٧٠] ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هـود: ٨١] وكـذا قـال الملكان هنا: «لَا تَخَفْ»[١].

قال محمد بن إسحاق: بعث اللهُ إليه مَلَكين يختصمان إليه وهو في محرابه مثلاً ضربه اللهُ له ولأوريا، فرآهما واقفين على رأسه؛ فقال: ما أدخلكما عليّ؟ قالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فجئناك لِتقضيَ بيننا.

الخامسة: قال ابن العربي[٢]: فإنْ قيل: كيف لم يأمُرْ بإخراجهما إذ قد علم مَطْلبهما، وهلَّا[٣] أدَّبهما وقد دخلا عليه بغير إذن؟ فالجواب عليه من أربعة أوجه:

الأوّل: أنَّا لم نعلمْ كيفيةَ شَرْعه في الحجاب والإذن، فيكون الجوابُ بحسب تلك الأحكام، وقد كان ذلك في ابتداء شَرْعنا مُهملاً في هذه الأحكام، حتى أوضحها اللهُ تعالى بالبَيان.

الثاني: أنَّا لو نزَّلنا الجواب على أحكام الحجاب، لاحتملَ أن يكون الفزعُ الطارئ عليه أذهله عما كان يجبُ في ذلك له.

الثالث: أنه أراد أن يَستوفيَ كلامهما الذي دخلا له حتى يعلمَ آخرَ الأمر منه، ويرى هل يَحتمِلُ التقحُّم فيه بغير إذن أَمْ لا؟ وهل يقترِن بذلك عذرٌ لهما أن لا يكون لهما عذرٌ فيه؟ فكان من آخرِ الحال ما انكشف أنه بلاءٌ ومحنة، وَمَثَلٌ[٤] ضربه اللهُ في القصة، وأدبٌ وقع على دعوى العِصمة.

الرابع: أنه يحتملُ أن يكون في مسجد ولا إذنَ في المسجد لأحد إذ لا حَجْرَ فيه على أحد.

قلت: وقولٌ خامس ذكره القشيري؛ وهو أنهما قالا: لمَّا لم يَأذنْ لنا المُوكَّلون بالحجاب، توصَّلنا إلى الدخول بالتَّسُّور، وخفنا أن يتفاقمَ الأمرُ بيننا. فَقَبِلَ داودُ

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦١٩ بنحوه.

(٢) أحكام القرآن ٤/١٦١٩ - ١٦٢٠.

(٣) في النسخ الخطية: ولا، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ الخطية: مثلاً، والمثبت من (م).

عُذْرَهم، وأصغى إلى قولهم.

السادسة: قوله تعالى: «خَصْمانِ» إن قيل: كيف قال: «خَصْمانِ» وقبلَ هذا: «إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْراب» فقيل: لأن الاثنين جمع؛ قال الخليل: كما تقول: نحن فعلنا إذا كنتما اثنين. وقال الكسائي: جمع لما كان خبراً، فلما انقضى الخبرُ وجاءت المُخاطبة، خبَّر الاثنان عن أنفسهما فقالا: خَصْمان.

وقال الزجاج[١]: المعنى: نحن خَصْمان. وقال غيره: القولُ محذوف؛ أي: يقول خَصْمانِ بَغَى بعضُنا على بعض. قال الكسائي: ولو كان بغى بعضُهما على بعض لجاز.

الماوردي[٢]: وكانا مَلَكين، ولم يكونا خَصْمين ولا باغيين، ولا يتأتَّى منهما كَذِب؛ وتقديرُ كلامهما ما تقول: إنْ أتاك خَصْمان قالا: بغى بعضُنا على بعض.

وقيل: أي: نحن فريقان من الخصوم بغَى بعضنا على بعض.

وعلى هذا يحتمل أن تكون الخُصومةُ بين اثنين ومع كلِّ واحد جمع. ويحتملُ أن يكون لكلِّ واحد من هذا الفريق خُصومةٌ مع واحد[٣] من الفريق الآخر، فحضروا الخُصوماتِ، ولكن ابتدأ منهم اثنان، فعرفَ داودُ بذِكْر النكاح القصة. وأغنى ذلك عن التعرُّض للخُصومات الأُخَر.

والبَغْي التعدِّي والخُروج عن الواجب. يقال: بغى الجُرْح إذا أفرطَ وَجَعُه وترامَى إلى ما يَفحُشُ، ومنه: بَغَتِ المرأةُ إذا أَتَتِ الفاحشةَ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تَجُرْ؛ قاله السُّدِّي[٤]. وحكى أبو عبيد: شَطَطت عليه، وأشططتُ، أي: جُرت. وفي حديث تميم الداريّ:

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٢٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٦.

(٣) في (م): كل واحد.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٨٦.

إنكَ لشَاطِّي. أي: جائر عليَّ في الحُكم[١].

وقال قتادة: لا تَمِلْ. الأخفش: لا تُسرِف[٢]. وقيل: لا تُفرط. والمعنى متقارب.

والأصلُ فيه البُعد، من شَطَّتِ الدارُ، أي: بَعُدَتْ؛ شَطَّتِ الدار تَشِطُّ وتَشُطُّ شطّاً وشطوطاً: بَعُدَتْ. وأشطَّ في القضية، أي: جار، وأَشطَّ في السَّوْم واشتط، أي: أبعد، وأشطُّوا في طلبي، أي: أمعنوا. قال أبو عمرو: الشَّطَطُ مجاوزةُ القَدْر في كلِّ شيء. وفي الحديث: لها مهرُ مِثْلِها لا وَكْسَ ولا شَطَط[٣]. أي: لا نُقصان ولا زيادة[٤]. وفي التنزيل: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] أي: جوراً من القول وبُعداً عن الحق.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: أَرشدنا إلى قَصْدِ السبيل.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي: قال المَلَك الذي تكلَّم عن أوريا «إنَّ هذا أَخي» أي: على ديني، وأشار إلى المُدَّعى عليه. وقيل: أخي، أي: صاحبي[٥] «له تِسْعٌ وتِسعون نَعْجةٌ».

وقرأ الحسن: «تَسْعٌ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً» بفتح التاء فيهما، وهي لغةٌ شاذة، وهي الصحيحة من قراءة الحسن؛ قاله النحاس[٦]. والعرب تَكْني عن المرأة بالنعجة والشاة؛ لِمَا هي عليه من السكون والمَعْجَزة وضَعْف الجانب. وقد يُكْنَى عنها بالبقرة

---

(١) الصحاح (شطط)، وقول أبي عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٠٨، وقول تميم الداري ﷺ ذكره أبو عبيد، وابن الأثير في النهاية (شطط). وقصته: أن رجلاً كلَّمه في كثرة العبادة، فقال: أرأيت إن كنتُ مؤمناً ضعيفاً وأنت مؤمن قويّ، إنك لشاطِّي حتى أحمل قوتك على ضعفي، فلا أستطيع فأنبتّ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٦.

(٣) هذا قول ابن مسعود ﷺ في رجل تزوج امرأة لم يفرض لها ولم يدخل بها حتى مات. وسلف ٤/ ١٥٩.

(٤) الصحاح (شطط).

(٥) النكت والعيون ٥/ ٨٧.

(٦) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٠، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص ١٣٠، والمحتسب ٢/ ٢٣١.

والحِجر[١] والناقة؛ لأنَّ الكلَّ مَرْكوب. قال ابن عون:

أنا أبوهنَّ ثلاثٌ هُنَّهْ رابعةٌ في البيت صُغْرا هُنَّهْ
ونعجتي خمساً تُوفِّيهنَّهْ ألا فتىً سمحٌ يُغذِّيهنَّهْ
طَيّ النَّقا في الجوع يَطْويهنَّهْ ويلُ الرَّغيفِ ويلَهُ مِنْهُنَّهْ[٢]

وقال عنترة:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمن حَلَّتْ له حَرُمتْ عليَّ وَليتَها لم تَحْرُمِ
فَبَعَثْتُ جاريتي فقلتُ لها اذْهَبي فتَجَسَّسِي أخبارَها لي واعْلَمي
قالت رأيْتُ مِن الأعادي غِرَّةً والشّاةُ مُمْكِنَةٌ لمن هو مُرْتَمِ
فكأنَّما التَفَتَتْ بِجيدِ جَدايةٍ رَشَأٍ مِنَ الغِزْلانِ حُرٌّ أرْثَمِ[٣]

وقال آخر:

فرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عن شَاتِهِ فأصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَها[٤]

وهذا من أحسنِ التعريض حيث كَنَى بالنِّعاج عن النساء. قال الحسين بن الفَضْل: هذا من المَلَكين تعريضٌ وتنبيهٌ كقولهم: ضربَ زيدٌ عَمراً، وما كان ضربٌ ولا نعاج على التحقيق، كأنه قال: نحن خَصْمان هذه حالُنا[٥]. قال أبو جعفر النحاس: وأحسنُ ما قيل في هذا: أنَّ المعنى: يقول خصمان بغَى بعضُنا على بعض، على جهة المسألة؛ كما تقول: رجلٌ يقول لامرأته كذا؛ ما يجب عليه؟[٦]

---

(١) في (د) و(ظ) و(م): والحجرة، والمثبت من (ز)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي، والكلام منه ٤/ ١٦٢٠ ، والحِجْر: الأنثى من الخيل، اللسان (حجر).

(٢) أورد البيتان الأول والثاني الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٨٠ .

(٣) ديوان عنترة ص ٢٨ . الجداية: الغزال. والرشأ: الظبي إذا قوي ومشى مع أمه. القاموس (جدي) و(رشأ).

(٤) قائله الأعشى، وهو في ديوانه ص ٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٥٤ بنحوه.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٩٥ .

قلت: وقد تأوَّل المُزنيّ صاحبُ الشافعي هذه الآيةَ وقولَه ﷺ في حديث ابن شهاب الذي خرَّجه «الموطأ» وغيره: «هو لكَ يا عبدُ بن زَمْعَة[١]» على نحو هذا؛ قال المُزني: يحتمِل هذا الحديثُ عندي ـ والله أعلم ـ أن يكون النبيُّ ﷺ أجاب عن المسألة فأعلمهم بالحُكم أنَّ هذا يكون إذا ادَّعى صاحبُ فراش وصاحبُ زِنى، لا أنه قَبِلَ على عُتبة قولَ أخيه سعد، ولا على زَمْعَة قولَ ابنه: إنه ولدُ زنى، لأن كلاًّ واحد منهما أَخبرَ عن غيره. وقد أجمع المسلمون أنه لا يقبل إقرار أحدٍ على غيره. وقد ذكر الله سبحانه في كتابه مثلَ ذلك في قصة داود والملائكة؛ إذ دخلوا عليه فَفَزِعَ منهم، قالوا: لا تَخَفْ خَصْمان، ولم يكونوا خَصْمين، ولا كان لواحد منهم تسعٌ وتسعون نَعْجة، ولكنهم كلَّموه على المسألة لِيعرِفَ بها ما أرادوا تعريفَه. فيحتمِل أن يكون النبي ﷺ حكم في هذه القصة على المسألة، وإنْ لم يكن أحدٌ يُؤنسني على هذا التأويل في الحديث، فإنه عندي صحيح[٢]. والله أعلم.

التاسعة: قال النحاس[٣]: وفي قراءة ابن مسعود: «إنَّ هذا أَخِي كان له تِسْعٌ وتسعونَ نعجةً أُنثى[٤]» و«كان» هنا مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأما قوله: «أنثى» فهو تأكيد، كما يقال: هو رجلٌ ذكرٌ، وهو تأكيد. وقيل: لمَّا كان يقال: هذه مئةُ نعجة وإنْ كان فيها من الذكور شيءٌ يسير، جاز أن يقال: أُنثى ليعلم أنه لا ذَكَرَ فيها. وفي التفسير: له تسع وتسعون امرأة.

قال ابن العربي[٥]: إنْ كان جميعهن أحراراً فذلك شَرْعُه، وإن كنَّ إماءً فذلك شرعُنا. والظاهرُ أن شرع مَن تقدَّم قبلنا لم يكن محصوراً بعدد، وإنما الحصر في

---

(١) الموطأ ٢/ ٧٣٩ ، وأخرجه أحمد (٢٤٠٨٦)، والبخاري (٢٠٥٣) ومسلم (١٤٥٧) مطولاً، وفيه قصة.

(٢) التمهيد ٨/ ١٨٦ .

(٣) معاني القرآن ٦/ ٩٧ - ٩٨ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٠ .

شريعة محمد ﷺ، لِضَعْفِ الأبدان وقلَّة الأعمار.

وقال القشيري: ويجوز أن يقال: لم يكن له هذا العدد بعينه، ولكن المقصود ضرب مثل، كما تقول: لو جئتني مئةَ مرة لم أقضِ حاجتَك، أي: مراراً كثيرة.

قال ابن العربي[١]: قال بعض المفسرين: لم يكن لداود مئة امرأة، وإنما ذكر التسعة والتسعين مثلاً؛ المعنى: هذا غنيٌّ عن الزوجة وأنا مُفتقِرٌ إليها. وهذا فاسدٌ من وجهين: أحدهما: أن العدول عن الظاهر بغير دليل لا معنى له، ولا دليل يدلُّ على أن شرعَ من قبلنا كان مقصوراً من النساءِ على ما في شرعنا. الثاني: أنه روى البخاري وغيره أن سليمانَ قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على مئة امرأة تَلِدُ كلُّ امرأة غلاماً يُقاتل في سبيل الله، ونَسِيَ أن يقول: إن شاء الله»[٢]. وهذا نصٌّ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: امرأة واحدة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: انزل لي عنها حتى أَكْفُلَها، وقال ابن عباس: أَعطنيها. وعنه: تحوَّل لي عنها. وقاله ابن مسعود. وقال أبو العالية: ضُمَّها إليَّ حتى أَكْفُلَها. وقال ابن كيسان: اجعلها كِفْلي ونصيبي، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني. قال الضحاك: إنْ تكلَّم كان أفصحَ مني، وإن حارب كان أبطشَ مني[٣].

يقال: عزّه يَعُزُّه ـ بضم العين في المستقبل ـ عَزّاً: غلبه. وفي المثل: مَنْ عَزَّ بَزَّ؛ أي: من غَلَبَ سَلَب. والاسمُ العِزَّة، وهي القوّة والغَلَبة[٤]. قال الشاعر:

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ   تُجاذِبُهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ[٥]

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٤٢)، وأخرجه أحمد (٧٧١٥)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) هذه الأقوال في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٤ .

(٤) الصحاح (عزز). والمثل: من عزَّ بزَّ. سلف ١٨/ ١٢٥ .

(٥) اختلف في قائله، فقيل: مجنون ليلى، وقيل: نُصَيب بن رباح، وقيل: توبه بن الحُمَيِّر. ينظر ديوان مجنون ليلى ص ٩٠ ، وشعر نُصيب بن رباح ص٧٤ ، والكامل للمبرد ٢/ ٩٢٩ ، وشرح ديوان الحماسة البصرية ٣/ ١٥١ .

وقرأ عبدُ الله بن مسعود وعُبيد بن عُمير: «وعَازَّني في الخطَابِ»[١] أي: غالبني؛ من المُعَازَّة، وهي المغالبة؛ عازَّه، أي: غالبه.

قال ابن العربي[٢]: واختُلف في سبب الغَلَبة؛ فقيل: معناه: غلبني ببيانه. وقيل: غَلَبني بسلطانه؛ لأنه لمَّا سأله لم يستطِعْ خِلافَه.

كان ببلادنا أميرٌ يقال له: سير بن أبي بكر[٣]، فكلَّمته في أن يسأل لي رجلاً حاجة، فقال لي: أما علمتَ أنَّ طلبَ السلطان للحاجة غَصْبٌ لها. فقلت: أما إذا كان عَدْلاً فلا. فعجبتُ من عُجمته وحفظه لما تمثَّل به وفِطنته، كما عَجِبَ من جوابي له واستغربه.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ قال النحاس[٤]: فيقال: إن هذه كانت خطيئةَ داود عليه السلام؛ لأنه قال: لقد ظَلمك من غير تثبُّت بينة، ولا إقرار من الخَصْم؛ هل كان هذا كذا أو لم يكن. فهذا قول. وسيأتي بيانُه في المسألة بعد هذا، وهو حسنٌ إن شاء الله تعالى.

قال أبو جعفر النحاس[٥]: فأما قولُ العلماء الذين لا يُدفَع قولُهم؛ منهم عبد الله ابن مسعود وابن عباس، فإنهم قالوا: ما زاد داودُ صلى الله على نبينا وعليه على أن قال للرجل: اِنزل لي عن امرأتك. قال أبو جعفر: فعاتبه اللهُ عزّ وجلّ على ذلك ونبَّهه عليه، وليس هذا بكبير من المعاصي، ومَن تخطَّى إلى غير هذا فإنما يأتي بما لا يصحُّ عن عالم، ويلحقه فيه إثمٌ عظيم. كذا قال في كتاب «إعراب القرآن».

وقال: في كتاب «معاني القرآن»[٦] له بمثله. قال ﷺ: قد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود عليه السلام وأوريا، وأكثرها لا يصحُ! ولا يتصل إسنادُه، ولا ينبغي أن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، ونسبها في القراءات الشاذة ص ١٣٠ لمسروق وأبي وائل والحسن.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢١ .

(٣) أحد أمراء السلطان يوسف بن تاشفين. نفح الطيب ٤/ ٣٧٣ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦١ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) ٦/ ٩٨ - ١٠١ وما بين حاصرتين الآتي منه.

يُجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها. وأصحُّ ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: ما زاد دوادُ عليه السلام على أن قال: «أكفِلْنِيها» أي: اِنزل لي عنها. وروى المِنهال عن سعيد بن جُبير [عن ابن عباس] قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: «أَكْفِلْنِيها» أي: تحوَّل لي عنها وضُمَّها إليَّ[١].

قال أبو جعفر: فهذا أجلُّ ما رُوي في هذا، والمعنى عليه: أن داود عليه السلام سأل أُوريا أن يُطلِّق امرأته كما يسأل الرجلُ الرجلَ أن يَبيعه جاريتَه، فنبَّهه الله عز وجل على ذلك، وعاتبه لمَّا كان نبيّاً وكان له تسعٌ وتسعون أنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيُّد منها، فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراءُ عليه.

قال ابن العربي[٢]: وأما قولهم: إنها لمَّا أعجبته أمرَ بتقديم زوجها للقَتْل في سبيل الله، فهذا باطلٌ قطعاً؛ فإن داود ﷺ لم يكن لِيُريقَ دمَه في غَرَضِ نَفْسه، وإنما كان من الأمر أن داود قال لبعض أصحابه: اِنْزِلْ لي عن أهلك، وعَزَمَ عليه في ذلك، كما يطلبُ الرجلُ من الرجل الحاجة برغبةٍ صادقة؛ كانت في الأهل أو في المال. وقد قال سعدُ[٣] بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف حين آخى رسولُ الله ﷺ بينهما: إنَّ لي زوجتين أَنزِلُ لك عن أحسنهما؛ فقال له: بارك الله لك في أهلك[٤]. وما يجوز فِعلُه ابتداءً يجوز طَلَبُه، وليس في القرآن أن ذلك كان، ولا أنه تزوَّجها بعد زَوال عِصْمةِ الرجل عنها، ولا ولادتها لسليمان، فعمن يُروَى هذا ويُسنَد؟! وعلى مَن في نَقْله يُعتمَد، وليس يَأْثُره عن الثِّقات الأَثْبات أحدٌ.

أما أن في سورة «الأحزاب» نكتةً تدلُّ على أن داودَ قد صارت له المرأةُ زوجةً،

---

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ -١٦٢٥ .

(٣) في (م) سعيد، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٣١٢٣)، والبخاري (٣٧٨١) من حديث أنس ﷺ.

وذلك قوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الآية:٣٨] يعني في أحد الأقوال تزويج داود المرأة التي نظر إليها، كما تزوَّج النبي ﷺ زينبَ بنت جحش[1]؛ إلا أن تزويج زينب كان من غير سؤال للزوج في فِراق، بل أمره بالتمسُّك بزوجته، وكان تزويجُ داود للمرأة بسؤال زوجها فراقَها. فكانت هذه المَنْقَبة لمحمد ﷺ على داودَ مُضافةً إلى مَناقبه العَلِيَّة ﷺ.

ولكن قد قيل: إن معنى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ تزويج الأنبياء بغير صَداق مَنْ وهبتْ نفسَها لهم من النساء بغير صَداق. وقيل: أراد بقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أن الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم فُرِضَ لهم ما يمتثلونه في النكاح وغيره. وهذا أصحُّ الأقوال.

وقد روى المفسرون أن داود عليه السلام نكح مئةَ امرأة؛ وهذا نصُّ القرآن. وروي أن سليمانَ كانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة جارية؛ وربُّك أعلم[2].

وذكر الكيا الطبري في «أحكامه»[3] في قول الله عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ الآية: ذكر المُحقِّقون الذين يَرون تنزيهَ الأنبياء عليهم السلام عن الكبائر أن داودَ عليه السلام كان قد أقدمَ على خِطبة امرأة قد خَطَبها غيرُه، يقال: هو أوريا؛ فمال القومُ إلى تزويجها من داودَ راغبين فيه، وزاهدين في الخاطب الأوّل، ولم يكن بذلك داود عليه السلام عارفاً، وقد كان يُمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة، وعن الخِطبة بها، فلم يفعل ذلك، من حيث أُعجِبَ بها إمَّا وصفاً أو مشاهدةً على غير تَعَمُّد؛ وقد كان لداود عليه السلام من النساء العَدَدُ الكثير، وذلك الخاطبُ لا امرأةَ له، فنبَّهه الله تعالى على ما فعل بما كان مِن تسوُّر المَلَكين، وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض؛ لكي يَفهمَ من ذلك موقعَ العَتَب فيعدل عن

---

(١) سلف ١٤/١٨٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٥ .

(٣) ٤/٣٥٩ - ٣٦٠ .

هذه الطريقة، ويستغفر ربَّه من هذه الصغيرة.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخَصْمين، وقبلَ أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول. قال ابن العربي[١]: وهذا مما لا يجوز عند أحد، ولا في مِلَّة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر. وإنما تقديرُ الكلام أن أحد الخَصْمين ادَّعى والآخر سلَّم في الدعوى، فوقعت بعد ذلك الفتوى. وقد قال النبي ﷺ: «إذا جلسَ إليك الخَصْمان فلا تَقْضِ لأحدِهما حتى تسمعَ من الآخر»[٢].

وقيل: إن داودَ عليه السلام لم يَقْضِ للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك. وقيل تقديره: لقد ظَلَمك إنْ كان كذلك. والله أعلمُ بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه.

قلت: ذكر هذين الوجهين القشيري والماورديّ[٣] وغيرهما. قال القشيري: وقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ مِن غير أن يسمعَ كلامَ الخَصْم مُشكل؛ فيمكن أن يقال: إنما قال هذا بعد مُراجعة الخَصْم الآخر وبعد اعترافه. وقد رُوي هذا وإنْ لم تَثبُتْ روايتُه، فهذا معلومٌ من قرائن الحال. أو أراد: لقد ظَلَمك إنْ كان الأمرُ على ما تقول، فسكَّته بهذا وصبَّره إلى أن يسألَ خَصْمَه. قال: ويَحتمِلُ أن يقال: كان من شَرْعهم التعويلُ على قول المُدَّعي عند سُكوت المُدَّعى عليه إذا لم يظهر منه إنكارٌ بالقول.

وقال الحَليمي أبو عبد الله في كتاب «منهاج الدين»[٤] له: ومما جاء في شكر النعمة المنتظرة إذا حضرت، أو كانت خافيةً فظهرت السجودُ لله عزّ وجلّ. قال: والأصل في ذلك قولُه عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَحُسْنَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٥ ، وما قبله منه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٨٢)، وأبو داود (٣٥٨٢)، والترمذي (١٣٣١) وقد قال النبي ﷺ ذلك لعليٍّ ﷺ لما بعثه قاضياً إلى اليمن.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٨٧ - ٨٨ .

(٤) ٢/ ٥٥١ - ٥٥٢ .

مَـَٔابٍ﴾، أخبر الله عزّ وجلّ عن داود عليه السلام: أنه سمع قولَ المُتظلِّم من الخَصْمين، ولم يُخبَر عنه أنه سأل الآخر، إنما حُكي أنه ظَلَمه، فكان ظاهرُ ذلك أنه رأى في المُتكلِّم مخائلَ الضَّعْف والهَضيمة، فحمل أمره على أنه مظلومٌ كما يقول، ودعاهُ ذلك إلى ألّا يسألَ الخَصْمَ؛ فقال له مستعجلاً: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مع إمكان أنه لو سأله لكان يقول: كانت لي مئة نعجة ولاشيء لهذا، فسرق مني هذه النعجة، فلما وجدتُها عنده قلت له: ارْدُدْها، وما قلت له: أكفلنيها، وعلم أني مُرافعه إليك، فجرَّني قبل أن أجرَّه، وجاءك مُتظلِّماً مني[1] قبل أن أُحضره، لِتَظُنَّ أنه هو المُحِقُّ وأني أنا الظالم. ولما تكلَّم داود بما حملته العَجَلة عليه، عَلِمَ أن الله عزّ وجلّ خلَّاه ونفسَه في ذلك الوقت، وهو الفتنةُ التي ذكرها[2]، وأن ذلك لم يكن إلا عن تقصير منه، فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكعاً لله تعالى شُكراً على أن عَصَمهُ، بأن اقتصر على تظليم المَشْكُوِّ، ولم يَزِدْهُ على ذلك شيئاً من انتهارٍ أو ضرب أو غيرهما، مما يَليق بمن تصوَّر في القلب أنه ظالم، فغفر اللهُ له، ثم أقبلَ عليه يُعاتبه؛ فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦] فَبَانَ بما اقتصَّه[3] الله تعالى من هذه الموعظة التي توخَّاه بها بعد المغفرة أن خطيئته إنما كانت التقصيرَ في الحكم، والمُبادرةَ إلى تظليم مَن لم يَثْبُتْ عنده ظُلمه. ثم جاء عن ابن عباس أنه قال: سجدَها داودُ شكراً، وسجدها النبيُّ ﷺ اتِّباعاً[4]، فثبت أن السجودَ للشُّكر سنةٌ متواترةٌ عن الأنبياء صلوات الله عليهم.

﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أي: بسؤاله نعجتَك؛ فأضاف المصدر إلى المفعول، وألقى الهاء من السؤال، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت:٤٩] أي: مِن دعائه الخير.

---

(١) في (م): من.

(٢) في (د) و(م): ذكرناها، والمثبت موافق للمنهاج.

(٣) في (م): بما قصَّه.

(٤) أخرجه النسائي في المجتبى ٢/١٥٩ بلفظ: أن النبي ﷺ سجد في «صۤ» وقال: سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ يقال: خليط وخُلطاء، ولا يقال: طويل وطُولاء، لِثِقَل الحركة في الواو[١]. وفيه وجهان: أحدهما: أنهما الأصحاب. الثاني: أنهما الشُّرَكاء[٢].

قلت: إطلاقُ الخُلَطاء على الشُّرَكاء فيه بُعْد، وقد اختلف العلماءُ في صفة الخُلَطاء، فقال أكثر العلماء: هو أن يأتي كلٌّ واحد بغنمه فيجمعها[٣] راعٍ واحدٌ والدَّلو والمَراح. وقال طاوس وعطاء: لا يكون الخُلطاء إلا الشُّركاء. وهذا خلاف الخبر؛ وهو قوله ﷺ: «لا يُجْمَع بين مُفْتَرِق ولا يُفَرَّق بين مُجتمع خشيةَ الصدقة، وما كان مِن خليطين فإنَّهما يتراجعان بينهما بالسَّوِيَّة»[٤]، ورُوي: فإنهما يترادَّان الفَضْل[٥]. ولا موضع لترادِّ الفَضْل بين الشُّركاء؛ فاعلمه.

وأحكامُ الخُلْطة مذكورةٌ في كتب الفقه. ومالك وأصحابه وجمعٌ من العلماء لا يرون [الصدقة][٦] على مَن ليس في حصَّته ما تجب فيه الزكاة. وقال الربيع واللَّيث وجمع من العلماء منهم الشافعي: إذا كان في جميعها ما تجب فيه الزكاة أُخذت منها الزكاة. قال مالك: وإن أخذ المُصَدِّق بهذا ترادُّوا بينهم للاختلاف في ذلك. وتكون كحكم حاكم اختلف فيه.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يتعدَّى ويظلم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يظلمون أحداً. ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ يعني الصالحين، أي: وقليل هم، فـ «ما» زائدة. وقيل: بمعنى: الذين، وتقديره: وقليلٌ الذين هم[٧]. وسمع

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٨٨.

(٣) في (م): فيجمعهما.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٠)، وسلف ٤/ ٣٩٩.

(٥) لم نقف على هذه الرواية، وذكره مالك في الموطأ ١/ ٢٦٣ من قوله.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٨٨.

عمرُ ﷺ رجلاً يقول في دعائه: اللهمَّ اجعلني من عبادك القليل. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟.فقال: أردتُ قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فقال عمر: كلُّ الناس أفقهُ منك يا عمر[١].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: ابتليناه. و«ظَنَّ» معناه أيقن. قال أبو عمرو والفراء: ظنَّ بمعنى أيقن، إلا أن الفراء شرحه بأنه لا يجوز في المُعاين أن يكون الظن إلا بمعنى اليقين[٢]. والقراءة «فَتَنَّاهُ» بتشديد النون دون التاء. وقرأ عمر بن الخطاب ﷺ: «فتَّنَّاه» بتشديد التاء والنون على المبالغة، وقرأ قتادة وعُبيد بن عمير وابن السَّمَيْفَع: «فَتَنَاهُ» بتخفيفهما. ورواه علي بن نَصْر عن أبي عمرو، والمُراد به المَلَكان اللذان دخلا على داود عليه السلام[٣].

السادسة عشرة: قيل: لما قضَى داودُ بينهما في المسجد، نظر أحدُهما إلى صاحبه فضحك، فلم يَفْطُنْ داود؛ فأحبَّا أن يعرِفهما، فَصَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلم داودُ عليه السلام أن الله تعالى ابتلاه بذلك، ونبَّهه على ما ابتلاه.

قلت: وليس في القرآن ما يدلُّ على القضاء في المسجد إلا هذه الآية، وبها استدلَّ من قال بجواز القضاء في المسجد، ولو كان ذلك لا يجوز كما قال الشافعي لَمَا أقرَّهم داود على ذلك. ويقول: انصرفا إلى موضع القضاء. وكان النبيُّ ﷺ والخلفاء يقضُون في المسجد[٤]، وقد قال مالك: القضاء في المسجد من الأمر

---

(١) سلف ١٤/ ٢٧٧ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/٥٠١ ، والقراءتان في القراءات الشاذة ص ١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٢ .

(٤) ترجم البخاري قبل الحديث (٧١٦٥): باب من قضى ولا عَنَ في المسجد، ولا عن عمر عند منبر النبي ﷺ وقضى شريح والشعبي ويحيى بن يعمر في المسجد، وقضى مروان على زيد بن ثابت باليمين عند المنبر، وكان الحسن وزُرارة بن أوفى يقضيان في الرحبة خارجاً من المسجد. ثم ترجم بعده: باب: من حكم في المسجد حتى إذا أتى على حدٍّ أمر أن يخرج من المسجد فَيُقام، وذكر حديث أبي هريرة ﷺ في الرجل الذي قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني زنيت،... فلما شهد على نفسه أربعاً، قال: «أبِكَ جنون»؟! قال: لا، قال: «اذهبوا فارجموه».

القديم. يعني في أكثر الأمور. ولا بأس أن يَجلِسَ في رحبته؛ لِيصل إليه الضعيفُ والمُشرك والحائض، ولا يُقيم فيه الحدود؛ ولا بأس بخفيف الأدب. وقد قال أشهب: يقضي في منزله وأين أحبَّ[١].

السابعة عشرة: قال مالك رحمه الله: وكان الخلفاءُ يَقضُون بأنفسهم، وأوّل من استقضى معاوية[٢]. قال مالك: وينبغي للقُضاة مُشاورة العلماء. وقال عمر بن عبد العزيز: لا يستقضي حتى يكون عالماً بآثار مَن مضى، مستشيراً لذوي الرأي، حليماً نَزِهاً. قال: ويكون ورعاً. قال مالك: وينبغي أن يكون متيقظاً كثيرَ التحذُّر من الحِيَل، وأن يكون عالماً بالشروط، عارفاً بما لا بُدَّ له منه من العربية؛ فإن الأحكامَ تختلف باختلاف العباراتِ والدعاوى والإقرارات والشهادات والشروط التي تتضمَّن حقوقَ المحكوم له. وينبغي له أن يقول قبلَ إنجاز الحكم للمطلوب: أبَقِيتْ لك حُجَّةٌ؟ فإن قال: لا، حَكَمَ عليه، ولا يقبل منه حُجَّةً بعد إنفاذ حكمه إلا أن يأتي بما له وجهٌ أو بيِّنة. وأحكامُ القضاء والقُضاة فيما لهم وعليهم مذكورةٌ في غير هذا الموضع.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ اختلف المفسرون في الذنب الذي استغفر منه على أقوال ستة:

الأوّل: أنه نَظَر إلى المرأة حتى شَبِعَ منها. قال سعيد بن جُبير: إنما كانت فتنته النَّظرة. قال أبو إسحاق[٣]: ولم يتعمَّدْ داودُ النظر إلى المرأة، لكنه عاودَ النظر إليها، فصارت الأُولى له والثانية عليه.

الثاني: أنه أَغزى زوجَها في حَمَلَةِ التابوت.

الثالث: أنه نوى إنْ مات زوجُها أن يتزوَّجها.

الرابع: أن أوريا كان خطب تلك المرأةَ، فلما غاب خطَبها داودُ، فَزُوِّجت منه

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٢٦ بنحوه.

(٢) التمهيد ١١/٩٧.

(٣) هو الثعلبي، وقوله في عرائس المجالس ص ٢٨٤، وقول سعيد بن جبير الذي قبله منه.

لجلالته، فاغتمَّ لذلك أوريا، فَعَتَبَ اللهُ على داود إذْ لم يتركها لخاطبها، وقد كان عنده تسعٌ وتسعون امرأة.

الخامس: أنه لم يَجزعْ على قتل أوريا، كما كان يجزع على من هَلَكَ من الجند، ثم تزوَّج امرأته، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأن ذنوبَ الأنبياء وإن صَغُرتْ فهي عظيمةٌ عند الله.

السادس: أنه حَكَم لأحد الخَصْمين قبلَ أن يسمعَ من الآخر.

قال القاضي ابن العربي[1]: أما قولُ مَن قال: إنه حَكَم لأحدِ الخَصْمين قبل أن يسمعَ من الآخر، فلا يجوز على الأنبياء، وكذلك تعريضُ زوجها للقتل. وأما من قال: إنه نَظَر إليها حتى شَبعَ، فلا يجوز ذلك عندي بحال؛ لأن طُموحَ النظر لا يَليق بالأولياء المتجرِّدين للعبادة، فكيف بالأنبياء الذين هم وسائطُ الله المُكاشَفون بالغيب.

وحكى السديّ عن عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: لو سمعتُ رجلاً يذكر أن داود عليه السلام قارفَ من تلك المرأة محرَّماً لَجلدته ستين ومئة؛ لأن حدَّ الناسِ ثمانون وحدَّ الأنبياء ستون ومئة. ذكره الماوردي[2] والثعلبي أيضاً.

قال الثعلبي[3]: وقال الحارث الأعور[4] عن عليّ: مَن حدَّث بحديث داود على ما تَرويه القُصَّاص مُعتقِداً جلدته حدَّين؛ لِعظم ما ارتكب برمي مَن قد رَفَع اللهُ محلَّه، وارتضاه من خَلْقه رحمةً للعالمين، وحُجَّة للمجتهدين.

قال ابن العربي[5]: وهذا مما لم يَصِحَّ عن عليّ. فإن قيل: فما حُكمه عندكم؟

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٦ -١٦٢٧ ، وما قبله منه بنحوه.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٣) عرائس المجالس ص ٢٨٤ .

(٤) هو الحارث بن عبد الله الهَمْداني، صاحب علي ﷺ، كذَّبه الشعبي في رأيه، ورُمي بالرفض، وفي حديثه ضعف. تقريب التهذيب ص ٨٦.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

قلنا: أما مَن قال: إن نبيًّا زنى، فإنه يُقتل، وأما مَن نَسب إليه ما دون ذلك من النظر والمُلامسة، فقد اختلف الناس في ذلك؛ فإنْ صمَّم أحدٌ على ذلك فيه ونَسبه إليه قتلته، فإنه يُناقض التعزير المأمور به. فأما قولهم: إنه وقع بصرُه على امرأة تغتسل عُريانةً، فلما رأته أسبلتْ شعرَها فسترتْ جسدَها، فهذا لا حرجَ عليه فيه بإجماع من الأمة؛ لأن النظرةَ الأُولى تَكشِفُ المنظور إليه ولا يأثم الناظرُ بها، فأما النظرة الثانية فلا أصلَ لها[١].

وأما قولهم: إنه [نوى] إن مات زوجُها تزوَّجها فلا شيء فيه إذْ لم يُعرِّضْهُ للموت. وأما قولهم: إنه خَطَب على خِطبة أوريا فباطلٌ يَردُّه القرآن والآثار التفسيرية كلُّها.

وقد روى أشهبُ عن مالك قال: بلغني أن تلك الحمامةَ أَتَتْ فوقعتْ قريباً من داود عليه السلام وهي مِن ذَهبٍ، فلما رآها أعجبته فقام لِيأخُذَها فكانت قُربَ يده، ثم صنع مثلَ ذلك مرتين، ثم طارت واتَّبعها ببصره فوقعتْ عينُه على تلك المرأة وهي تغتسل ولها شعرٌ طويل؛ فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العُشب من دموع عينيه.

قال ابن العربي[٢]: وأما قولُ المفسرين: إن الطائرَ درج عنده فهمَّ بأخذه واتَّبعه فهذا لا يُناقض العبادة؛ لأنه مُباحٌ فِعْلُه، لاسيما وهو حلالٌ، وطلبُ الحلال فريضة، وإنما اتَّبع الطيرَ لذاته لا لجماله، فإنه لا منفعةَ له فيه، وإنما ذِكْرهم لحسن الطائر خرقٌ[٣] في الجهالة. أما أنه روي أنه كان طائراً من ذهب فاتَّبعه لِيأخُذَه؛ لأنه من فضل الله سبحانه وتعالى كما روي في الصحيح: «إنَّ أيوبَ عليه السلام كان يغتسلُ عُرياناً، فخرَّ عليه رِجْلٌ من جراد [من ذهب] فجعل يَحثي منه ويجعلُ في ثَوْبه؛ فقال الله تعالى له: «يا أيوبُ، ألم أكن أَغنيتُكَ؟» قال: «بلى يا رب، ولكنْ لا غِنى لي عن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٤ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٤ و١٦٢٧ ، وما قبله وما بين حاصرتين السالف منه.

(٣) في أحكام القرآن: حذق.

بركتك»[١].

وقال القشيري: فهمَّ داودُ بأنْ يأخذَه لِيدفعه إلى ابن له صغير، فطار ووقع على كَوَّة البيت؛ وقاله الثعلبي أيضاً، وقد تقدّم[٢].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: خرَّ ساجدًا، وقد يُعبَّر عن السجود بالركوع. قال الشاعر:

فخرَّ على وَجهِه راكِعاً وتابَ إلى اللهِ مِنْ كُلِّ ذنب[٣]

قال ابن العربي[٤]: لا خلافَ بين العلماء أن المُرادَ بالركوع هاهنا السجود؛ فإن السجودَ هو المَيْل، والركوع هو الانحناء، وأحدُهما يدخل[٥] على الآخر، ولكنه قد يختصُّ كلٌّ واحد بهيئته، ثم جاء هذا على تسمية أحدِهما بالآخر، فَسُمِّي السجود ركوعاً.

وقال المهدوي: وكان ركوعهم سجوداً. وقيل: بل كان سجودُهم ركوعاً. وقال مقاتل: فوقع من ركوعه ساجداً لله عزّ وجلّ. أي: لما أحسَّ بالأمر قام إلى الصلاة، ثم وقع من الركوع إلى السجود؛ لاشتمالهما جميعاً على الانحناء.

﴿وَأَنَابَ﴾ أي: تاب من خطيئته ورَجَعَ إلى الله.

وقال الحسين بن الفضل: سألني عبدُ الله بن طاهر ـ وهو الوالي ـ عن قولِ الله عز وجل: «وَخَرَّ رَاكعاً» فهل يقال للراكع: خَرَّ؟. قلت: لا. قال: فما معنى الآية؟ قلت: معناها: فخرَّ بعد أن كان راكعاً، أي: سَجَدَ[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٥٩)، والبخاري (٣٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وما بين حاصرتين منهما، وسلف ٤/ ٤٨٣ .

(٢) ١٥/ ١٦٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٨٩ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٧ .

(٥) في أحكام القرآن: يدلّ.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥٧ ، وعبد الله بن طاهر: هو أبو العباس، الأمير العادل، حاكم خراسان وما وراء النهر، مات سنة (٢٣٠ هـ) السير ١٠/ ٦٨٤ .

الموفية عشرين: واختُلف في سجدة داودَ هل هي من عزائم السجودِ المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخُدري أن النبيَّ ﷺ قرأ على المنبر: «ص والقرآنِ ذِي الذِّكْر» فلما بلغَ السجدةَ نزلَ فسجدَ وسَجَدَ الناسُ معه، فلما كان يومٌ آخرُ قرأ بها فتَشَزَّنَ الناسُ للسجود، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنها توبةُ نبيٍّ، ولكني رأيتُكم تَشَزَّنتم للسجود» ونزلَ وسجدَ. وهذا لفظ أبي داود(١).

وفي البخاري وغيره: عن ابن عباس أنه قال: «صَ» ليست من عزائم القرآن، وقد رأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها(٢).

وقد رُوي من طريق عن ابن مسعود أنه قال: «صَ» توبةُ نبيٍّ، ولا يُسجد فيها؛ وعن ابن عباس أنها توبةُ نبيٍّ ونبيُّكم ممن أُمِرَ أن يَقتديَ به(٣).

قال ابن العربي(٤): والذي عندي أنها ليست موضعَ سجود، ولكن النبيَّ ﷺ سجدَ فيها فسجدنا بالاقتداء به. ومعنى السجود أن داودَ سجدَ خاضعاً لِربِّه، مُعترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته؛ فإذا سجدَ أحدٌ فيها فَلْيسجد بهذه النِّيَّة، فلعلَّ الله أن يغفرَ له بحرمة داودَ الذي اتَّبعه، وسواء قلنا: إن شَرْعَ من قبلنا شرعٌ لنا أم لا؟ فإن هذا أمرٌ مشروع في كلِّ أمة لكلِّ أحد. والله أعلم.

الحادية والعشرون: قال ابن خُوَيْز مَنْداد: قوله: «وخَرَّ راكِعاً وأَنَابَ» فيه دلالةٌ على أن السجودَ للشُّكر مُفرداً لا يجوز؛ لأنه ذَكر معه الركوع؛ وإنما الذي يجوز أن يأتي بركعتين شكراً، فأمَّا سجدةٌ مفردةٌ فلا؛ وذلك أن البِشاراتِ كانت تأتي رسولَ الله ﷺ والأئمة بعده، فلم يُنقَلْ عن أحدٍ منهم أنه سجد شُكراً، ولو كان ذلك مفعولاً لهم لَنُقِلَ نقلاً متظاهراً لحاجة العامة إلى جوازه وكونه قُربة.

---

(١) في السنن (١٤١٠). والتشزُّن: التأهُّب والتهيّؤ للشيء. النهاية (شزن).

(٢) صحيح البخاري (١٠٦٩)، وهو في مسند أحمد (٣٣٨٧).

(٣) أخرجهما البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٢٨، وما قبله منه.

قلت: وفي «سنن» ابن ماجه: عن عبد الله بن أبي أوفَى أن رسولَ الله ﷺ صلَّى يومَ بُشِّرَ برأس أبي جهل ركعتين(١). وخرَّج من حديث أبي بَكْرة أن النبيَّ ﷺ كان إذا أتاه أمرٌ يَسُرُّه ـ أو يُسَرُّ به ـ خرَّ ساجداً شكراً لله(٢). وهذا قول الإمام الشافعي وغيره.

الثانية والعشرون: روى الترمذي وغيره ـ واللفظ للغير ـ: أن رجلاً من الأنصار على عهدِ رسول الله ﷺ كان يُصلِّي من الليل يستتر بشجرة وهو يقرأ: «صٓ والقرآنِ ذِي الذِّكْرِ» فلما بلغ السجدةَ سجدَ وسجدت معه الشجرة، فسمعها وهي تقول: اللهمَّ أَعْظِمْ لي بهذه السجدة أجراً، وارزُقني بها شُكراً(٣).

قلت: خرَّج ابن ماجه في «سننه» عن ابن عباس قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ، فأتاه رجلٌ فقال: إني رأيتُ البارحة فيما يرى النائم كأني أُصلِّي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدةَ [فسجدتُ] فسجدتِ الشجرةُ لِسُجودي، فسمعتها تقول: اللهمَّ احطُطْ بها عني وِزْراً، واكتُبْ لي بها أجراً، واجعلها لي عندك ذُخراً. قال ابن عباس: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ قرأ: «السجدة» فسجدَ، فسمعتُه يقول في سجوده مثلَ الذي أخبره الرجلُ عن قول الشجرة(٤).

ذكره الثعلبي عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، رأيتُني في النوم كأني تحت شجرة والشجرةُ تقرأ «صٓ» فلما بلغتِ السجدةَ سجدَتْ فيها، فسمعتُها

---

(١) سنن ابن ماجه (١٣٩١)، وفي إسناده سلمة بن رجاء عن الشعثاء، وسلمة قال فيه ابن عدي: حدَّث بأحاديث لا يتابع عليها، وعدَّ منها هذا الحديث. ميزان الاعتدال ٤/ ١٨٩ . والشعثاء ـ وهي بنت عبد الله، الأسدية الكوفية ـ قال الحافظ ابن حجر في التقريب ص ٦٦٦: لا تُعرف.

(٢) سنن ابن ماجه (١٣٩٤)، وأخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث بكار بن عبد العزيز، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، رَأَوْا سجدة الشكر.

(٣) سنن الترمذي (٥٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٨ ، وينظر الحديث التالي.

(٤) سنن ابن ماجه (١٠٥٣)، وما بين حاصرتين منه.

تقول في سجودها: اللهمَّ اكتُبْ لي بها أجراً، وحُطَّ عني بها وزراً، وارزقني بها شُكراً، وتقبَّلها مني كما تقبَّلت من عبدك داودَ سجدتَه. فقال لي النبيّ ﷺ: «أفَسجدْتَ أنت يا أبا سعيد» فقلت: لا والله يا رسولَ الله. فقال: «لقد كنتَ أحقَّ بالسُّجود من الشجرة» ثم قرأ النبيّ ﷺ «صَ» حتى بلغ السجدةَ فسجد، ثم قال مثلَ ما قالت الشجرة[١].

الثالثة والعشرون: قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ذَنْبَه. قال ابن الأنباري[٢]: «فغفرنا له ذلك» تامٌّ، ثم تبتدئ: «وإن له» وقال القشيري: ويجوز الوقف على «فغفرنا له» ثم تبتدئ «ذلك وإنَّ له» كقوله: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ [ص:٥٥] أي: الأمر ذلك.

وقال عطاء الخُراساني وغيره: إنَّ داودَ سجدَ أربعين يوماً حتى نبتَ المَرْعَى حولَ وجهه وغمر رأسَه، فَنُودي: أجائعٌ فَتُطعَم، وأعارٍ فَتُكْسَى؛ فنَحَبَ نحبةً هاج المَرْعى من حرِّ جوفه، فَغُفِر له وسُتِرَ[٣] بها.فقال: يا رب، هذا ذنبي فيما بيني وبينك قد غَفَرْتَه، وكيف بفلان وكذا وكذا رجلاً من بني إسرائيل، تركت أولادهم أيتاماً، ونساءهم أرامل؟ قال: يا داود، لا يُجاوزني يومَ القيامة ظلمٌ، أُمَكِّنه منك ثم أستوهِبُك منه بثواب الجنة. قال: يا ربِّ، هكذا تكون المغفرة الهَنِيئة[٤]. ثم قيل: يا داود، ارفَعْ رأسَك. فذهب لِيَرفَعَ رأسَه فإذا به قد نَشِبَ في الأرض، فأتاه جبريلُ فاقتلعه عن وجه الأرض كما يُقتلَع من الشجرة صَمْغها. رواه الوليد بن مسلم عن ابن جابر[٥] عن عطاء.

قال الوليد: وأخبرني مُنِير بن الزبير[٦]، قال: فَلَزِقَ مواضعُ مساجده على الأرض

---

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٢ .

(٣) في نوادر الأصول ص ١٨٨ (والكلام منه): وبُشِّر.

(٤) في (م): الهيِّنة، والمثبت موافق لنوادر الأصول.

(٥) هو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي، الشامي. تهذيب التهذيب ٢/ ٥٦٦ .

(٦) الشامي، أبو ذر الأزدي، قال ابن حبان: يأتي عن الثقات بالمعضلات، لا تحل الرواية عنه إلا على سبيل الاعتبار. تهذيب التهذيب ٤/ ١٦٤ .

من فَروة وجهه ما شاء الله. قال الوليد: قال ابن لهيعة: فكان يقول في سجوده: سبحانك هذا شرابي دموعي، وهذا طعامي في رماد بين يدي. وفي رواية: إنه سجدَ أربعين يوماً لا يرفع رأسَه إلا للصلاة المكتوبة، فبكى حتى نبتَ العُشْب من دموعه[(١)].

وروي مرفوعاً من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «إنَّ داودَ مَكَثَ أربعين ليلةً ساجداً حتى نبت العُشْبُ من دموعه على رأسه، وأكلتِ الأرضُ من جبينه وهو يقول في سجوده: يا ربّ، داودُ زلَّ زلَّةً بَعُدَ بها ما بين المشرق والمغرب، ربِّ، إن لم ترحَمْ ضَعْفَ داود وتغفِرْ ذَنْبَه جعلت ذَنْبَه حديثاً في الخَلْق من بعده، فقال له جبريل بعد أربعين سنة: يا داود، إن اللهَ قد غَفَرَ لك الهَمَّ الذي هممتَ به»[(٢)].

وقال وهب: إنَّ داودَ عليه السلام نُودي: إني قد غفرتُ لك. فلم يرفع رأسَه حتى جاءه جبريل فقال: لِمَ لا ترفع رأسَك وربُّك قد غَفَرَ لك؟ قال: يا رب، كيف وأنت لا تظلم أحداً. فقال الله لجبريل: اذهَبْ إلى داودَ فقل له يذهب إلى قبر أوريا فَيتحلَّل منه، فأنا أُسْمِعُه نداءَه[(٣)]. فلبس داودُ المُسوحَ، وجلس عند قبر أوريا، ونادى: يا أوريا، فقال: لبيك، من هذا الذي قطعَ عليَّ لَذَّتي وأيقظني؟ فقال: أنا أخوك داودُ، أسألك أن تجعلني في حِلٍّ، فإني عرَّضتك للقتل؛ قال: عرَّضتني للجنة، فأنت في حِلّ.

وقال الحسن وغيره: كان داودُ عليه السلام بعد الخطيئة لا يُجالس إلا الخاطئين، ويقول: تعالوا إلى داود الخَطَّاء، ولا يشربُ شراباً إلا مزجَه بدموع عينيه. وكان يجعل خبزَ الشعير اليابس في قَصْعة، فلا يزال يبكي حتى يبتلَّ بدموعه، وكان

---

(١) هذه الأخبار من الإسرائيليات، وأوردها بنحوها الطبري ٦٨/٢٠ وما بعدها، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤ وما بعدها، والبغوي ٥٥/٤ وما بعدها. وسنذكر أقوال العلماء في ردّ هذه الأخبار ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء، ينظر ثمة.

(٢) أخرجه الطبري ٧٤/٢٠، والثعلبي في عرائس المجالس ص ٢٨٤، والبغوي في تفسيره ٥٥/٤، من حديث أنس ﷺ، وسلف قسم منه ١٥٨/١٨، وهو حديث ضعيف، كما ذكرنا سابقاً.

(٣) في النسخ الخطية: نداءك.

يَذُرُّ عليه الرماد والملح فيأكل ويقول: هذا أكلُ الخاطئين. وكان قبل الخطيئة يقومُ نصف الليل ويصومُ نصفَ الدَّهر، ثم صام بعده الدهرَ كلَّه وقام الليل كلَّه. وقال: يا رب، اجعلْ خطيئتي في كفِّي، فصارت خطيئته منقوشةً في كفِّه. فكان لا يبسطُها لطعام ولا شرابٍ ولا شيء إلا رآها فأبْكته، وإنْ كان ليُؤتى بالقَدَح ثُلثاه ماء، فإذا تناوله أبصرَ خطيئته فما يضعه عن شَفَته حتى يفيضَ من دموعه[1].وروى الوليد بن مسلم: حدَّثني أبو عمرو الأوزاعي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلُ عيني داودَ مثلُ القِرْبتين تَنْطُفان، ولقد خدَّد الدموع في وجه داود خديدَ الماء في الأرض»[2].

قال الوليد: وحدَّثنا عثمانُ بن أبي العاتكة أنه كان من قول داود إذ هو خُلُوٌّ من الخطيئة شدَّة قوله في الخطَّائين أن كان يقول: اللهمَّ لا تغفِرْ للخطَّائين. ثم صار إلى أن يقول: اللهمَّ ربّ اغفر للخاطئين لكي تغفرَ لداود معهم؛ سبحان خالق النور. إلهي، خرجتُ أسأل أطباءَ عبادك أن يداووا خطيئتي فكلُّهم عليك يَدُلُّني. إلهي، أخطأتُ خطيئةً قد خِفتُ أن تجعل حصادَها عذابَك يومَ القيامة إنْ لم تغفرها؛ سبحان خالق النور. إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت الأرضُ بِرَحْبها عليَّ، وإذا ذكرتُ رحمتَك ارتدَّ إليَّ روحي.

وفي الخبر: أن داودَ عليه السلام كان إذا علا المنبر رفع يمينه فاستقبلَ بها الناسَ لِيُريهم نَقْشَ خطيئته؛ فكان يُنادي: إلهي، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت عليَّ الأرض بِرَحْبها، وإذا ذكرتُ رحمتك ارتدَّ إليَّ روحي؛ ربِّ اغفِرْ للخاطئين كي تغفر لداود معهم. وكان يقعدُ على سبعة أفرشة من اللِّيف محشوَّة بالرماد، فكانت تستنقع دموعه تحت رجليه حتى تَنْفذَ من الأفرشة كلِّها.

وكان إذا كان يومُ نَوْحه نادى مُناديه في الطُّرق والأسواق والأودية والشِّعاب وعلى رؤوس الجبال وأفواه الغيران: ألا إنَّ هذا يومُ نَوْحِ داود، فمن أراد أن يبكيَ على ذنبه فليأتِ داودَ فيسعده؛ فيهبط السُّياح من الغيران والأودية، وترتجُّ الأصواتُ

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٨ .

(٢) أورده الحكيم في نوادره ص ١٨٨ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٥٨ ، وإسناده هكذا معضل.

حولَ منبره، والوحوش والسِّباع والطير عُكَّفٌ؛ وبنو إسرائيل حول منبره؛ فإذا أخذ في العَويل والنَّوح، وأثارت الحرقات منابعَ دموعه، صارت الجماعة ضجةً واحدة نوحاً وبكاء، حتى يموت حول منبره بَشَرٌ كثير في مثل ذلك اليوم(١).

ومات داود عليه السلام فيما قيل يوم السبت فجأة(٢). أتاه مَلَك الموت وهو يصعَدُ في محرابه وينزل؛ فقال: جئتُ لأَقْبِضَ روحك. فقال: دعني حتى أنزلَ أو أرتقي. فقال: مالي إلى ذلك سبيل؛ نَفِدَت الأيامُ والشهور والسُّنون والآثار والأرزاق، فما أنت بمُؤثر بعدها أثراً. قال: فسجد داودُ على مَرْقاة من الدَّرج فقبضَ نفسَه على تلك الحال. وكان بينه وبين موسى عليهما السلام خمسُ مئة وتسعٌ وتسعون سنة. وقيل: تسع وسبعون.

وعاش مئةَ سنة، وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة(٣).

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قُربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قالا: والله، إن أوَّل من يشربُ الكأسَ يومَ القيامة داود(٤). وقال مجاهد عن عبد الله ابن عمر: الزُّلفى الدنوُّ من الله عز وجل يوم القيامة(٥).

وعن مجاهد: يُبعث داودُ يومَ القيامة وخطيئته منقوشةٌ في يده، فإذا رأى أهاويلَ يوم القيامة لم يجد منها محرزاً إلا أن يلجأ إلى رحمة الله تعالى. قال: ثم يرى خطيئته فيقلق، فيقال له: هاهنا؛ ثم يرى فيقلق، فيقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، فيقال له:

---

(١) عرائس المجالس ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ونوادر الأصول ص ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٨ . وهذه الأخبار من الإسرائيليات، ينظر ما سنذكره في ردِّها ص٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٣٣ من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) عرائس المجالس ص ٢٩٤ .

(٤) عرائس المجالس ص ٢٨٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

هاهنا؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ذكره الترمذي الحكيم. قال: حدّثنا الفضل بن محمد، قال: حدَّثنا عبد الملك بن الأصبغ قال: حدّثنا الوليد بن مسلم، قال: حدّثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن مجاهد فذكره[1].

قال الترمذي: ولقد كنت أمُرُّ زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشفُ لي المُراد والمعنى من قوله: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦] والقِطّ الصحيفة في اللغة؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ تلا عليهم: «﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾» [الحاقة:١٩]: وقال لهم «إنكم سَتجدون هذا كلَّه في صَحائفكم تُعطَوْنَها بشمائلكم»[2] قالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي: صحيفتنا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾، قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص:١٧]، فقصَّ قصةَ خطيئته إلى مُنتهاها، فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود، فأي شيء أُريدَ من هذا الذِّكر؟ وكيف اتَّصل هذا بذاك؟ فلا أَقِفُ على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني اللهُ له يوماً فأُلْهِمتُه؛ أن هؤلاء أنكروا قولَ أنهم يُعطَوْن كُتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاءً بأمر الله؛ وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ فأوجعه ذلك من استهزائهم، فأمره بالصبر على مَقالتهم، وأن يذكر عبدَه داودَ؛ سأل تعجيلَ خطيئته أن يراها منقوشةً في كفِّه، فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القَدَح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تَنفُذَ سبعة أفرشة من اللِّيف مَحشوة بالرَّماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضَمان تَبِعَة الخَصْم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووَلِيُّه وصَفِيُّه؛ فرؤية نَقْش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صَنعت به هكذا، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبِعُصاته من خَلْقه وأهل خِزْيه، لو عُجِّلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجُحود، وماذا يَحُلُّ بهم إذا نظروا إليها

(١) وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٩٧ من طريق صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم، به بنحوه.

(٢) لم نقف عليه.

في تلك الصحائف، وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، فداود صلوات الله عليه مع المغفرة والبُشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها. وقد روينا في الحديث: إذا رآها يومَ القيامة منقوشةً في كفِّه قَلِقَ حتى يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، ثم يقال له: هاهنا، ثم يرى فيقلق، حتى يقرب فيسكن[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملَّكناك لِتأمُرَ بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتخلُفَ مَن كان قبلكَ من الأنبياء والأئمة الصالحين[٢]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في الخليفة وأحكامه مستوفى[٣]، والحمد لله.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل. وهو أمرٌ على الوجوب وقد ارتبط هذا بما قبله، وذلك أن الذي عُوتب عليه داودُ طلبُه المرأةَ مِن زوجها وليس ذلك بعدل[٤]. فقيل له بعد هذا: فاحكُمْ بين الناس بالعَدْل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: لا تَقْتَدِ بهواك المُخالف لأمر الله ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: عن طريق الجنة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يَحيدون عنها ويتركونها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في النار ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بما تركوا من سلوك طريق الله؛ فقوله: «نَسُوا» أي: تركوا الإيمان به، أو تركوا العملَ به فصاروا كالنَّاسين. ثم قيل: هذا لداود لمَّا

---

(١) سلف قريباً بنحوه من قول مجاهد.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦١ .

(٣) ١/ ٣٩٥ وما بعدها.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٢٩ .

أكرمه الله بالنبوَّة. وقيل: بعد أن تاب عليه وغَفَر خطيئته.

الثالثة: الأصل في الأقضية قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [المائدة:٨]. وقد تقدَّم الكلامُ فيه.

الرابعة: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: إن ارتفع لك الخَصْمان فكان لك في أحدِهما هوىً، فلا تشتهِ في نفسك الحقَّ له لِيَفْلُجَ[1] على صاحبه، فإنْ فعلتَ محوتُ اسمك من نبوَّتي، ثم لا تكون خليفتي ولا أهلَ كرامتي[2].

فدلَّ هذا على بيان وجوب الحكم بالحقّ، وألّا يميلَ إلى أحد الخَصْمين لِقَرابةٍ أو رجاء نَفْع، أو سبب يقتضي المَيْل من صُحبة أو صداقة، أو غيرهما[3].

وقال ابن عباس: إنما ابتُلي سليمانُ بن داود عليهما السلام، لأنه تقدَّم إليه خَصْمان فَهَوِيَ أن يكون الحقُّ لأحدهما[4].

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: بلغني أن قاضياً كان في زمن بني إسرائيل بلغ من اجتهاده أن طلبَ إلى ربِّه أن يجعل بينه وبينه عَلَماً، إذا هو قضى بالحقّ عَرَفَ ذلك؛ وإذا هو قصَّر عَرَفَ ذلك، فقيل له: ادخل منزلك، ثم مُدَّ يدكَ في جدارك، ثم انظر حيث تبلغُ أصابعك من الجدار فاخطُطْ عندها خطّاً؛ فإذا أنت قمتَ من مجلس القضاء، فارجع إلى ذلك الخطّ فامدُدْ يدكَ إليه، فإنك متى ما كنتَ على الحقّ فإنك

---

(١) الفَلْج: الظَّفَر والفوز. القاموس (فلج).

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٦ .

(٣) أحكام القرآن للكيا ٣/ ٣٦١ .

(٤) نوادر الأصول ص١٨٧ بنحوه.

ستبلغه، وإن قصَّرت عن الحق قصَّر بك، فكان يغدو إلى القضاء وهو مجتهد، فكان لا يقضي إلا بحقّ، وإذا قام من مَجْلسه وفرغَ لم يَذُقْ طعاماً ولا شراباً، ولم يُفْضِ إلى أهله بشيء من الأمور حتى يأتي ذلك الخطّ، فإذا بلغه حَمِدَ الله وأفضى إلى كلّ ما أحلَّ الله له من أهل أو مَطْعم أو مَشْرب. فلما كان ذاتَ يوم وهو في مجلس القضاء، أقبل إليه رجلان يُريدانه، فوقع في نفسه أنهما يُريدان أن يختصما إليه، وكان أحدُهما له صديقاً وخِدْناً، فتحرَّك قلبه عليه محبةَ أن يكون الحقُّ له فيقضيَ له، فلما أن تكلَّما دار الحقُّ على صاحبه فقضَى عليه، فلما قام من مَجْلسه ذهب إلى خطّه كما كان يذهب كلَّ يوم، فمدَّ يده إلى الخطّ فإذا الخطُّ قد ذهب وتشمَّر إلى السَّقف، وإذا هو لا يبلغه فخرَّ ساجداً وهو يقول: يا ربّ شيئاً لم أتعمَّدْه ولم أُرِده، فَبيِّنْه لي. فقيل له: أتحسبنَّ أن الله تعالى لم يطَّلع على خيانة قلبك، حيث أحببتَ أن يكون الحقُّ لِصديقك فتقضيَ[1] له به، قد أردته وأحببتَه، ولكن الله قد ردَّ الحقَّ إلى أهله وأنت كاره.

وعن ليث قال: تقدَّم إلى عمر بن الخطاب خَصْمان فأقامهما، ثم عادا فأقامهما، ثم عادا فَفَصَلَ بينهما، فقيل له في ذلك، فقال: تقدَّما إليَّ فَوَجَدتُ لأحدهما ما لم أَجِدْ لصاحبه، فكَرِهتُ أن أفصل بينهما على ذلك، ثم عادا فَوَجَدتُ بعضَ ذلك له، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلتُ بينهما[2].

وقال الشعبي: كان بين عمر وأُبَيٍّ خُصومةٌ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته، فقال عمر: هذا أوَّلُ جَوْرك؛ أجلسني وإيَّاه مَجْلساً واحداً؛ فجلسا بين يديه[3].

الخامسة: هذه الآيةُ تمنعُ من حُكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحُكَّام لو مُكِّنوا أن

(١) في (م): لتقضي.

(٢) ذكر هذا الخبر والذي قبله الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه ابن شبّه في تاريخ المدينة المنورة ٢/ ٧٥٥ .

يحكموا بعلمهم، لم يشأ أحدُهم إذا أراد أن يحفظَ وليَّه ويُهْلِكَ عدوَّه إلا ادَّعى عِلْمَه فيما حكم به. ونحو ذلك رُوي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر؛ قال: لو رأيتُ رجلاً على حدٍّ من حدود الله، ما أخذُته حتى يشهدَ على ذلك غيري[١].

وروي أن امرأةً جاءت إلى عمرَ فقالت له: احكُمْ لي على فلان بكذا، فإنك تعلمُ ما لي عنده. فقال لها: إنْ أردتِ أن أشهدَ لك فنعم، وأما الحُكم فلا[٢]. وفي «صحيح» مسلم: عن ابن عباس: أن رسولَ الله ﷺ قضَى بيمين وشاهِد[٣]. ورُوي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع، فلم يَحكُمْ عليه بعلمه وقال: «مَنْ يَشْهَد لي» فقام خُزيمةُ فَشَهِدَ فحكم. خرَّج الحديثَ أبو داود وغيره، وقد مضى في «البقرة»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ أي: هَزْلاً ولَعِباً. أي: ما خلقناهما إلا لأمرٍ صحيح، وهو الدلالة على قُدرتنا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ أي: حُسبان الذين كفروا أن الله خَلَقَهما باطلاً.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ثم وبَّخهم فقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والميم صِلة تقديره: أنجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤٤ من قول الزهري عن أبي بكر ﷺ.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٥٣٨ عن الضحاك قال: اختصم رجلان إلى عمر ابن الخطاب ادَّعيا شهادته، فقال لهما عمر: إن شئتما شَهِدتُ ولم أقضِ بينكما، وإن شئتما قضيت ولم أشهد.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٢)، وأخرجه أحمد (٢٢٢٤).

(٤) ٤/ ٤٦٢، والحديث أخرجه أحمد (٢١٨٨٣)، وأبو داود (٣٦٠٧).

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فكان في هذا ردٌّ على المُرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المُفسد كالصالح أو أرفعَ درجةً منه. وبعده أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: أَنَجعل أصحابَ محمد عليه الصلاة والسلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو عامٌّ في المسلمين المتقين والفُجّار الكافرين، وهو أحسن، وهو ردٌّ على مُنكري البعث الذين جعلوا مصيرَ المُطيع والعاصي إلى شيء واحد(١).

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ يا محمد ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾ أي: لِيتدبروا، فأُدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليلٌ على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليلٌ على أن الترتيلَ أفضلُ من الهَذِّ؛ إذ لا يَصِحُّ التدبُّر مع الهَذّ(٢)، على ما بيَّناه في كتاب «التذكار». وقال الحسن: تدبُّر آيات الله اتّباعُها(٣).

وقراءة العامة: «لِيَدَّبَّرُوا». وقرأ أبو جعفر وشيبة: «لِتَدَبَّرُوا» بتاء وتخفيف الدال(٤)، وهي قراءة عليّ ﷺ(٥)، والأصلُ: لِتَتَدبَّروا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العقول، واحدُها لُبٌّ، وقد جمع على أَلُبّ، كما جمع بُؤسٌ على أبؤس، ونُعْم على أَنْعُم؛ قال أبو طالب:

قـلـبـي إلـيـه مُـشـرِفُ الأَلُـبِّ

وربما أظهروا التضعيف في ضرورة الشعر؛ قال الكُمَيت:

إلـيـكـم ذوِي آلِ الـنَّـبـيّ تَـطَـلَّـعَـتْ ... نَـوازِعُ مـن قـلـبـي ظِـمـاءٌ وَأَلْـبُـبُ(٦)

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ بنحوه دون قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٣ بنحوه. والهذّ: سرعة القراءة. القاموس (هذذ).

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ .

(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

(٦) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في الصحاح (لبب). والكلام منه.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لما ذكر داودَ ذكَرَ سليمان. و«أوَّابٌ» معناه مُطيع. ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ يعني الخيل، جمع جواد للفرس إذا كان شديدَ الحُضْر[١]؛ كما يقال للإنسان: جواد، إذا كان كثيرَ العَطِيَّة غزيرَها؛ يقال: قومٌ أجواد وخيلٌ جِياد[٢]، جاد الرجلِ بماله يجود جُوداً، فهو جواد، وقومٌ جُود مثال: قَذَال وقُذُل، وإنما سكنت الواو لأنها حرف عِلَّة، وأجواد وأجاوِد وجُوداء، وكذلك امرأةٌ جَوَاد، ونسوة جُود مثل: نَوارٍ ونُور، قال الشاعر:

صَناعٌ بإشْفاها حَصانٌ بِشَكْرِها جَوادٌ بِقُوتِ البَطْنِ والعِرْقُ زاخِرُ[٣]

وتقول: سِرنا عُقْبةً جَوَاداً، وعُقْبتين جَوَادين، وعُقَباً جِياداً. وجاد الفرس، أي: صار رائعاً يجود جُودة ـ بالضم ـ فهو جَواد للذَّكر والأُنثى، من خيلٍ جِياد وأجياد وأجاويد.

وقيل: إنها الطِّوال الأعناق، مأخوذُ من الجِيد وهو العُنق؛ لأن طُولَ الأعناق [في] الخيل من صفات فَرَاهتها[٤].

وفي «الصَّافِنات» أيضاً وجهان: أحدهما أن صُفونها قيامُها. قال القتبي والفراء:

---

(١) الحُضر: ارتفاع الفرس في عَدْوه. القاموس (حضر).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٢ .

(٣) قائله أبو شهاب الهذلي، كما في الصحاح (جود) والكلام الذي قبله والذي بعده منه، وقوله: صَناع بإشفاها: قال ابن السكيت: امرأة صَناع: إذا كانت رقيقة اليدين تُسوِّي الأشافي وتَخرزُ الدِّلاء وتفريها، وامرأة صَناع: حاذقة بالعمل. والإشْفى: المِثْقَب. والشُّكْر: الفرج. وقوله: العرق زاخر: أي: تجود بِقُوتها عند الجوع وهيجان الدم والطبائع. اللسان (صنع) و(شفي) و(شكر) و(جود).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٢ .

الصافن في كلام العرب الواقفُ من الخيل أو غيرها[١]. ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سرَّه أن يقومَ له الرجالُ صفوناً فَلْيتبَوَّأْ مَقْعَدَه من النار»[٢] أي: يُديمون له القيام؛ حكاه قُطرب أيضاً وأنشد قول النابغة:

لنا قُبَّةٌ مَضْروبةٌ بِفِنائها　　عِتاقُ المَهارى والجِيَاد الصَّوَافن[٣]

وهذا قول قتادة. الثاني: أن صُفونها رَفْعُ إحدى اليدين على طرف الحافر حتى يقومَ على ثلاث؛ كما قال الشاعر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يَزَالُ كَأَنَّهُ　　مِمَّا يقومُ على الثَّلاثِ كَسِيرا[٤]

وقال عمرو بن كُلْثوم:

تَركْنا الخيل عاكِفَةً عليهِ　　مُقَلَّدَةً أعِنَّتَهَا صُفونا[٥]

وهذا قول مجاهد[٦]. قال الكلبي: غزا سليمانُ أهلَ دمشق ونَصِيبين فأصابَ منهم ألفَ فرس. وقال مقاتل: وَرِثَ سليمانُ من أبيه داودَ ألفَ فرس، وكان أبوه أصابها من العمالقة. وقال الحسن: بلغني أنها كانت خيلاً خرجتْ من البحر لها أجنحة[٧]. وقاله الضحاك. وأنها كانت خيلاً أُخرجت لسليمان من البحر منقوشة ذاتَ أجنحة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٥ ، وغريب القرآن للقتبي ص٣٧٩ ، وعبارة الفراء: وقد رأيت العرب تجعل الصافن القائمَ على ثلاث أو على غير ثلاث، وأشعارهم تدل على أنها القيام خاصة.

(٢) نقله المصنف بهذا اللفظ عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١ ، وما بعده منه. قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢ : لم أجده هكذا. ا هـ وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٥ : هذا حديث موضوع. اهـ. وأخرج الترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يَتمثَّل له الرجال قياماً فَلْيتبوَّأ مقعده من النار».

(٣) ليس في ديوانه المطبوع، ونسبه له الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٩١ ، وأبو حيان في البحر ٧/ ٣٨٨ .

(٤) لم نقف على قائله، وهو في النكت والعيون ٥/ ٩٢ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠ .

(٥) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠ .

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٤٩ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٨٢ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ ، ومجمع البيان ٢٣/ ١١٣ .

ابن زيد: أخرج الشيطانُ لسليمان الخيل من البحر من مُروج البحر، وكانت لها أجنحة. وكذلك قال عليٌّ ﷺ: كانت عشرين فرساً ذواتِ أجنحة. وقيل: كانت مئةَ فرس. وفي الخبر عن إبراهيم التيمي: أنها كانت عشرين ألفاً[١]، فالله أعلم.

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ يعني بالخير الخيل، والعربُ تُسميها كذلك، وتُعاقِب بين الراء واللام؛ فتقول: انهملَتِ العين، وانهمرَتْ، وخَتَلتُ وخَترتُ، إذا خَدَعْتَ[٢]. قال الفراء[٣]: الخيرُ في كلام العرب والخيلُ واحد. النحاس[٤]: في الحديث: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٥] فكأنها سُمِّيت خيراً لهذا. وفي الحديث: لما وفد زيدُ الخيل على النبي ﷺ، قال له: «أنت زيدُ الخير»[٦] وهو زيدُ بن مُهَلهِل الشاعر.

وقيل: إنما سُمِّيت خيراً لما فيها من المنافع. وفي الخبر: إن الله تعالى عَرَضَ على آدم جميعَ الدوابِّ، وقيل له: اختر منها واحداً فاختار الفرس؛ فقيل له: اخترتَ عِزَّك؛ فصار اسمه الخير من هذا الوجه. وسُمِّي خيلاً؛ لأنها موسومةٌ بالعزّ. وسُمِّي فرساً لأنه يفترس مسافاتِ الجو افتراسَ الأسد وثباناً، ويقطعها كالالتهام بيديه على كل شيء خبطاً وتناولاً. وسمِّي عربيًّا لأنه جِيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاءً عن رفع قواعد البيت، وإسماعيلُ عربيٌّ فصارت له نِحْلةً من الله؛ فسمِّي عربيًّا[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٦٠، وزاد المسير ٧/ ١٢٨، ونسبا قول علي ﷺ لإبراهيم التيمي، وقولَ إبراهيم التيمي لعكرمة. قال أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧: وقد اختلفوا في عدد هذه الخيل على أقوال متكاذبة سوَّدوا الورق بذكرها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦٠ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥.

(٤) معاني القرآن ٦/ ١٠٩-١١٠، وقول الفراء الذي قبله منه.

(٥) أخرجه البخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢)، وسلف ٣/ ٢٤١.

(٦) ذكره ابن حجر في الإصابة ٤/ ٦٨-٦٩، وذكر أن ابن شاهين رواه من طريق بشير مولى بني هاشم، وأخرجه ابن عدي في ترجمة بشير وضعَّفه. وسلف ٧/ ٢٩٨.

(٧) سلف ٥/ ٥١.

و«حُبَّ» مفعول في قول الفراء[(١)]. والمعنى: إني آثرتُ حُبَّ الخير. وغيره يُقدِّره مصدراً أُضيفَ إلى المفعول؛ أي: أحببت الخير حبًّا فألهاني عن ذِكْر ربي. وقيل: إن معنى «أَحْبَبْتُ» قعدتُ وتأخَّرتُ، من قولهم: أحَبَّ البعيرُ، إذا برك وتأخَّر. وأحبَّ فلانٌ، أي: طأطأ رأسه. قال أبو زيد: يقال: بعير مُحِبٌّ، وقد أحبَّ إحباباً، وهو أن يُصيبه مرضٌ أو كَسْرٌ فلا يبرح مكانه حتى يبرأ أو يموت. وقال ثعلب: يقال أيضاً للبعير الحسير: مُحِبٌّ[(٢)]؛ فالمعنى: قعدتُ عن ذكر ربي. و«حُبَّ» على هذا مفعول له. وذكر أبو الفتح الهَمْداني في كتاب «التبيان»: أحببتُ بمعنى لَزِمت؛ من قوله:

مِثْلَ بعيرِ السَّوْءِ إذْ أحَبَّا[(٣)]

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني الشمس، كناية عن غير مذكور؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] أي: على ظهر الأرض؛ وتقول العرب: هاجت باردةً، أي: هاجت الريحُ باردة. وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة:٨٣] أي: بلغت النفس الحلقوم. وقال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] ولم يتقدَّم للنار ذِكْر. وقال الزجاج[(٤)]: إنما يجوز الإضمارُ إذا جرى ذِكْر الشيء أو دليلُ الذكر، وقد جرى هاهنا الدليل، وهو قوله: «بِالعَشِيِّ». والعشيُّ ما بعد الزوال، والتواري الاستتارُ عن الأبصار، والحِجاب جبلٌ أخضرُ محيطٌ بالخلائق؛ قاله قتادة وكعب. وقيل: هو جبلُ قاف. وقيل: جبلٌ دون قاف. والحجابُ الليلُ؛ سُمِّي حجاباً لأنه يستُر ما فيه[(٥)].

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٣ .

(٢) الصحاح (حبب).

(٣) الكشاف ٣/ ٣٧٣ . والرجز لأبي محمد الفقعسي كما في اللسان (حبب) وقبله: حُلْتُ عليه بالقفيل ضرباً. والقفيل: السوط.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٣١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٣ بنحوه، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٦٠ .

وقيل: «حتَّى تَوارَتْ» أي: الخيل في المسابقة. وذلك أن سليمانَ كان له ميدانٌ مستديرٌ يُسابق فيه بين الخيل، حتى توارى[١] عنه وتغيبَ عن عينه في المسابقة؛ لأن الشمس لم يَجْرِ لها ذِكْر.

وذكر النحاس أن سليمانَ عليه السلام كان في صلاة، فجيء إليه بخيل لِتُعرض عليه قد غُنمت فأشار بيده، لأنه كان يُصلِّي حتى توارت الخيل، وسترتها جُدر الاصطبلات، فلما فرغَ من صلاته قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ أي: فأقبل يمسحها مسحاً. وفي معناه قولان: أحدُهما أنه أقبل يمسحُ سُوقَها وأعناقها بيده إكراماً منه لها، ولِيرى أن الجليلَ لا يقبحُ أن يفعل مثلَ هذا بخيله. وقال قائلُ هذا القول: كيف يقتلها؟ وفي ذلك إفسادُ المال ومعاقبةُ مَنْ لا ذنبَ له. وقيل: المَسْح هاهنا هو القَطْع، أُذِن له في قَتْلها[٢].

قال الحسن والكلبي ومقاتل: صلَّى سليمانُ الصلاةَ الأُولى وقعد على كرسيه وهي تُعرَض عليه، وكانت ألفَ فرس؛ فَعُرِضَ عليه منها تسع مئة فتنبَّه لصلاة العصر، فإذا الشمسُ قد غربت وفاتت الصلاة، ولم يُعلَم بذلك هيبةً له، فاغتمَّ فقال: «رُدُّوها عليَّ» فَرُدَّت، فعقرها بالسيف قُربةً لله وبقي منها مئة، فما في أيدي الناس من الخيل العِتاق اليوم فهي من نَسْل تلك الخيل[٣].

وقال القشيري: وقيل: ما كان في ذلك الوقت صلاةُ الظهر ولا صلاة العصر، بل كانت الصلاة نافلةً فَشُغِلَ عنها. وكان سليمانُ عليه السلام رجلاً مَهيباً، فلم يُذكِّره أحدٌ ما نسي من الفرض أو النفل، وظنُّوا التأخُّر مباحاً[٤]، فتذكَّر سليمانُ تلك الصلاةَ الفائتة، وقال على سبيل التلهُّف: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: عن الصلاة، وأمر بردِّ الأفراس إليه، وأمر بضرب عَراقيبها وأعناقها، ولم يكن ذلك

(١) في (م): توارت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٣ .

(٣) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٤ : وهذا بعيد. وينظر النكت والعيون ٥/ ٩٤ .

(٤) زاد المسير ٧/ ١٢٩ بنحوه.

معاقبةً للأفراس؛ إذْ ذَبْح البهائم جائزٌ إذا كانت مأكولةً، بل عاقب نَفْسَه حتى لا تَشْغَلَه الخيلُ بعد ذلك عن الصلاة[١]. ولعله عَرْقَبها لِيذبحها فحبسها بالعرقبة عن النِّفار، ثم ذبحها في الحال لِيتصدَّق بلحمها؛ أو لأن ذلك كان مباحاً في شرعه فأتلفها لمَّا شغلته عن ذكر الله، حتى يقطع عن نفسه ما يشغله عن الله، فأثنى اللهُ عليه بهذا، وبيَّن أنه أثابه بأن سخَّرَ له الريح، فكان يقطع عليها من المسافة في يومٍ ما يقطع مثلَه على الخيل في شهرين غُدوًّا ورَواحاً[٢].

وقد قيل: إن الهاء في قوله: «رُدُّوها عليَّ» للشمس لا للخيل. قال ابن عباس: سألت عليًّا عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها؟ فقلت: سمعتُ كعباً يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس حتى توارت الشمسُ بالحجاب وفاتته الصلاةُ، قال: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ أي: آثرتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربِّي، الآية ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ يعني الأفراس، وكانت أربعَ عشرةَ؛ فضرب سُوقَها وأعناقَها بالسيف، وأن الله سلبه مُلكه أربعةَ عشرَ يوماً؛ لأنه ظلم الخيل. فقال علي بن أبي طالب: كذب كعب؛ لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد حتى توارت؛ أي: غربت الشمسُ بالحجاب؛ فقال بأمر الله للملائكة المُوكَّلين بالشمس: «رُدُّوها» يعني الشمس، فَرَدُّوها حتى صلَّى العصر في وقتها، وأن أنبياءَ الله لا يَظْلِمون؛ لأنهم معصومون[٣].

قلت: الأكثر في التفسير أن التي توارت بالحجاب هي الشمس، وتركها لِدَلالة السامع عليها بما ذُكر مما يرتبط بها ويتعلَّق بذِكْرها، حسب ما تقدَّم بيانه. وكثيراً ما يُضمرون الشمس؛ قال لبيد:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٤ بنحوه.

(٢) زاد المسير ٧/ ١٣٢ بنحوه.

(٣) مجمع البيان ٢٣/ ١١٣ . قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢٢ : أورد هذا الأثر جماعة ساكتين عليه جازمين بقولهم: «قال ابن عباس: قلت لعلي» وهذا لا يثبت عن ابن عباس ولا عن غيره، والثابت عن جمهور أهل العلم بالتفسير من الصحابة ومن بعدهم أن الضمير المؤنث في قوله: «ردوها» للخيل، والله أعلم.

حتى إذا أَلْقَتْ يَداً في كافِرٍ وأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغورِ ظَلاَمُها[(١)]

والهاء في «رُدُّوها» للخيل. ومَسْحُها؛ قال الزهري وابن كيسان: كان يمسح سُوقَها وأعناقَها، ويكشف الغبارَ عنها حُبًّا لها[(٢)]. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس[(٣)].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ رُئيَ وهو يمسحُ فرسَه بردائه. وقال: «إني عُوتبتُ الليلةَ في الخيل»، خرّجه «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مُرسلاً[(٤)]. وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصلٌ عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس[(٥)]. وقد مضى في «الأنفال» قوله عليه الصلاة والسلام: «وامسحوا بنواصيها وأَكْفالها»[(٦)].

وروى ابن وهب عن مالك أنه مسحَ أعناقَها وسُوقها بالسيوف[(٧)].

قلت: وقد استدلَّ الشِّبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها بفعل سليمان هذا. وهو استدلالٌ فاسد؛ لأنه لا يجوز أن يُنسب إلى نبيٍّ معصوم أن فَعَل الفساد. والمفسرون اختلفوا في معنى الآية؛ فمنهم من قال: مسحَ على أعناقها وسُوقها إكراماً لها وقال: أنتِ في سبيل الله؛ فهذا إصلاح. ومنهم من قال: عَرْقبها ثم ذبحها، وذَبْحُ الخيل وأكلُ لحمها جائز. وقد مضى في «النحل» بيانه[(٨)]. وعلى هذا فما فَعَل شيئاً عليه فيه جُناح.

---

(١) ديوان لبيد ص٣١٦ . قال شارحه: كافر: ليل ساتر. عورات الثغور: مواضع المخافة منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٦١ .

(٣) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٨٦-٨٧ ، لكن قول الحسن وقتادة عنده وفي تفسير البغوي ٤/ ٦١ ، والنكت والعيون ٥/ ٩٣ أنه عقرها وضرب سوقها وأعناقها.

(٤) الموطأ ١/ ٤٦٨ .

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٠ . وقال: وقد رُوي عن مالك مسنداً عن يحيى بن سعيد عن أنس، ولا يصح.

(٦) ١٠/ ٥٨ ، والحديث أخرجه أحمد (١٩٠٣٢) وهو ضعيف.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٦ .

(٨) ١٢/ ٢٨١ وما بعدها.

فأما إفسادُ ثوب صحيح لا لغرض صحيح فإنه لا يجوز. ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جوازُ ما فعل، ولا يكون في شرعنا.

وقد قيل: إنما فعل بالخيل ما فعل بإباحة الله جلّ وعزّ له ذلك. وقد قيل: إنَّ مَسْحه إيّاها: وَسَمَها بالكَيِّ وجَعَلَها في سبيل الله؛ فالله أعلم. وقد ضُعِّف هذا القول من حيث إن السُّوق ليست بمحلٍّ للوسم بحال[1].

وقد يقال للكيِّ على الساق: عِلاطٌ، وعلى العُنق وِثاق. والذي في «الصحاح» للجوهري[2]: عَلَط البعيرَ عَلْطاً، كواه في عُنقه بسمة العِلاَط. والعِلاطان جانبا العُنق.

قلت: ومَن قال: إن الهاء في «رُدُّوها» ترجع للشمس، فذلك من معجزاته. وقد اتَّفق مثلُ ذلك لنبينا ﷺ؛ خرَّج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن أسماء بنت عُمَيْس من طريقين أن النبي ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليّ، فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «أصليتَ يا علي» قال: لا. فقال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعةِ رسولك فارْدُدْ عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتُها غربَتْ، ثم رأيتها بعد ما غربَتْ طلعَتْ على الجبال والأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ورواتُهما ثِقات[3].

قلت: وضعَّف أبو الفرج ابن الجوزي هذا الحديث[4] فقال: وغلوُّ الرافضة في حُبِّ عليٍّ عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديثَ كثيرةً في فضائله؛ منها أن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٧ .

(٢) الصحاح (علط).

(٣) شرح مشكل الآثار (١٠٦٧) و(١٠٦٨)، وليس فيه قول الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان، ونقله المصنف عن الطحاوي بواسطة القاضي عياض في الشفا ١/ ٥٤٨-٥٤٩ وينظر التعليق التالي.

(٤) الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢٦٦ ، وقال: هذا حديث موضوع بلا شك... ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٩ عن الذهبي في تلخيص الموضوعات أن أسانيد هذا الحديث ساقطة ليست بصحيحة. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢٢ : وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في «الموضوعات» وكذا ابن تيمية في كتاب «الرد على الروافض» في زعم وضعه، والله أعلم.

الشمسَ غابت ففاتَتْ علياً عليه السلام العصر فَرُدَّت له الشمس، وهذا من حيث النقلُ محال، ومن حيث المعنى، فإن الوقتَ قد فات وعَوْدُها طلوعٌ مُتجدِّد لا يردُّ الوقت.

ومن قال: إن الهاء ترجِعُ إلى الخيل، وأنها كانت تبعدُ عن عين سليمان في السباق، ففيه دليلٌ على المسابقة بالخيل، وهو أمرٌ مشروع. وقد مضى القولُ فيه في «يوسف»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ قيل: فُتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة؛ ذكر الزمخشري(٢).

و«فَتَنَّا» أي: ابتلينا وعاقبنا. وسببُ ذلك ما رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: اختصم إلى سليمان عليه السلام فريقان؛ أحدُهما من أهل جرادة امرأة سليمان؛ وكان يُحبها، فهوى أن يقع القضاءُ لهم، ثم قضى بينهما بالحق، فأصابه الذي أصابه عقوبةً لذلك الهوى.

وقال سعيد بن المسيَّب: إن سليمان عليه السلام احتجب عن الناس ثلاثةَ أيام لا يقضي بين أحد، ولا يُنصف مظلوماً من ظالم؛ فأوحى الله تعالى إليه: إني لم أستخلفك لِتحتجبَ عن عبادي، ولكن لِتقضيَ بينهم وتُنصف مظلومَهم(٣).

(١) ١١/ ٢٨١ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٣٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٤-٩٥.

وقال شَهْر بن حَوْشَب ووهب بن مُنبِّه: إن سليمانَ عليه السلام سبى بنتَ ملكٍ غَزاهُ في البحر، في جزيرة من جزائر البحر يقال لها: صيدون. فأُلقيت عليه محبتُها وهي تُعرض عنه، لا تنظر إليه إلا شَزْراً، ولا تُكلمه إلا نَزْراً، وكان لا يرقأُ لها دمعٌ حزناً على أبيها، وكانت في غايةٍ من الجمال، ثم إنها سألته أن يصنعَ لها تِمثالاً على صورة أبيها حتى تنظرَ إليه، فأمر فَصُنِعَ لها، فعظَّمته وسجدَتْ له، وسجدت معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشى خبره في بني إسرائيل، وعلم به سليمانُ فكسره، وحرقه ثم ذراه في البحر[١].

وقيل: إن سليمانَ لما أصاب ابنةَ ملك صيدون ـ واسمها جرادة، فيما ذكر الزمخشري[٢] ـ أُعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبَتْ، فخوَّفها فقالت: اقتلني ولا أسلم، فتزوَّجها وهي مُشركة، فكانت تعبدُ صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خُفية من سليمان؛ إلى أن أسلمتْ، فَعُوقِبَ سليمانُ بزوال مُلكه أربعين يوماً[٣].

وقال كعب الأحبار: إنه لمَّا ظلم الخيل بالقتل سُلب مُلكه.

وقال الحسن: إنه قارب بعضَ نسائه في شيء من حيض أو غيره[٤]. وقيل: إنه أُمِرَ ألاّ يتزوَّج امرأة إلا من بني إسرائيل، فتزوَّج امرأةً من غيرهم، فَعُوقب على ذلك؛ والله أعلم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ قيل: شيطان في قول أكثرِ أهل التفسير؛ ألقى اللهُ شبهَ سليمان عليه السلام عليه، واسمه صخر بن عمير صاحب البحر، وهو

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٦١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٤ .

(٣) عرائس المجالس ص٣٢٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٩٤ .

(٥) عرائس المجالس ص٣٢٧ . وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الردّ عليها في آخر القصة.

الذي دلَّ سليمان على الماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس[١]، فصوتت الحجارة لمَّا صُنعت بالحديد، فأخذوا الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت.

قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين، ولم يزل يحتال حتى ظَفِرَ بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخل الكَنيف بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأةٍ من نساء سليمان أمِّ ولدٍ له يقال لها: الأمينة؛ قاله شَهْرٌ ووهب.

وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة. فقام أربعين يوماً على مُلك سليمانَ وسليمانُ هارب، حتى ردَّ الله عليه الخاتم والمُلْك.

وقال سعيد بن المسيَّب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه، فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يدِ سليمان؛ لأن سليمان سأل الشيطان ـ وكان أسمه آصف ـ: كيف تُضِلُّون الناس؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أُخبرك. فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطانُ الخاتم جلس على كرسيِّ سليمان، مُتَشبِّهاً بصورته، داخلاً عل نسائه، يقضي بغير الحقّ، ويأمر بغير الصواب.

واختلف في إصابته لنساء سليمان، فَحُكي عن ابن عباس ووهب بن منبّه: أنه كان يأتيهنّ في حيضهنّ[٢]. وقال مجاهد: مُنِعَ من إتيانهنَّ. وزال عن سليمانَ مُلكه، فخرج هارباً إلى ساحل البحر يتضيَّف الناس؛ ويحمل سموكَ الصيادين بالأجر، وإذا أخبر الناسَ أنه سليمان أكذبوه. قال قتادة[٣]: ثم إن سليمانَ بعد أن استنكر بنو إسرائيل حُكم الشيطان أخذ حُوتة من صياد. قيل: إنه استطعمها. وقال ابن عباس: أخذها أُجرةً في حمل حوت. وقيل: إن سليمان صادها، فلما شقَّ بطنها وجد خاتمه فيها،

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٢) هذا من أقبح الإسرائيليات التي ذُكرت في قصة سيدنا سليمان عليه السلام، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٢٣/ ١٩٩، وقال: الله أكبر، هذا بهتان عظيم، وخطب جسيم.

(٣) كذا في (ز) و(ظ) و(م)، وفي (د): قاله قتادة، غير أن سياق الكلام في النكت والعيون ٥/ ٩٦-٩٧ (وعنه نقل المصنف) لا يدل أنه من كلام قتادة.

وذلك بعد أربعين يوماً من زوال مُلكه: وهي عدد الأيام التي عُبِدَ الصنم في داره، وإنما وجد الخاتم في بطن الحوت؛ لأن الشيطانَ الذي أخذه ألقاه في البحر(١).

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: بينما سليمان على شاطئ البحر وهو يَعبثُ بخاتمه، إذ سقط منه في البحر، وكان مُلكه في خاتمه(٢).

وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «كان نقشُ خاتم سليمان بن داود: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله»(٣).

وحكى يحيى بن أبي عمرو السيباني(٤) أن سليمان وجد خاتمه بِعَسْقَلان، فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعاً لله تعالى. قال ابن عباس وغيره: ثم إن سليمان لما ردَّ الله عليه مُلكه، أخذ صخراً الذي أخذ خاتمه، ونقر له صخرةً وأدخله فيها، وسدَّ عليه بأخرى وأوثقها بالحديد والرصاص، وختم عليها بخاتمه وألقاها في البحر؛ وقال: هذا مَحْبِسُكَ إلى يوم القيامة(٥).

وقال علي ﷺ: لما أخذ سليمانُ الخاتم، أقبلتْ إليه الشياطين والجن والإنس والطير والوحش والريح، وهرب الشيطانُ الذي خلف في أهله، فأتى جزيرةً في البحر، فبعث إليه الشياطينُ فقالوا: لا نقدر عليه، ولكنه يَرِد علينا في الجزيرة في كل سبعة أيام يوماً، ولا نقدِرُ عليه حتى يسكر. قال: فنزح سليمان ماءها، وجعل فيها خمراً، فجاء يومَ وُروده فإذا هو بالخمر، فقال: والله، إنك لشرابٌ طَيِّب إلا أنكِ

---

(١) النكت والعيون ٥/٩٦-٩٧ ، وهذه الأخبار من الإسرائيليات، وينظر ما سنذكره من الرد عليها آخر القصة.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٥/٣١٦ .

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/١٣٦٨ ، وفي إسناده شيخ بن أبي خالد، قال ابن عدي: أحاديثه مناكير. وقال الذهبي في الميزان ٢/٢٨٦ : متهم بالوضع، وذكر هذا الحديث وعدَّه من أباطيله.

(٤) في النسخ: الشيباني، وهو خطأ، والمثبت من تقريب التهذيب والأنساب ٧/ ٢١٤ قال الحافظ ابن حجر: وهو أبو زرعة الحمصي، ثقة، روايته عن الصحابة مرسلة، مات سنة (١٤٨هـ) أو بعدها.

(٥) النكت والعيون ٥/٩٨ .

تُطيشين الحليم، وتُزيدين الجاهل جهلاً. ثم عَطِشَ عطشاً شديداً، ثم أتاها[١] فقال مثلَ مَقَالته، ثم شربها، فغلبت على عقله؛ فأَرَوه الخاتم فقال: سمعاً وطاعة. فأتَوا به سليمانَ فأوثقه وبعث به إلى جبل، فذكروا أنه جبل الدخان، فقالوا: إنَّ الدخان الذي ترون من نَفَسه، والماء الذي يخرج من الجبل من بَوْله[٢].

وقال مجاهد: اسم ذلك الشيطان آصف. وقال السُّدي: اسمه حبقيق؛ فالله أعلم[٣].

وقد ضُعِّفَ هذا القول من حيث إن الشيطان لا يَتصوَّر بصورة الأنبياء، ثم من المُحال أن يلتبس على أهل مملكة سليمان الشيطانُ بسليمان حتى يظنُّوا أنهم مع نبيهم في حقّ، وهم مع الشيطان في باطل.

وقيل: إن الجسد وَلَدٌ وُلِدَ لسليمان، وأنه لما وُلد اجتمعت الشياطين؛ وقال بعضهم لبعض: إنْ عاش له ابن لم ننفكَّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخرة، فتعالَوا نقتل ولده أو نُخبِّله. فعلم سليمانُ بذلك فأمر الريحَ حتى حملته إلى السَّحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفاً من مَضَرَّة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يشعر إلا وقد وقع على كرسيه ميتاً. قال معناه الشعبي. فهو الجسد الذي قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾[٤].

وحكى النقاش وغيره: إنَّ أكثر ما وَطِئ سليمان جواريه طلباً للولد، فَوُلد له نصفُ إنسان، فهو كان الجسد المُلقى على كرسيه جاءت به القابلة فألقته هناك[٥].

---

(١) في (م): أتاه.

(٢) هذا الكلام لا يُعوَّل عليه، ولا يخفى على القارئ بطلانه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٩٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢٠/ ٨٩ ، والمشهور أن آصف اسم الرجل الذي عنده علم من الكتاب. كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٥٩ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٢٧-٣٢٨ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٩٦ . والعبارة فيه: إنه أكثر من وطء جواريه طلباً للولد... وسلف قريباً أن أكثر =

وفي «صحيح» البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال سليمانُ: لأطُوفنَّ الليلةَ على تسعين امرأةً كلُّهن تأتي بفارس يُجاهد في سبيل الله؛ فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يَقُلْ: إنْ شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأةٌ واحدةٌ جاءتْ بشِقِّ رجل، وايمُ الذي نفسُ محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»(١).

وقيل: إن الجسد هو آصف بن برخيا الصدّيق كاتب سليمان، وذلك أن سليمان لما فُتِنَ سقط الخاتم من يده وكان فيه مُلكه، فأعاده إلى يده فسقط، فأيقن بالفتنة؛ فقال له آصف: إنك مفتون، ولذلك لا يتماسك في يدك، فَفِرَّ إلى الله تعالى تائباً من ذلك، وأنا أقومُ مقامك في عالمك إلى أن يتوب اللهُ عليك، ولك من حين فُتنت أربعةَ عشرَ يوماً. فَفَرَّ سليمانُ هارباً إلى ربه، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت، وكان عنده علمٌ من الكتاب. وقام آصفُ في ملك سليمان وعياله، يسير بسيره ويعمل بعمله، إلى أن رَجَعَ سليمان إلى منزله تائباً إلى الله تعالى، وردَّ الله عليه مُلكه؛ فأقام آصفُ في مَجْلسه، وجلس على كرسيه وأخذ الخاتم(٢).

وقيل: إنَّ الجسد كان سليمانَ نَفْسَه؛ وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يُوصف به المريض المُضنى، فيقال: كالجسد المُلقى(٣).

= المفسرين قالوا: الجسد الملقى شيطان، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٦١ : وهو المعتمد، والنقاش صاحب مناكير.

(١) صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وصحيح مسلم (١٦٥٤)، وسلف ١٨/ ١٦٦ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٢٧ .

(٣) هذه القصص التي ذكرها المفسرون في قصة سيدنا سليمان عليه السلام كلها من الإسرائيليات فيما قاله الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٨-٦٩ وقد ذكر الكثير منها، وقال فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في السياق منكرات أشدُّها ذكر النساء.. وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف.. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب.

وذكر أبو حيان في البحر ٧/ ٣٩٧ أنها من وضع اليهود والزنادقة، وأنه لا يحل نقلها، ويجب براءة =

صفة كرسيّ سليمان ومُلكه

روي عن ابن عباس قال: كان سليمانُ يُوضع له ستُّ مئة كرسيّ، ثم يجيء أشراف الناس فيجلسون مما يَليه، ثم يأتي أشرافُ الجن فيجلسون مما يلي الإنس، ثم يدعو الطير فَتُظِلُّهم، ثم يدعو الريح فَتُقِلُّهم، وتسير بالغَداة الواحدة مسيرة شهر(١).

وقال وهب وكعب وغيرهما: إن سليمان عليه السلام لما مَلَك بعد أبيه، أمر باتّخاذ كرسيٍّ لِيجلسَ عليه للقضاء، وأمر أن يُعمل بَديعاً مَهولاً بحيث إذا رآه مُبطِلٌ أو شاهدُ زور ارتدع وتهيَّب؛ فأمر أن يُعمل من أنياب الفيلة مُفصَّصة بالدُّرِّ والياقوت والزبرجد، وأن يُحَفَّ بنخيل الذهب؛ فَحُفَّ بأربع نَخَلات من ذهب، شماريخها الياقوت الأحمر والزُّمُرُّد الأخضر، على رأس نخلتين منهما طاووسان من ذهب، وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابلٌ لبعض، وجعلوا من جنبي الكرسيّ أسدين من ذهب، على رأس كل واحد منهما عمودٌ من الزُّمُرُّد الأخضر. وقد عقدوا على النخلات أشجارَ كروم من الذهب الأحمر؛ واتخذوا عناقيدَها من الياقوت الأحمر، بحيث أظلَّ عريش الكروم النخلَ والكرسي.

وكان سليمان عليه السلام إذا أراد صُعودَه وضع قدميه على الدرجة السُّفلى، فيستدير الكرسيّ كلُّه بما فيه دورانَ الرَّحى المُسرعة، وتنشر تلك النُّسور والطواويس أجنحتَها، ويبسط الأسدان أيديَهما، ويضربان الأرض بأذنابهما. وكذلك يُفعل في كل درجة يَصْعَدها سليمان، فإذا استوى بأعلاه أخذ النَّسران اللذان على النخلتين تاجَ سليمان فوضعاه على رأسه، ثم يستدير الكرسي بما فيه، ويدور معه النَّسران

= الأنبياء منها، وقال: لم يُبيِّن الله الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، ويستحيل عقلاً وجود بعض ما ذكروه، كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مسترقة من زنادقة السوفسطائية، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها. قال الدكتور أبو شهبة في كتابه الإسرائيليات في التفسير ص٢٧٤ : وأيُّ مُلك أو نبوة يتوقف أمرهما على خاتم يدومان بدوامه، ويزولان بزواله.. وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة، فكيف يُغفِل الله شأنَه في كتابه الشاهد على الكتب السماوية؟!!..

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٣٦ ، وفيه: ست مئة ألف كرسي.

والطاووسان والأسدان، مائلان برؤوسهما إلى سليمان، وينضحن عليه من أجوافهن المِسْك والعنبر، ثم تُناوله حمامةٌ من ذهب قائمةٌ على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي التوراة، فيفتحها سليمان عليه السلام ويقرؤُها على الناس ويدعوهم إلى فَصْل القضاء.

قالوا: ويجلس عظماءُ بني إسرائيل على كراسي الذهب المُفصَّصة بالجواهر، وهي ألفُ كرسيّ عن يمينه، ويجلس عظماءُ الجن على كراسي الفضة عن يساره، وهي ألفُ كرسيّ، ثم تحفُّ بهم الطير تُظِلُّهم، ويتقدَّم الناسُ لفصل القضاء. فإذا تقدَّمت الشهود للشهادات، دار الكرسيّ بما فيه وعليه دورانَ الرَّحى المُسرعة، ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذنابهما، وينشر النَّسران والطاووسان أجنحتهما، فتفزع الشهود فلا يشهدون إلا بالحق.

وقيل: إن الذي كان يدور بذلك الكرسيّ تِنِّين من ذهب، ذلك الكرسيُّ عليه، وهو عظيم مما عمله له صخر الجنيّ؛ فإذا أحسَّتْ بدورانه تلك النسور والأسد والطواويس التي في أسفل الكرسيّ إلى أعلاه دُرْن معه، فإذا وقفن وقَفْن كلُّهن على رأس سليمان وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً على رأسه ما في أجوافهنّ من المسك والعنبر. فلما توفي سليمانُ بعث بُختَنصَّر فأخذ الكرسيّ، فحمله إلى أنطاكية، فأراد أن يصعدَ إليه، ولم يكن له علم كيف يصعد إليه؛ فلما وضع رِجْلَه ضرب الأسدُ رِجْلَه فكسرها، وكان سليمان إذا صَعِدَ وضع قدميه جميعاً. ومات بُخْتَنصَّر، وحُمل الكرسيّ إلى بيت المقدس، فلم يستطع قطّ مَلِكٌ أن يجلسَ عليه، ولكن لم يدرِ أحدٌ عاقبة أمره، ولعله رُفع(١).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رَجَعَ إلى الله وتاب. وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفِرْ لي ذنبي ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٧/ ٦٩-٧٠ وعزاه لابن أبي حاتم، وقال: هو غريب جداً.

﴿مِنْ بَعْدِيٓ﴾ يقال: كيف أقدم سليمانُ على طلب الدنيا، مع ذَمِّها من الله تعالى، وبُغضه لها، وحقارتها لديه؟. فالجواب أن ذلك محمولٌ عند العلماء على أداء حقوق الله تعالى وسياسةِ مُلْكه[1]، وترتيب منازل خَلْقه، وإقامةِ حدوده، والمحافظة على رسومه، وتعظيم شعائره، وظُهور عبادته، ولُزوم طاعته، ونَظْم قانون الحُكم النافذ عليهم منه، وتحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحدٌ من خلقه حَسَبَ ما صرَّح بذلك لملائكته فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحُوشي سليمان عليه السلام أن يكون سؤاله طلباً لنفس الدنيا؛ لأنه هو والأنبياء أزهدُ خلق الله فيها، وإنما سأل مملكتها لله، كما سأل نوحٌ دمارَها وهلاكَها لله؛ فكانا محمودين مُجابين إلى ذلك، فأُجيب نوحٌ فأُهْلِكَ من عليها، وأُعطي سليمان المملكة.

وقد قيل: إن ذلك كان بأمرٍ من الله جلّ وعزّ على الصِّفة التي علم الله أنه لا يضبطه إلا هو وحده دون سائر عباده، أو أراد أن يقول: مُلكاً عظيماً فقال: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾[2]، وهذا فيه نظر. والأوّل أصح.

ثم قال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال الحسن: ما من أحد إلا ولله عليه تبعةٌ في نِعَمِهِ غيرَ سليمان بن داود عليه السلام، فإنه قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الآية[3].

قلت: وهذا يردُّ ما روي في الخبر: إنَّ آخرَ الأنبياء دخولاً[4] الجنةَ سليمانُ بن داود عليه السلام لمكان مُلكه في الدنيا. وفي بعض الأخبار: يدخل الجنةَ بعد الأنبياء بأربعين خريفاً؛ ذكره صاحب «القوت» وهو حديث لا أصل له؛ لأنه سبحانه إذا كان عطاؤه لا تبعةَ فيه؛ لأنه من طريق المِنَّة، فكيف يكون آخرَ الأنبياء دخولاً الجنة، وهو

---

(١) الكلام بمعناه في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٣٧ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٠ .

(٤) في (م): دخول.

سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وفي الصحيح: «لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّلَ كلُّ نبيٍّ دعوته» الحديث[١]، وقد تقدَّم، فجعلَ له من قَبْلِ السؤال حاجةً مقْضيَّةً، فلذلك لم تكن عليه تَبِعة.

ومعنى قوله: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: أن يسأله. فكأنه سأل منعَ السؤال بعده، حتى لا يتعلَّق به أملُ أحد، ولم يسأل منع الإجابة. وقيل: إنَّ سُؤالَه مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ ليكون محلَّه وكرامته من الله ظاهراً في خلق السماوات والأرض؛ فإن الأنبياء عليهم السلام لهم تنافُسٌ في المحلّ عنده، فكلٌّ يُحِبُّ أن تكون له خُصوصيةٌ يستدلُّ بها على محلِّه عنده، ولهذا لما أخذ النبيُّ ﷺ العِفْريت الذي أراد أن يقطعَ عليه صلاته وأمكنه اللهُ منه، أراد رَبْطه، ثم تذكَّر قولَ أخيه سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّه خاسئاً[٢].

فلو أُعطي أحدٌ بعدَه مِثْلَه ذهبت الخُصوصية، فكأنه كَرِهَ ﷺ أن يُزاحمه في تلك الخُصوصية، بعد أن عَلِمَ أنه شيء هو الذي خُصَّ به من سخرة الشياطين، وأنه أُجيب إلى ألا يكون لأحدٍ بعده. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ أي: لَيِّنة مع قوَّتها وشِدَّتها حتى لا تضرَّ بأحد، وتحمله بعسكره وجنوده وموكبه. وكان موكبه فيما رُوي فرسخاً في فرسخ، مئة درجة بعضُها فوق بعض، كلُّ درجة صنفٌ من الناس، وهو في أعلى درجة مع جواريه وحَشَمه وخَدَمه؛ صلوات الله وسلامه عليه.

وذكر أبو نعيم الحافظ قال: حدّثنا أحمد بن جعفر، قال: حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب، قال: حدّثنا أبو بكر بن عياش، عن إدريس بن وهب بن مُنبِّه، قال: حدَّثني أبي قال: كان لسليمان بن داود عليه السلام ألفُ بيت أعلاه قواريرُ وأسفله حديد، فركب الريح يوماً فمرَّ بحَرَّاث،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧١٤)، ومسلم (١٩٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٦٩)، والبخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٩/ ١٨٩ .

فنظر إليه الحرَّاث فقال: لقد أُوتي آلُ داود مُلكاً عظيماً، فحملت الريح كلامَه فألقته في أُذن سليمان، قال: فنزل حتى أتى الحرَّاث فقال: إني سمعتُ قولك، وإنما مشيتُ إليك لئلا تتمنَّى ما لا تَقدِرُ عليه؛ لَتَسبيحةٌ واحدة يقبلُها الله منك خيرٌ مما أُوتي آل داود. فقال الحرَّاث: أذهبَ اللهُ هَمَّك كما أذهبتَ هَمِّي[١].

قوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: أراد؛ قاله مجاهد[٢]. والعرب تقول: أصاب الصوابَ، وأخطأ الجواب. أي: أراد الصوابَ، وأخطأ الجواب؛ قاله ابن الأعرابي[٣]. وقال الشاعر:

أصَابَ الكلامَ فلم يَستطِعْ فأخْطا الجوابَ لَدَى المفصلِ[٤]

وقيل: أصاب أراد بلغة حِمْير[٥]. وقال قتادة: هو بلسان هَجَر. وقيل: «حَيْثُ أَصَابَ» حيثما[٦] قصد، وهو مأخوذٌ من إصابة السَّهم الغرضَ المقصود[٧]. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي: وسخَّرنا له الشياطين، وما سُخِّرت لأحدٍ قبلَه. «كُلَّ بَنَّاءٍ» بدل من الشياطين، أي: كل بنَّاء منهم، فهم يبنون له ما يشاء. قال:

إلاَّ سليمانَ إذ قال الإلهُ له قُمْ في البريَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ

وَخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أذِنْتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٨]

«وغوَّاص» يعني: في البحر يستخرجون له الدُّرّ. فسليمانُ أوَّل من استُخرِجَ له اللؤلؤ من البحر[٩].

---

(١) حلية الأولياء ٤/٥٩ .
(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٩٧ .
(٣) ياقوتة الصراط ص٤٤٠ وينظر النكت والعيون ٥/٩٩ .
(٤) المحرر الوجيز ٤/٥٠٦ .
(٥) عرائس المجالس ص٢٩٥ .
(٦) في (م): حينما.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٩٩ .
(٨) البيتان للنابغة الذبياني، وهما في ديوانه ص٣٣ ، وقد سلفا ١٧/٢٦٧ ، والبيت الأول سلف ١٢/٧ .
(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٦١ .

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي: وسخَّرنا له مردةَ الشياطين حتى قرنهم في سلاسل الحديد وقيود الحديد؛ قاله قتادة. السُّدّي: الأغلال[١]. ابن عباس: في وثاق. ومنه قال الشاعر:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا وأُبنا بالملوكِ مُصَفَّدِينا[٢]

قال يحيى بن سلاّم: ولم يكن يفعل ذلك إلا بكُفَّارهم، فإذا آمنوا أطلقهم ولم يُسخِّرهم[٣].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الإشارةُ بهذا إلى المُلك، أي: هذا الملك عطاؤنا، فأَعْطِ مَن شئتَ أو امنع مَن شئتَ، لا حسابَ عليك؛ عن الحسن والضحاك وغيرهما[٤].

قال الحسن: ما أنعم اللهُ على أحدٍ نعمةً إلا عليه فيها تبعة إلا سليمان عليه السلام؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٥].

وقال قتادة: الإشارة في قوله تعالى: «هَذَا عَطَاؤُنَا» إلى ما أُعطيه من القوّة على الجماع، وكانت له ثلاث مئة امرأة وسبع مئة سُرِّيّة، وكان في ظهره ماء مئة رجل؛ رواه عكرمة عن ابن عباس[٦]. ومعناه في البخاري[٧]. وعلى هذا «فَامْنُنْ» من المنيّ؛ يقال: أَمْنَى يُمني، ومَنَى يَمني لغتان، فإذا أمرتَ من أمنى قلت: أَمْنِ؛ ويقال من

(١) أخرجهما الطبري ٢٠/٩٨-٩٩.

(٢) قائله عمرو بن كلثوم، وهو في معلقته ص١٠٠ (بشرح ابن كيسان).

(٣) النكت والعيون ٥/٩٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٩٩.

(٥) النكت والعيون ٥/٩٩، وسلف ١٨/٢٠٦.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/١٠٠. قال أبو حيان في البحر ٧/٣٩٩: ولعله لا يصح عن ابن عباس؛ لأنه لم يجرِ هنا ذكر النساء ولا ما أوتي من القدرة على ذلك.

(٧) يُشير إلى حديث: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة.....» وهو في صحيح البخاري (٦٦٣٩)، وسلف ١٨/٢٠٣.

مَنَى يَمْني في الأمر: امنِ، فإذا جئتَ بنون الفعل نون الخفيفة قلتَ: امْنِنْ. ومن ذهب به المِنّة قال: مَنَّ عليه؛ فإذا أخرجه مُخرجَ الأمر أبرزَ النونين؛ لأنه كان مضاعفاً فقال: امنُنْ. فَيُروى في الخبر أنه سخَّر له الشياطين، فمن شاء مَنَّ عليه بالعِتْق والتخلية، ومَنْ شاء أمْسكه؛ قاله قتادة والسُّدي[١]. وعلى ما روى عكرمةُ عن ابن عباس: أي: جامِعْ مَنْ شئتَ من نسائك، واترك جِماعَ مَنْ شئتَ منهنَّ لا حسابَ عليك[٢]. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: إنْ أنعمنا عليه في الدنيا فله عندنا في الآخرة قُربةٌ وحُسْنُ مَرْجع.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ بالاقتداء بهم في الصبر على المَكاره. «أيُّوبَ» بدل.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وقرأ عيسى بن عمر: «إنّي» بكسر الهمزة، أي: قال. قال الفراء[٣]: وأجمعت القُرَّاء على أن قرؤوا: «بِنُصْبٍ» بضم النون والتخفيف. النحاس: وهذا غلطٌ وبعده مُناقضة وغلطٌ أيضاً؛ لأنه قال: أجمعت القُرَّاء على هذا، وحكى بعده أنهم ذكروا عن يزيدَ بن القعقاع أنه قرأ: «بِنَصَب» بفتح النون والصاد، فَغَلِطَ على أبي جعفر، وإنما قرأ أبو جعفر: «بِنُصُب» بضم النون والصاد[٤]؛ كذا حكاه أبو عُبيد وغيره، وهو مَرْوي عن الحسن[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٠٢ .

(٢) ذكره الطبري ٢٠/ ١٠٣ ولم ينسبه لأحد.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٦٥ ، وما قبله منه، وقراءة عيسى ابن عمر في المحرر الوجيز أيضاً ٤/ ٥٠٧ .

(٤) النشر ٢/ ٣٦١ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ .

فأما «بِنَصَب» فقراءة عاصم الجحدريّ ويعقوب الحضرميّ[(١)]. وقد رُويت هذه القراءة عن الحسن. وقد حكي «بِنَصْب» بفتح النون وسكون الصاد عن أبي جعفر. وهذا كلُّه عند أكثر النحويين بمعنى النَّصَبِ؛ فَنُصْب ونَصَب كَحُزْن وحَزَن.

وقد يجوز أن يكون نُصْب جمع نَصَب كوَثَن ووُثْن. ويجوز أن يكون نُصْب بمعنى نُصُب حُذفت منه الضَّمة، فأما ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] فقيل: إنه جمع نصاب. وقال أبو عُبيدة[(٢)] وغيره: النُّصْبُ الشرّ والبلاء. والنَّصَب التَّعب والإعياء.

وقد قيل في معنى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: ما يلحقه من وسوسته لا غير. والله أعلم. ذكره النحاس[(٣)].

وقيل: إن النُّصْب ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله[(٤)]؛ وفيه بُعْد.

وقال المفسرون: إن أيوبَ كان رُوميًّا من البَثَنِيَّة[(٥)]، وكُنيته أبو عبد الله، في قول الواقدي؛ اصطفاه الله بالنبوّة، وآتاه جملةً عظيمةً من الثروة في أنواع الأموال والأولاد. وكان شاكراً لِأَنعُم الله، مُواسياً لعباد الله، بَرّاً رحيماً. ولم يُؤمن به إلا ثلاثةُ نفر. وكان لإبليس موقفٌ من السماء السابعة في يوم من الأيام، فوقف به إبليس على عادته؛ فقال الله له، أو قيل له عنه: أَقَدَرْتَ من عبدي أيوبَ على شيء؟! فقال: يا رب، وكيف أقدِرُ منه على شيء، وقد ابتليتَهُ بالمال والعافية، فلو ابتليتَه بالبلاء والفقر ونزعْتَ منه ما أعطيتَه لحال عن حاله، ولَخرج عن طاعتك. قال الله: قد سلَّطتك على أهله وماله.

---

(١) النشر ٢/ ٣٦١.

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠١ عن السدي.

(٥) قال ابن إسحاق ـ كما في روح المعاني ٢٣/ ٢٠٥ ـ: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل. والبَثَنِيَّة: ناحية من نواحي دمشق. معجم البلدان ١/ ٣٣٨.

فانحطَّ عدوُّ الله فجمع عفاريتَ الجن، فأعلمهم، وقال قائل منهم: أكون إعصاراً فيه نارٌ أُهلِكُ مالَه فكان؛ فجاء أيوبَ في صورة قَيِّم ماله فأعلمه بما جرى؛ فقال: الحمد لله، هو أعطاه وهو مَنَعه. ثم جاء قصرَه بأهله وولده، فاحتمل القصر من نواحيه حتى ألقاه على أهله وولده، ثم جاء إليه وأعلمه فألقى التراب على رأسه، وصَعِدَ إبليس إلى السماء، فسبقته توبةُ أيوب.

قال: يارب سلِّطني على بدنه. قال: قد سلَّطتك على بدنه إلا على لسانه وقلبه وبصره، فنفخ في جسده نفخة اشتعل [منها] فصار في جسده ثآليلُ، فحكَّها بأظفاره حتى دَمِيتْ، ثم بالفَخَّار حتى تساقط لحمه. وقال عند ذلك: «مَسَّنِيَ الشيطانُ». ولم يخلص إلى شيء من حشوة البطن؛ لأنه لا بقاءَ للنَّفْس إلا بها، فهو يأكل ويشرب، فمكث كذلك ثلاثَ سنين.

فلما غلبه أيوبُ اعترض لامرأته في هيئةٍ أعظمَ من هيئة بني آدم في القدر والجمال، وقال لها: أنا إلهُ الأرض، وأنا الذي صنعتُ بصاحبكِ ما صنعت، ولو سجدتِ لي سجدةً واحدة لَرَدَدْتُ عليه أهلَه[١] ومالَه وهم عندي. وعرض لها في بطن الوادي ذلك كلَّه في صورته؛ أي: أظهره لها، فأخبرت أيوبَ، فأقسم أن يضربها إنْ عافاه الله[٢].

وذكروا كلاماً طويلاً في [سبب بلائه و][٣] مراجعته لِرَبِّه وتبرُّمه من البلاء الذي نزل به، وأن النَّفر الثلاثةَ الذين آمنوا به نَهَوْهُ عن ذلك واعترضوا عليه؛ وقيل: استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فابتُلي بسبب ذلك. وقيل: استضاف يوماً الناس فمنع فقيراً الدخولَ، فابتُلِيَ بذلك. وقيل: كان أيوبُ يغزو مَلِكاً، وكان له غنم في ولايته، فداهنه

(١) في النسخ الخطية: حاله، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٣٤ وما بعدها عن وهب بن منبه، وما بين حاصرتين منه، وسلفت قصة أيوب عليه السلام ١٤/ ٢٥٦ وما بعدها، وذكرنا ثمة أن ما ورد من أخبار في مرضه المنفر كلها من الإسرائيليات، وسيذكر المصنف قريباً ردَّ ابن العربي على هذا الخبر.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، وقد أضافها محققو (م).

لأجلها بترك غزوه فابتُلي[١]. وقيل: كان الناس يتعدّون امرأته، ويقولون: نخشى العَدْوى، وكانوا يستقذرونها؛ فلهذا قال: «مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ».

وامرأته ليا بنت يعقوب. وكان أيوب في زمن يعقوب وكانت أمه ابنةَ لوط[٢]. وقيل: كانت زوجةُ أيوب رحمةَ بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. ذكر القولين الطبري رحمه الله[٣].

قال ابن العربي: ما ذكره المفسرون من أن إبليسَ كان له مكان في السماء السابعة يوماً من العام فقولٌ باطل؛ لأنه أُهبط منها بلعنة وسخطٍ إلى الأرض، فكيف يرقَى إلى محلِّ الرِّضا، ويجول في مقامات الأنبياء، ويخترق السماواتِ العُلى، ويعلو إلى السماء السابعة إلى منازل الأنبياء، فَيقِفُ موقفَ الخليل؟! إن هذا لخطبٌ من الجهالة عظيم.

وأما قولهم: إن الله تعالى قال له: هل قدرتَ من عبدي أيوب على شي فباطلٌ قطعاً؛ لأن الله عز وجل لا يُكلِّم الكفار الذين هم من جند إبليس الملعون؛ فكيف يُكلِّم من تَوَلَّى إضلالَهم؟!.

وأما قولهم: إن الله قال: قد سلَّطتك على ماله وولده، فذلك مُمكن في القُدرة، ولكنه بعيدٌ في هذه القصة. وكذلك قولهم: إنه نفخَ في جسده حين سلَّطه عليه، فهو أبعدُ، والباري سبحانه قادرٌ على أن يخلقَ ذلك كلَّه من غير أن يكون للشيطان فيه كَسْبٌ حتى تَقَرَّ له ـ لعنةُ الله عليه ـ عينٌ بالتمكُّن من الأنبياء في أموالهم وأهليهم وأنفسهم.

وأما قولهم: إنه قال لزوجته: أنا إله الأرض، ولو تركتِ ذكرَ الله وسجدتِ أنتِ لي لَعافيته، فاعلموا، وإنكم لَتعلمون أنه لو عرضَ لأحدكم وبه ألمٌ، وقال هذا الكلام

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠١ .

(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص١٥٠ .

ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض، وأنه يسجد له، وأنه يُعافي من البلاء، فكيف أن تستريبَ زوجةُ نبيٍّ؟! ولو كانت زوجةَ سواديّ أو فَدْم[١] بربريّ ما ساغ ذلك عندها.

وأما تصويرُه الأموالَ والأهلَ في وادٍ للمرأة، فذلك ما لا يقدر عليه إبليسُ بحال، ولا هو في طريق السِّحر، فيقال: إنه من جنسه.

ولو تُصُوّر لَعلمت المرأة أنه سحرٌ كما نعلمه نحن، وهي فوقَنا في المعرفة بذلك؛ فإنه لم يخلُ زمان قطّ من السِّحرِ وحديثه وجَرْيه بين الناس وتصويره.

قال القاضي: والذي جَرَّأهم على ذلك وتذرَّعوا به إلى ذِكْر هذا قولُه تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فلما رَأَوْه وقد شكا مَسَّ الشيطان أضافوا إليه من رأيهم ما سبق من التفسير في هذه الأقوال.

وليس الأمرُ كما زعموا والأفعال كلُّها خيرها وشرها، في إيمانها وكفرها، طاعتها وعصيانها، خالقها هو الله لا شريكَ له في خلقه، ولا في خلق شيء غيرها، ولكن الشرَّ لا يُنسب إليه ذِكراً، وإن كان موجوداً منه خَلْقاً؛ أدباً أدَّبنا به، وتحميداً علَّمناه، وكان من ذِكْر محمد ﷺ لربه به قوله من جملته: «والخيرُ في يديكَ، والشرُّ ليس إليك»[٢] على هذا المعنى. ومنه قول إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وقال الفتى للكليم: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وأما قولهم: إنه استعان به مظلومٌ فلم ينصره، فمن لنا بصحة هذا القول. ولا يخلو أن يكون قادراً على نصره، فلا يحلّ لأحدٍ تركُه فيُلام على أنه عصى وهو مُنزَّه عن ذلك. أو كان عاجزاً فلا شيء عليه في ذلك، وكذلك قولهم: إنه منع فقيراً من الدخول؛ إن كان علم به فهو باطلٌ عليه، وإن لم يعلم به فلا شيء عليه فيه.

---

(١) الفَدْم من الناس: العَييُّ عن الحُجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. اللسان (فدم).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٩)، ومسلم (٧٧١)، وسلف مطولاً ٩/ ١٤٠ .

وأما قولهم: إن داهن على غَنَمه الملكَ الكافر، فلا تقل: داهن، ولكن قل: دارَى. ودفعُ الكافر والظالم عن النفس أو المال بالمال جائز؛ نعم وبحسن الكلام.

قال ابن العربي القاضي أبو بكر ﷺ: ولم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين؛ الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] والثانية في «صَ» ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

وأما النبي ﷺ فلم يصحّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينا أيوبُ يغتسلُ إذ خَرَّ عليه رِجلٌ مِن جرادٍ من ذَهَب» الحديث[١].

وإذ لم يصحَّ عنه فيه قرآن ولا سُنة إلا ما ذكرناه، فمن الذي يُوصل السامع إلى أيوب خبره، أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البَتات؛ فأَعرِضْ عن سُطورها بصرك، واصممْ عن سماعها أُذنيك، فإنها لا تُعطي فِكْرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادَك إلا خبالاً.

وفي الصحيح ـ واللفظ للبخاري ـ أن ابن عباس قال: يا معشرَ المسلمين، تسألون أهلَ الكتاب وكتابكم الذي أُنزِلَ على نبيكم أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤونه مَحْضاً لم يُشَبْ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب قد بدَّلوا من كتب الله وغيَّروا وكتبوا بأيديهم الكتب؛ فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] ولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله، ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أُنزل عليكم[٢]. وقد أنكر النبي ﷺ في حديث «الموطأ» على عمر قراءتَه التوراة[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ الرَّكْض الدَّفع بالرجل. يقال: رَكَض الدابةَ ورَكَض ثوبه برجله. وقال المبرّد: الرَّكْض التحريك؛ ولهذا قال الأصمعي: يقال: رُكِضَت

---

(١) سلف ٤/ ٤٨٣ و١٥/ ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري (٧٥٢٣). وقوله: لم يُشَب، أي: لم يُخالطه غيره

(٣) أخرجه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده مجالد بن سعيد، وهو ضعيف، كما في التقريب. ولم نقف عليه في الموطأ . .

الدابّة. ولا يقال: رَكَضَتْ هي؛ لأن الركضَ إنما هو تحريكُ راكبها رجليه ولا فعلَ لها في ذلك. وحكى سيبويه: رَكَضتُ الدابةَ، فركضتْ، مثل: جَبرتُ العظم فَجبَر، وحزنته فحزن؛ وفي الكلام إضمار: أي: قلنا له: «ارْكُضْ» قاله الكسائي[١]. وهذا لمَّا عافاه الله.

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي: فَركَضَ فنبعتْ عينُ ماء فاغتسل به، فذهب الداءُ من ظاهره، ثم شرب منه فذهب الداءُ من باطنه.

وقال قتادة: هما عينان بأرض الشام في أرض يقال لها: الجابية، فاغتسل من إحداهما، فأذهب اللهُ تعالى ظاهرَ دائه، وشَرِبَ من الأُخرى، فأذهب الله تعالى باطنَ دائه. ونحوه عن الحسن[٢] ومقاتل؛ قال مقاتل: نَبعتْ عينٌ حارّة واغتسل فيها، فخرج صحيحاً، ثم نبعت عينٌ أُخرى فشرب منها ماءً عذباً. وقيل: أُمر بالرَّكض بالرجل لِيتناثرَ عنه كلُّ داء في جسده.

والمغتسَلُ الماء الذي يُغتسَل به؛ قاله القتبي[٣]. وقيل: إنه الموضع الذي يُغتسل فيه؛ قاله مقاتل[٤].

الجوهري[٥]: واغتسلت بالماء، والغَسُول: الماء الذي يُغتسَل به، وكذلك المُغتَسَل، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والمُغتسل أيضاً: الذي يُغتسل فيه، والمَغْسِل والمَغْسَل بكسر السين وفتحها: مَغْسِل الموتى، والجمع المغاسل.

واختُلف كم بقي أيوبُ في البلاء؛ فقال ابن عباس: سبع سنين وسبعة أشهر

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ ، وقول الحسن أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٤ مطولاً.

(٣) في غريب القرآن ص٣٨٠ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٠٢ .

(٥) الصحاح (غسل).

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٠٧ عن مقاتل.

وسبعة أيام وسبع ساعات[١]. وقال وهب بن منبّه: أصاب أيوبَ البلاءُ سبعَ سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعُذِّب بُخْتَنصَّر وحُوِّل في السباع سبع سنين. ذكره أبو نعيم[٢]. وقيل: عشر سنين. وقيل: ثمانَ عشرةَ سنة. رواه أنس مرفوعاً فيما ذكر الماوردي[٣].

قلت: وذكره ابن المبارك؛ أخبرنا يونس بن يزيد، عن عُقَيل عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوب وما أصابه من البلاء، وذكر أن البلاء الذي أصابه كان به ثمانَ عشرةَ سنة[٤]. وذكر الحديث القشيري. وقيل: أربعين سنة.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ تقدّم في «الأنبياء» الكلامُ فيه[٥]. ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: نعمة منا. ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: عبرةً لذوي العقول.

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

فيها سبع مسائل:

الأولى: كان أيوبُ حلف في مرضه أن يضربَ امرأته مئة جلدة؛ وفي سبب ذلك أربعة أقوال:

أحدها: ما حكاه ابن عباس أن إبليسَ لَقِيَها في صورة طبيب فدعته لمداواة أيوب؛ فقال: أُداويه على أنه إذا بَرِئ قال: أنتَ شفيتَني، لا أُريد جزاءً سواه. قالت: نعم، فأشارتْ على أيوب بذلك فحلف لَيضرِبَنَّها. وقال: وَيْحَكِ ذلك الشيطان.

الثاني: ما حكاه سعيد بن المسيَّب، أنها جاءته بزيادة على ما كانت تأتيه من الخبز، فخاف خيانتَها فحلف لَيضرِبَنَّها.

---

(١) في الحلية ٤/ ٥٣.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ١٠٢. والحديث سلف تخريجه ١٤/ ٢٦٠، وذكرنا ثمة أن الحافظ ابن كثير قال: وهذا رَفْعُه غريب جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٧٩) (زوائد نعيم)، وهو مرسل، وسلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ينظر الكلام عليه ثمة.

(٤) ١٤/ ٢٦١ وما بعدها.

الثالث: ما حكاه يحيى بن سلاّم وغيره: أن الشيطان أغواها أن تحمل أيوبَ على أن يذبح سخلةً تقرُّباً إليه وأنه يبرأ؛ فذكرتْ ذلك له، فحلف لَيضْرِبنَّها إنْ عُوفي مئةً[١].

و[الرابع] قيل: باعت ذوائبها برغيفين إذ لم تجد شيئاً تحمله إلى أيوب، وكان أيوبُ يتعلَّق بها إذا أراد القيام، فلهذا حلف لَيضْرِبَنّها[٢]. فلما شفاه الله أمره أن يأخُذَ ضِغْثاً فيضرب به، فأخذ شماريخ قدر مئة، فضربها ضربةً واحدة. وقيل: الضِّغث قبضةُ حشيش مختلطة الرَّطب باليابس. وقال ابن عباس: إنه إثكال النخل الجامع بشماريخه[٣].

الثانية: تضمَّنت هذه الآيةُ جوازَ ضرب الرجل امرأته تأديباً. وذلك أن امرأة أيوبَ أخطأت فحلف لَيضْرِبنَّها مئة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعُثكول من عثاكيل النخل. وهذا لا يجوز في الحدود. إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب. وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوقَ حدِّ الأدب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «واضْرِبُوهُنَّ ضرباً غير مُبَرِّح» على ما تقدَّم في «النساء» بيانه[٤].

الثالثة: واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو عامٌّ أو خاصٌّ بأيوب وحده؛ فروي عن مجاهد أنه عام للناس. ذكره ابن العربي[٥].

وحُكي عن القشيري أن ذلك خاص بأيوب.

وحكى المهدوي عن عطاء بن أبي رباح أنه ذهب إلى أن ذلك حُكْمٌ باقٍ، وأنه إذا ضرب بمئة قضيب ونحوه ضربة واحدة بَرَّ. ورُوي نحوه عن الشافعي[٦]. ورُوي نحوه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٠٣ .

(٢) ذكره ابن العربي بنحوه في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٩ ، وسلف ١٤/ ٢٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٣ .

(٤) ٦/ ٢٨٦ ، والحديث أخرجه مسلم (١٢١٨) مطولاً جداً من حديث جابر ﷺ.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠ .

(٦) ذكره الكيا في أحكام القرآن ٤/ ٣٦١ . وقع في (د) و(ز): وروى نحوه عنه الشافعي، وفي (م): وروى نحوه الشافعي، والمثبت من (ظ).

عن النبي ﷺ في المُقْعَد الذي حملت منه الوليدة، وأَمَر أن يُضْرَبَ بعُثكول فيه مئة شمراخ ضربةً واحدة[١].

وقال القشيري: وقيل لعطاء: هل يُعمل بهذا اليوم؟ فقال: ما أُنزل القرآنُ إلا لِيُعْمَلَ به ويُتَّبع.

ابن العربي[٢]: ورُوي عن عطاء أنها لأيوبَ خاصَّة. وكذلك روى أبو زيد عن ابن القاسم عن مالك: من حلف لَيضربنَّ عبدَه مئةً، فجمعها، فضربه بها ضربةً واحدة لم يبرَّ. قال بعض علمائنا: يريد مالك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: إن ذلك منسوخٌ بشريعتنا.

قال ابن المنذر[٣]: وقد روينا عن عليٍّ أنه جلد الوليدَ بن عقبة بسوط له طرفان أربعين جلدة[٤]. وأنكر مالك هذا وتلا قول الله عز وجل: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وهذا مذهبُ أصحاب الرأي. وقد احتجَّ الشافعي لقوله بحديث، وقد تُكلِّم في إسناده؛ والله أعلم.

قلت: الحديث الذي احتجَّ به الشافعي خرجه أبو داود في «سننه»[٥] قال: حدثنا أحمد بن سعيد الهَمْداني، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال: أخبرني أبو أُمامةَ بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أُضْنِي، فعاد جِلدةً على عظم، فدخلت عليه جاريةٌ لبعضهم فهش لها، فوقع عليها، فلما دخل عليه رجالُ قومه يَعودونه أخبرهم

(١) سيأتي قريباً بتمامه.
(٢) أحكام القرآن ٤/ ١٦٤٠.
(٣) في الإشراف ٢/ ٢٨-٢٩.
(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٥٤٤) بهذا اللفظ، وأصله عند مسلم (١٧٠٧)، وليس فيه أنه جلده بسوط له طرفان.
(٥) الحديث (٤٤٧٢). وأخرجه أحمد (٢١٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (٧٢٦٨) من حديث سعيد بن سعد ابن عبادة رضي الله عنهما.

بذلك وقال: استفتوا لي رسولَ الله ﷺ؛ فإني قد وقعتُ على جاريةٍ دَخلتْ عليَّ. فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، وقالوا: ما رأينا بأحد من الناس من الضُّرِّ مثلَ الذي هو به؛ لو حملناه إليك لَتفسَّخَتْ عِظامُه، ما هو إلا جلدٌ على عَظْم؛ فأمر رسولُ الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ فيضربوه بها ضربةً واحدة.

قال الشافعي: إذا حلف لَيضربنَّ فلاناً مئة جلدة، أو ضرباً شديداً، ولم يقل: ضرباً شديداً، ولم ينوِ ذلك بقلبه يكفيه مثلُ هذا الضرب المذكور في الآية ولا يحنَث[(١)].

قال ابن المنذر[(٢)]: وإذا حلف الرجل: لَيضربنَّ عبده مئةً فضربه ضرباً خفيفاً، فهو بارٌّ عند الشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي. وقال مالك: ليس الضربُ إلا الضربَ الذي يُؤلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ دليلٌ على أن الاستثناء في اليمين لا يرفع حُكماً إذا كان مُتراخياً. وقد مضى القول فيه في «المائدة»[(٣)] يقال: حَنِثَ في يمينه يَحنَثُ، إذا لم يَبَرَّ بها. وعند الكوفيين الواو مقحمة، أي: فاضرِبْ لا تحنَثْ.

الخامسة: قال ابن العربي[(٤)]: قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ يدلُّ على أحد وجهين: إما أن يكون أنه لم يكن في شرعهم كفارةٌ، وإنما كان البرّ والحِنْث. والثاني: أن يكون صَدَرَ منه نذرٌ لا يمين، وإذا كان النذر مُعيَّنًا فلا كفارةَ فيه عند مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: في كل نذر كفارة.

قلت: قوله: إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح؛ فإن أيوبَ عليه السلام لما بقي في البلاء ثمانَ عشرةَ سنة، كما في حديث ابن شهاب: قال له صاحباه: لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه. فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقولان، غير أنَّ ربي عز

---

(١) الأم ٧/ ٧٣.

(٢) في الإشراف ١/ ٤٧٣.

(٣) ٨/ ١٥١.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٤٠.

وجل يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتزاعمان، فكلٌّ يحلف بالله، أو على النَّفر يتزاعمون، فأنقلب إلى أهلي، فأُكفِّر عن أيمانهم إرادةَ ألاّ يأثم أحدٌ يذكره، ولا يذكره إلا بحقّ فنادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وذكر الحديث(١).

فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب، وأن من كفَّر عن غيره بغير إذْنه فقد قام بالواجب عنه وسقطت عنه الكفارة.

السادسة: استدلَّ بعض جُهَّال المتزهِّدة؛ وطَغَام المتصوِّفة بقوله تعالى لأيوب: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ على جواز الرَّقص.

قال أبو الفرج الجوزي(٢): وهذا احتجاجٌ بارد؛ لأنه لو كان أُمِرَ بضرب الرِّجل فرحاً كان لهم فيه شُبهة، وإنما أُمِرَ بضرب الرِّجل لِينبَعَ الماء.

قال ابن عَقيل: أين الدلالة في مُبتلًى أُمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لِينبَعَ الماءُ إعجازاً من الرَّقص؟!، ولئن جاز أن يكون تحريكُ رِجْل قد أنحلها تحكُّم الهوامّ دلالة على جواز الرقص في الإسلام، جاز أن يُجعلَ قولُه سبحانه لموسى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ دلالةً على ضرب الجماد(٣) بالقُضبان! نعوذ بالله من التلاعب بالشَّرع.

وقد احتجَّ بعضُ قاصِريهم بأنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعليّ: «أنت منّي وأنا منك» فحَجَلَ، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي» فَحَجل، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فَحَجل(٤).

ومنهم من احتجَّ بأنَّ الحبشة زَفَنت والنبي ﷺ ينظر إليهم(٥). والجواب ـ أما

---

(١) سلف مطولاً ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر الكلام عليه ثمة، وسلف مختصراً ص٢١٧ من هذا الجزء.

(٢) في تلبيس إبليس ص٢٤٩ .

(٣) في (د) و(ز): المخاد، وفي (م): المحاد، والمثبت من تلبيس إبليس.

(٤) أخرجه أحمد (٧٧٠) و(٨٥٧) من حديث علي ﷺ، وإسناده حسن دون ذكر الحجل، فقد تفرد بذكره هانئ بن هانئ، ومثله لا يحتمل تفرده.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤٨٥٤)، وبنحوه البخاري (٤٥٤)، ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الحَجْل فهو نوع من المشي يُفعَل عند الفرح، فأين هو والرقص؟!، وكذلك زَفْن الحبشة نوعٌ من المشي يُفعل عند اللِّقاء للحرب.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ أي: على البلاء. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: توَّاب رجَّاع مُطيع. وسُئل سفيان عن عبدين ابتُلي أحدُهما فصبر، وأُنعم على الآخر فشكر؛ فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله تعالى أثنى على عبدين، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً؛ فقال في وصف أيوب: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقال في وصف سليمان: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[(١)] [ص: ٣٠].

قلت: وقد ردَّ هذا الكلامَ صاحبُ «القوت»[(٢)] واستدلَّ بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغنيّ وذكر كلاماً كثيراً شيَّد به كلامَه، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع من كتاب «منهج العباد ومَحجَّة السالكين والزُّهاد»، وخَفِيَ عليه أن أيوب عليه السلام كان أحدَ الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتُلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا. فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغيَّر منه حال ولا مقال، فقد اجتمع[(٣)] مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدمُ التغيُّر الذي يفضل فيه بعضَ الناس بعضاً. وبهذا الاعتبار يكون الغنيُّ الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان. والله أعلم.

وفي حديث ابن شهاب عن النبي ﷺ: «إنَّ أيوبَ خرج لِمَا كان يخرج إليه من حاجته فأوحى الله إليه: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاغتسل، فأعاد اللهُ لحمه وشعره وبَشَره على أحسن ما كان، ثم شَرِبَ، فأذهب الله كلَّ ما كان في جوفه من ألَمٍ أو ضَعْف، وأنزل اللهُ عليه ثوبين من السماء أبيضين فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ثم أقبل يمشي إلى منزله ورَاثَ[(٤)] على امرأته، فأقبلتْ حتى لقيته، وهي لا تعرفه،

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ١/ ٢٠٢ ونسبه لبعض القدماء.
(٢) ١/ ٢٠٢-٢٠٣.
(٣) يعني سليمان عليه السلام.
(٤) أي: أبطأ. القاموس (ريث).

فسلَّمتْ عليه وقالت: أي يرحمك الله، هل رأيتَ هذا الرجل المُبتلَى؟ قال: من هو؟ قالت: نبيُّ الله أيوب، أما والله، ما رأيتُ أحداً قط أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً. قال: فإني أيوبُ، وأخذ ضِغْثاً فضربها به».

فزعم ابن شهاب أن ذلك الضِّغْث كان ثُماماً[1]. وردَّ الله إليه أهله ومِثْلَهم معهم، فأقبلت سحابةٌ حتى سَجَلتْ في أَنْدَرِ[2] قمحِهِ ذهباً حتى امتلأ، وأقبلت سحابةٌ أُخرى إلى أَنْدَر شعيره وقطانيه[3]، فسَجَلت فيه وَرِقاً حتى امتلأ[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن عباس: «عَبْدَنا» بإسناد صحيح؛ رواه ابن عُيَينة عن عمرو عن عطاء عنه[5]، وهي قراءةُ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصن وابن كثير[6]؛ فعلى هذه القراءة يكون «إبراهيم» بدلاً من «عبدنا» و﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطف. والقراءة بالجمع أبين، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم، ويكون «إبراهيم» وما بعده على البدل.

النحاس[7]: وشرحُ هذا من العربية أنك إذا قلت: رأيتُ أصحابَنا زيداً وعمراً وخالداً، فزيد وعمرو وخالد بدل، وهم الأصحاب، وإذا قلت: رأيتُ صاحبنا زيداً

---

(١) الثُّمام: عشب من الفصيلة النجيلية. المعجم الوسيط (ثمم).

(٢) الأندر: البيدر. القاموس (ندر). وسجل الماءَ: صبَّه صبًّا متصلاً. المعجم الوسيط (سجل).

(٣) القطاني: الحبوب التي تدخر كالحِمَّص والعدس والباقلا.. معجم متن اللغة (قطن).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٧٩) (زوائد نعيم)، وسلف قسم منه ١٤/ ٢٦٠ ، ينظر تتمة تخريجه ثمة.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ١١٤ .

(٦) السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٧) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٦ ، وينظر ما قبله فيه.

وعمراً وخالداً، فزيدٌ وحدَه بدل، وهو صاحبنا، وعمرو وخالد[(١)] عطف على صاحبنا وليسا بداخلين في المصاحبة إلا بدليلٍ غيرِ هذا، غير أنه قد علم أن قوله: ﴿وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ داخل في العبودية.

وقد استدلَّ بهذه الآية من قال: إن الذبيح إسحاق لا إسماعيل[(٢)]، وهو الصحيح[(٣)] على ما ذكرناه في كتاب «الإعلام بمولد النبي عليه السلام».

﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ قال النحاس[(٤)]: أما «الأبْصَار» فمتفقٌ على تأويلها أنها البصائر في الدين والعلم. وأما «الأيدي» فمختلفٌ في تأويلها؛ فأهلُ التفسير يقولون: إنها القوّة في الدين. وقوم يقولون: «الأيدي» جمعُ يد، وهي النعمة؛ أي: هم أصحاب النِّعم؛ أي: الذين أنعم الله عز وجل عليهم. وقيل: هم أصحاب النِّعم والإحسان؛ لأنهم قد أحسنوا وقدَّموا خيراً. وهذا اختيارُ الطبري.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: الذين اصطفاهم من الأدناس واختارهم لرسالته. ومُصطفَين جمع مصطفى، والأصلُ مصتفي، وقد مضى في «البقرة» عند قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [الآية: ١٣٢] «والأخيار» جمع خَيِّر.

وقرأ الأعمش وعبد الوارث والحسن وعيسى الثقفي: «أُولي الأيدِ» بغير ياء في الوصل والوقف[(٥)] على معنى أُولي القوّة في طاعة الله. ويجوز أن يكون كمعنى قراءة الجماعة، وحُذفت الياء تخفيفاً[(٦)].

---

(١) في النسخ: وزيد وعمرو، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩ ، وقال: هذا ضعيف كله.

(٣) هذا رأي المصنف رحمه الله، والصواب أن الذبيح إسماعيل عليه السلام، وهو الصحيح المقطوع به فيما ذكره الحافظ ابن كثير وغيره، وسلفت هذه المسألة مطولة ١٨/ ٦١ وما بعدها، فينظر أقوال العلماء فيها ثمة.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٣٣ .

(٦) تفسير الطبري ٢٠/ ١١٦ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[١] قراءة العامة «بِخَالِصَةٍ» منونة، وهي اختيار أبي عُبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر: «بخالصةِ ذِكرى الدَّارِ» بالإضافة[٢]، فمن نوَّن خالصة فـ«ذِكْرَى الدَّار» بدل منها؛ التقدير: إنا أَخلصناهم بأن يذكروا الدار الآخرة ويتأهَّبوا لها، ويرغبوا فيها ويُرَغِّبوا الناس فيها.

ويجوز أن يكون «خَالِصَةٍ» مصدراً لخلص و «ذِكْرَى» في موضع رفع بأنها فاعله، والمعنى: أخلصناهم بأن خلصتْ لهم ذكرى الدار؛ أي: تذكير الدار الآخرة.

ويجوز أن يكون «خالصة» مصدراً لأخلصَتْ، فحذفت الزيادة، فيكون «ذِكْرَى» على هذا في موضع نصب، التقدير: بأن أخلصوا ذكرى الدار.

والدار يجوز أن يُراد بها الدنيا؛ أي: ليتذكَّروا الدنيا ويزهَدوا فيها، ولتخلص لهم بالثناء الحسن عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠] ويجوز أن يراد بها الدار الآخرة وتذكير الخلق بها. ومن أضاف خالصة إلى الدار فهي مصدر بمعنى الإخلاص، والذكرى مفعول به أُضيف إليه المصدر؛ أي: بإخلاصهم ذكرى الدار. ويجوز أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل والخالصة مصدر بمعنى الخلوص؛ أي: بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وهي الدار الآخرة أو الدنيا على ما تقدّم[٣].

وقال ابن زيد: معنى أخلصناهم، أي: بذكر الآخرة؛ أي: يذكرون الآخرة ويرغبون فيها ويزهدون في الدنيا. وقال مجاهد: المعنى: إنا أخلصناهم بأن ذكرنا الجنة لهم[٤].

---

(١) هذه الآية قبل الآية السابقة لكن المصنف رحمه الله ذكر تفسيرها آخراً!

(٢) قراءة نافع وهشام عن ابن عامر في السبعة ص٥٥٤ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٣) هذا الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٣١-٢٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩ .

(٤) أخرجهما بنحوهما الطبري ٢٠/ ١١٨ .

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ مضى ذكر اليسع في «الأنعام»[١] وذكر ذي الكفل في «الأنبياء»[٢].

﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي: ممن اختير للنبوّة. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ بمعنى هذا ذكر جميل في الدنيا وشرف يُذكَرون به في الدنيا أبداً.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: لهم مع هذا الذِّكر الجميل في الدنيا حسنُ المَرْجع في القيامة. ثم بيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ والعَدْن في اللغة الإقامة؛ يقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام. وقال عبد الله بن عمرو[٣]: وجنة عَدْن قصر في الجنة له خمسةُ آلاف باب على كل باب خمسةُ آلاف خَيْرة[٤]، لا يدخله إلا نبيّ أو صِدِّيق أو شهيد.

﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال ﴿لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ رفعت الأبوابُ لأنه اسم ما لم يُسمَّ فاعله. قال الزجاج[٥]: أي: مفتحة لهم الأبواب منها. وقال الفرّاء: مفتحة لهم أبوابها. وأجاز الفرّاء[٦]: «مُفَتَّحةً لهم الأبوابَ» بالنصب. قال الفرّاء: أي: مفتحة الأبوابِ، ثم جئت بالتنوين فنصبت. وأنشد هو وسيبويه:

---

(١) ٨/٤٤٨-٤٥٠.

(٢) ١٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): عمر، والمثبت من (ظ)، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/٤٦٨.

(٤) في (م): حِبَرة، وهو خطأ. والخيرة: يعني ذات خير، والجمع: خيرات، والمراد الحور العين. وسلف الخبر ١٢/٥٩-٦٠ والله أعلم بصحته.

(٥) في معاني القرآن ٤/٣٣٧.

(٦) في معاني القرآن ٢/٤٠٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/٤٦٨، والكلام منه.

ونـأخـذُ بـعـدهُ بِـذِنَـابِ عَـيْـشٍ   أجَـبِّ الـظَّـهْـرَ لـيـس لـه سَـنَـام[١]

وإنما قال: «مُفَتَّحَةً» ولم يقل: مفتوحة؛ لأنها تُفتح لهم بالأمر لا بالمس. قال الحسن: تُكلَّم: انفتحي فتنفتح، انغلقي فتنغلق[٢]. وقيل: تَفْتحُ لهم الملائكةُ الأبواب.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ هو حال قُدمت على العامل فيها، وهو قوله: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا﴾ أي: يَدْعُون في الجنات مُتكئين فيها[٣]. ﴿بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ أي: بألوان الفواكه ﴿وَشَرَابٖ﴾ أي: وشراب كثير، فحذف لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي: على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم، وقد مضى في «الصافات»[٤]. ﴿أَتۡرَابٌ﴾ أي: على سِنّ واحد، وميلاد امرأة واحدة، وقد تساوَيْن في الحُسن والشَّباب، بنات ثلاث وثلاثين سنة[٥]. قال ابن عباس: يُريد الآدميات[٦]. و«أَتْرَابٌ» جمع تِرْب، وهو نعت لقاصرات؛ لأن «قَاصِرَاتُ» نكرة وإن كان مضافاً إلى المعرفة. والدليل على ذلك أن الألف واللام يدخلانه كما قال:

مِن القاصِراتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مُحْوِلٌ   مـن الـذَّرِّ فـوقَ الإتْـبِ مـنـهـا لَأَثَّـرا[٧]

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الذي وُعِدتم به.

---

(١) قائله النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١٠ ، وفيه: ونُمسِك، بدل: ونأخذ، وسلف ١٠/ ١٢٩ ، وهو في الكتاب ١/ ١٩٦ .

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٢ .

(٣) تفسير الرازي ٢٦/ ٢١٩ .

(٤) في الصفحة ٣٣ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٠٦ عن يحيى بن سلام.

(٦) ذكره الآلوسي في روح المعاني ٢٣/ ٢١٤ .

(٧) قائله امرؤ القيس، وسلف ص٣٤ من هذا الجزء، وينظر شرحه ثمة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٨ .

وقراءة العامة بالتاء، أي: ما تُوعدون أيها المؤمنون. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب بالياء على الخبر(١) ـ وهي قراءة السُّلَمي واختيار أبي عُبيد وأبي حاتم ـ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ فهو خبر. «لِيومِ الحسابِ» أي: في يوم الحساب، قال الأعشى:

المُهِينينَ ما لَهُمْ لِزمانِ السَّـ ... ـوءِ حتى إذا أفاقَ أفاقوا(٢)

أي: في زمان السوء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دليلٌ على أن نعيمَ الجنة دائمٌ لا ينقطع؛ كما قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت:٨].

قوله تعالى ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ لما ذَكَر ما للمتقين ذَكَر ما للطَّاغين. قال الزجاج(٣): «هذا» خبر ابتداء محذوف، أي: الأمرُ هذا، فيوقف على «هذا». قال ابن الأنباري(٤): «هذا» وقف حسن، ثم تبتدئ «وإنَّ لِلطَّاغينَ» وهم الذين كذَّبوا الرُّسل. ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أي: مُنقلَب يصيرون إليه. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مهَّدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم. ومنه مَهْد الصبيّ. وقيل: فيه حذف، أي: بئس موضع المهاد. وقيل: أي: هذا الذي وصفتَ لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاغين لَشرُّ مَرْجعٍ، فيوقف على «هذا» أيضاً.

---

(١) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٥٥٥، والتيسير ص١٨٨.

(٢) ديوان الأعشى ص٢٦٣.

(٣) في معاني القرآن ٤/٣٣٨.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/٨٦٣.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ «هذا» في موضع رفع بالابتداء وخبره «حَمِيمٌ» على التقديم والتأخير؛ أي: هذا حميم وغسَّاق فليذوقوه. ولا يُوقَف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويجوز أن يكون «هذا» في موضع رفع بالابتداء و«فَلْيَذُوقُوهُ» في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في «هذا» فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» ويرتفع «حَمِيمٌ» على تقدير: هذا حميم.

قال النحاس[١]: ويجوز أن يكون المعنى: الأمر هذا، وحميم وغسَّاق إذا لم تجعلهما خبراً، فَرفْعُهما على معنى: هو حميم وغسّاق. والفرّاء[٢] يرفعهما بمعنى: منه حميم ومنه غسَّاق، وأنشدَ:

حتّى إذا ما أَضَاءَ الصُّبْحُ في غَلَسٍ وغُودِرَ البَقْلُ مَلْوِيٌّ ومَحْصُودُ[٣]

وقال آخر:

لها مَتَاعٌ وأَعْوانٌ غَدَوْنَ بِهِ قِتْبٌ وغَرْب إذا ما أُفْرِغَ انْسَحَقا[٤]

ويجوز أن يكون «هَذا» في موضع نصب بإضمار فعل يُفسِّره «فَلْيَذُوقُوهُ» كما تقول: زيداً اضربه. والنصب في هذا أولى[٥]، فيوقف على «فَلْيَذُوقُوهُ» وتبتدئ «حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ» على تقدير: الأمر حميم وغسَّاق[٦].

وقراءةُ أهل المدينة وأهل البصرة وبعض الكوفيين بتخفيف السين في «وغَسَاق». وقرأ يحيى بن وثَّاب والأعمش وحمزة والكسائي: «وغسَّاق» بالتشديد[٧]، وهما لغتان

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩ ، وينظر ما قبله فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٧ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٠ .

(٣) وذكره الطبري في تفسيره ٢٠/ ١٢٦ دون نسبة.

(٤) قائله زهير، وهو في ديوانه ص٦٧ (برواية الشنتمري) وسلف ٥/ ٢١٠ قال شارحه الشنتمري. قوله: لها متاع، أي: لهذه الناقة التي يُستقى عليها، وقوله: قِتْب وغَرْبٌ تبيين للمتاع، والقِتْب: أداة السانية، والغرب: الدلو العظيمة.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٦٩-٤٧٠ .

(٦) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢١ بنحوه.

(٧) وقرأ بها عاصم في رواية حفص وخلف. السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ ، والنشر ٢/ ٣٦١ .

بمعنى واحد في قول الأخفش[١]. وقيل: معناهما مختلف؛ فمن خفّف فهو اسمٌ مثل: عَذاب وجَواب وصوَاب، ومَن شدَّد قال: هو اسمُ فاعل نُقل إلى فعّال للمبالغة، نحو ضرّاب وقتّال، وهو فعّال من غَسَق يَغسِق، فهو غسّاق وغاسِق.

قال ابن عباس: هو الزمهرير يُخوِّفهم ببرده. وقال مجاهد ومقاتل: هو الثلج البارد الذي قد انتهى برده. وقال غيرهما: إنه يحرق ببرده كما يحرق الحميم بحرِّه.

وقال عبد الله بن عمرو: هو قيحٌ غليظٌ لو وقع منه شيء بالمشرق لأنتن مَنْ في المغرب، ولو وقع منه شيء في المغرب لأنتنَ مَنْ في المشرق.

وقال قتادة: هو ما يسيل من فروج الزُّناة ومن نَتْن لحوم الكفرة وجلودهم من الصديد والقيح والنَّتْن[٢].

وقال محمد بن كعب: هو عُصارة أهل النار. وهذا القول أشبه باللغة؛ يقال: غَسَق الجرح يغسِق غسقاً إذا خرج منه ماء أصفر؛ قال الشاعر:

إذا ما تَـذَكَّـرْتُ الـحـيـاةَ وطِـيـبَـهـا إلـيَّ جَرَى دَمْعٌ مـن الـعـيـن[٣] غـاسِـقُ

أي: بارد. ويقال: ليل غاسق؛ لأنه أبرد من النهار. وقال السدّي: الغسّاق الذي يسيل من أعينهم ودموعهم يُسقَوْنه مع الحميم[٤]. وقال ابن زيد: الحميم دموعُ أعينهم، يُجمع في حياض النار فيُسقَوْنه، والصديد الذي يخرج من جُلودهم. والاختيار على هذا «وغَسّاق» حتى يكون مثل سيّال[٥].

وقال كعب: الغسّاق عين في جهنم يسيل إليها سُمُّ كلِّ ذي حُمَةٍ من عقرب

---

(١) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٠٧ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٨-١٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الليل، والمثبت من (ف)، والبيت لعمران بن حِطَّان، ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٢٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٢٩ .

وحيةٍ[١]. وقيل: هو مأخوذٌ من الظُّلمة والسواد. والغَسَقُ أوّل ظُلمة الليل، وقد غَسَقَ الليلُ يغسِق، إذا أظلم[٢].

وفي الترمذي[٣] من حديث أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يُهَرَاق في الدنيا لأنتنَ أهلُ الدنيا».

قلت: وهذا أشبه على الاشتقاق الأوّل كما بينا، إلا أنه يحتمل أن يكون الغسَّاق مع سيلانه أسودَ مُظلماً فيصحّ الاشتقاقان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «وَأُخَرُ» جمع أُخرى مثل الكبرى والكُبَر. الباقون: «وَآخَرُ» مفرد مذكر[٤]. وأنكر أبو عمرو «وَآخَرُ» لقوله تعالى: «أزواج» أي: لا يُخبر بواحد عن جماعة. وأنكر عاصم الجحدري: «وأُخَرُ» قال: ولو كانت «وَأُخَرُ» لكان: من شكلها.

وكلا الردَّين لا يلزم، والقراءتان صحيحتان.

«وآخَرُ» أي: وعذابٌ آخَرُ سوى الحميم والغسَّاق[٥]. «مِنْ شَكْلِهِ» قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو الزمهرير[٦].

وارتفع «وآخرُ» بالابتداء و«أَزْوَاجٌ» مبتدأ ثانٍ و«مِنْ شَكْلِهِ» خبره، والجملة خبر «آخر». ويجوز أن يكون «وآخر» مبتدأ والخبر مُضمَر دلَّ عليه «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ» لأن فيه دليلاً على أنه لهم، فكأنه قال: ولهم آخر، ويكون «مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ» صفةً لآخر، فالمبتدأ متخصص بالصفة و«أَزْوَاجٌ» مرفوع بالظرف[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٠٦ .

(٢) الصحاح (غسق).

(٣) الحديث (٢٥٨٤).

(٤) السبعة ص٥٥٥ ، والتيسير ص١٨٨ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣٠ .

(٦) أخرجهما الطبري ٢٠/ ١٣١-١٣٢ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٢٨ بنحوه.

ومن قرأ: «وَأُخَرُ» أراد: وأنواعٌ من العذاب أُخَرُ، ومن جمع ـ وهو يريد الزمهرير ـ فعلى أنه جعل الزمهرير أجناساً فجمع لاختلاف الأجناس. أو على أنه جعل لكل جزء منه زمهريراً، ثم جمع كما قالوا: شابَتْ مفارقُه. أو على أنه جمع، لِمَا في الكلام من الدلالة على جواز الجمع؛ لأنه جعل الزمهرير الذي هو نهاية البرد بإزاء الجمع في قوله: «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، والضمير في «شَكْلِهِ» يجوز أن يعود على الحميم أو الغسّاق. أو على معنى: «وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ» ما ذكرنا. ورفع «أُخَرُ» على قراءة الجمع بالابتداء، و«مِنْ شَكْلِهِ» صفةٌ له، وفيه ذِكْر يعود على المبتدأ، و«أَزْوَاجٌ» خبر المبتدأ. ولا يجوز أن يُحمل على تقدير: ولهم أُخَر. و«مِنْ شَكْلِهِ» صفة لأخر، و«أَزْوَاجٌ» مرتفعة بالظرف كما جاز في الإفراد؛ لأن الصفة لا ضمير فيها من حيث ارتفع «أَزْوَاجٌ» بالظرف، ولا ضمير في الظرف، والهاء في «شَكْله» لا تعود على أُخَر لأنه جمع، والضمير(1) مفرد؛ قاله أبو علي(2). و«أَزْوَاجٌ» أي: أصناف وألوان من العذاب. وقال يعقوب: الشَّكْل بالفتح: المِثل، وبالكسر: الدَّلّ(3).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ﴾ قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: «هَذَا فَوْجٌ» يعني الأتباع، والفوج الجماعة، «مقْتَحِمٌ معَكُمْ» أي: دخل النار معكم؛ فقالت السادة: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ أي: لا اتَّسعت منازلهم في النار. والرُّحب السّعة(4)، ومنه رحبة المسجد وغيره. وهو في مذهب الدعاء، فلذلك نصب؛ قال النابغة:

لا مَـرْحَـبـاً بِـغَـدٍ ولا أهْـلاً بِـهِ إنْ كـانَ تَـفْـرِيـقُ الأَحِـبَّـةِ فـي غَـدِ(5).

---

(1) من قوله: بالظرف، ولا ضمير.. إلى هنا سقط من (م).

(2) في الحجة ٦/ ٨٠، وينظر اللام السالف فيه وفي مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٠.

(3) معاني القرآن للنحاس ٦/ ١٣١. والدَّلُّ: غُنْج المرأة. الصحاح (دلل).

(4) تفسير البغوي ٤/ ٦٧.

(5) ديوان النابغة الذبياني ص٣٨.

قال أبو عبيدة[١]: العرب تقول: لا مرحباً بك؛ أي: لا رَحُبَتْ عليك الأرض ولا اتَّسعت.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ﴾ قيل: هو من قول القادة، أي: إنهم صالوا النار كما صَلَيناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: «هَذَا فَوْجٌ مقْتَحِمٌ معَكُمْ»، و« قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ» هو من قول الأتباع[٢].

وحكى النقَّاش أن الفوج الأوّل قادة المشركين ومطعموهم يوم بدر، والفوج الثاني أتباعهم ببدر[٣].

والظاهر من الآية أنها عامَّة في كل تابع ومتبوع.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: دعوتمونا إلى العصيان ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم. ﴿قَالُوا﴾ يعني الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ قال الفراء: من سوّغ[٤] لنا هذا وسَنَّه. وقال غيره: مَن قدَّم لنا هذا العذابَ بدعائه إيَّانا إلى المعاصي ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ [أي: عذاباً بكفره][٥] وعذاباً بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً.

وقال ابن مسعود: معنى عذاباً ضعفاً في النار الحيات والأفاعي[٦]. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[٧] [الأعراف:٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني أكابر المشركين ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٦ .

(٢) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٥١١ ، وتفسير الرازي ٢٦/ ٢٢٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٨ .

(٤) في معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٠ (والكلام منه): شرع.

(٥) ما بين حاصرتين من إعراب القرآن للنحاس.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٦٨ .

(٧) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٢٢ .

﴿ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ قال ابن عباس: يريدون أصحابَ محمد ﷺ؛ يقول أبو جهل: أين بلال، أين صُهَيْب، أين عَمّار[١]. أولئك في الفردوس. واعجباً لأبي جهل! مسكين؛ أسلم ابنُه عكرمة، وابنته جُوَيرية، وأسلمتْ أُمُّه، وأسلم أخوه، وكفر هو؛ قال:

ونـوراً أضـاءَ الأرضَ شَـرْقـاً ومَـغْـربـاً ومـوضـعُ رِجلـي مِـنْـهُ أسْـوَدُ مُـظْـلِـمُ[٢]

﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ قال مجاهد: أتّخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فلم نعلم مكانَهم. قال الحسن: كل ذلك قد فعلوا؛ اتَّخذوهم سخرياً، وزاغت عنهم أبصارهم في الدنيا مَحْقَرةً لهم.

وقيل: معنى «أمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصَارُ» أي: أهم معنا في النار فلا نراهم[٣]؟. وكان ابن كثير والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي يقرؤون: «مِنَ الأَشْرَارِ اتَّخَذْنَاهُمْ» بحذف الألف في الوصل. وكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن عامر يقرؤون: «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بقطع الألف على الاستفهام[٤]، وسقطت ألف الوصل؛ لأنه قد استُغني عنها؛ فمن قرأ بحذف الألف لم يقف على «الأَشْرَارِ» لأن «اتَّخَذْنَاهُمْ» حال. وقال النحاس[٥] والسجستاني: هو نعتٌ لرجال. قال ابن الأنباري[٦]: وهذا خطأ؛ لأن النعت لا يكون ماضياً ولا مستقبلاً. ومن قرأ: «أَتَّخذناهم» بقطع الألف وقف على «الأَشْرَارِ».

قال الفراء[٧]: والاستفهام هنا بمعنى التوبيخ والتعجب، «أمْ زاغت عنهم الأبصار»؛ إذا قرأتَ بالاستفهام كانت أم للتسوية، وإذا قرأتَ بغير الاستفهام فهي بمعنى بل.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٣٦ بنحوه من قول مجاهد.

(٢) قائله البحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٩٧٦ ، وفيه: وبدر، بدل: ونوراً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٠٩ .

(٤) السبعة ص٥٥٦ ، والتيسير ص١٨٨ ، والنشر ٢/ ٣٦٢ ، وقراءة ابن كثير المتواترة عنه بقطع الألف.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧١ . وينظر ما قبله فيه.

(٦) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٤-٨٦٥ ، وما قبله منه.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس ٣/ ٤٧١ .

وقرأ أبو جعفر ونافع وشيبة والمفضَّل وهبيرة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «سُخْرِيّاً» بضم السين. الباقون بالكسر[١]. قال أبو عبيدة[٢]: من كسر جعله من الهُزْء، ومن ضم جعله من التسخير. وقد تقدم[٣].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ «لَحقٌّ» خبر إنَّ و«تَخَاصُمُ» خبر مبتدأ محذوف بمعنى: هو تخاصم. ويجوز أن يكون بدلاً من حق. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر. ويجوز أن يكون بدلاً من ذلك على الموضع[٤]. أي: إن تخاصم أهل النار في النار لحقٌّ. يعني قولهم: «لَا مَرْحَبًا بِكُمْ» الآية، وشبهه من قول أهل النار.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ﴾ أي: مخوفٌ عقابَ الله لمن عصاه، وقد تقدّم. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي لا شريك له ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ بالرفع على النعت، وإن نصبت الأول نصبته. ويجوز رفع الأول ونصب ما بعده على المدح[٥]. «والْعَزِيزُ» معناه المنيع الذي لا مثل له. «الغَفَّارُ» الستَّار لذنوب خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ أي: وقل لهم يا محمد: «هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ» أي: ما أُنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبرٌ عظيم القدر، فلا ينبغي أن يُستخفَّ به.

---

(١) السبعة ص٥٥٦ ، والتيسير ص١٦٠ ، والنشر ٢/ ٣٢٩ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ١٨٧ .

(٣) ١٥/ ٩٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧١ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٢٩ .

(٥) وهذا يجوز في غير التلاوة، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢ .

قال معناه قتادة[١]. نظيره قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني القرآن الذي أنبأتُكم[٢] به خبر جليل[٣]. وقيل: عظيم المنفعة ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملأ الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسّدي اختصموا في أمر آدم حين خُلق فـ ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وقال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٤] [ص: ٧٦].

وفي هذا بيانٌ أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يُتصوَّر إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المُعجزة على صِدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبُّر القرآن ليعرفوا صِدْقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

وقولٌ ثانٍ رواه أبو الأشهب عن الحسن قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سألني ربي فقال: يا محمد، فِيم اختصم الملأ الأعلى، قلت: في الكفارات والدرجات قال: وما الكفارات، قلت: المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبَرَات والتعقيب في المساجد بانتظار الصلاة بعد الصلاة قال: وما الدرجات؟ قلت: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاةُ بالليل والناسُ نِيام»[٥] خرجه الترمذي بمعناه عن ابن عباس، وقال فيه: حديث غريب، وعن معاذ بن جبل أيضاً وقال: حديث حسن صحيح[٦]. وقد كتبناه بكماله في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ١٥٤ .

(٢) في (د) و(م): أنبأكم.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٠-١٤١ عن مجاهد والسدي وشريح، وذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة الطبرسي في مجمع البيان ٢٣/ ١٣١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٤٢ بنحوه.

(٥) نقله المصنف من النكت والعيون ٥/ ١١٠ ، وهو هكذا مرسل، وينظر ما بعده. وأبو الأشهب: هو جعفر بن حيان العطاردي البصري، مات سنة (١٦٥هـ). تهذيب التهذيب ١/ ٣٠٣ . وقوله: السَّبَرات: جمع سَبْرة، وهي شدة البرد. النهاية (سبر).

(٦) سنن الترمذي (٣٢٣٤) و(٣٢٣٥)، والحديثان في مسند أحمد (٣٤٨٤) و(٢٢١٠٩). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٣٤ : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة. وينظر تتمة تخريجه والكلام عليه في مسند أحمد.

وأوضحنا إشكاله والحمد لله.

وقد مضى في «يس» القولُ في المشي إلى المساجد، وأن الخُطَا تُكفّر السيئات، وترفع الدرجات(١).

وقيل: الملأ الأعلى الملائكة، والضمير في «يَخْتَصِمُونَ» لفرقتين. يعني قول من قال منهم: الملائكة بنات الله، [ومن قال: آلهة تعبد]. وقيل: الملأ الأعلى هاهنا قريش؛ يعني اختصامهم فيما بينهم سِرّاً، فأطلع الله نبيَّه على ذلك(٢).

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن يُوحى إليَّ إلا الإنذار، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: «إلاَّ إنَّما» بكسر الهمزة(٣)؛ لأن الوحيَ قولٌ، كأنه قال: يقال لي: إنما أنت نذيرٌ مبين، ومَن فتحها جعلها في موضع رفع؛ لأنها اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه. قال الفراء(٤): كأنك قلت: ما يُوحَى إليَّ إلا الإنذار، النحاس(٥): ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: إلا لأنما. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «إذْ» من صلة «يَخْتَصِمُونَ» المعنى: ما كان لي من علم بالملأ الأعلى حين يختصمون حين ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

وقيل: «إذْ قال» بدل من «إذْ يَخْتَصِمُونَ»(٦)، و«يَخْتَصِمُونَ» يتعلّق بمحذوف؛ لأن

---

(١) ١٧/ ٤٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٣-٥١٤، وما بين حاصرتين منه بنحوه.

(٣) النشر ٢/ ٣٦٢.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٤١٢.

(٥) إعراب القرآن ٣/ ٤٧٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٤.

المعنى: ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذا» تردُّ الماضي إلى المستقبل؛ لأنها تُشبه حروفَ الشرط وجوابُها كجوابه[1]؛ أي: خلقته.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي: من الروح الذي أَمْلكه ولا يَمْلكه غيري. فهذا معنى الإضافة، وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «النساء» في قوله في عيسى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [الآية: ١٧١].

﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ نصب على الحال. وهذا سجودُ تحية لا سجودَ عبادة. وقد مضى في «البقرة»[2].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أي: امتثلوا الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أَنِفَ من السجود له جهلاً بأنَّ السجودَ له طاعةٌ لله، والأَنَفَة من طاعة الله استكباراً كُفرٌ، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى. وقد مضى الكلامُ في هذا في «البقرة» مستوفى[3].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ أي: صرفك وصَدَّك ﴿أَن تَسْجُدَ﴾ أي: عن أنْ تسجد ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أضاف خَلْقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالقَ كل شيء،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٢ .

(٢) ١/ ٤٣٦ .

(٣) ١/ ٤٤١ .

وهذا كما أضاف إلى نفسه الرُّوح والبيت والناقة والمساجد؛ فخاطب الخلق[١] بما يعرفونه في تعاملهم، فإنَّ الرئيس من المخلوقين لا يُباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكرُّم، فَذِكْر اليد هنا بمعنى هذا.

قال مجاهد: اليد هاهنا بمعنى التأكيد[٢] والصلة؛ مجازه: لِمَا خلقتُ أنا، كقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] أي: يبقى ربك. وقيل: التشبيه في اليد في خلق الله تعالى دليلٌ على أنه ليس بمعنى النعمة والقوة والقدرة؛ وإنما هما صِفتان من صفات ذاته تعالى. وقيل: أراد باليد القدرة[٣]، يقال: ما لي بهذا الأمر يدٌ. وما لي بالحِمْل الثقيل يَدَانِ. ويدلُّ عليه أن الخَلْقَ لا يقع إلا بالقدرة بالإجماع. وقال الشاعر:

تَحمَّلْتُ مِن عَفْرَاءَ[٤] ما ليس لي بِه ولا لـلـجِـبـالِ الـرّاسِـيـاتِ يَـدَانِ

وقيل: «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» لما خلقت بغير واسطة.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: عن السجود ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: المُتكبرين على ربِّك.

وقرأ محمد بن صالح، عن شِبْل، عن ابن كثير وأهل مكة: «بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ» موصولة الألف على الخبر[٥]، وتكون أم منقطعة بمعنى: بل، مثل: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» وشبهه. ومن استفهم: «أم» معادلة لهمزة الاستفهام، وهو تقرير وتوبيخ[٦]. أي: استكبرتَ بنفسك حين أبيتَ عن السجود لآدم، أم كنت من القوم الذين يتكبرون فتكبرت لهذا[٧].

---

(١) في (م): الناس.

(٢) في (م): التأكد.

(٣) مذهب السلف أن صفة اليد ثابتة لله سبحانه، فَتُثبت ما أثبته الله لنفسه من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل. وينظر الكلام السالف بمعناه في الأسماء والصفات ٢/ ١٢٧.

(٤) في النسخ الخطية: دلفاء، والمثبت من المصادر، والبيت لعروة بن حزام، وعفراء ابنة عمه. الخزانة ٣/ ٢١٥ و٣٧٨، والنكت والعيون ٥/ ١١١.

(٥) ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٥٥٦، وهي غير المشهورة عن ابن كثير.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥ بنحوه.

(٧) زاد المسير ٧/ ١٥٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قال الفرّاء: من العرب من يقول: أنا أخيرُ منه وأشرُّ منه؛ وهذا هو الأصل إلا أنه حذف منه[١] لكثرة الاستعمال.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فَضَّل النارَ على الطين، وهذا جهلٌ منه؛ لأن الجواهر متجانسةٌ، فقاسَ فأخطأ القياس. وقد مضى في «الأعراف» بيانه[٢].

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ يعني من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مرجومٌ بالكواكب والشُّهب[٣] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردي وإبعادي من رحمتي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تعريفٌ بإصراره على الكُفر؛ لأن اللَّعنَ منقطعٌ حينئذ، ثم بدخوله النار يظهر تحقيق اللعن، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد الملعون ألا يموت، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وَأُخِّر إلى الوقت المعلوم، وهو يوم يموت الخلقُ فيه، فَأُخِّر إليه تهاوناً به.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما طرده بسبب آدم حلفَ بِعزَّة الله أنه يُضِلُّ بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشُّبَه عليهم، فمعنى: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ»: لأستدعِيَنَّهم إلى المعاصي، وقد عَلِمَ أنه لا يَصِلُ إلا إلى الوسوسة، ولا يُفسد إلا مَن كان لا يصلحُ لو لم يوسوسه[٤]؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتَهم لعبادتك، وعَصَمتَهم مني. وقد مضى في «الحجر» بيانه[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ هذه قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة

---

(١) يعني: حُذفت منه الألف كما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ . وسقطت لفظة «منه» من (م).

(٢) ٩/ ١٦٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) ١٢/ ٢١٢ .

والكسائي. وقرأ ابن عباس ومجاهد وعاصم والأعمش وحمزة برفع الأول[(١)]. وأجاز الفرّاء[(٢)] فيه الخفض[(٣)]. ولا اختلاف في الثاني في أنه منصوبٌ بـ«أقول» ونُصِبَ الأوّل على الإغراء، أي: فاتَّبِعوا الحقَّ، واستمعوا الحق، والثاني: بإيقاع القول عليه. وقيل: هو بمعنى أُحِقُّ الحَقَّ، أي: أفعله[(٤)].

قال أبو علي[(٥)]: الحقّ الأوّل منصوبٌ بفعل مضمر، أي: يُحِقُّ اللهُ الحقَّ، أو على القسم وحُذف حرف الجر كما تقول: اللهِ لأفعلنَّ، ومجازه: قال: فبالحقِّ، وهو الله تعالى أقسم بنفسه. و«الحَقَّ أَقُولُ» جملة اعترضت بين القسم والمُقسم عليه، وهو توكيد القصة، وإذا جعل الحقّ منصوباً بإضمار فعل كان «لأملأنّ» على إرادة القسم.

وقد أجاز الفرّاء[(٦)] وأبو عُبيد أن يكون الحق منصوباً بمعنى حقّاً «لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ» وذلك عند جماعة من النحويين خطأ؛ لا يجوز: زيداً لأضربنّ؛ لأن ما بعد اللام مقطوعٌ مما قبلها فلا يعمل فيه. والتقدير على قولهما: لأملأنَّ جهنم حقًّا. ومن رفع «الحقّ» رفعه بالابتداء؛ أي: فأنا الحقُّ، أو الحقُّ مني. رُويا جميعاً عن مجاهد. ويجوز أن يكون التقدير: هذا الحقُّ.

وقول ثالث على مذهب سيبويه والفراء أن معنى: فالحقّ لأملأن جهنم بمعنى: فالحق أن أملأ جهنم.

وفي الخفض قولان ـ وهي قراءة ابن السَّمَيْفَع وطلحة بن مُصَرِّف ـ: أحدهما أنه

---

(١) السبعة ص٥٥٧، والتيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة الأعمش وابن عباس رضي الله عنهما في القراءات الشاذة ص١٣٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، وما قبله منه.

(٣) ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٠ أن عيسى بن عمر قرأ: فالحقِّ والحقِّ، بالجر فيهما. قال ابن خالويه: الصواب أن يخفض الثانية، لأن القسم يكون بالواو ولا يكون بالفاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤.

(٥) في الحجة ٦/ ٨٧-٨٨.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤، والكلام منه.

على حذف حرف القسم. هذا قول الفراء قال: كما يقول: اللهِ لأفعلنّ. وقد أجاز مثل هذا سيبويه وغلطه فيه أبو العباس ولم يُجز الخفض؛ لأن حروف الخفض لا تُضمر، والقول الآخر: أن تكون الفاء بدلاً من واو القسم؛ كما أنشدوا:

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعِ[(١)]

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ أي: من نفسك وذريَّتك ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ من بني آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: من جُعْل على تبليغ الوحي، وكنَى به عن غير مذكور. وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لا أتكلَّف ولا أتخرَّص ما لم أُؤمر به.

وروى مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: من سُئل عما لم يعلم فليقل: لا أعلم، ولا يتكلَّف؛ فإن قوله: لا أعلم عِلمٌ، وقد قال الله عز وجل لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[(٢)]. وعن رسول الله ﷺ: «لِلْمُتَكلِّفِ ثلاثُ علامات: يُنازع مَن فوقَه، ويَتَعاطى ما لا يُنال، ويقولُ ما لا يَعلم»[(٣)].

---

(١) الكلام في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٤ ، والبيت لامرئ القيس، وهو من معلقته ينظر شرح القصائد السبع للنحاس ١/ ١٢، وعجزه: فألهيتُها عن ذي تمائم مُحْوِل. ورواية الديوان ص١٢ : ومرضعاً، وهي كذلك في (د) و(ز) و(ظ)، بدل: ومرضع. ومُغيَل، بدل: مُحْوِل. والمُغيَل: المُرضَع وأمه حبلى. والمُحْوِل: الذي أتى عليه الحول، وينظر تحصيل عين الذهب للأعلم ص٢٩٩ . قال النحاس في شرح القصائد السبع: وخفض «فمثلِك» على معنى: رُبَّ مثلِك، والعربُ تبدل من «رُبَّ» الواو، وتُبدل من الواو الفاء لاشتراكهما في العطف.

(٢) بنحوه ضمن حديث طويل أخرجه أحمد (٤١٠٤)، والبخاري (٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨)، ونقله المصنف عن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .

(٣) أخرجه الثعلبي. فيما ذكره الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢. من طريق محمد بن عون. . . وذكر إسناده إلى سلمة بن نفيل ﷺ مرفوعاً. ومحمد بن عون، قال النسائي: متروك، وقال البخاري: منكر الحديث. الميزان ٣/ ٦٧٦ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٤٧ من قول وهب بن منبه، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٦٤) من قول أرطاة بن المنذر.

وروى الدَّارَقُطْني من حديث نافع عن ابن عمر قال: خرج رسولُ الله ﷺ في بعض أسفاره، فسار ليلاً فمروا على رجل جالس عند مَقْرَاة له، فقال له عمر: يا صاحب المَقْرَاة، أَوَ لَغت السِّباع الليلة في مَقْرَاتك؟ فقال له النبي ﷺ: «يا صاحبَ المَقْرَاة، لا تُخبره، هذا مُتكلِّف، لها ما حملتْ في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهُور»[١].

وفي «الموطأ» عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب: أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وَردوا حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض، هل تَرِدُ حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض، لا تُخبرنا، فإنا نَرِدُ على السِّباع وتَرِدُ علينا[٢]. وقد مضى القول في المياه في سورة «الفرقان»[٣].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أي: نبأ الذِّكر ـ وهو القرآن ـ أنه حقٌّ «بعد حِين» قال قتادة: بعد الموت[٤]. وقاله الزجاج[٥]. وقال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة[٦].

وقال الفراء[٧]: بعد الموت وقبله. أي: لتظهر لكم حقيقةُ ما أقول: «بعدَ حِين» أي: في المستأنف، أي: إذا أخذتكم سيوفُ المسلمين. قال السُّدي: وذلك يومَ بدر. وكان الحسن يقول: يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين[٨].

---

(١) سنن الدارقطني (٣٤). والمقراة: الحوض الذي يجتمع فيه الماء. النهاية (قري).

(٢) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ .

(٣) ١٣/ ٤٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥١ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٢ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ١٥٢ عن ابن زيد.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٤١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧٤ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ١١٢ ، وقول الحسن في تفسير الطبري ٢٠/ ١٥١ .

وسُئل عكرمة عمن حلف: لَيصنعنَّ كذا إلى حين. قال: إنَّ من الحين ما لا تُدركه كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ ومنه ما تُدركه؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ من صِرام النخل إلى طُلوعه ستة أشهر. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» و«إبراهيم»[1] والحمد لله.

(١) ١/ ٤٧٧ و ١٢/ ١٣٥ ، وقول عكرمة سلف ١٢/ ١٣٦ .

تفسير سورة ص

[وهى][(١)] مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد.

قال الضحاك فى قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبى خالد، وابن عيينة، وأبو[(٢)] حصين، وأبوصالح، والسدى[(٣)]: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.

واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]. وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، حكاهما[(٤)] ابن جرير، وهذا الثانى فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير.

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، واختاره ابن جرير.

وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم.

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم[(٥)] أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذى الذكر.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى: مخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من

---

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «ابن». (٣) فى ت: «وخلق غيرهما».
(٤) فى س: «رواهما». (٥) فى أ: «العربية».

السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوا﴾ أى[1]: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣].

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، عن التميمى قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار[2].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث.

وقال شبيب بن بشر[3]، عن عكرمة، عن[4] ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّر ليلى لاتَ حين تذكّر[5]

وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فرار ولا إجابة.

وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء فى غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزاد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابن جرير][6] أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّر حُب ليلى لاتَ حينا ... وأَضْحَى الشَّيْبُ قد قَطَع القَرينا[7]

ومنهم من جوز الجر بها، وأنشد:

طَلَبُوا صُلْحَنَا ولاتَ أوانٍ ... فأجَبْنَا أن ليس حينُ بقاءِ[8]

---

(١) فى ت: «إلى».

(٢) وقد رواه الطستى فى مسائل نافع بن الأزرق أنه سأل ابن عباس فذكره.

(٣) فى أ: «بشير». (٤) فى ت: «سئل».

(٥) البيت للأعشى، وعجزه: وقد تبت عنها والمناص بعيد.

(٦) ما بين المعقوفتين بياض فى س.

(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/٧٧).

(٨) البيت لأبى زبيد الطائى، وهو فى تفسير الطبرى (٢٣/٧٧).

وأنشد بعضهم أيضا:

وَلاتَ سَاعةَ مَنْدَم

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول بشرا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله[(١)] بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿[أَنِ][(٢)] امْشُوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ . قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا[(٣)] إليه محمد من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدى: إن أناسا من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، فى نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذى يعبده؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شىء. فتعيرنا [به][(٤)] العرب، يقولون:

---

(١) فى ت، س، أ: «الإله». (٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «يدعوا». (٤) زيادة من ت، س، أ.

«تركوه حتى إذا مات عنه(١) تناولوه». فبعثوا رجلا منهم يقال له(٢): «المطلب»، فاستأذن لهم على أبى طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخى، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم [إلى](٣) أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك؟ لنعطينها(٤) وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا(٥). قال: «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك(٦) بهذا. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦](٧).

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبى ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرقّ له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا(٨): كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرا، فقالوا: وما هى؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يا ابن أخى؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من (٩) هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ لفظ أبى كريب(١٠).

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَيْر، كلاهما عن أبى أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه(١١)، ورواه الترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن جرير أيضا، كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمَارة

(١) فى أ: «عمه»، وكذا فى الطبرى. (٢) فى ت، س، أ: «يدعى». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س، أ: «لنعطينكما». (٥) فى ت، س، أ: «غيرها». (٦) فى أ: «يأمرك».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٠).
(٨) فى ت، س، أ: «فقال القوم». (٩) فى أ: «فى».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).
(١١) المسند (١/ ٣٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٧).

الكوفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذى[١]: حسن[٢].

وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن[٣] زيد: يعنون دين قريش.

وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾، يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى.

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبَّ ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دَعًّا.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنابه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣ـ ٥٥]، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح [عليه السلام][٤] حين قالوا: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

---

(١) فى ت: «ورواه الترمذى وقال: حديث حسن».
(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٦) وتفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).
(٣) فى ت: «وأبو». (٤) زيادة من أ.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعنى طرق السماء.

وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ أى: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبَتُون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾وكان ذلك يوم بدر، ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤ـ ٤٦].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء .وقد تقدمت قصصهم مبسوطة فى أماكن متعددة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ أى: كانوا أكثر منكم وأشد قوة،وأكثر أموالا وأولاداً، فما دافع[(١)] ذلك عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك[(٢)]؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ[(٣)] إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم: أى ليس لها مَثْنَوية، أى: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى: قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى[(٤)] الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب ـ زاد قتادة: كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) فى ت،أ: «دفع»، وفى س: «لما دفع».
(٢) فى أ: «الله».
(٣) فى أ: «وما ينظرون» وهو خطأ.
(٤) فى أ: «شاء».

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا[١] ذاك فى الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا، وهذا الذى قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبى خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر[٢] والظفر.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾ .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة فى العلم والعمل.

قال [ابن عباس][٣] وابن زيد والسدى: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: **﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾** [الذاريات: ٤٧].

وقال مجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة .

وقال قتادة: أعطى داود [عليه السلام][٤] قوة فى العبادة، وفقها فى الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى»[٥]. وإنه كان أوابا، وهو الرجاع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه.

وقوله: **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾** أى: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: **﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾** [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف فى الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعا له.

قال[٦] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن بشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن

---

(١) فى أ: «يسلموا». (٢) فى أ: «والنصرة». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩).
(٦) فى ت: «وروى».

موسى بن أبى كثير[(١)]، عن ابن عباس [(٢)] أنه بلغه: أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمانى ركعات، قال[(٣)] ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[(٤)].

ثم رواه من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن أبى المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاه عبدالله بن الحارث بن[(٥)] نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلى الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقلت: أخبرى هذا ما أخبرتنى به. فقالت أم هانئ: دخل على رسول الله ﷺ يوم الفتح فى بيتى، ثم أمر بماء صب فى قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بينى وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[(٦)].

ولهذا قال : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أى : محبوسة فى الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: مطيع يسبح تبعا له.

قال سعيد بن جبير، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: مطيع.

[وقوله][(٧)]: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى: جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقال السدى: كان يحرسه فى كل يوم أربعة آلاف.

وقال بعض السلف: بلغنى أنه كان حَرَسُه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل.

وقال غيره: أربعون ألفا مشتملون[(٨)] بالسلاح.

وقد ذكر[(٩)] ابن جرير، وابن أبى حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقرًا، فأنكر الآخر، ولم يكن[(١٠)] للمدعى بينة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، فى المنام بقتل المدعى، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى، فقال: يا نبى الله، علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى؟ فقال: إن الله عز وجل أمرنى بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبى

---

(١) فى ت: «بإسناده».
(٢) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما».
(٣) فى ت: «فقال».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٥) فى أ: «عن».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٧) زيادة من ت، س، أ.
(٨) فى ت، س، أ: «مشتكون».
(٩) فى ت: «وروى».
(١٠) فى س: «تكن».

الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه، وإنى لصادق فيما ادعيت، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود [عليه السلام][(١)] فقتل.

قال ابن عباس: فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل، وهو الذى يقول الله عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب.

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

وقال السدى: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضى، والشعبى: فصل الخطاب: الشهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المدعى، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبدالرحمن السلمى.

وقال مجاهد، والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه.

وقال مجاهد أيضا: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم[(٢)].

وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

وقال[(٣)] ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميرى، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنى عبد العزيز ابن أبى ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبى بردة، عن أبيه[(٤)]، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود، عليه السلام، وهو فصل الخطاب.

وكذا قال الشعبى: فصل الخطاب: «أما بعد».

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾.

---

(١) زيادة من س، ت، أ.

(٢) فى ت: «فى القضاء والحكم».

(٣) فى ت: «ورواه».

(٤) فى ت: «بإسناده».

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشى، عن أنس ـ ويزيد وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن[١] يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا.

وقوله: ﴿ [إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ][٢] فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه، وهو أشرف مكان فى داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى: غَلَبنى. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب.

وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى اختبرناه.

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى: ساجدا ﴿وَأَنَابَ ﴾. ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحا، ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة، رضى الله عنهم[٣]، فى سجدة «ص»، هل هى من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بلى هى سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسماعيل ـ وهو ابن علية ـ عن أيوب، عن ابن عباس[٤] أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى فى تفسيره، من حديث أيوب، به[٥]. وقال الترمذى: حسن[٦] صحيح.

وقال[٧] النسائى أيضا عند تفسير هذه الآية: أخبرنى إبراهيم بن الحسن ـ هو المقسمى ـ حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو[٨] بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن النبى ﷺ سجد فى «ص»، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكرا».

تفرد بروايته النسائى[٩]، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرنى شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى قراءة عليه وأنا أسمع:

---

(١) فى ت: «أنه». (٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى أ: «رحمهم الله».
(٤) فى أ: «عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس»، وفى ت: «ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس» زيادة من أ.
(٥) المسند (١/ ٣٦٠) وصحيح البخارى برقم (١٠٦٩) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٩) وسنن الترمذى برقم (٥٧٧).
(٦) فى أ: «حديث حسن». (٧) فى ت: «وروى». (٨) فى أ: «عمر».
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٨).

أخبرنا أبو إسحاق المدرجى[(١)]، أخبرنا زاهر بن أبى طاهر الثقفى، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامى، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذى، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبوالعباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال: قال لى ابن جريج: يا حسن، حدثنى جدك عبيد الله[(٢)] بن أبى يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول وهى ساجدة: اللهم، اكتب لى بها عندك أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا، وضع عنى بها وزرا، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود.

قال ابن عباس: فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة[(٣)].

رواه الترمذى عن قتيبة، وابن ماجه عن أبى بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس[(٤)]، نحوه. وقال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[(٥)].

وقال البخارى عند تفسيرها أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال[(٦)]: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾[الأنعام: ٨٤]، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ[(٧)] فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن[(٨)] أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ[(٩)].

وقال[(١٠)] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا حميد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المزنى ـ أنه أخبره[(١١)]: أن أبا سعيد الخدرى[(١٢)] رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا، قال: فقصها على النبى ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به [الإمام][(١٣)] أحمد[(١٤)].

وقال[(١٥)] أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى

---

(١) فى أ: «أبو إسحاق بن المدرجى».
(٢) فى أ: «عبد الله».
(٣) رواه المزى فى تهذيب الكمال (٦/ ٣١٤).
(٤) فى أ: «يزيد بن حبيش».
(٥) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٥٣).
(٦) فى ت: «بإسناده إلى مجاهد قال».
(٧) فى ت، س، أ: «هداهم» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٨) فى ت، س: «فيمن».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «بإسناده».
(١٢) فى أ: «الخدرى رضى الله عنه».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/ ٧٨).
(١٥) فى ت: «وروى».

الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزَّن(١) الناس للسجود، فقال: «إنما هى توبة نبى، ولكنى رأيتكم تَشَزَّنْتُم». فنزل وسجد، وسجدوا.

تفرد به أبو داود(٢)، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات فى الجنة، لتوبته(٣) وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية(٥)، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا، إمام عادل(٦). وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا، إمام جائر».

ورواه الترمذى من حديث فضيل ـ وهو ابن مرزوق الأغر ـ عن عطية، به(٧). وقال: لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

وقال(٨) ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار فى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾.

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله(٩). وقد توعد [الله](١٠) تعالى من ضل عن سبيله،

(١) فى ت: «تشدد».
(٢) سنن أبى داود برقم (١٤١٠).
(٣) فى ت، س: «لنبوته».
(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.
(٥) فى ت: «وروى الترمذى». (٦) فى أ: «عدل».
(٧) المسند (٣/ ٢٢) وسنن الترمذى برقم (١٣٢٩).
(٨) فى ت: «وروى». (٩) فى أ: «سبيل الله». (١٠) زيادة من أ.

وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال[١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثنى إبراهيم أبو زرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ أن الوليد بن عبد الملك قال له[٢]: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل فى أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ـ عز وجل ـ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده فى كتابه فقال: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ** ﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿ **لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدى: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم[٣] ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى: الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** ﴾، أى: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ أى: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب[٤] فيها هذا الفاجر[٥]. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلابد فى حكمة الحكيم العليم العادل، الذى لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ أى: ذوو العقول، وهى الألباب، جمع لب، وهو العقل.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «لأبى ورعة». (٣) فى ت، س: «جمعهم».
(٤) فى ت: «ويعذب». (٥) فى س: «العاصى».

قال الحسن البصري: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن [كله][١] ،ما يرى له القرآنُ في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب (٣٠) إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (٣١) فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب (٣٢) ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق (٣٣) ﴾.

يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أي: نبيا، كما قال: **﴿وورث سليمان داود ﴾** [النمل: ١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر.

وقوله: **﴿نعم العبد إنه أواب ﴾**، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

قال[٢] ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا[٣] مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه[٤] السلام، قال له: يا بني، ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبي.

وقوله: **﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾** أي: إذ عرض على سليمان في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات.

قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال[٥] ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمي في قوله: **﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾** قال: كانت عشرين فرسا ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبي زائدة، أخبرني إسرائيل، عن سعيد بن مسروق[٦]، عن إبراهيم التيمي قال: كانت الخيل التي شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس ،فعقرها. وهذا أشبه[٧]، والله أعلم.

وقال[٨] أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبي مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني عُمَارة بن غَزِيَّة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن[٩]، عن عائشة،

---

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) في ت: «روى».
(٣) في ت: «بإسناده».
(٤) في ت، س: «عليهما».
(٥) في ت: «روى».
(٦) في ت: «بإسناده».
(٧) في أ: «الأشبه».
(٨) في ت: «وروى».
(٩) في ت: «بإسناده».

رضى الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعَب - فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له[(١)] جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا[(٢)] الذى أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذى عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[(٣)].

وقوله: ﴿ فَقَالَ[(٤)] إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت[(٥)] صلاة العصر، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب[(٦)]، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضى الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال[(٧)]: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا[(٨)] لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[(٩)].

ويحتمل أنه كان[(١٠)] سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة[(١١)] من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضى الله عنهم، فى فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعى، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾.

قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما[(١٢)] عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة.

وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها.

وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه

---

(١) فى أ: «لها». (٢) فى أ: «ما هذا يا عائشة».
(٣) سنن أبى داود برقم (٤٩٣٢).
(٤) فى ت، س: «قال». (٥) فى ت، أ: «عن وقت». (٦) فى أ: «المغرب».
(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «فتوضأنا».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١١٢) وصحيح مسلم برقم (٦٣١).
(١٠) فى أ: «ادعى هذا طائفة». (١١) فى س، أ: «أنه قد كان». (١٢) فى أ: «أحرَّ ما».

اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى[(١)] عوضه الله تعالى ما[(٢)] هو خير منها، وهى[(٣)] الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل[(٤)].

وقال[(٥)] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال[(٦)]، عن أبى قتادة وأبى الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئا اتقاء الله[(٧)] ـ عز وجل ـ إلا أعطاك الله خيرا منه»[(٨)].

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعنى شيطانا. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أى[(٩)]: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرا. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضا. وقيل: حبقيق. قاله السدى. وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة.

وقد قال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطانا فى البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين فى البحر يَردُها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خَمْر، فجاء يوم ورْده فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديدا، ثم أتاها[(١٠)] فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه فَذَلَّ. قال: وكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه

(١) فى ت، س: «عز وجل». (٢) فى ت، س: «بما». (٣) فى ت، س، أ: «وهو».
(٤) وهذا هو الصواب، وانظر كلام القرطبى فى: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٥، ١٩٦).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٧) فى أ: «لله».
(٨) المسند (٥/ ٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٦): «رجاله رجال الصحيح».
(٩) فى ت، س: «ثم». (١٠) فى أ: «أتاه».

قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرَى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به، حتى أفضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان [عليه السلام][(١)] إذا أراد أن يدخل الخلاء ـ أو: الحمام ـ لم يدخل بخاتمه فانطلق يوما إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه[(٢)] بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه فى البحر، فالتقمته سمكة، ونُزِع مُلك سليمان منه، وألقى على الشيطان شَبَه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضى بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبى الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال: والله لأجربنه. قال: فقال: يا نبى[(٣)] الله ـ وهو لا يرى إلا أنه نبى الله ـ أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلة الباردة، فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس، أترى[(٤)] عليه بأسا؟ فقال[(٥)]: لا. قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾، قال: هو الشيطان صخر[(٦)].

وقال السدى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: ابتلينا سليمان، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوما. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: «جرادة»، وهى آثر نسائه وآمَنَهُن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة[(٧)] نزع خاتمه، ولم يأتمن[(٨)] عليه أحدا من الناس غيرها، فأعطاها يوما خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان فى صورته، فقال: هاتى الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماؤهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا[(٩)]، فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه فى البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان فى حاله التى كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادى[(١٠)] البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إنى أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجَّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه، فقالوا بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «فيها». (٣) فى أ: «أنبى».
(٤) فى ت: «ترى». (٥) فى ت، س: «قال».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٧) فى أ: «حاجته». (٨) فى ت: «يأمن». (٩) فى أ: «أتوه».
(١٠) فى ت، س، أ: «صيادين».

إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل [دمه][١]، فوجد خاتمه فى بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا [به][٢]، فقال: ما أحمدكم على عذركم، ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لابد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان، فجيء به فأمر به فجعل فى صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقى فى البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسخر[٣] له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[٤].

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: شيطانا يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرنى خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف فى البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن ـ ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفونى؟ أطعمونى، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوما حوتا فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه فى بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فارا.

وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبى شيبة وعلى بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٥]: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثم أناب ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه ـ وكانت الجرادة[٦] امرأته، وكانت أحب نسائه إليه ـ فجاء الشيطان فى صورة سليمان، فقال لها: هاتى خاتمى. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن[٧] والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتى خاتمى. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان[٨]، فجعل لا يأتى أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل[٩] الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَف أنه من أمر الله عز وجل. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى فى قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنْ قد فُطن له[١٠]، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا:

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى ت، أ: «وسخرت».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «جرادة». (٧) فى أ: «والجن والطير».
(٨) فى ت: «بسليمان». (٩) فى أ: «جاء». (١٠) فى ت: «أنه فطن له».

بهذا كان يظهر سليمان على الناس [ويغلبهم][١]. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه فى البحر، فتلقته سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لى هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم فى جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَب الشيطان حتى دخل جزيرة[٢] من جزائر البحر، فأرسل سليمان فى طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثب فى مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر[٣] له تخت من رخام، ثم أدخل فى جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح فى البحر، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه.

إسناده إلى ابن عباس قوى، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان فى السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن[٤] ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبى عمرو السيبانى: وجد سليمان خاتمه فى عسقلان، فمشى فى خرقة[٥] إلى بيت المقدس، تواضعاً لله عز وجل، رواه ابن أبى حاتم.

وقد روى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى صفة كرسى سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبرا عجيبا، فقال: حدثنا أبى، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرنى أبو إسحاق المصرى، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث «إرم ذات العماد» قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرنى عن كرسى سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أى شىء هو؟ فقال: كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مُفَصّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جُعل له درجة منها مُفَصّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسى فحُفّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التى عن يمين الكرسى طواويس من ذهب، ثم جُعل على رؤوس النخل التى على يسار الكرسى نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «لحق بجزيرة». (٣) فى ت: «فثقب».
(٤) فى أ: «فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من السلف أن».
(٥) فى أ: «بحرقة».

شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسَدَان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبى الكرسى شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسى، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر. ثم جعل فوق دَرَج الكرسى أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكا وعنبرا. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان[١] فينضحان ما فى أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسى سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أحبار بنى إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضيا من بنى إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسى كله بما فيه وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد [سليمان][٢] على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسى، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسى بما فيه كما تدور الرحى المسرعة. فقال معاوية، رضى الله عنه: وما الذى يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب، ذلك الكرسى عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجنى، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأُسْدُ والطواويس التى فى أسفل الكرسى دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان [ابن داود][٣] عليه[٤] السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما فى أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراةَ فتجعلها فى يده، فيقرؤها سليمان على الناس.

وذكر تمام الخبر[٥]، وهو غريب جدا.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغى لأحد من بعدى، أى: لا يصلح لأحد أن يسلبنيه، كما كان من قضية[٦] الجسد الذى ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه[٧] وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال[٨] البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد[٩]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تَفَلَّت علىّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾».

---

(١) فى ت: «يقفان». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «عليهما». (٥) فى ت: «الحديث». (٦) فى ت: «فى قصة»، وفى أ: «من قصة».
(٧) فى ت، س، أ: «وبذلك». (٨) فى ت: «فروى». (٩) فى ت: «بإسناده».

قال روح: فرده خاسئا[١].

وكذا رواه مسلم والنسائى، من حديث شعبة، به[٢].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية ابن صالح، حدثنى ربيعة بن يَزيد، عن أبى إدريس الخولانى[٣]، عن أبى الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلى، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ـ ثلاثا ـ وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى، فقلت: أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقا يلعب به صبيان[٤] أهل المدينة»[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائما يصلى، فذهبت أمر بين يديه فردنى، ثم قال[٧]: حدثنى[٨] أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام يصلى[٩] صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتمونى وإبليس، فأهويت بيدى، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعى هاتين ـ الإبهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح[١٠] مربوطا بسارية من سوارى المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبى سُرَيج، عن أبى أحمد الزبيرى، به[١١].

وقال[١٢] الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى، حدثنا الأوزاعى، حدثنى ربيعة بن يزيد[١٣]، عن عبد الله الديلمى قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو فى حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُخَاصر فتى من قريش يُزَنّ بشُرْب الخمر، فقلت: بلغنى عنك حديث أنه «من شرب شربة خَمْر لم يقبل الله، عز وجل، له توبَةً أربعين صباحاً، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزه إلا الصلاة فيه، خرج

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٨).
(٢) صحيح مسلم برقم (٥٤١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٠).
(٣) فى ت: «بإسناده». (٤) فى ت، س، أ: «ولدان».
(٥) صحيح مسلم برقم (٥٤٢).
(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت: «بإسناده». (٨) فى ت: «عن».
(٩) فى ت: «فصلى».
(١٠) فى ت: «أصبح».
(١١) المسند (٣/٨٣) وسنن أبى داود برقم (٦٩٩).
(١٢) فى ت: «وروى». (١٣) فى ت: «بإسناده».

من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبدالله بن عمرو [١]: إنى لا أحل لأحد أن يقول عَلَىّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن[٢] عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد ـ قال: فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة ـ فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدْغَة الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك[٣] أقول: جف القلم على علم الله عز وجل». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكما يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيّما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم[٤] ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى[٥] قد أعطانا إياها»[٦].

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائى وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، عز وجل، خلالا ثلاثا. . .» وذكره[٧].

وقد روى من حديث رافع بن عمير، رضى الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبرانى:

حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبة العسقلانى، حدثنا محمد بن أيوب بن سُوَيْد، حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى عَبْلَة، عن أبى الزاهرية[٨]، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل لداود، عليه السلام: ابن لى بيتاً فى الأرض. فبنى داود [٩] بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتى؟ قال: يا رب، هكذا قضيت[١٠]، من ملك استأثر. ثم أخذ فى بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثا، فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال: يا داود[١١]، إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان[١٢] ذلك فى هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادى، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بنى إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى، فسلنى أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك، وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه

---

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «وإن». (٣) فى أ: «ولذلك».
(٤) فى ت، س، أ: «مثل يوم». (٥) فى ت، س، أ: «عز وجل».
(٦) المسند (٢/ ١٧٦).
(٧) سنن النسائى (٢/ ٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٠٨).
(٨) فى ت: «وروى الطبرانى بإسناده». (٩) فى ت: «داود عليه السلام».
(١٠) فى ت، س، أ: «هكذا قلت فيما قضيت». (١١) فى ت، أ: «فأوحى الله إليه».
(١٢) فى ت، س، أ: «أو لم يكن».

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»[١].

وقال[٢] الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامى، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتحه بـ «سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب»[٣].

وقد قال[٤] أبو عبيد: حدثنا على بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبى الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما[٥] السلام: أن سلنى حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لى قلبا يخشاك، كما كان قلب أبى، وأن تجعل قلبى يحبك كما كان قلب أبى. فقال الله: أرسلت إلى عبدى وسألته[٦] حاجته، فكانت [حاجته][٧] أن أجعل قلبه يخشانى، وأن أجعل قلبه يحبنى. لأهَبَنّ له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، والتى بعدها، قال: فأعطاه [الله][٨] ما أعطاه، وفى الآخرة لا حساب عليه.

هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة سليمان، عليه السلام، فى تاريخه[٩].

وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغنى عن داود [عليه السلام][١٠] أنه قال: «إلهى، كن لسليمان كما كنت لى»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لى كما كنت لى، أكون له كما كنتُ لك.

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: قال الحسن البصرى، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضبا لله، عز وجل، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أى: منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون مما[١١] فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى: موثوقون فى الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى.

---

(١) المعجم الكبير (٥/ ٢٤) قال الهيثمى فى المجمع (٤/٨): «فيه محمد بن أيوب بن سويد الرملى وهو متهم بالوضع».
(٢) فى ت: «وروى».
(٣) المسند (٤/ ٥٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥٦): «فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح».
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت، أ: «عليه». (٦) فى ت، س: «أسأله».
(٧) زيادة من ت، س. (٨) زيادة من أ.
(٩) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٩ «القسم المخطوط».
(١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى ت: «ما».

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أى: مهما فعلتَ فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

وقد ثبت فى الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به ـ وبين أن يكون ملكا نبيا، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة فى المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا وفى الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: فى الدار الآخرة.

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة[2] وتطعمه، وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فَسُلبَ جميعَ ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضى الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً و[لا][3] مساء إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع[4] إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، وفى هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب فى بدنى، وعذاب فى مالى وولدى. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى[5]. ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان فى باطنه[6] من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

---

(١) فى أ: «الصحيح». (٢) فى أ: «بالأجر». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س: «ضرع». (٥) فى ت، س: «ما كان به من الأذى». (٦) فى أ: «بباطنه».

قال[١] ابن جرير، وابن أبى حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب[٢]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشفَ ما به [٣]. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، عز وجل، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق. قال: وكان[٤] يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل[٥] عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال: فإنى[٦] أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا[٨] أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانا، خَرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو فى ثوبه، فناداه ربه[٩]: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بى عن بركتك».

انفرد بإخراجه البخارى، من حديث عبد الرزاق، به[١٠].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: لذوى العقول، ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بسندهما». (٣) فى أ: «ما به من مرضه».
(٤) فى أ: «وكان أيوب». (٥) فى أ: «وأقبل». (٦) فى أ: «فقال إنى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/١٠٧) ورواه البزار فى مسنده (٢٣٥٧) «كشف الأستار»، وأبو نعيم فى الحلية (٣/٣٧٤) من طريق سعيد ابن أبى مريم عن نافع بن يزيد به. قال البزار: «لا نعلم رواه عن الزهرى عن أنس إلا عقيل، ولا عنه إلا نافع، ورواه عن نافع غير واحد»، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/٢٠٨): «رجال البزار رجال الصحيح».
(٨) فى ت: «وروى القارى». (٩) فى ت، س، أ: «ربه عز وجل».
(١٠) المسند (٢/٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٢٧٨).

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها فى أمر فعلته. قيل: [إنها][1] باعت ضفيرتها [2] بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، عز وجل، أن يأخذ ضغثاً ـ وهو: الشِّمراخ ـ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: رَجَّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل فى الإيمان وغيرها، وأخذوها[3] بمقتضاها، [ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة فى شرع أيوب ،عليه السلام، فلذلك رخص له فى ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة][4].

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يعنى بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ يقول: أولى القوة، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه فى الدين.

وقال مجاهد: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي﴾، يعنى: القوة فى طاعة الله، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يعنى: البصر[5] فى الحق.

وقال قتادة والسدى: أعطُوا قوة فى العبادة وبَصرًا فى الدين.

[وقوله][6]: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها. وكذا قال السدى: ذكرهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراسانى.

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «ضفيرتيها».
(٣) فى ت، س: «وأخذوا».
(٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى أ: «البصير».
(٦) زيادة من ت، س، أ.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها[(١)]، وقال فى رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقبى الدار.

وقال قتادة: كانوا يذَكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها.

وقال ابن زيد: جعل لهم[(٢)] خاصةً أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أى: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى [الدار][(٣)] الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب.

والألف واللام هنا[(٤)] بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

قال[(٥)] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهَبَّارى، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا عبد الله ابن مسلم ـ يعنى: ابن هرمز ـ عن ابن سابط[(٦)]، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما][(٧)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبَرَة لا يدخله ـ أو: لا يسكنه ـ إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عدل»[(٨)].

وقد ورد فى [ذكر] [(٩)] أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر[(١٠)] تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

---

(١) فى ت: «أخلصناهم بذكرهم لها». (٢) فى ت: «لها». (٣) زيادة من س، أ.

(٤) فى ت: «هاهنا». (٥) فى ت: «روى». (٦) فى ت: «بإسناده».

(٧) زيادة من أ.

(٨) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٩١) «كشف الأستار» من طريق محمد بن ثواب به، وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ١٩٦): «فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف».

(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى أ: «سرير».

كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَتْرَابٌ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسّدّى.

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة التى[١] وعدها لعباده المتقين، التى[٢] يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله، ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أى: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشياء من هذا القبيل، الشىء وضده يعاقبون بها.

قال[٣] الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درّاج، عن أبى الهيثم[٤]، عن أبى سعيد [٥] ،عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غَسَّاق يهراق فى الدنيا، لأنتن أهل الدنيا»[٦].

---

(١) فى ت، س، أ: «الجنة هى التى».
(٢) فى أ: «الذين».
(٣) فى ت: «روى».
(٤) فى ت: «بسنده».
(٥) فى أ: «سعيد رضى الله عنه» .
(٦) المسند (٣/٢٨).

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين»[١]. كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به[٢].

وقال كعب الأحبار: غساق: عين فى جهنم، يسيل إليها حُمَة كل ذات حُمَة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبيه، ويُجَر لحمه كما يَجُر الرجل ثوبه. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: ألوان من العذاب.

وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة[٣]، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون[٤]، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أى: داخل معكم، ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [أى][٥]: لأنهم من أهل جهنم[٦]. ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أى: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾، كما قال عز وجل[٧]: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أى: لكل منكم عذاب بحسبه، ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟

قال[٨] مجاهد: هذا قول أبى جهل، يقول: ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا.

وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فى الدنيا[٩]، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٤).

(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ١١٤).

(٣) فى ت، س: « المتضاضة والمتخالفة». (٤) فى ت: «ويتجاذبون». (٥) زيادة من ت، س.

(٦) فى ت: «النار». (٧) فى ت، س: «تعالى». (٨) فى ت: «وقال».

(٩) فى أ: «دار الدنيا».

معنا فى جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات[(١)]، وهو[(٢)] قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿[وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ] [(٣)] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى: إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ[(٤)] أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر[(٥)] لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: هو[(٦)] وحده قد قهر كل شىء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياى إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أى: غافلون.

قال مجاهد، وشريح القاضى، والسدى فى قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعنى: فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا جهضم اليمامى، عن يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن أبى سلام، عن أبى سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فَثَوّب بالصلاة فصلى، وتَجَوّز فى صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدّر لى، فنعست فى صلاتى حتى استيقظت، فإذا أنا بربى[(٧)] فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

(١) فى ت: «العلا». (٢) فى أ: «وهى». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) فى س: «صلوات الله وسلامه عليه». (٥) فى أ: «نذير مبين». (٦) فى ت: «وهو».
(٧) فى ت، س، أ: «بربى عز وجل».

قلت: لا أدرى رب ـ أعادها ثلاثا ـ فرأيته وضع كفه بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت[١]: نقل الأقدام إلى الجمعات[٢]، والجلوس[٣] فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»[٤]، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق.

وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث «جهضم بن عبد الله اليمامى» به. وقال: «حسن صحيح»[٥] وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن[٦] إن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾.

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، فى سورة «البقرة»، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، و[فى][٧] «سبحان»، و«الكهف»، وهاهنا. وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامتثالا لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف[٨] عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى[٩] أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق

(١) فى أ: «قال». (٢) فى ت، أ: «الجماعات». (٣) فى ت، س، أ: «وجلوس».
(٤) المسند (٥/ ٢٤٣).
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) وقال: «سألت محمد بن إسماعيل ـ يعنى: عن هذا الحديث ـ فقال: «حسن صحيح».
(٦) فى ت: «المذكور فى الآية الكريمة فى القرآن».
(٧) زيادة من ت. (٨) فى أ: «فاستأنف». (٩) فى ت: «فادعى».

من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، فى زعمه. وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن[1] باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذى لا يَعْجَل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى، وهى[2] قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى[3]، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق.

وقرأ آخرون بنصبهما.

قال السدى: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا[4] يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله[5] قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه[6] من حديث الأعمش، به[7].

---

(١) فى أ: «لم». (٢) فى أ: «الله عز وجل». (٣) فى أ: «من».
(٤) فى أ: «وهو». (٥) فى أ: «الأول».
(٦) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير[(١)]، عن[(٢)] ابن عباس في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، [وكقوله][(٣)]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد[(٤)] دخل في حكم القيامة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة «ص»، ولله الحمد والمنة

---

(١) في ت: «بإسناده».
(٢) في ت: «إلى».
(٣) زيادة من أ.
(٤) في ت، س، أ: «قد».

[٤٢٨و]

/ سورة صٓ

مكّيّة، وهي ستّ وثمانون[١] آيةً.[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

﴿صٓ﴾ بالسكون على الوقف. وقُرئ بالكسر[٣] والفتح[٤] لالتقاء الساكنَين، ويجوز أن يكون الفتح بإضمار حرف القسَم في موضع الجرّ، كقولهم: "اللهِ لأفعلَنّ" بالجرّ، وأن يكون ذلك نصبًا بإضمار "اذكر" أو "اقرأ"، لا فتحًا كما مرّ في فاتحة سورة البقرة. وامتناعُ الصرف للتعريف والتأنيث؛ لأنّها عَلَم للسورة، وقد صرَفها مَن قرأ "صَادٍ" بالتنوين[٥] على أنّه اسم الكتاب أو التنزيل.

وقيل: هو في قراءة الكسر أمْرٌ مِن "المُصاداة"، وهي المعارَضة والمقابَلة، ومنها "الصَّدَى" الذي ينعكس مِن الأجسام الصلبة بمقابلة الصوت، ومعناه: عارِضِ القرآن بعملك، فاعمل بأوامره، وانتَهِ عن نواهيه، وتخلّقْ بأخلاقه.

ثمّ إن جُعل اسمًا للحرف مَسرودًا على منهاج التحدّي، أو الرمزِ إلى كلامٍ مِثل: "صدَق الله" أو "صدَق محمّد" كما نُقل عن أكابر السلَف،[٦] أو اسمًا للسورة خبرًا لِمبتدأ محذوف، أو نصبًا على إضمار "اذكر" أو "اقرأ"، أو أمرًا مِن "المُصاداة"؛ فـ"الواو" في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ للقَسَم.

---

[١] ط + وقيل: ثمان وثمانون.

[٢] م – سورة ص، مكّيّة، وهي ستّ وثمانون آيةً.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه وابن أبي إسحاق والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٥/٩.

[٦] انظر: جامع البيان للطبري، ٧/٢٠؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٨/٣.

وإن جُعِل مقسَمًا به فهي للعطف عليه. فإن أريدَ بـ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ كلُّه فالمغايرة بينهما حقيقيّة، وإن أريدَ عينُ السورة فهي اعتباريّة، كما في قولك: "مرَرتُ بالرجل الكريم وبالنسَمة المباركة". وأيًّا ما كان ففي التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسَم عليها.

و﴿ٱلذِّكْرِ﴾ الشرَف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أو الذكرى والموعظة، أو ذِكرُ ما يُحتاج إليه في أمر الدين مِن الشرائع والأحكام وغيرها مِن أقاصيص الأنبياء عليهم السلام، وأخبارِ الأمم الدارجة، والوعدِ والوعيد.

وجواب القسَم على الوجه الأوّل والرابع والخامس محذوف، هو ما يُنبئ عنه التحدّي والأمرُ والإقسامُ به مِن كون المتحدَّى به معجِزًا، وكونِ المأمور به واجبًا، وكونِ المقسَم به حقيقًا بالإعظام، / أي: أقسمُ **بالقرآن** أو بِـ"صَادْ" وبِه إنّه لَمعجِز، أو لَواجبُ العمل، أو لَحَقيقٌ بالإعظام. [٤٢٨ظ]

وأمّا على الوجهَين الباقيَين فهو الكلام المرموز إليه، ونفسُ الجملة المذكورة قبل القسَم، فإنّ التسمية تنويه بشأن المسمَّى، وتنبيه على عِظَم خطَره، أي: إنّه لصادق **والقرآنِ** ذي الذِكر، أو هذه السورة عظيمة الشأن **والقرآنِ**... إلخ، على طريقة قولهم: "هذا حاتِمٌ واللهِ".

ولمّا كان كلّ واحد مِن هذه الأجوبة مُنبئًا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلّيّة إنباءً بيّنًا كان قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضرابًا عن ذلك، كأنّه قيل: لا ريبَ فيه قطعًا، وليس عدمُ إذعان الكفرة له لِشائبة ريبٍ ما فيه؛ بل هم في استكبارٍ وحميّةٍ شديدةٍ وشقاقٍ بعيد لله تعالى ورسوله، ولذلك لا يُذعنون له.

وقيل: الجواب ما دلّ عليه الجملة الإضرابيّة، أي: ما كفَر به مَن كفَر لِخلَل وجده فيه؛ بل الذين كفروا... إلخ.

وقُرئ: "فِي غِرَّةٍ"،[١] أي: في غفلة عمّا يجب عليهم التنبّهُ له مِن مبادئ الإيمان ودواعيه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣﴾

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب مَن قبلهم مِن المستكبرين. و﴿كَمۡ﴾ مفعول ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، و﴿مِن قَرۡنٍ﴾ تمييز. والمعنى: وقَرْنًا كثيرًا أهلكنا مِن القرون الخالية، ﴿فَنَادَواْ﴾ عند نزول بأسنا وحلولِ نقمتنا استغاثةً وتوبةً، لينجوا مِن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ حال مِن ضمير ﴿نَادَواْ﴾، أي: نادَوا واستغاثوا طلَبًا للنجاة، والحال أن ليس الحينُ حينَ مناصٍ، أي: فَوتٍ ونجاةٍ، مِن "ناصَهُ"، أي: فاتَه، لا مِن "ناصَ" بمعنى: تأخّر، ولا هي المشبَّهة بـ"ليس" زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على "رُبَّ" و"ثَمّ". وخُصَّت بنفي الأحيان، ولم يَبرُزْ إلّا أحد مَعمولَيها، / والأكثر حذف اسمها. [٤٢٩و]

وقيل: هي النافية للجنس، زيدت عليها "التاء"، وخُصّت بنفي الأحيان، و﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منصوب على أنّه اسمها، أي: ولا حينَ مناصٍ لهم، أو بفعل مضمَر، أي: ولا أرَى حينَ مناصٍ.

وقُرئ بالرفع،[١] فهو على الأوّل اسمُها، والخبر محذوف، أي: ليس حينُ مناصٍ حاصلًا لهم، وعلى الثاني مبتدأ محذوف الخبر، أي: ولا حينُ مناصٍ كائنٌ لهم. وقُرئ بالكسر،[٢] كما في قوله:

طلبوا صُلحَنا ولاتَ أوانٍ فأجبنا أن لاتَ حينَ بقاءِ[٣]

إمّا لأنّ "لاتَ" تَجرّ الأحيانَ، كما أنّ "لولا" تَجرّ الضمائر في نحو قوله:

لولاكَ هذا العامَ لم أحجُجِ[٤]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩. وضبطها أبو حيّان: "وَلَاتُ حِينُ" بضمّ "التاء" ورفع "النون". انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٦/٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩. وضبطها أبو حيّان: "وَلَاتِ حِينِ" بكسر "التاء" وجرّ "النون". انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٦/٩.

[٣] لأبي زُبيد الطائي في الكشّاف للزمخشري، ٧١/٤. وهو كذلك في لسان العرب لابن منظور، «لا»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٦٤٠/٢، بلفظ: "أن ليس حينَ بقاءِ".

[٤] صدره:
أوْمَتْ بكفّيها مِن الهَودجِ
وهو في شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص ٤٧٩، في قسم الشعر المنسوب إليه.

أو لأنّ "أوانٍ" شُبِّه بـ"إذٍ" في قوله:

نَهَيتُكَ عن طِلابِكَ أمَّ عمرو بعاقِبةٍ وأنتَ إذٍ صحيحُ[1]

في أنّه زمانٌ قُطع منه المضاف إليه، وعُوِّض التنوينَ؛ لأنّ أصله "أوانَ صلحٍ"، ثمّ حُمِل عليه "حينَ مناصٍ" تنزيلًا لقطع المضاف إليه مِن "مَناصٍ" -إذ أصله "حينَ مَناصِهم"- منزلةَ قطعه مِن "حين"، لِما بين المضافَين مِن الاتّحاد، ثمّ بُني "الحينُ" لإضافته إلى غير متمكّن.

وقُرئ: "لَاتِ" بالكسر،[2] كـ"جَيْرِ".[3] ويقف الكوفيّون عليها بـ"الهاء"[4] كالأسماء، والبَصريّة بـ"التاء" كالأفعال.

وما قيل[5] مِن أنّ "التاء" مزيدة على "حِينَ" لاتّصالها به في الإمام ممّا لا وجهَ له، فإنّ خطّ المصحف خارج عن القياس.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ حكاية لأباطيلهم المتفرّعة على ما حُكي مِن استكبارهم وشِقاقهم، أي: عجِبوا مِن أن جاءهم رسولٌ مِن جنسهم؛ بل أدوَنُ منهم في الرياسة الدنيويّة والمال، على معنى أنّهم عدُّوا ذلك أمرًا عجيبًا خارجًا عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشدّ الإنكار، لا أنّهم اعتقدوا وقوعَه وتعجّبوا منه.

/ ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وُضع فيه الظاهر موضعَ الضمير غضبًا عليهم، وإيذانًا [٤٢٩ظ] بأنّه لا يَتجاسر على مِثل ما يقولونه إلّا المتوغِّلون في الكفر والفسوق:

---

١ لأبي ذُؤيب الهذلي في الصحاح للجوهري، «إذ»؛ ولسان العرب لابن منظور، «أذذ». و"الطِّلاب" بمعنى الطَّلَب. و"بِعاقبة": حال مِن "الكاف" الأولى والثانية، والاسميّة حال ثانية. انظر: شرح شواهد المغني للسيوطي، ١/٢٦١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٣ "جَيْرِ" بكسر "الراء"، وقد يُنوَّن، وكـ"أَيْنَ": يَمين، أي: حقًّا، أو بمعنى: نعَم أو أجَل. القاموس المحيط للفيروزابادي، «جير».

٤ وبذلك قرأ الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/١٣٢.

٥ قاله أبو عبيد القاسم بن سلّام، وقال: «فالوقف عندي على "لا"، والابتداء "تَحِين"؛ لأنّي نظرتها في الإمام "تَحِين" "التاء" متّصلة». انظر: النشر لابن الجزري، ٢/١٥٠.

﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ فيما يُظهره مِن الخوارق ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يُسنده إلى الله تعالى مِن الإرسال والإنزال.

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأن نَفى الألوهيّة عنهم وقَصَرها على واحدٍ، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجَب، وذلك لأنّه خلاف ما أَلِفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيّتهم، وواظبوا على عبادتهم كابِرًا عن كابِر، فإنّ مدار كلّ ما يأتون وما يذَرون مِن أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيعدّون ما يخالف ما اعتادوه عجيبًا؛ بل مُحالًا.

وأمّا جعلُ مدارِ تعجّبهم عدمَ وفاءِ علمِ الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة[1] فلا وجهَ له، لِما أنّهم لا يدّعون أنّ لآلهتهم عِلمًا وقدرةً ومدخلًا في حدوث شيء مِن الأشياء حتّى يلزم مِن نفي أُلوهيّتهم بقاءُ الآثار بلا مؤثِّر.

وقُرئ: "عُجَّابٌ" بالتشديد،[2] وهو أبلَغ، كـ"كُرّام" و"كُرام".[3]

رُوي أنّه لمّا أسلم عمر رضي الله عنه شقّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون مِن صناديدهم، فأتَوا أبا طالب فقالوا: «أنتَ شيخنا وكبيرنا، وقد علمتَ ما فعل هؤلاء السفهاء، وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك»، فاستحضرَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وقال: «يا ابن أخي، هؤلاء قومك يسألونك السؤالَ، فلا تَمِل كلَّ المَيل على قومك»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «ماذا تسألونني؟»، قالوا: «ارفُضْنا وارفُضْ ذكرَ آلهتِنا ونَدَعُك / وإلهَك»، فقال [٤٣٠و]
صلّى الله عليه وسلّم: «أرأيتم إن أعطيتُكم ما سألتم أمُعطيَّ أنتم كلمةً واحدةً

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٤/٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه والسلمي وعيسى وابن مقسم. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣٨/٩.

[3] "الكُرام" بالضمّ مثل "الكَريم"، فإذا أفرَط في الكَرَم قيل: "كُرّام" بالتشديد. الصحاح للجوهري، «كرم».

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٢/٤.

تملكون بها العربَ وتدينُ لكم بها العجَم؟» قالوا: «نعم، وعَشرًا»، فقال: «قولوا: "لا إله إلّا الله"»، فقاموا، وقالوا ذلك.[٤]

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ أي: وانطلق الأشراف مِن قريش عن مجلس أبي طالب بعد ما بَكَّتَهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجواب العتيد، وشاهَدوا تصلّبه عليه السلام في الدين، وعزيمتَه على أن يُظهره على الدين كلّه، ويَئِسوا ممّا كانوا يرجونه بتوسّط أبي طالب مِن المصالحة على الوجه المذكور.

﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ أي: قائلين بعضهم لبعضٍ على وجه النصيحة: امْشُوا ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ أي: واثبتوا على عبادتها متحمّلين لِما تسمعونه في حقّها مِن القَدح. و﴿أَن﴾ هي المفسِّرة؛ لأنّ الانطلاق عن مجلس التقاوُل لا يخلو عن القول. وقيل: المراد بـ"الانطلاق" الاندفاعُ في القول. و﴿ٱمۡشُواْ﴾ مِن "مَشَت المرأة" إذا كثُرَت وِلادتُها، ومنه "الماشية" لِلتفَوُّل،[١] أي: اجتَمِعوا واكثُروا. وقُرِئ: ﴿ٱمۡشُواْ﴾ بغير ﴿أَن﴾[٢] على إضمارِ القول. وقُرِئ: "يَمْشُونَ أَنِ اصْبِرُوا".[٣]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أو لوجوب الامتثال به، أي: هذا الذي شاهدناه مِن محمّد صلّى الله عليه وسلّم مِن أمر التوحيد ونفيِ آلهتنا وإبطالِ أمرها لَشيءٌ[٤] يُراد -أي: مِن جهته عليه السلام- إمضاؤه وتنفيذُه لا محالةَ، مِن غير صارِفٍ[٥] يَلوِيه، ولا عاطِفٍ يَثْنِيه، لا قولٌ يُقال مِن طرَف اللسان، أو أمرٌ يُرجَى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله مِن رَأيه / بوساطة أبي طالب وشفاعته، وحسبُكم أن لا تُمنَعوا مِن عبادة آلِهتكم بالكلّيّة، فاصبروا عليها، وتحمّلوا ما تسمعونه في حقّها مِن القَدح وسُوءِ القالة. [٤٣٠ظ]

---

١ التفَوُّل والتَّفاؤل ضدّ الطِّيَرة، يقال: "تَفاءَلْتُ بكذا" و"تَفأَّلْتُ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «فأل».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٤/٧٣.

٤ س: بشيء.

٥ س: ضارف.

وقيل: إنّ هذا الأمر لَشيء يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه، وما أراد الله كونَه فلا مردَّ له، ولا ينفع فيه إلّا الصبر. وقيل: إنّ هذا الأمر لَشيء مِن نوائب الدهر يرادُ بنا، فلا انفكاكَ لنا منه. وقيل: إنّ دينكم لَشيء يُراد -أي: يُطلب- لِيؤخذ منكم وتُغلَبوا عليه. وقيل: إنّ هذا الذي يدّعيه مِن التوحيد أو يقصِده مِن الرياسة والترفّع على العرب والعجَم لَشيء يُتمنّى ويريده كلُّ أحد.

فتأمّل في هذه الأقاويل، واختر منها ما يساعده النظم الجليل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: المِلّة النصرانيّة التي هي آخر المِلَل، فإنّهم مُثلِّثة، أو في المِلّة التي أدركنا عليها آباءَنا. ويجوز أن يكون الجارّ والمجرور حالًا مِن ﴿هَٰذَا﴾، أي: ما سمعنا بهذا مِن أهل الكتاب ولا الكُهّان كائنًا في المِلّة المترقَّبة، ولقد كذَبوا في ذلك أقبَح كذِبٍ، فإنّ حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الأمور قبل الظهور.

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: كذِبٌ اختلَقَه.

﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ۝٨﴾

﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآنُ ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساء الناس وأشرافُهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، ومرادُهم إنكارُ كونه ذِكرًا منزَّلًا مِن الله عزّ وجلّ، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]. وأمثالُ هذه المقالات الباطلة دليل على أنّ مَناط تكذيبهم ليس إلّا الحسَدَ وقَصْرَ النظر على الحطام الدنيوي.

[٤٣١و] ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ أي: مِن القرآن، أو الوحي، / لمَيلهم إلى التقليد، وإعراضِهم عن النظر في الأدلّة المؤدّية إلى العلم بحقّيته، وليس في عقيدتهم ما يبتّون به، فهم مذَبذَبون بين الأوهام، ينسبونه تارةً إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق.

---

[1] وفي هامش م: مكّة وطائف. «منه».

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: بل لم يذوقوا بعدُ عذابي، فإذا ذاقوه تبيّن لهم حقيقة الحال. وفي ﴿لَمَّا﴾ دلالة على أنّ ذوقهم على شرَف الوقوع. والمعنى: أنّهم لا يصدِّقون به حتّى يمسّهم العذاب. وقيل: لم يذوقوا عذابي الموعودَ في القرآن، ولذلك شكّوا فيه.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ بل أعِندهم خزائن رحمته تعالى يتصرّفون فيها حسبما يشاءون، حتّى يصيبوا بها مَن شاءوا، ويصرفوها عمّن شاءوا، ويتحكّموا فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيّروا للنبوّة بعضَ صناديدهم؟ والمعنى: أنّ النبوّة عطيّة مِن الله عزّ وجلّ، يتفضّل بها على مَن يشاء مِن عباده المصطفَين، لا مانعَ له، فإنّه العزيز، أي: الغالبُ الذي لا يُغالَب، الوهّاب الذي له أن يهَبَ كلَّ ما يشاء لكلّ مَن يشاء.

وفي إضافة اسم "الربّ" المنبئِ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه واللطف به ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ترشيح لِما سبَق، أي: بل ألَهُم مُلك هذه العوالم العلويّة والسفليّة حتّى يتكلّموا في الأمور الربّانيّة، ويتحكّموا في التدابير الإلهيّة التي يستأثر بها ربّ العزّة والكبرياء؟

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إن كان لهم ما ذُكر مِن المُلك فليَصعَدوا في المعارج والمناهج التي يُتوصّل بها إلى العرش / حتّى [٤٣١ظ] يستووا عليه، ويدبّروا أمر العالَم، ويُنزلوا الوحي إلى مَن يختارون ويستصوِبون. وفيه مِن التهكّم بهم ما لا غايةَ وراءه. و"السبب" في الأصل هو الوُصلة. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ السماواتُ؛ لأنّها أسباب الحوادث السفليّة. وقيل: أبوابُها.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢﴾

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: هم جندٌ ما مِن الكفّار المتحزّبين على الرسل، مهزومٌ مكسور عمّا قريبٍ، فلا تبالِ بما يقولون، ولا تكترِث بما يَهذُون. و﴿مَا﴾ مزيدة للتعليل[1] والتحقير، نحو قولك: "أكلْتُ شيئًا ما". وقيل: للتعظيم على الهُزْء. و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى حيث وَضعوا فيه أنفسَهم مِن الانتداب لمِثل[2] ذلك القول العظيم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العُتاة الطُّغاة الذين هؤلاء جندٌ ما مِن جنودهم، ممّا[3] فَعلوا مِن التكذيب، وفُعِل بهم مِن العقاب. و﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ معناه: ذو المُلك الثابت، أصله مِن ثباتِ البيت المُطنَّب[4] بأوتاده، فاستُعير لثبات المُلك ورسوخِ السلطَنة واستقامةِ الأمر، قال الأسود بن يَعفُر:[5]

ولقد غَنُوا فيها[6] بأنعَمِ عيشةٍ ... في ظلِّ مُلكٍ ثابتِ الأوتادِ[7]

أو ذو الجموع الكثيرة، سُمُّوا بذلك لأنّ بعضهم يشدّ بعضًا كالوَتَد يشدّ البناء.

وقيل: نصَبَ أربع سَوارٍ، وكان يمدّ يدَي المعذَّب ورجليه إليها، ويضرب عليها أوتادًا، ويتركه حتّى يموت. وقيل: كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض، ويُرسِل عليه العقارب / والحيّات. وقيل: كانت له أوتاد وحِبال يُلعَب بها [٤٣٢و]
بين يديه.

---

١ ط س: للتقليل.

٢ ط س: بمثل.

٣ س: بما.

٤ "الطُّنُب": حَبل الخِباء، والجمع "أطناب". يقال: "خِباءٌ مُطنَّب" و"رِواق مُطنَّب"، أي: مشدودٌ بالأطناب. الصحاح للجوهري، «طنب».

٥ هو الأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، أبو نهشل، وأبو الجرّاح (ت. نحو ٢٢ق هـ/٦٠٠م). شاعر جاهلي، مِن سادات تميم، مِن أهل العراق. كان فصيحًا جوادًا. نادَم النعمان بن المنذر. ولمّا أسنّ كُفّ بصره. ويقال له: "أعشى بني نهشل"، أشهر شعره داليّته التي مطلعها:

نام الخَليّ وما أحسّ رُقادي ... والهمّ محتضر لديّ وِسادي

انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/٢٤٨؛ والأعلام للزركلي، ٤/١٨٨.

٦ وفي هامش م: ضمير "فيها" راجع إلى "المنازل" فيما قبله مِن قوله:

ماذا أُؤَمِّل بعد آلِ مُحرِّق ... تركوا منازلهم وبعد إيادِ

٧ للأسود بن يَعفُر النهشلي في المفضّليّات للمفضّل الضبّي، ص ٢١٧.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أصحاب الغَيضة مِن قوم شعيب عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ إمّا بدل مِن الطوائف المذكورة، كما أنّ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة، ٢/٢] بدل مِن ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة، ١/٢] على أحد الوجوه، وفيه فضل تأكيد وتنبيهٌ على أنّهم الذين جُعل الجندُ المَهزوم منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ استئناف جيء به تقريرًا لِتكذيبهم، وبيانًا لكيفيّته، وتمهيدًا لِما يَعقُبه، أي: ما كلّ أحدٍ مِن آحاد أولئك الأحزاب، أو ما كلّ حزب منهم إلّا كذّب الرسل؛ لأنّ تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعًا، لاتّفاق الكلّ على الحقّ. وقيل: ما كلّ حزب إلّا كذّب رسولَه، على نهج مقابَلة الجمع بالجمع.

وأيًّا ما كان فالاستثناء مفرَّغ مِن أعمّ العامّ في خبر المبتدأ، أي: ما كلّ أحد منهم محكومًا عليه بحكمٍ إلّا محكومٌ عليه بأنّه كذّب الرسل. وقيل:[١] ما كلّ واحد منهم مخبَرًا عنه بخبَرٍ إلّا مخبَرٌ عنه بأنّه كذّب الرسل.

وفي إسناد التكذيب إلى الطوائف المذكورة على وجه الإبهام **أوّلًا**، والإيذانِ بأنّ كلًّا منهم حِزب على حِياله تحزَّب على رسوله **ثانيًا**، وتبيينِ كيفيّة تكذيبهم بالجملة الاستثنائيّة **ثالثًا**؛ فنونٌ مِن المبالغة مُسَجِّلةٌ عليهم باستحقاق أشدّ العذاب وأفظَعِه، ولذلك رُتِّب عليه قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: ثبَتَ ووقَع على كلٍّ منهم عقابي الذي كانت توجبُه جناياتهم مِن أصناف العقوبات المفصّلة في مواقعها.

وإمّا مبتدأ،[٢] وقولُه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ خبره بحذف العائد، أي: إن كلٌّ منهم... إلخ، والجملة استئناف مقرِّر لِما قبله، مؤكِّد لمضمونه، مع ما فيه مِن بيان كيفيّة تكذيبهم، والتنبيهِ على أنّهم الذين جُعل الجُند المهزوم منهم كما ذُكر.

---

[١] وفي هامش م: الفاضل التفتازاني. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٤٠٦و.

[٢] وفي هامش م: عطف على "إمّا بدل". «منه».

وقيل: هو[١] مبتدأ وخبر، / والمعنى: أنّ الأحزاب الذين جُعل الجُند المهزومُ منهم هُمْ هُمْ، وأنّهم الذين وُجِد منهم التكذيب، فتدبّر. [٤٣٢ظ]

وأمّا ما قيل[٢] مِن أنّه خبر، والمبتدأ قوله: ﴿وَعَادٌ﴾... إلخ،[٣] أو قوله: ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾... إلخ؛[٤] فممّا يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝١٦﴾

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ شروع في بيان عِقاب كفّار مكّة إثرَ بيان عقاب أضرابهم مِن الأحزاب الذين أُخبِر فيما سبق بأنّهم جُند حقير منهم مهزوم عن قريب، فإنّ ذلك ممّا يوجب انتظار السامع وترقُّبَه إلى بيانه قطعًا. وفي الإشارة إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقير لشأنهم، وتهوينٌ لأمرهم.

وأمّا جعله إشارة إلى "الأحزاب" باعتبار حضورهم بحسب الذكر، أو حضورِهم في علم الله عزّ وجلّ؛[٥] فليس في حيّز الاحتمال أصلًا، كيف لا والانتظارُ سواء كان حقيقةً أو استهزاءً إنّما يُتصوّر في حقّ مَن لم يترتّب على أعماله نتائجُها بعدُ؟

وبعدَ ما بُيِّن عقابُ الأحزاب واستئصالهم بالمرّة لم يبقَ ممّا أريدَ بيانه مِن عقوباتهم أمر منتظَر، وإنّما الذين في مرصد الانتظار كفّار مكّة، حيث ارتكبوا مِن عظائم الجرائم وكبائرِ الجَرائر الموجِبة لأشدّ العقوبات مثلَ ما ارتكب الأحزابُ أو أشدَّ منه، ولمّا يلاقوا بعدُ شيئًا مِن غوائلها. أي: وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلَكة في الكفر والتكذيب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الثانية، لا بمعنى أنّ عقابهم نفسُها بما فيها مِن الشدّة والهَول، فإنّها داهية يعمّ هولُها جميعَ الأمم برَّها وفاجرَها؛ بل بمعنى أنّه ليس بينهم وبين حلول

---

١ أي: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾.
٢ قاله أبو البقاء في التبيان، ١٠٩٨/٢.
٣ ص، ١٢/٣٨.
٤ ص، ١٣/٣٨.
٥ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٧٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦/٥.

ما أُعِدّ لهم مِن العقاب الفظيع إلّا هي، حيث أُخّرت عقوبتهم إلى الآخرة لِما أنّ تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقّونه والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بين
أَظهُرِهم خارجٌ عن السنّة الإلهيّة / المبنيّةِ على الحِكم الباهرة كما نطق به قوله [٤٣٣و]
تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٨/٣٣].

وأمّا ما قيل[1] مِن أنّها النفخة الأولى فمِمّا لا وجهَ له أصلًا، لِما أنّه لا يشاهِد هولَها ولا يصعَق بها إلّا مَن كان حيًّا عند وقوعها، وليس عقابهم الموعودُ واقعًا عَقيبَها، ولا العذابُ المطلق مؤخَّرًا إليها؛ بل يحُلّ بهم مِن حين موتهم.

﴿مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: مِن توقّفٍ مقدارَ فَواق، وهو ما بين الحَلْبَتَين. وقُرئ بضمّ "الفاء"،[2] وهما لغتان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ حكاية لِما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة، أي: قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية: عجّل لنا قِسطنا مِن العذاب الذي تُوعِدُنا به، ولا تؤخّره إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة. و"القِطّ": القطعة مِن الشيء، مِن "قَطَّه" إذا قطعه، ويقال لصحيفة الجائزة: "قِطّ"؛ لأنّها قطعة مِن القرطاس، وقد فُسّر بها،[3] أي: عجّل لنا صحيفةَ أعمالنا لننظر فيها.

وقيل: ذكَرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعْدَ الله تعالى المؤمنين الجنّةَ، فقالوا على سبيل الهُزْء به: عجّل لنا نصيبنا منها.

وتصديرُ دعائهم بالنداء المذكور للإمعان في الاستهزاء، كأنّهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِن أمثال هذه المقالات الباطلة، ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لهم ﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي: قصّتَه تهويلًا لأمر المعصية في أعينهم، وتنبيهًا لهم على كمال قُبح

---

[1] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٢٦.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

[3] فسّره بها أبو العالية والكلبي. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٨٢؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣/٥٤٣.

ما اجترءوا عليه مِن المعاصي، فإنّه عليه السلام مع علوّ شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لمّا أَلَمَّ بصغيرةٍ نزَل عن منزلته ووَبّخَته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتّى / تفطّن فاستغفرَ ربّه وأناب، ووُجِد منه ما يُحكَى مِن بكائه الدائب، وغمِّه الواصب، وندمِه الدائم، فما الظنّ بهؤلاء الكفرة الأذلّين مِن كلّ ذليل، المرتكبين لأكبر الكبائر، المصرّين على أعظم المعاصي. [٤٣٣ظ]

أو تذكّرْ قصّتَه عليه السلام، وصُنْ نفسَك أن تزِلّ فيما كُلِّفتَ مِن مصابرتهم وتحمّلْ أذيّتَهم كيلا يلقاك ما لقيَه مِن المعاتبة.

﴿ذَاٱلۡأَيۡدِ﴾ أي: ذا القوّة. يقال: "فلان أيِّدٌ" و"ذو أَيدٍ" و"آدٍ" بمعنًى، وإيادُ كلّ شيء: ما يتقوّى به. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاع إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليل لكونه ذَا الأَيْدِ، ودليل على أنّ المراد به القوّة في الدين، فإنّه عليه السلام كان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ويقوم نصف الليل.[1]

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استئناف مَسوق لتعليل قوّته في الدين، وأوّابيّتِه إلى مرضاته تعالى. و"مع" متعلِّقة بالتسخير، وإيثارُها على "اللام" لِما أشيرَ إليه في سورة الأنبياء[2] مِن أنّ تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرّف الكلّي فيها إليه عليه السلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام؛ بل بطريق التبعيّة له عليه السلام والاقتداءِ به في عبادة الله تعالى.

وقيل: متعلِّقة بما بعدها، وهو أقرب بالنسبة إلى ما في سورة الأنبياء.[3]

﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ أي: يقدّسن الله عزّ وجلّ بصوت يتمثّل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام، أو بلسان الحال. وقيل: يَسِرن معه، مِن "السباحة". وهو حال مِن ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾،

---

١ في صحيح البخاري، ١٦١/٤ (٣٤٢٠)؛ وصحيح مسلم، ٨١٦/٢ (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأَحبّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلثَه، وينام سُدسَه».

٢ الأنبياء، ٧٩/٢١.

٣ الأنبياء، ٧٩/٢١.

وُضع موضع "مسبِّحاتٍ" للدلالة على تجدّد التسبيح حالًا بعد حال، أو استئنافٌ مبيِّن لكيفيّة التسخير.

[٤٣٤و] ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ أي: ووقتِ الإشراق، وهو / حين تُشرِق الشمس، أي: تُضيء ويَصفو شعاعها، وهو وقت الضحى، وأمّا شُروقها فطُلوعُها، يقال: "شَرَقت الشمس ولمّا تُشرِق". وعن أمّ هانئ رضي الله عنها أنّه عليه السلام صلّى صلاة الضحى، وقال: «هذه صلاة الإشراق».[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما عرفتُ صلاة الضحى إلّا بهذه الآية».[٢]

﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾

﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾[٣] ﴿مَحۡشُورَةٗ﴾ حال مِن ﴿ٱلطَّيۡرَ﴾، والعامل ﴿سَخَّرۡنَا﴾،[٤] أي: وسخّرنا الطير حالَ كونها محشورة. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان إذا سبّح جاوبَتْه الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبّحت، وذلك حشرُها».[٥] وقُرئ: "وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ" بالرفع[٦] على الابتداء والخبريّة.

﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ استئناف مقرِّر لمَضمون ما قبله مصرِّح بما فُهم منه إجمالًا مِن تسبيح الطير، أي: كلّ واحدٍ مِن الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاعٌ إلى التسبيح. ووضعُ "الأوّاب" موضع المسبِّح إمّا لأنّها كانت تُرجِّع التسبيح، والمرجِّعُ رجّاع؛ لأنّه يَرجِع إلى فِعله رجوعًا بعد رجوع، وإمّا لأنّ "الأوّاب" هو التوّاب الكثيرُ الرجوع إلى الله تعالى، ومِن دأبه إكثارُ الذِّكر وإدامةُ التسبيح والتقديس. وقيل: الضمير لله عزّ وعلا،[٧] أي: كلٌّ مِن داود والجبال والطير لله أوّابٌ، أي: مسبِّح مُرجِّع للتسبيح.

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٤٠٦/٢٤ (٩٨٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٦/٥. وانظر: جامع البيان للطبري، ٤٤/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٨.

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

٥ س: حشرنا. | التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٧ ط س: عزّ وجلّ.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوّيناه بالهيبة والنصرة وكثرةِ الجنود. وقُرئ بالتشديد[١] للمبالغة. قيل: كان يَبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئِم.[٢] وقيل: ادّعى رجل على آخَرَ بقرةً وعجزَ عن إقامة البيّنة، فأوحيَ إليه في المنام أن اقتُلِ المدّعَى عليه، فتأخّر، فأُعِيد الوحي في اليقظة، فأعلمه الرجلَ، فقال: «إنّ الله تعالى لم يأخذني بهذا الذنب، ولكن بأنّي قتلتُ أبا هذا غِيلةً»، فقتله، فقال الناس: «إن أذنبَ أحد ذنبًا أظهره الله تعالى / عليه»، فقتله، فهابوه وعظمت هيبته في القلوب.[٣] [٤٣٤ظ]

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوّةَ وكمالَ العلم وإتقانَ العمل. وقيل: الزبورَ وعلمَ الشرائع. وقيل: كلُّ كلام وافق الحقّ فهو حكمة.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: فصلَ الخصام بتمييز الحقّ عن الباطل، أو الكلامَ الملخَّص الذي ينبّه المخاطبَ على المَرام مِن غير التباس، لِما قد رُوعي فيه مظانّ الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار، والحذف والتكرار. وإنّما سُمّي به "أمّا بَعدُ"[٤] لأنّه يفصل المقصود عمّا سِيق تمهيدًا له، كالحمد والصلاة. وقيل: هو الخطاب الفَصلُ الذي ليس فيه إيجاز مُخِلّ، ولا إطنابٌ مُمِلّ، كما جاء في نعت كلام النبوّة: «فَصْلٌ، لا نَزْرٌ، ولا هَذْر».[٥]

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ استفهام معناه التعجيب والتشويق إلى استماع ما في حيّزه لإيذانه بأنّه مِن الأنباء البديعة التي حقّها أن تشيع فيما بين كلّ حاضر وبادٍ.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٠٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤. و"مُستَلئِم": لَابِس اللَّأمةِ، وهي الدِّرع. انظر: لسان العرب لابن منظور، «لأم».

٣ تفسير السمرقندي، ١٦١/٣؛ غرائب التفسير للكرماني، ٩٩٥/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٩/٤.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٥١/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٨٥/٨.

٥ من حديث أمّ مَعبد في المعجم الكبير للطبراني، ٤٨/٤ (٣٦٠٥)؛ والمستدرك للحاكم، ١٠/٣ (٤٢٧٤)؛ وشرح السنّة للبغوي، ٢٦١/١٣ (٣٧٠٤).

و"الخَصم" في الأصل مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والجمع، كـ"الضيف". ومعنى ﴿خَصْمَانِ﴾:[١] فريقان.

﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي تصعّدوا سُورَه، ونزلوا إليه. و"السُّور" الحائط المرتِفع، ونظيره "تَسَنَّمَه" إذا علا سَنامه، و"تَذَرَّاه" علا ذِروته. و﴿إِذْ﴾ متعلّقة بمحذوف، أي: نَبأُ تحاكُمِ الخصم إذ تسوَّروا، أو بـ"النَّبأ" على أنّ المراد به الواقعُ في عهد داود عليه السلام، وأنّ إسناد الإتيان إليه على حذف مضافٍ، أي: قصّةُ نبأِ الخصم، أو بـ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ لِما فيه مِن معنى الخصومة، لا بـ"أتَى"؛ لأنّ إتيانه الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم لم يكن حينئذ.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدل ممّا قبله، أو ظرف لـ﴿تَسَوَّرُواْ﴾.[٢]

﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ رُوي أنّه تعالى بَعَث إليه ملَكَين في صورة إنسانَين -قيل:[٣] هما جبريل وميكائيل عليهما السلام- فطلَبا أن يدخلا عليه، فوَجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرَس، فتسوَّرا عليه المحراب بمَن معهما مِن الملائكة، فلم يشعُر إلّا وهما بين يدَيه جالسان، ففَزِع منهم؛ لأنّهم نزلوا عليه مِن فوقُ على خلاف العادة، والحرسُ حولَه، وفي غير يومِ الحكومة والقضاء.[٤]

[٤٣٥و] / قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ داود عليه السلام[٥] جَزَّأَ زمانَه أربعةَ أجزاء، يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء، ويومًا للاشتغال بخاصّة نفسه، ويومًا للوعظ والتذكير».[٦]

﴿قَالُواْ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية فَزَعِه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفَزَعه عليه السلام؟ فقيل: قالوا إزالةً لفَزَعه:

---

[١] في الآية التالية.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] وفي هامش م: قاله الكواشي في تفسيره. «منه». | تفسير الكواشي، ٤٥٢ظ.
[٤] جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٧/٨.
[٥] م - عليه السلام.
[٦] الكشّاف للزمخشري، ٨٢/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٧/٩. وذكر نحوه السمرقندي في تفسيره، ١٦٢/٣، عن الحسن البصري.

﴿لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ﴾ أي: نحن فَوجان متخاصمان، على تسمية مصاحب الخَصم خَصمًا، ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ هو على الفَرْض وقَصدِ التعريض، فلا كذبَ فيه، ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ أي: لا تَجُرْ في الحكومة. وقُرئ: "وَلَا تَشْطُطْ"،[١] أي: لا تَبعُدْ عن الحقّ. وقُرئ: "وَلَا تُشَطِّطْ"،[٢] و"لَا تُشَاطِطْ"،[٣] وكلّها مِن معنى "الشَّطَطِ"، وهو مجاوزة الحدّ، وتخطّي الحقّ.

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ إلى وسط طريق الحقّ بزَجْرِ الباغي عمّا سلكه مِن طريق الجَور، وإرشاده إلى منهاج العدل.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾ استئناف لبيان ما فيه الخصومة، أي: أخي في الدين، أو في الصُحبة، والتعرّضُ لذلك تمهيد لبيان كمال قُبح ما فعَل به صاحبه. ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ هي الأنثى مِن الضأن، وقد يُكْنَى بها عن المرأة، والكنايةُ والتعريضُ أبلَغ في المقصود. وقُرئ: "تَسْعٌ وَتَسْعُونَ" بفتح "التاء"،[٤] و"نِعْجَةً" بكسر "النون".[٥] وقُرئ: "وَلِي نَعْجَةٌ" بسكون "الياء".[٦]

﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: مَلِّكْنِيها، وحقيقته: اجعلني أكفَلُها كما أكفَلُ ما تحت يدي. وقيل: اجعلها كِفْلِي، أي: نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني في مخاطبته إيّايَ محاجّةً بأن جاء بحِجاجٍ لم أقدر على ردّه، أو في مغالبته إيّاي في الخِطبة، يقال: "خَطَبتُ المرأة، وخَطَبَها هو، فخاطَبَني خِطابًا"، أي: غالَبَني في الخِطبة، فغلَبَني حيث زُوِّجَها دوني.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة وابن أبي عبلة وأبي حَيوة. المحتسب لابن جنّي، ٢٣١/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٤٨/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زرّ بن حبيش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٠.

٦ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير روايتَي حفص عن عاصم وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

[٤٣٥ظ] وقُرِئ: "وَعَازَّنِي"،[١] أي: غالَبَني، و"عَزَنِي" بتخفيف / "الزاء"[٢] طلبًا للخِفّة، وهو تخفيف غريب، كأنّه قِيس على "ظَلْتَ" و"مَسْتَ".

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جواب قسم محذوف، قَصد به عليه السلام المبالغة في إنكار فعلِ صاحبه، وتهجينِ طمَعه في نعجة مَن[٣] ليس له غيرُها، مع أنّ له قطيعًا منها، ولعلّه عليه السلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادّعاه عليه، أو بناه على تقدير صِدق المدّعي. و"السؤال" مصدر مضاف إلى مفعوله، وتعديتُه إلى مفعول آخَر بـ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمّنه معنى الإضافة والضمّ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشركاءِ الذين خلطوا أموالهم ﴿لَيَبْغِى﴾ لَيتعدّى. وقُرئ بفتح "الياء"[٤] على تقدير "النون" الخفيفة وحذفِها،[٥] وبحذف "الياء"[٦] اكتفاءً بالكسر. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ غيرَ مُراعٍ لحقّ الصحبة والشركة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ منهم، فإنّهم يتحامَون عن البغي والعدوان، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهُم قليل، و﴿مَا﴾ مزيدة للإبهام والتعجّبِ مِن قِلّتهم، والجملة اعتراض.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ الظنّ مستعار للعِلم الاستدلالي، لِما بينهما مِن المشابهة الظاهرة، أي: علِمَ بما جرى في مجلس الحكومة. وقيل: لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحِك، ثمّ صَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلِمَ عليه السلام أنّه تعالى ابتلاه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة وطلحة. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٩/١٤٩.

[٣] س – مَن.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الذِماري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٠.

[٥] س: وحَذفها.

[٦] أي: "لَيَبْغِ". قراءة شاذّة، نسبها الكرماني إلى أهل الشام. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤١٠.

وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه السلام دونَ غيره بتوجيه القصر المستفاد مِن كلمة ﴿أَنَّمَا﴾ إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر إلى متعلّقات الفعل وقيودِه باعتبار النفي فيه والإثبات فيها، كما في مثل قولك: "إنّما ضربت زيدًا، وإنّما ضربته تأديبًا"؛ بل على تخصيص حاله عليه السلام بالفتنة بتوجيه القصر إلى نفس الفعل بالقياس إلى ما يُغايره مِن الأفعال، لكن لا باعتبار النفي والإثبات معًا في خصوصيّة الفعل، فإنّه غير ممكن قطعًا؛ بل باعتبار النفي فيما فيه مِن معنى مطلَقِ الفعل، واعتبارِ الإثبات فيما يُقارنه مِن المعنى المخصوص، فإنّ كلّ فعل مِن الأفعال المخصوصة ينحلُّ / عند التحقيق إلى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل، وإلى معنى مخصوص [٤٣٦و] يقارنه ويُقَيّده، وهو أثره في الحقيقة، فإنّ معنى "نَصَرَ" مثلًا: فَعَلَ النصرَ، يرشدك إلى ذلك قولهم: معنى "فلانٌ يُعطي ويَمنع": يفعل الإعطاءَ والمنع، فمَورد القصر في الحقيقة ما يتعلّق بالفعل باعتبار النفي فيه والإثبات فيما يتعلّق به.

فالمعنى: وَعَلِمَ داود أنّما فعلنا به الفِتنةَ لا غيرُ. قيل: ابتليناه بامرأة أُورِيّا. وقيل: امتحنّاه بتلك الحكومة؛ هل يتنبّه بها لِما قُصِد منها.

وإيثارُ طريق التمثيل لأنّه أبلغ في التوبيخ، فإنّ التأمّل فيه إذا أدّاه إلى الشعور بما هو الغرض كان أوقَعَ في نفسه، وأعظمَ تأثيرًا في قلبه، وأدعَى إلى التنبّه للخطأ، مع ما فيه مِن مراعاة حُرمته عليه السلام بترك المجاهَرة، والإشعارِ بأنّه أمر يُستَحيَى مِن التصريح به. وتصويرُه بصورة التحاكم لإلجائه عليه السلام إلى التصريح بنسبة نفسه إلى الظلم، وتنبيهِه عليه السلام على أنّ أوريّا بصَدَد الخِصام.

﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ إثرَ ما عَلِمَ أنّ ما صدَر عنه ذنب، ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾ أي: ساجدًا، على تسمية السجود ركوعًا؛ لأنّه مَبدؤه، أو خرّ للسجود راكعًا، أي: مصلّيًا، كأنّه أحرَم بركعتَي الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ أي: رجَعَ إلى الله تعالى بالتوبة.

وأصل القصّة أنّ داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له: أُوريّا، فمال قلبُه إليها، فسأله أن يُطلِّقها، فاستحيى أن يَرُدّه، ففعل، فتزوّجها، وهي أمّ سليمان عليهما السلام، وكان ذلك جائزًا في شريعته، معتادًا فيما بين أمّته، غيرَ مُخِلّ بالمروءة،

حيث كان يسأل بعضهم بعضًا أن يَنزِل له عن امرأته، فيتزوّجها إذا أعجبته. وقد كان الأنصار في صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك مِن غير نكيرٍ، خلا أنّه عليه السلام لعِظَم منزلته وارتفاع مرتبته وعلوّ شأنه نُبّه بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمّته، ويسأل رجلًا ليس له إلّا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوّجها مع كثرة نسائه؛ بل كان يجب عليه أن يُغالِب هواه، ويقهَر نفسَه، ويصبر على ما امتُحِن به.

وقيل: لم يكن أوريّا تزوّجها؛ بل كان خطَبها، ثمّ خطَبها داود عليه السلام، فآثره عليه السلام أهلُها، فكان ذنبُه عليه السلام أن خَطَب على خِطبة أخيه المسلم.

هذا، وأمّا ما يُذكَر[1] مِن أنّه عليه السلام دخلَ ذات يوم مِحرابه، وأغلق [٤٣٦ظ] بابه، / وجعل يصلّي ويقرأ الزبور، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان في صورة حمامةٍ مِن ذهب، فمدّ يده ليأخذها لابنٍ له صغير، فطارت، فامتدّ إليها فطارت، فوقعت في كُوّةٍ، فتبِعها، فأبصرَ امرأةً جميلةً قد نقضَت شَعرَها، فغطّى بدنها، وهي امرأة أوريّا، وهو مِن غُزاة البلقاء، فكتب إلى أيّوب بن صوريا، وهو صاحب بَعْث البلقاء، أنِ «ابْعَثْ أُوريّا، وقدِّمْه على التابوت»، وكان مَن يتقدّم على التابوت لا يحِلّ له أن يرجع حتّى يفتح الله تعالى على يده أو يُستشهَد، ففتح الله تعالى على يده، وسلِم، فأمر بردِّه مرّةً أخرى وثالثةً حتّى قُتِل، وأتاه خبر قتله فلم يحزَن كما كان يَحزَن على الشهداء، وتزوّج امرأتَه؛ فَإفْكٌ[2] مُبتدَع مَكْروه، ومَكرٌ مخترَع بئسما مَكَرُوه، تمجّه الأسماع، وتنفِر عنه الطباع، ويل لمَن ابتدعه وأشاعه، وتبًّا لمَن اخترعه وأذاعه، ولذلك قال عليّ رضي الله عنه: «مَن حدّث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القُصّاص جَلَدتُه مائةً وستّين»،[3] وذلك حدّ الفِرية على الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم.

---

[1] عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٦٦/٢٠. وعن السدّي والكلبي ومقاتل في الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٥/٨.

[2] السياق: وأمّا ما يُذكر... فإفْك...

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٠/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٧/٥.

هذا، وقد قيل: إنّ قومًا قصدوا أن يقتلوه عليه السلام، فتسوّروا المِحراب، ودخلوا عليه، فوجدوا عنده أقوامًا، فتصنّعوا بهذا التحاكم، فعلِم عليه السلام غرضهم، فهَمّ بأن ينتقم منهم، فظنّ أنّ ذلك ابتلاء له مِن الله عزّ وجلّ، فاستغفر ربّه ممّا هَمّ به فأناب.[1]

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما استغفر منه. ورُوي أنّه عليه السلام بقي ساجدًا أربعين يومًا وليلةً لا يرفع رأسه إلّا لصلاةٍ مكتوبة أو لِما لا بدَّ منه، ولا يَرقأُ دمعه حتّى نبتَ منه العُشب إلى رأسه، ولم يشرب ماءً إلّا ثُلثاه دمع، / وجهد نفسه راغبًا إلى الله تعالى في العفو عنه حتّى كادَ يهلك، واشتغل بذلك عن المُلْك حتّى وثَب ابنٌ له يقال له: إيشا على مُلكه، ودعا إلى نفسه، فاجتمع إليه أهل الزَّيغ مِن بني إسرائيل، فلمّا غُفِر له حارَبه فهزمه.[2] [٤٣٧و]

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لَقُربةً وكرامةً بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسنَ مرجعٍ في الجنّة.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إمّا حِكايةٌ لِما خُوطب به عليه السلام مبيِّنةٌ لِزُلفاه عنده عزّ وجلّ، وإمّا مَقول لقَولٍ مقدَّر هو معطوف على ﴿غَفَرْنَا﴾،[3] أو حال مِن فاعله، أي: وقلنا له، أو قائلين له: يا داود... إلخ، أي: استخلفناك على المُلك فيها والحُكمِ فيما بينَ أهلها، أو جعلناك خليفةً ممَّن كان قبلك مِن الأنبياء القائمين بالحقّ، وفيه دليل بيّن على أنّ حاله عليه السلام بعد التوبة كما كانت قبلَها لم يتغيّر قطّ.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥/٢٨. وانظر: تفسير الرازي، ٢٦/٣٧١.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/٨٨. وأوّله في جامع البيان للطبري، ٢٠/٦٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨/١٩١.

٣ في الآية السابقة.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بحُكم الله تعالى، فإنّ الخلافة بكِلا معنيَيه مقتضية له حتمًا، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: هوى النفس في الحكومات وغيرِها مِن أمور الدين والدنيا، ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنصب على أنّه جواب النهي. وقيل: هو مجزوم بالعطف على النهي، مفتوح لالتقاء الساكنَين. أي: فيكونَ الهوى أو اتّباعُه سببًا لضلالك عن دلائله التي نصَبَها على الحقّ تكوينًا وتشريعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعليل لِما قبله ببيان غائلته. وإظهار ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإيذانِ بكمال شناعة الضلال عنه. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جملة مِن خبرٍ ومبتدأ وقعَت خبرًا لِـ﴿إِنَّ﴾، أو الظرفُ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿عَذَابٌ﴾ مرتفع على الفاعليّة بما فيه مِن الاستقرار.

﴿بِمَا نَسُواْ﴾ بسبب نسيانهم. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ إمّا مفعول لِـ﴿نَسُواْ﴾، فيكون تعليلًا صريحًا لِثبوت العذاب الشديدِ لهم بِنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعلّيّة ما يستتبعه ويستلزمه، أعني: الضلالَ عن سبيل الله، فإنّه مستلزِم لنسيان يوم الحساب بالمرّة؛ بل هذا فرد مِن أفراده، / أو ظرفٌ لقوله [٤٣٧ظ]
تعالى: ﴿لَهُمْ﴾، أي: لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذي هو عبارة عن ضلالهم، ومِن ضرورته أن يكون مفعولُه "سبيلَ الله"، فيكون التعليل المصرَّحُ به حينئذ عينَ التعليل المشعَرِ به بالذات، غيرَه بالعنوان، ومَن لم يتنبّه لهذا السرّ السَّرِيّ[1] قال:[2] بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإنّ تذكّره يقتضي ملازمة الحقّ ومخالفةَ الهوى، فتدبّر.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لِما قبله مِن أمر البعث والحساب والجزاء، أي: ما خلقناهما وما بينهما مِن المخلوقات

---

[1] السَّري: الرفيع. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سرو».

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٨٩/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢٨/٥.

على هذا النظام البديع الذي يَحار في فهمه العقول خلقًا باطلًا، أي: خاليًا عن الغاية الجليلة والحِكمة الباهرة؛ بل منطويًا على الحقّ المبين والحِكَم البالغة حيث خلقنا مِن بين ما خلقنا نفوسًا أودعناها العقل والتمييز بين الحقّ والباطل والنافع والضارّ، ومكّنّاها مِن التصرّفات العلميّة والعمليّة في استجلاب منافعها، واستدفاع مضارّها، ونصبنا للحقّ دلائل آفاقيّة وأنفسيّة، ومنحناها القدرةَ على الاستشهاد بها، ثمّ لم نقتصر على ذلك المقدار مِن الألطاف؛ بل أرسلنا إليها رسلًا، وأنزلنا عليها كتبًا بيّنّا فيها كلّ دقيق وجليل، وأزحنا عِللَها بالكلّيّة، وعرّضناها بالتكليف للمنافع العظيمة، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نُفِيَ مِن خلقِ ما ذُكِر باطلًا ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: مظنونُهم، فإنّ جحودهم بأمر البعث والجزاء الذي عليه يدور فَلَك تكوين العالَم قولٌ منهم ببطلان خلق ما ذُكر وخلوّه عن الحكمة، سبحانه وتعالى عمّا يقولون / علوًّا كبيرًا. [٤٣٨و]

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ وخبر، و"الفاء" لإفادة ترتّب ثبوت الويل لهم على ظنّهم الباطل كما أنّ وضع الموصول موضعَ ضميرهم للإشعار بما في حيّز الصلة بعلّيّة كفرهم له، ولا تَنافي بينهما؛ لأنّ ظنّهم مِن باب كفرهم.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تعليليّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة، ٧٩/٢] ونظائرِه، مفيدةٌ لعلّيّة النار لثبوت الويل لهم صريحًا بعد الإشعار بعلّيّة ما يؤدّي إليها مِن ظنّهم وكفرهم، أي: فويل لهم بسبب النار المترتّبة على ظنّهم وكفرهم.

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للإضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مرّ مِن نفي خلق العالم خاليًا عن الحِكَم والمصالح إلى تقريره وتحقيقه

بما في "الهمزة" مِن إنكار التسوية بين الفريقين، ونفيِها على أبلغ وجه وآكَدِه، أي: بل أنجعل المؤمنين المصلِحين كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتّب عليه مِن الجزاء، لاستواء الفريقين في التمتّع بالحياة الدنيا؛ بل الكفرة أوفر حظًّا منها مِن المؤمنين؟ لكن ذلك الجعل مُحال، فتعيّن البعث والجزاء حتمًا لرفع الأوّلِين إلى أعلى عِلّيّين، ورَدِّ الآخرين إلى أسفل سافلين.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ إضراب وانتقال عن إثبات ما ذُكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقَين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالةً، وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة.

وحملُ ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ على فجَرة المؤمنين[1] ممّا لا يساعده المقام. ويجوز أن يراد بهذَين الفريقين عينُ الأوّلَين، ويكونَ التكرير باعتبار وصفَين آخرَين، هما أدخل في إنكار التسوية مِن الوصفَين الأوّلَين.

وقيل: قال كفّار قريش للمؤمنين: إنّا نُعطَى في الآخرة مِن الخير / ما تُعطَون، فنزلَت.[2] [٤٣٨ظ]

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، هو عبارة عن القرآن، أو السورة. وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفته، وقوله تعالى: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو صفةٌ لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ عند مَن يُجوّز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح. وقُرئ: "مُبَارَكًا"[3] على أنّه حال مِن مفعول ﴿أَنزَلْنَا﴾، ومعنى "المُبارَك": الكثير المنافع الدينيّة والدنيويّة.

وقوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلّق بـ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: أنزلناه ليتفكّروا في آياته التي مِن جملتها هذه الآيات المُعرِبة عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا

---

[1] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٥.

[2] تفسير السمرقندي، ١٦٥/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٠/٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

ما يَدْبُرُ ظاهرَها مِن المعاني الفائقة، والتأويلات اللائقة. وقُرئ: "لِيَتَدَبَّرُوا"[1] على الأصل، و"لِتَدَبَّرُوا"[2] على الخطاب، أي: أنتَ وعلماءُ أمّتك، بحذف إحدى التاءَين.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: ولِيتّعظ به ذَوو العقول السليمة، أو لِيستحضِروا ما هو كالمَركوز في عقولهم مِن فَرْط تَمكّنهم مِن معرفته، لِما نُصب عليه مِن الدلائل، فإنّ الكتب الإلهيّة مبيّنة لِما لا يُعرف إلّا بالشرع، ومُرشدة إلى ما لا سبيلَ للعقل إليه.

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١﴾

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ وقُرئ: "نَعِمَ الْعَبْدُ"،[3] أي: سليمانُ، كما يُنبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولًا صريحًا لـ﴿وَهَبۡنَا﴾، ولأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجّاع إلى الله تعالى بالتوبة، أو إلى التسبيح مرجّع له؛ تعليل للمدح، وهو مِن حاله، لِما أنّ الضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾ راجع إليه عليه السلام قطعًا.

و﴿إِذۡ﴾ منصوب بـ"اذكر"، أي: اذكر ما صدَر عنه إذ عُرض عليه ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ هو مِن الظُّهر إلى آخر النهارِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ فإنّه يشهَد بأنّه أوّاب. وقيل: ظرف لـ﴿أَوَّابٌ﴾.[4] وقيل: لـ﴿نِعۡمَ﴾.[5] وتأخير ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ عن الظرفين لِما مرّ مرارًا مِن التشويق إلى المؤخَّر.

و"الصافِنُ" مِن الخيل: الذي يقوم على طرَف سُنْبُك[6] يدٍ أو رِجلٍ، وهو مِن الصفات المحمودة في الخيل، لا يكاد / يتّفق إلّا في العِراب الخُلَّص. وقيل: [٤٣٩و]
هو الذي يجمع يديه ويسوّيهما، وأمّا الذي يقف على سُنبُكه فهو "المُتَخَيِّم".

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

[4] في الآية السابقة.

[5] في الآية السابقة.

[6] السُّنْبُك: طرَف مُقدَّم الحافر، والجمع: السنابِك. الصحاح للجوهري، «سبك».

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع "جوادٍ" و"جَوْدٍ"، وهو الذي يُسرع في جَريه. وقيل: الذي يجود عند الركض. وقيل: وُصِفَت بالصُّفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفَين المحمودَين واقفةً وجاريةً، أي: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنّة في مواقفها، وإذا جرَت كانت سِراعًا خِفافًا في جَريها. وقيل: هو جمع "جيّدٍ".

رُويَ أنّه عليه السلام غزا أهلَ دمشق ونصيبين،[١] وأصاب ألفَ فرَس.[٢] وقيل: أصابها أبوه مِن العمالقة، فوَرِثها منه.[٣]

وقيل: خرجت مِن البحر لها أجنحة، فقعَد يومًا بعد ما صلّى الظهر على كرسيّه، فاستعرضها، فلم تَزَلْ تُعرَضُ عليه حتّى غربت الشمس، وغفل عن العصر، أو عن وِردٍ كان له مِن الذكرِ وقتئذٍ، وتهيّبوه فلم يُعلِموه، فاغتمّ لِما فاته، فاستردّها فعقَرها مقرِّبًا لله تعالى، وبقي مائة، فما في أيدي الناس مِن الجِياد فمِن نَسلها.[٤] وقيل: لمّا عقَرها أبدله الله عزّ وجلّ خيرًا منها، وهي الريح تجري بأمره.[٥]

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ قاله عليه السلام عند غروب الشمس اعترافًا بما صدَر عنه مِن الاشتغال بها عن الصلاة، وندَمًا عليه، وتمهيدًا لِما يَعقُبه مِن الأمر بردِّها وعَقْرِها، والتعقيبُ باعتبار أواخر العَرْض المستمرّ دون ابتدائه، والتأكيدُ للدلالة على أنّ اعترافه وندَمه عن صميم القلب، لا لتحقيق مضمون الخبر.

---

١ نصيبين: ضُبط في المصادر بفتح النون وكسر الصاد، واشتهر استعماله اليوم بضمّ النون وفتح الصاد. مدينة عامرة مِن بلاد الجزيرة على جادّة القوافل مِن الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستّة أيّام، وعليها سور كانت الروم بنَته وأتمّه أنوشروان الملك عند فتحه إيّاها. معجم البلدان للحموي، ٢٨٨/٥.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٩١/٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٩/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٩١/٤.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٩٢/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

٥ جامع البيان للطبري، ٩٤/٢٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٩٢/٤.

وأصل ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ أن يُعدّى بـ"على"؛ لأنّه بمعنى "آثرتُ"، لكن لمّا أُنِيبَ مَناب "أنَبْتُ" عُدِّي تعديتَه. و﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مفعولُه، كأنّه قيل: أنَبْتُ حبَّ الخير عن ذِكر ربّي، ووضعتُه موضعَه. و﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغَلَته عليه السلام، ويحتمل أنّه سمّاها خيرًا لتعلّق الخير بها، قال عليه السلام: «الخيرُ معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة».[١] وقُرئ: "إنِّيَ".[٢]

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ باعتبار استمرار المحبّة ودوامها حسب استمرار العَرْض، أي: أنَبْتُ حبّ الخير عن ذكر ربّي، واستمرّ ذلك حتّى توارت، أي: غربَت الشمس تشبيهًا لغروبها في مَغربها بتواري المُخبّأة بحِجابها. وإضمارها مِن غير ذكرٍ لدلالة / العشيّ عليها. وقيل: [٤٣٩ظ]
الضمير لـ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾،[٣] أي: حتّى توارت بحِجاب الليل، أي: بظلامه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ مِن تمامِ مقالة سليمان عليه السلام، ومَرمى غرضه مِن تقديم ما قدّمه، ومَن لم يتنبّه له مع ظهوره تَوهّم أنّه متّصل بمُضمَر هو جواب لمُضمَر آخَر، كأنّ سائلًا قال: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: رُدّوها...، فتأمّل.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾ فصيحةٌ مفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذفت ثِقةً بدلالة الحال عليها، وإيذانًا بغاية سرعة الامتثال بالأمر، أي: فرَدُّوها عليه فأخذَ يمسح السيف مَسحًا ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ أي: بسُوقها وأعناقها يقطعها، مِن قولهم: "مَسَحَ عِلاوتَه"، أي: ضرَبَ عُنقَه.

وقيل: جعلَ يمسح بيده أعناقها وسُوقَها حُبًّا لها، وإعجابًا بها،[٤] وليس بذاك. وقُرئ: "بِالسُّؤوقِ" على همز "الواو"[٥] لِضمّتها،[٦] كما في "أَدْؤُر". وقُرئ:

---

[١] صحيح البخاري، ٢٨/٤ (٢٨٥٠)؛ صحيح مسلم، ١٤٩٣/٣ (١٨٧٢).

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] جامع البيان للطبري، ٨٧/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[٥] قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وهو أحد الوجهين عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٨/٢.

[٦] س: لضمّها.

"بِالسُّؤْقِ"[١] تنزيلًا لضمّة "السين" منزلةَ ضمّة "الواو". وقُرِئ: "بِالسَّاقِ"[٢] اكتفاءً بالواحد مِن الجمع لأمْن الإلباس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ أظهَرُ ما قيل في فتنته عليه السلام ما رُوي مرفوعًا أنّه قال: «لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأةً تأتي كلُّ واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى»، ولم يقل: "إن شاء الله"، فطاف عليهنّ، فلم تحمِل إلّا امرأة واحدة؛ جاءت بشِقّ رَجل، والذي نفسي بيده لو قال: "إن شاء الله" لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون.[٣]

وقيل: وُلد[٤] له ابن، فاجتمعت الشياطين على قتله، فعلِمَ ذلك، فكان يغذوه في السحاب، فما شعر به إلّا أن أُلقِي على كرسيّه ميتًا، فتنبّه لخَطئِه حيث لم يتوكّل على الله عزّ وعلا.

وقيل: إنّه غزا صيدون مِن الجزائر، فقتَل مَلِكَها، وأصاب بنتًا له تسمّى جرادة، مِن أحسن الناس، فاصطفاها لنفسه، وأسلمَت، وأحبّها، وكان لا يرقَأ دمعها جزَعًا على أبيها، فأمر الشياطين فمثّلوا لها صورتَه، وكانت تغدو إليها وتروح مع وَلائدها يسجدن لها كعادتهنّ في ملكه، فأخبرَه آصف بذلك، / فكسر الصورة، وعاقب [٤٤٠و]
المرأة، ثمّ خرج وحده إلى فلاة، وفُرِشَ له الرماد، فجلسَ عليه تائبًا إلى الله تعالى باكيًا متضرِّعًا، وكانت له أمّ ولدٍ يُقال لها: أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة يعطيها خاتَمه، وكان مُلكُه فيه، فأعطاها يومًا، فتمثّل لها بصورته شيطان اسمه صخر، وأخذ الخاتم فتختّم به، وجلس على كرسيّه فاجتمع عليه الخلق، ونفّذ حكمه في كلّ شيء إلّا في نسائه، وغُيِّر سليمانُ عن هيئته، فأتى أمينةَ لطلب الخاتَم،

---

١ قرأ بها قنبل عن ابن كثير، وهو الوجه الثاني عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٣ صحيح البخاري، ٤/٢٢ (٢٨١٩)؛ صحيح مسلم، ٣/١٢٧٦ (١٦٥٤).

٤ س – وُلد.

فأَنْكرَته وطردَته، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركَته، فكان يدور على البيوت يتكفّف، وإذا قال: "أنا سليمان" حَثَوا عليه الترابَ وسَبّوه، ثمّ عمد إلى السمّاكين ينقل لهم السمَكَ، فيعطونه كلّ يوم سمكتَين، فمكث على ذلك أربعين صباحًا، عددَ ما عُبِد الوَثَنُ في بيته، فأنكر آصفُ وعظماء بني إسرائيل حكمَ الشيطان، ثمّ طار اللعين، وقذف الخاتمَ في البحر، فابتلعه سمكة، فوقعت في يد سليمان، فبَقَرَ بطنها، فإذا هو بالخاتم، فتختّم به، وخرّ ساجدًا، وعاد إليه مُلكُه، وجابَ صَخرةً لصخرٍ، فجعله فيها، وسدّ عليه بأخرى، ثمّ أوثقهما بالحديد والرصاص، وقذفه في البحر.[١]

وعلى هذا فـ"الجَسَد" عبارة عن صخر، سمّي به -وهو جسم لا روحَ فيه- لأنّه تمثّل بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عليه السلام عن حال أهله؛ لأنّ اتّخاذ التماثيل لم يكن محظورًا حينئذ، وسجود الصورة بغير عِلم منه لا يضرّه.

﴿قَالَ﴾ بدل مِن ﴿أَنَابَ﴾ وتفسير له ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ أي: ما صدَرَ عنّي مِن الزلّة، ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ لا يتسهّل له ولا يكون، ليكون معجزةً لي مناسبةً لِحالي، فإنّه عليه السلام / لمّا نشأ في بيت المُلك والنبوّة ووَرِثَهما معًا [٤٤٠ظ] استدعى مِن ربّه معجزة جامعة لحُكمهما، أو لا ينبغي لأحد أن يسلُبه منّي بعد هذه السلبة، أو لا يصحّ لأحد مِن بعدي لعظَمته، كقولك: "لفلانٍ ما ليس لأحد مِن الفضل والمال" على إرادةِ وصفِ المُلك بالعظَمة، لا أن لا يُعطى أحد مثله فيكونَ منافسةً.

وقيل: كان مُلكًا عظيمًا، فخاف أن يُعطى مثلَه أحد، فلا يحافِظ على حدود الله تعالى.

وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريًا على سَنن الأنبياء عليهم السلام والصالحين. وكونِ ذلك أدخلَ في الإجابة. وقُرئ: "لِيَ" بفتح "الياء".[٢]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٩٤/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩/٥.

[٢] لم أجد مَن ذكَر هذه القراءة. وخلافهم المشهور في ياء ﴿بَعْدِى﴾، قرأ بفتحها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو، وأسكنها باقي القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ١٦٧/٢؛ ٣٦٢.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معًا، لا بالأخيرة فقط، فإنّ المغفرة أيضًا مِن أحكام وصف الوهّابيّة قطعًا.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ أي: فذلّلناها لطاعته إجابةً لدعوته، فعاد أمره عليه السلام إلى ما كان عليه قبل الفتنة. وقُرئ: "الرِّيَاحَ".[١] ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ بيان لتسخيرها له ﴿رُخَآءً﴾ أي: ليّنةً، مِن "الرّخاوة"، طيّبة لا تُزَعْزِعُ. وقيل: طَيِّعةً لا تمتنع عليه، كالمأمور المنقاد، ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي: حيث قصَد وأراد. حكى الأصمعي عن العرب: "أصابَ الصواب، فأخطأ الجواب".[٢]

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾[٣] ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾. ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ عطفٌ على ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾، داخل في حكم البدل. كأنّه عليه السلام فصَل الشياطين إلى عَمَلةٍ استعملهم في الأعمال الشاقّة مِن البِناء والغَوص ونحو ذلك، وإلى مَرَدةٍ قَرَن بعضهم مع بعض في السلاسل لكفِّهم عن الشرّ والفساد. ولعلّ أجسامَهم شفّافة فلا تُرَى، صُلْبةٌ فيمكن تقييدها، ويقدرون على الأعمال الصعبة. وقد جُوّز أن يكون الإقران في الأصفاد / عبارة [٤٤١و]
عن كفّهم عن الشرور بطريق التمثيل.

و"الصَّفَد" القَيد، وسُمِّي به العطاء؛ لأنّه يرتبط بالمنعَم عليه، وفرّقوا بين فعليهما، فقالوا: "صَفَدَه" قيّده، و"أصْفَدَه" أعطاه، على عكس "وَعَدَ" و"أوعَدَ".

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا﴾... إلخ إمّا حكاية لِما خوطب به سليمان عليه السلام، مبيّنةٌ لعِظَم شأن ما أوتِي مِن المُلْك، وأنّه مفوَّض إليه تفويضًا كلّيًا، وإمّا مَقولٌ

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٣.

٢ تفسير السمرقندي، ٣/١٦٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٩٥. قال أبو بكر الأنباري: «معناه: أراد الصواب». الزاهر للأنباري، ٢/١٩٤.

٣ في الآية السابقة.

لقَول مقدّرٍ هو معطوفٌ على ﴿سَخَّرْنَا﴾،[١] أو حالٌ مِن فاعله، كما مرّ في خاتمة قصّة داود عليه السلام، أي: وقلنا له، أو قائلين له: هذا الذي أعطيناكه مِن المُلك العظيم والبَسطة والتسلّطِ على ما لم يُسلَّطْ عليه غيرك ﴿عَطَآؤُنَا﴾ الخاصُّ بك، ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فأعطِ مَن شئتَ وامنَع مَن شئتَ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال مِن المستكِنّ في الأمر، أي: غيرَ محاسَب على منّه وإمساكه، لتفويض التصرّف فيه إليك على الإطلاق، أو مِن "العطاء"، أي: هذا عطاؤنا ملتبِسًا بغير حساب لغاية كَثرته، أو صلةٌ له،[٢] وما بينهما اعتراض على التقديرَين. وقيل: الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد بـ"المَنّ والإمساك" الإطلاقُ والتقييد.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ في الآخرة مع ما له مِن المُلك العظيم في الدنيا، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو الجنّة.

قيل: فُتِنَ سليمان عليه السلام بعد ما ملَك عشرين سنةً، وملَك بعد الفتنة عشرين سنةً.

وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري[٣] في **تاريخه** أنّ سليمان عليه السلام ورِث مُلك أبيه في عصر كيخسرو بن سياوش، وسار مِن الشام إلى العراق، فبلغَ خبره كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبَث حتّى هلك، ثمّ سار سليمان عليه السلام إلى مرو، ثمّ إلى بلاد الترك، فوغل فيها، ثمّ جاز بلاد الصين، ثمّ عطف إلى أن وافى بلاد فارس، فنزلها أيّامًا، ثمّ عاد إلى الشام، ثمّ أُمِر ببناء بيت المقدس، فلمّا فرغ منه سار إلى تِهامة، ثمّ إلى صنعاء،

---

[١] ص، ٣٨/٣٦.

[٢] وفي هامش م: على أنّ "العطاء" مصدر. «منه».

[٣] هو أحمد بن داود الدينوري، أبو حنيفة (ت. ٢٨٢هـ/٨٩٥م). العلّامة، النحوي، ذو الفنون، تلميذ ابن السكّيت. كبير الدائرة، طويل الباع. ألّف في النحو واللغة والهندسة والهيئة والوقت وأشياء، له تصانيف نافعة، منها الأخبار الطِّوال، والأنواء، والنبات، وتفسير القرآن، وما تلحن فيه العامّة، والشعر والشعراء، والفصاحة، والجبر والمقابلة، والبلدان، وإصلاح المنطق. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٣/٤٢٢؛ والأعلام للزركلي، ١/١٢٣.

وكان مِن حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى، وغزا بلاد المغرب، الأندلس وطنجة وغيرهما، والله تعالى أعلم.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾.[١] وعدم تصدير قصّة سليمان عليه السلام بهذا العنوان لكمال الاتّصال بينه وبين داود عليهما السلام. وأيّوب عليه السلام هو ابن عيص بن إسحاق عليه السلام.[٢]

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿عَبْدَنَا﴾، و﴿أَيُّوبَ﴾ عطفُ بيان له. ﴿أَنِّى﴾ بأنّي ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بفتح ياء ﴿مَسَّنِىَ﴾. وقُرئ بإسكانها وإسقاطها.[٣] ﴿بِنُصْبٍ﴾ أي: تَعبٍ. وقُرئ بفتح "النون"،[٤] وبفتحتين،[٥] وبضمّتين للتثقيل.[٦] ﴿وَعَذَابٍ﴾ أي: ألَمٍ ووَصَبٍ، يريد مرضَه وما كان يقاسيه مِن فنون الشدائد، وهو المراد بـ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء، ٨٣/٢١]. وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به بعبارته، وإلّا لَقيل: "أنّه مَسّه"... إلخ.

[٤٤١ظ] والإسناد إلى الشيطان إمّا لأنّه تعالى مَسّه بذلك لِما فَعَل / بوسوسته، كما قيل: إنّه أُعجِب بكَثرة ماله، أو استغاثَهُ مظلوم فلم يُغِثه، أو كانت مواشيه في ناحية مَلِكٍ كافرٍ فداهَنه ولم يَغزُه، أو لامتحانِ صبرِه،[٧] فيكون اعترافًا بالذنب، أو مراعاةً للأدب، أو لأنّه وسوس إلى أتباعِه حتّى رفضوه وأخرجوه مِن ديارهم، أو لأنّ المراد بـ"النُّصْب والعذاب" ما كان يوسوس به إليه في مرضه مِن تعظيم ما نزَل به مِن البلاء، والقنوطِ مِن الرحمة، ويُغريه على الكراهة والجزَع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيَه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق لدفعه وردّه بالصبر الجميل. وليس هذا تمام دعائه عليه السلام بل مِن جُملته قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

---

١ ص، ١٧/٣٨.
٢ س – عليه السلام.
٣ أي: وإسقاط "الياء" في الوصل دون الوقف. قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة ويعقوب وهبيرة عن حفص. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٢/٩.
٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.
٦ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.
٧ وفي هامش م: عطفٌ على "لِما فعل". «منه».

[الأعراف، ١٥١/٧]، فاكتُفِي ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء،[1] كما تُرك هناك ذِكر الشيطان ثقةً بما ذُكر ههنا.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾... إلخ إمّا حكاية لِما قيل له، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّر، معطوفٍ على ﴿نَادَىٰ﴾،[2] أي: فقلنا له: اركُض برِجلك، أي: اضرِب بها الأرض، وكذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فإنّه أيضًا إمّا حكاية لِما قيل له بعد امتثاله بالأمر وبنوعِ الماء، أو مقولٌ لقَول مقدَّر معطوفٍ على مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: فضرَبها، فنبَعت عين، فقلنا له: هذا مغتَسَل تَغتَسِلُ به وتشربُ منه، فيَبرأُ ظاهرك وباطنك. وقيل: نبعَت عَينان، حارّة للاغتسال، وباردة للشرب،[3] ويأباه ظاهر النظم الكريم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ معطوف على مقدَّر، مترتّبٌ على مقدَّر آخَر يقتضيه القولُ المقدَّر آنفًا، كأنّه قيل: فاغتسلَ وشرِبَ، فكشَفنا بذلك ما به مِن ضرّ، كما في سورة الأنبياء،[4] ووَهبنا له أهله، إمّا بإحيائهم بعدَ هلاكهم، وهو المرويّ عن الحسن رضي الله عنه،[5] أو بجَمعهم بعد تفرّقهم كما قيل.[6]

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَهْلَهُۥ﴾، فكان له مِن الأولاد ضِعف ما كان له قبل، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ / أي: لِرحمةٍ عظيمةٍ عليه مِن قِبَلنا، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [٤٤٢و]
ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبَر، ويلجأوا إلى الله عزّ وجلّ فيما يَحيق بهم كما لجَأ لِيُفعَلَ بهم ما فُعِل به مِن حسن العاقبة.

---

[1] الأنبياء، ٨٣/٢١.
[2] في الآية السابقة.
[3] الكشّاف للزمخشري، ٩٧/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٥.
[4] الأنبياء، ٨٤/٢١.
[5] س – رضي الله عنه. | جامع البيان للطبري، ١١٠/٢٠؛ اللباب لابن، ٤٣٠/١٦.
[6] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٣٠/١٦.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ معطوف على ﴿ٱرۡكُضۡ﴾،[١] أو على ﴿وَهَبۡنَا﴾[٢] بتقدير "قلنا"، أي: وقلنا: خُذْ بيدك... إلخ، والأوّل أقرب لفظًا، وهذا أنسب معنًى، فإنّ الحاجة إلى هذا الأمر لا تمسّ إلّا بعد الصحّة، فإنّ امرأته رحمة بنت افرائيم بن يوسف -وقيل: ليّا بنت يعقوب، وقيل: ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام- ذهبت لحاجة، فأبطأت، فحلَفَ: إن برِئ لَيَضربنّها مائةَ ضربةٍ، فأمره الله تعالى بأخذ الضِّغث -و"الضِّغثُ"[٣] الحُزمة الصغيرة مِن الحشيش ونحوِه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قبضة مِن الشجر»-[٤] وقال: ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ أي: بذلك الضِّغثِ، ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ في يمينك، فإنّ البرّ يتحقّق به.

ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمةً عليه وعليها لِحُسن خدمتها إيّاه، ورضاه عنها، وهي باقية، ويجب أن يصيب المضروبَ كلُّ واحد مِن المائة، إمّا بأطرافها قائمة، أو بأعراضها مبسوطةً على هيئة الضرب.

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. وليس في شكواه إلى الله تعالى إخلال بذلك، فإنّه لا يسمّى جَزَعًا، كتمنّي العافية، وطلبِ الشفاء، على أنّه قال ذلك خِيفةَ الفتنة في الدين، حيث كان الشيطان يوسوس إلى قومه بأنّه لو كان نبيًّا لَما ابتُلِي بمِثل ما ابتُلِي به، وإرادةَ القوّة على الطاعة، فقد بلغ أمرُه إلى أن لم يبقَ منه إلّا القلب واللسان.

ويُروى أنّه عليه السلام قال في مناجاته: «إلهي قد علمتَ أنّه لم يخالف لساني قلبي، ولم يتّبع قلبي بصري، ولم يَهَبْني[٥] ما ملكَت يميني، ولم آكُل إلّا ومعي يتيم، ولم أبِتْ شبعانَ ولا كاسيًا ومعي جائع أو عريان، فكشف الله تعالى عنه».[٦]

---

١ ص، ٣٨/٤٢.
٢ في الآية السابقة.
٣ س: والغضث.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٤/٩٨. وانظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ٧/١٩٥.
٥ مِن الهيبة والرّوع، وهو كناية عن التعظيم والإعجاب. فتوح الغيب للطيبي، ١٣/٢٩٦.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٤/٩٨؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٧/٣٨٥.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي: أيّوب، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي: رجّاع إلى الله تعالى.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ عطفُ بيان لـ﴿عِبَٰدَنَا﴾. وقُرئ: "عَبْدَنَا"،[١] إمّا على أنّ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وحده --لمزيد شرفه- عطفُ بيان، وقيل: بدل، وقيل: نصب بإضمار "أعني"، والباقيان عطفٌ على "عَبدَنا"، وإمّا على أنّ "عَبدَنا" اسم جنس وُضع مَوضع الجمع.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أولي القوّة في الطاعة، والبصيرة في الدِّين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعُبّر بـ﴿ٱلْأَيْدِى﴾ عن الأعمال؛ لأنّ أكثرها تُباشَر بها، وبـ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ عن المعارف؛ لأنّها أقوى مباديها. / وفيه [٤٤٢ظ] تعريض بالجهَلة البطّالين أنّهم كالزَّمْنَى والعُماة، وتوبيخٌ على تركهم المجاهدةَ، والتأمّلَ مع تمكّنهم منهما. وقُرئ: "أُولِي الْأَيْدِ" بطرح "الياء"، والاكتفاءِ بالكسر.[٢] وقُرئ: "أُولِي الْأَيَادِي"[٣] على جمع الجمع.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ تعليل لِما وُصِفُوا به مِن شرَف العبوديّة وعلوّ الرتبة في العلم والعمل، أي: جعلناهم خالِصين لنا بخَصلة خالِصة عظيمة الشأن كما يُنبئ عنه التنكير التفخيمي.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بيان لِلخالصة بعد إبهامها للتفخيم، أي: تَذَكُّرِ للدار الآخرة دائمًا، فإنّ خلوصهم في الطاعة بسبب تذكّرهم لها، وذلك لأنّ مَطمح أنظارهم ومَطرح أفكارهم في كلّ ما يأتون وما يَذَرُون جِوارُ الله عزّ وجلّ والفوزُ بلقائه، ولا يتسنّى ذلك إلّا في الآخرة. وقيل: أخلصناهم بتوفيقهم لها، واللطفِ بهم في اختيارها. ويعضُد الأوّلَ قراءة مَن قرأ: "بِخَالِصَتِهِمْ".[٤]

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١١.

وإطلاق ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعار بأنّها الدار في الحقيقة، وإنّما الدنيا مَعْبَر.

وقُرئ بإضافة ﴿خَالِصَةٍ﴾ إلى ﴿ذِكْرَى﴾،[١] أي: بما خَلُصَ مِن ذكرى الدار، على معنى: أنّهم لا يَشُوبُون ذِكراها بِهَمّ آخر أصلًا.

أو تذكيرِهم[٢] الآخرةَ، وترغيبِهم فيها، وتزهيدِهم في الدنيا، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ الثناء الجميل في الدنيا، ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ لَمِن المختارِين مِن أمثالهم المصطفَين عليهم في الخير. و﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمع "خَير"، كـ"شرّ" و"أشرار". وقيل: جمعُ "خيِّر" أو "خَيْرٍ" مخفَّفٍ منه، كـ"أموات" في جمع "مَيِّت" و"مَيْت".

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذكرُه عن ذكر أبيه وأخيه للإشعار بعَراقته في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير. ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوب بن العجوز، استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استُنبِئ، و"اللام" فيه حرف تعريف دخل على "يَسَع"، كما في قول مَن قال:

/ رأيتُ الوليدَ بنَ اليَزيدَ مباركًا[٣] [٤٤٣و]

وقُرئ: "وَاللَّيْسَعَ"،[٤] كأنّ أصله "لَيْسَع"، "فَيْعَل" مِن "اللَّسْع" دخل عليه حرف التعريف. وقيل: هو على القراءتَين علَم أعجمي دخل عليه "اللام". وقيل: هو يوشع.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦١.

٢ السياق: وإطلاق ﴿ٱلدَّارِ﴾ للإشعار... أو تذكيرِهم.

٣ تمامه:

شديدًا بأعباء الخِلافة كاهلُه

وهو لابن ميّادة، الرمّاح بن أبرد، مِن قصيدة يمدح بها الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٢٦؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ١/١٦٤.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٠.

﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ هو ابن عمّ يَسَع، أو بشر بن أيّوب. واختلف في نبوّته ولقَبِه، فقيل: فرّ إليه مائة نبيّ مِن بني إسرائيل مِن القتل فآواهم وكفَلهم. وقيل: كفَل بعملِ رجل صالح كان يصلّي كلّ يوم مائةَ صلاة.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلّهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ المشهورين بالخيريّة.

﴿هَٰذَا ذِكۡرٌۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن الآيات الناطقة بمَحاسنهم ﴿ذِكۡرٌ﴾ أي: شرَف لهم وذِكر جميل يُذكَرون به أبدًا، أو نوع مِن الذِّكر الذي هو القرآن، وباب منه مشتمِل على أنباء الأنبياء. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هذا ذِكر مَن مضى مِن الأنبياء».[١]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ شروع في بيان أجرهم الجزيل في الآجل بعدَ بيان ذكرهم الجميل في العاجل، وهو باب آخَر مِن أبواب التنزيل. والمراد بـ"المتّقين" إمّا الجنسُ، وهم داخلون في الحكم دخولًا أوّليًا، وإمّا نفسُ المذكورين عُبّر عنهم بذلك مدحًا لهم بالتقوى التي هي الغاية القاصية مِن الكمال.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ عطفُ بيانٍ لـ﴿حُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[٢] عند مَن يُجوّز تخالُفهما تعريفًا وتنكيرًا، فإنّ "عَدْنًا" معرفة، لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ [مريم، ٦١/١٩]، أو بدل منه، أو نصب على المدح.

وقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ حال مِن ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، والعامل فيها ما في ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٣] مِن معنى الفعل. و﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ مرتفعة باسم المفعول، والرابط بين الحال وصاحبها إمّا ضمير مقدَّر كما هو رأي البصريّين، أي: الأبوابُ منها، أو "الألِف" و"اللام" القائمة مَقامه كما هو رأي الكوفيّين؛ إذ الأصل "أبوابُها".

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١٠٠/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٦/٩.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤٤٣ظ] وقُرِئَتا مرفوعتين على الابتداء والخبر،[١] أو على أنّهما / خبران لمحذوف، أي: هي جنّات عدن، هي مفتَّحةٌ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ حال مِن ضمير[٢] ﴿لَهُمُ﴾،[٣] والعاملُ فيها ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ استئناف لبيان حالهم فيها. وقيل: هو أيضًا حال ممّا ذُكر، أو مِن ضمير ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. والاقتصار على دعاء الفاكهة للإيذان بأنّ مَطاعمهم لِمَحض التفكّه والتلذّذ دون التغذّي، فإنّه لتحصيل بدَل المُتحلِّل، ولا تحلُّلَ ثمّة.

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾

﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أي: على أزواجهنّ، لا ينظرن إلى غيرهم، ﴿أَتۡرَابٌ﴾ لِدَات لهم، فإنّ التحابّ بين الأقران أرسَخ، أو بعضُهنّ لبعض، لا عجوزَ فيهنّ ولا صبيّة. واشتقاقه مِن "التراب"، فإنّه يَمسّهم في وقت واحد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: لأجله، فإنّ الحساب علّة للوصول إلى الجزاء. وقُرئ بـ"الياء"[٥] ليوافق ما قبله، والالتفاتُ أليَق بمقام الامتنان والتكريم.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكر مِن ألوان النِّعم والكرامات ﴿لَرِزۡقُنَا﴾ أعطيناكُموه، ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاعٍ أبدًا.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الأمرُ هذا، أو هذا كما ذُكر، أو هذا ذِكرٌ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ شروع في بيان أضداد الفريق السابق.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وعبد الله بن رفيع وأبي حيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٦٧/٩.
٢ م ط س - ضمير ["صح" في هامش م].
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.
٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابه كما سلف ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يَدخلونها، حال مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهو المهدُ والمَفرش، مستعار مِن فراش النائم، والمخصوص بالذمّ محذوف، وهو "جهنّم"، لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ [الأعراف، ٤١/٧].

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ٥٨﴾

﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه، كقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ[1] فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة، ٤٠/٢]، أو العذابُ هذا فليذوقوه، أو ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ خبره: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، وما بينهما اعتراض، وهو على الأوّلَين خبر مبتدأ محذوف، أي: هو حميم. و"الغسّاق" ما يَغسَق مِن صديد أهل النار، مِن "غَسَقَت العَين" إذا سالَ دمعها.

وقيل: "الحميم" يُحرِق بحَرِّه، / و"الغسّاق" يُحرِق ببَرده. وقيل: لو قَطرت منه قطرة في المَشرق لنتّنتْ أهلَ المَغرب، ولو قَطرَت قطرة في المَغرب لنتّنتْ أهلَ المشرق.[2] وقيل: "الغسّاق" عذاب لا يعلمه إلّا الله تعالى. [٤٤٤و]

وقُرئ بتخفيف "السين".[3]

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: ومَذوقٌ آخَر أو عذابٌ آخَر مِن مِثل هذا المَذوق أو العذاب في الشدّة والفظاعة. وقُرئ: "وَأُخَرُ"،[4] أي: ومَذوقاتٌ أُخَرُ، أو أنواعُ عذابٍ أُخَرُ. وتوحيدُ ضمير ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾ بتأويل[5] "ما ذُكر"، أو الشرابِ الشاملِ للحميم والغسّاق، أو هو راجع إلى "الغسّاق".

﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أي: أجناس، وهو خبر لـ﴿ءَاخَرُ﴾؛ لأنّه يجوز أن يكون ضُروبًا، أو صفةٌ له، أو للثلاثة، أو مرتفِعٌ بالجارّ، والخبر محذوف، مِثل: "لهم".

---

[1] م ط س: فإيّاي.

[2] جامع البيان للطبري، ١٢٩/٢٠؛ الكشّاف للزمخشري، ١٠١/٤.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[4] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[5] وفي هامش م: بعد استعارته لاسم الإشارة، كما مرّ في سورة يوسف عليه السلام. «منه». | يوسف، ٣٦/١٢.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩﴾

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ حكاية ما يقال مِن جهة الخزَنة لرؤساء الطاغين إذا دخلوا النارَ واقتحَمها معهم فوجٌ كانوا يتّبعونهم في الكفر والضلالة. و"الاقتحام" الدخول في الشيء بشدّة. قال الراغب: «"الاقتِحام" توسّط شدّة مُخِيفة».[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ مِن تمام كلامِ الخزَنة بطريق الدعاء على الفوج، أو صفةٌ للفوج، أو حال منه، أي: مقولٌ، أو مقولًا في حقّهم: لا مرحبًا بهم، أي: لا أتيتم[٢] مرحبًا، أو لا رَحُبَتْهم[٣] الدارُ مرحبًا.

﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ تعليل مِن جهة الخزَنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم، أو وصفِهم بما ذُكر.

وقيل: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ إلى هنا كلام الرؤساء في حقّ أتباعهم عند خطاب الخزَنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجّرًا مِن مقارنتهم، وتنفّرًا مِن مصاحبتهم. وقيل: كلّ ذلك كلام الرؤساء بعضِهم مع بعضٍ في حقّ الأتْباع.

﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباعُ عند سماعهم ما قيل في حقّهم. ووجهُ خطابِهم للرؤساء في قولهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾... إلخ على الوجهين الأخيرين ظاهرٌ، وأمّا على / الوجه الأوّل فلعلّهم إنّما خاطبوهم مع أنّ الظاهر أن يقولوا بطريق [٤٤٤ظ]
الاعتذار إلى الخزَنة: "بل هم لا مرحبًا بهم"... إلخ قصدًا منهم إلى إظهار صِدقهم بالمخاطبة مع الرؤساء والتحاكمِ إلى الخزَنة طمعًا في قضائهم بتخفيف عذابهم، أو تضعيفِ عذاب خصمائهم. أي:[٤] بل أنتم أحقّ بما قيل لنا أو قلتم.

---

[١] المفردات للراغب الأصفهاني، «قحم».

[٢] س: لا أتوا.

[٣] ط: رحبتكم؛ س: رحبت بهم. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه غيّر العبارة بعد نسخ ط س. والأصل في "رَحُبَ" أن يتعدّى بالحرف، فيقال: "رَحُبَ بكَ المكان"، ثمّ كثُر حتّى تعدّى بنفسه، فقيل: "رَحُبَتْكَ الدارُ"، وهذا شاذّ في القياس، فإنّه لا يوجد "فَعُلَ" بالضمّ إلّا لازمًا، مثل: "شَرُفَ" و"كَرُمَ". المصباح المنير للفيّومي، «رحب».

[٤] وفي هامش م: تفسير على الوجوه الثلاثة. «منه».

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليل لأحقّيّتهم بذلك، أي: أنتم قدّمتم العذاب أو الصُّلِيَّ لنا، وأوقعتمونا فيه بتقديم ما يؤدّي إليه مِن العقائد الزائغة والأعمال السيّئة، وتزيينها في أعيننا، وإغرائنا عليها، لا أنّا باشرناها مِن تِلقاء أنفسنا، ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المَقرُّ جهنّمُ، قصَدوا بذمّها تغليظَ جِناية الرؤساء عليهم.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: الأتباعُ أيضًا، وتوسيطُه بين كلامَيهم لِما بينهما مِن التباين البيِّن ذاتًا وخطابًا، أي: قالوا معرِضين عن خُصومتهم متضرّعين إلى الله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٣٨/٧]، أي: عذابًا مضاعَفًا، أي: ذا ضِعف، وذلك بأن يزيد عليه مِثله، ويكون ضِعفين، كقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب، ٦٨/٣٣]. وقيل: المراد بـ"الضعف" الحيّات والأفاعي.

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٦٣﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: الطاغون: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يستَرذِلونهم ويسخَرون منهم.

﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بهمزة استفهام سقَطت لأجلها همزة الوَصل. والجملة استئناف لا محلَّ لها مِن الإعراب. قالوه إنكارًا على أنفسهم، وتأنيبًا لها في الاستِسخار منهم.

﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ متّصل بـ﴿أَتَّخَذْنَـٰهُمْ﴾ على أنّ ﴿أَمْ﴾ متّصلة، والمعنى: أيَّ الأمرين فعَلْنا بهم؛ الاستسخارَ منهم أم الازدراءَ بهم وتحقيرَهم، وأنّ أبصارنا كانت تَزيغُ عنهم وتقتحمهم؟ على معنى إنكار كلِّ واحدٍ مِن الفعلين على أنفسهم توبيخًا لها.

أو على أنّها منقطعة، والمعنى: أتّخذناهم سِخريًا بل أزاغَت عنهم أبصارنا؟
[٤٤٥و] كقولك: "أزيدٌ عندك أم عندك عمرو؟" على معنى توبيخ أنفسهم / على الاستِسخار ثمّ الإضرابِ والانتقالِ منه إلى التوبيخ على الازدِراء والتحقير.

وقُرِئ: "اتَّخَذْنَاهُمْ" بغير همزة[١] على أنّه صفة أخرى لـ﴿رِجَالًا﴾،[٢] فقوله تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ﴾،[٣] والمعنى: ما لنا لا نراهم في النار، أليسوا فيها فلذلك لا نراهم، أم زاغَت عنهم أبصارُنا وهم فيها؟ وقد جُوّز أن تكون "الهمزة" مقدَّرة على هذه القراءة. وقُرِئ: "سُخْرِيًّا" بضمّ "السين".[٤]

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي حُكي مِن أحوالهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ مِن وقوعه البتّةَ.

وقوله تعالى: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة بيان لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفي الإبهام أوّلًا والتبيين ثانيًا مزيدُ تقرير له. وقيل: بدل مِن محلّ ﴿ذَٰلِكَ﴾. وقيل: بدل مِن ﴿حَقٌّ﴾، أو عطف بيان له. وقُرِئ بالنصب[٥] على أنّه بدل مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾. وما قيل:[٦] مِن أنّه صفة له، فقد قيل عليه: إنّ اسم الإشارة لا يُوصف إلّا بالمعرَّف بـ"اللام"، يقال: "بهذا الرجلِ"، ولا يقال: "بهذا غلامِ الرجل".

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مِن جهته تعالى أنذركم عذابه، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ في الوجود ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشركةَ والكثرةَ أصلًا، ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء سِواه.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٢.

[٦] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٠٣/٤.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات، فكيف يُتوهَّم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَبُ في أمر مِن أموره، ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ المبالِغ في المغفرة، يغفر ما يشاء لمَن يشاء. وفي هذه النعوت مِن تقرير التوحيد والوعد للموحِّدين والوعيد للمشركين ما لا يخفى. وتثنيةُ ما يُشعر بالوعيد مِن وصفَي القَهر والعزّة وتقديمُهما على وصف المغفرة لتَوفية مَقام الإنذار حقَّه.

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾

﴿قُلْ﴾ / تكريرُ الأمر للإيذان بأنّ المَقول أمر جليل له شأن خَطير، لا بدَّ مِن الاعتناء به أمرًا وائتمارًا: ﴿هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به مِن أنّي منذر مِن جهته تعالى، وأنّه تعالى واحد لا شريكَ له، وأنه متّصف بما ذُكر مِن الصفات الجليلة. والأظهر أنّه **القرآنُ**، وما ذُكر داخل فيه دخولًا أوّليًا كما يشهد به آخِر السورة الكريمة، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة. ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ وارد مِن جهته تعالى. [٤٤٥ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئناف ناعٍ عليهم سوءَ صنيعهم به ببيان أنّهم لا يقدّرُون قَدرَه الجليلَ، حيث يُعرضون عنه مع عظمته وكونِه موجِبًا للإقبال الكلّي وتلقّيه بحُسن القَبول. وقيل: صفة أخرى لـ﴿نَبَؤٌا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾... إلخ استئناف مَسوق لتحقيق أنّه نبأ عظيم وارد مِن جهته تعالى بذِكر نبأٍ مِن أنبائه على التفصيل مِن غير سابقةِ معرفةٍ به، ولا مباشرةِ سببٍ مِن أسبابها المعتادة، فإنّ ذلك حجّة بيّنة دالّة على أنّ ذلك بطريق الوحي مِن عند الله تعالى، وأنّ سائر أنبيائه أيضًا كذلك. و﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ هم الملائكة وآدم عليهم السلام وإبليس عليه اللعنة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ متعلّق بمحذوفٍ يقتضيه المقام؛ إذ المراد نفي علمه عليه السلام بحالهم، لا بذواتهم. والتقدير: ما كان لي فيما سبَق عمل ما بوجه مِن الوجوه بحال الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم. وتقديرُ[١] الكلام

---

[١] وفي هامش م: لفظ الكلام.

كما اختاره الجمهور تحجير للواسع، فإنّ علمه عليه السلام غيرُ مقصور على ما جرى بينهم مِن الأقوال فقط؛ بل عامّ لها وللأفعال أيضًا، مِن سجود الملائكة عليهم السلام، واستكبار إبليس وكفره، حسبما ينطق به الوحيُ، فلا بدّ مِن اعتبار العموم في نَفيِه أيضًا لا محالةَ.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اعتراض وُسِّط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريرًا لِثبوت علمه عليه السلام، وتعيينًا لسببه، إلّا أنّ بيان انتفائه فيما سبق لمّا كان / منبئًا عن ثبوته الآنَ، ومِن البيِّن عدم ملابَسته [٤٤٦و] عليه السلام بشيء مِن مَباديه المعهودة؛ تعيّن أنّه ليس إلّا بطريق الوحي حتمًا، فَجُعِل ذلك أمرًا مسلَّمَ الثبوت، غنيًّا عن الإخبار به قصدًا، وجُعِل مَصَبّ الفائدة والمقصود إخبارُه ما هو داعٍ إلى الوحي ومصحِّحٌ له تحقيقًا لِقوله تعالى:[١] ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[٢] في ضِمن تحقيق علمه عليه السلام بقصّة الملأ الأعلى.

فالقائم مَقام الفاعل لِـ﴿يُوحَىٰٓ﴾ إمّا ضمير عائد إلى الحال المقدَّر، أو ما يَعُمّه وغيرَه، فالمعنى: ما يُوحى إليّ حالُ الملأ الأعلى، أو ما يُوحى إليّ ما يُوحى مِن الأمور الغيبيّة التي مِن جملتها حالُهم إلّا لِأنّما أنا نذير مبين مِن جهته تعالى. فإنّ كونَه عليه السلام كذلك مِن دواعي الوحي إليه[٣] وموجِباته حتمًا.

وأمّا أنّ القائم مَقام الفاعل هو الجارّ والمجرور، أو هو ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بلا تقدير الجارّ، وأنّ المعنى: ما يوحى إليّ إلّا للإنذار، أو ما يُوحى إليّ إلّا أن أُنْذِر وأُبَلِّغ ولا أُفَرِّطَ في ذلك كما قيل؛[٤] فمَع ما فيه مِن الاضطرار إلى التكلّف في توجيه قَصر الوحي على كونه للإنذار في الأوّل، وقَصره على الإنذار في الثاني، فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه، كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبيًّا ممّا توسّط بينهما مِن إجمال الاختصام وتفصيله؟ فتأمّل، والله المرشد.

وقُرِئ: "إِنَّمَا" بالكسر[٥] على الحكاية.

---

١ س – تعالى.

٢ ص، ٣٨/٦٥.

٣ وفي هامش م: ويجوز أن يكون ذلك مصدر الفعل، أي: ما يُفعَل الوحي إليّ إلّا لأنّما أنا نذير مبين. «منه».

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٠٤.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٢.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمل مِن الاختصام الذي هو ما جرى بينهم مِن التقاوُل، وحيث كان تكليمه تعالى إيّاهم بواسطة الملَك صحّ إسناد الاختصام إلى الملائكة. و﴿إِذْ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ﴾ الأُولى، وليس مِن ضرورة البدليّة دخولها على نفس الاختصام؛ بل يكفي اشتمال ما في حيّزها عليه، فإنّ القصّة ناطقة بذلك / تفصيلًا. [٤٤٦ظ]

والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام، والإيذانِ بأنّ وَحي هذا النبأ إليه تربيةٌ وتأييدٌ له عليه السلام.

و"الكاف" وارد باعتبار حال الآمِر، لكونه أدلّ على كونه وحيًا منزّلًا مِن عنده تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾... إلخ [الزمر، ٥٣/٣٩] دون حال المأمور، وإلّا لَقيل: "ربّي"؛ لأنّه داخل في حيّز الأمر.

﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ﴾ أي: فيما سيأتي، وفيه ما ليس في صيغة المضارع مِن الدلالة على أنّه تعالى فاعل له البتّة مِن غير صارِف يَلويه، ولا عاطف يَثنيه. ﴿بَشَرًا﴾ قيل: أي: جسمًا كثيفًا يُلاقَى ويُباشَر. وقيل: خَلْقًا باديَ البشَرة بلا صوف ولا شَعر. ولعلّ ما جرى عند وقوع المَحكيّ ليس هذا الاسمَ الذي لم يُخلَق مسمّاه حينئذ فضلًا عن تسميته به؛ بل عبارةٌ كاشفة عن حاله، وإنّما عُبّر عنه بهذا الاسم عند الحكاية. ﴿مِّن طِينٍ﴾ لم يُتعرَّض لأوصافه مِن التغيّر والاسوِداد والمَسنونيّة اكتفاءً بما ذُكر في مواقع أُخَر.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صوَّرتُه بالصورة الإنسانيّة والخِلقة البشريّة، أو سوّيت أجزاء بدَنه بتعديل طبائعه، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ "النفخ": إجراء الريح إلى تجويف جسمٍ صالح لإمساكها والامتلاءِ بها. وليس ثَمّةَ نفخٌ ولا مَنفوخٌ، وإنّما هو تمثيل لإفاضة ما به الحياة بالفعل على المادّة القابلة لها، أي: فإذا كمّلت استعداده وأفضتُ عليه ما يَحيى به مِن الروح التي هي مِن أمري ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾

أمرٌ مِن "وَقَعَ"، وفيه دليل على أنّ المأمور به ليس مجرّدَ الانحناء كما قيل،[١] أي: اسقُطوا له ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تحيّةً له وتكريمًا.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: فخلقه فسوّاه، فنفخ فيه الروح، فسجد له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبقَ منهم أحد إلّا سجد ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أي: بطريق المعيّة، / بحيث لم يتأخّر في ذلك أحد منهم عن أحد. ولا اختصاصَ لإفادة هذا المعنى بالحاليّة؛ بل يفيده التأكيد أيضًا. وقيل: أُكِّد بتأكيدين مبالغةً في التعميم. [٤٤٧و]

هذا، وأمّا أنّ سجودهم هذا هل ترتّب على ما حُكِيَ مِن الأمر التعليقي كما يقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة الحِجر،[٢] فإنّ ظاهرهما يستدعي ترتّبه عليه مِن غير أن يتوسّط بينهما شيء غيرُ ما يفصح عنه "الفاء" الفصيحة مِن الخَلق والتسوية ونفخِ الروح، أو على الأمر التنجيزي كما يقتضيه ما في سورة البقرة،[٣] وما في سورة الأعراف،[٤] وما في سورة بني إسرائيل،[٥] وما في سورة الكهف،[٦] وما في سورة طه،[٧] مِن الآيات الكريمة؛ فقد مرّ تحقيقه بتوفيق الله عزّ وجلّ في سورة البقرة[٨] وسورة الأعراف.[٩]

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء متّصل لِما أنّه كان جنّيًا مُفرَدًا مغمورًا[١٠] بألوفٍ مِن الملائكة، موصوفًا بصفاتهم، فغُلّبوا عليه، ثمّ استثني استثناءَ واحد منهم، أو لأنّ مِن الملائكة جنسًا يتوالدون، وهو منهم، أو منقطع.

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٠/١ (البقرة، ٣٤/٢)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٢٠/١ (البقرة، ٣٤/٢).
٢ الحجر، ٣٠/١٥.
٣ البقرة، ٣٤/٢.
٤ الأعراف، ١١/٧.
٥ الإسراء، ٦١/١٧.
٦ الكهف، ٥٠/١٨.
٧ طه، ١١٦/٢٠.
٨ البقرة، ٣٤/٢.
٩ الأعراف، ١١/٧.
١٠ س: مغمور.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ على الأوّل استئناف مبيِّن لكيفيّة ترك السجود المفهوم مِن الاستثناء، فإنّ تركه يحتمل أن يكون للتأمّل والتروّي، وبه يتحقّق أنّه للإباء والاستكبار. وعلى الثاني يجوز اتّصاله بما قبله، أي: لكنّ إبليس استكبر ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: وصار منهم بمخالفته للأمر، واستكبارِه عن الطاعة، أو كان منهم في علم الله عزّ وجلّ.

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥﴾

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أي: خلقتُه بالذات مِن غير توسّطِ أبٍ وأمٍّ. والتثنية لإبراز كمال الاعتناء بخلقِه عليه السلام المُستدعي لإجلاله وإعظامه قصدًا إلى تأكيد الإنكار وتشديدِ التوبيخ.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ / بهمزة الإنكار وطرحِ همزة الوصل، أي: أتكبّرتَ مِن غير استحقاق، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ المستحِقّين للتفوّق؟ وقيل: أَسْتكبرتَ الآن أم لم تزَل منذُ كنتَ مِن المستكبرين؟ وقُرئ بحذف همزة الاستفهام[١] ثقةً بدلالة ﴿أَمْ﴾ عليها. [٤٤٧ظ]

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ادّعاءٌ منه لشيء مستلزِم لمنعه مِن السجود على زعمه، وإشعارٌ بأنّه لا يليق أن يسجد الفاضل للمَفضول، كما يُعرِب عنه قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر، ١٥/٣٣].

وقوله تعالى: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لِما ادّعاه مِن فضله عليه عليه السلام، ولقد أخطأ اللعينُ حيث خصّ الفَضل بما مِن جهة المادّة والعنصر، وزلّ عنه ما مِن جهة الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾،[٢] وما مِن جهة الصورة، كما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/١٧٥.

٢ في الآية السابقة.

[الحجر، ٢٩/١٥]، وما مِن جهة الغاية، وهو مَلاك الأمر، ولذلك أُمِر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهَر لهم أنّه أعلَم منهم بما يدور عليه أمر الخِلافة في الأرض، وأنّ له خواصّ ليست لغيره.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ "الفاء" لترتيب الأمر على ما ظهر مِن اللعين مِن المخالفة للأمر الجليل، وتعليلِها بالأباطيل، أي: فاخرج مِن الجنّة، أو مِن زُمرة الملائكة، وهو المراد بالأمر بالهبوط،[1] لا الهبوطُ مِن السماء كما قيل،[2] فإنّ وسوَسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، وقد بُيِّن كيفيّة وسوَسته في سورة البقرة.[3]

وقيل: اخرج مِن الخِلقة التي كنتَ فيها وانسلِخ منها، فإنّه كان يفتخر بخِلقته، فغيّر الله تعالى خِلقَته؛ فاسودّ بعد ما كان أبيض، وقَبُح بعد ما كان حَسنًا، وأظلَم بعد ما كان نورانيًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ تعليل للأمر بالخروج، أي: مطرودٌ مِن كلّ خير وكرامة، فإنّ مَن يُطرَد يُرجَم بالحجارة، أو شيطان يُرجَم / بالشهُب. [٤٤٨و]

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي عن الرحمة. وتقييدها بالإضافة مع إطلاقها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ [الحجر، ٣٥/١٥] لِما أنّ لعنةَ اللاعنِين مِن الملائكة والثقلَين أيضًا مِن جهته تعالى، وأنّهم يَدعون عليه بلعنة الله تعالى[4] وإبعادِه مِن الرحمة.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومِ الجزاء والعقوبة. وفيه إيذان بأنّ اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاءً لجنايته؛ بل هي أنموذج ممّا سيَلقاه مستمرًّا إلى ذلك اليوم،

---

[1] في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف، ١٣/٧].

[2] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٠/٤ (الأعراف، ١٣/٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٩٠/٢ (الأعراف، ١٣/٧).

[3] البقرة، ٣٦/٢.

[4] س – تعالى.

لكن لا على أنّها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت؛ بل على أنّه سيَلقى يومئذ مِن ألوان العذاب وأفانين العقاب ما يَنسى عنده اللعنة، وتصير كالزائل، ألا يُرى إلى قوله تعالى:[١] ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم[٢] بَعْضًا﴾ [العنكبوت، ٢٩/٢٥].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى﴾ أي: أمهِلني وأخِّرني. و"الفاء" متعلِّقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام، أي: إذا جعلتني رجيمًا فأمهلني ولا تُمِتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: آدمُ وذرّيّتُه للجزاء بعد فنائهم، وأراد بذلك أن يجِد فُسحة لإغوائهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجو مِن الموت بالكلّيّة؛ إذ لا موتَ بعد يوم البعث.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ورود الجواب بالجملة الاسميّة مع التعرّض لشمول ما سأله لآخَرين على وجهٍ يُشعر بكون السائل تبَعًا لهم في ذلك دليلٌ واضح على أنّه إخبار بالإنظار المقدَّر لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصّ به، قد وقع إجابةً لدعائه، وأنّ استنظارَه كان طلبًا لتأخير الموت؛ إذ به يتحقّق كونه منهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل،[٣] فإنّ ذلك معلوم مِن إضافة "اليوم" إلى "الدِّين"، أي: إنّك مِن جملة الذين أُخِّرَت آجالُهم أزَلًا حسبما يقتضيه حكمةُ التكوين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الذي قدّره الله تعالى وعيّنه لفَناء الخلائق، وهو وقت النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول. فـ"الفاء" ليست لربط نفْس الإنظار بالاستنظار؛ بل لربط الإخبار المذكور به، كقول[٤] مَن قال:

فـإن تَـرْحَـمْ فـأنـتَ لـذاكَ أهـلٌ[٥]

---

[١] س – تعالى.

[٢] م ط س: بعضهم.

[٣] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٧ (الأعراف، ١٣/٧).

[٤] ط س: كما في قول.

[٥] تمامه:

وإن تـطـرُد فـمَن يَـرحَـم سـواكـا

وهو بغير نسبة في عروس الأفراح للسبكي، ٢٦٧/١؛ ومعاهد التنصيص لأبي الفتح العبّاسي، ١٧٠/١، بلفظ: "فإن تغفر"...

[٤٤٨ظ] فإنّه لا إمكان / لجَعل "الفاء" فيه لرَبط ما له تعالى مِن الأهليّة القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة؛ بل هي لربط الإخبار بتلك الأهليّة للرحمة بوقوعها.

هذا، وقد تُرِك التوقيت في سورة الأعراف[١] كما تُرِك النداء و"الفاء" في الاستِنظار والإنظار تعويلًا على ما ذُكر ههنا وفي سورة الحجر،[٢] وإن خطر ببالك أنّ كلّ وجه مِن وجوه النظم الكريم لا بدَّ أن يكون له مقام يقتضيه مُغاير لمَقام غيره، وأنّ ما حُكِي مِن اللعين إنّما صدَر عنه مرّة، وكذا جوابه لم يقع إلّا دفعةً، فمقام الاستنظار والإنظار إن اقتضى أحدَ الوجوه المَحكيّة فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال، والبالغُ إلى رتبة البلاغة وذِروة[٣] الإعجاز، وأمّا ما عداه مِن الوجوه فهو بمَعزِل[٤] مِن بلوغ درجة[٥] البلاغة فضلًا عن العروج إلى معارج الإعجاز؛ فقد سلَف تحقيقه في سورة الأعراف[٦] بفضل الله تعالى وتوفيقه.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ "الباء" للقسَم، و"الفاء" لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف، ١٦/٧]، وقولُه تعالى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر، ٣٩/١٥]، فإنّ إغواءه تعالى إيّاه أثرٌ مِن آثار قدرته تعالى وعزّته، وحكمٌ مِن أحكام قَهره وسَلطنته، فمآل الإقسام بهما واحد، ولعلّ اللعينَ أقسَم بهما جميعًا، فحُكي تارةً قسَمه بأحدهما، وأخرى بالآخر، أي: فأقسِمُ بعزّتك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ذريّةَ آدم بتزيين المعاصي لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين أخلَصَهم الله تعالى لطاعته، وعصَمَهم مِن الغواية. وقُرئ: "المُخْلِصِينَ"[٧] على صيغة الفاعل، أي: الذين أخلَصوا قلوبهم أو أعمالَهم[٨] لله تعالى.

---

١ الأعراف، ١٥/٧.

٢ الحجر، ٣٨/١٥.

٣ ط س: ودرجة.

٤ س: فبمعزل.

٥ ط س: طبقة.

٦ الأعراف، ١٥/٧.

٧ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢.

٨ س: وأعمالهم.

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ برفع الأوّل على أنّه مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ، ونَصبِ الثاني على أنّه مفعول لِما بعده قُدّم عليه للقصر، أي: لا أقول إلّا الحقَّ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: فالحقُّ قَسَمي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أنّ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ إمّا اسمه تعالى، أو نقيض الباطل؛ عظّمه الله تعالى بإقسامِه به، أو فأنا الحقُّ، / أو فقَولي الحقُّ. وقوله تعالى: [٤٤٩و]
﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾... إلخ حينئذ جواب لقسمٍ محذوف، أي: واللهِ لَأَملَأنّ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾[1] على كلّ تقديرٍ اعتراض مقرّر على الوجهَين الأوّلين[2] لِمَضمون الجملة القَسَميّة، وعلى الوجه الثالث[3] لِمَضمون الجملة المتقدّمة، أعني: فقَولي الحقُّ.

وقُرئا منصوبَين[4] على أنّ الأوّل مُقسَم به، كقولك: "اللهَ لَأفعلَنّ"، وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، وما بينهما اعتراض. وقُرئا مجرورَين[5] على أنّ الأوّل مُقسَم به قد أُضمِر حرف قَسَمِه، كقولك: "اللهِ لَأفعلَنّ"، و"الْحَقِّ أَقُولُ" على حكاية لفظ المقسَم به على تقدير كونه نقيض الباطل، ومعناه التأكيد والتشديد. وقُرئ بجرّ الأوّل على إضمار حرف القَسَم، ونصبِ الثاني على المفعوليّة.[6]

﴿مِنكَ﴾[7] مِن جنسك مِن الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلال ﴿مِنْهُمْ﴾ مِن ذرّيّة آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد للكاف وما عطف عليه، أي: لأملأنّها مِن المَتبوعين والأتباع أجمعين، كقوله تعالى: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف، ١٨/٧]. وهذا القولُ هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة، ١٣/٣٢].

---

١ في الآية السابقة.
٢ وفي هامش س: هما: "فالحقُّ قَسَمي"، "فأنا الحقُّ". «منه». | هو ليس في م، ولعلّه بإشارته.
٣ وفي هامش س: هو "فقَولي الحقُّ". «منه». | هو ليس في م، ولعلّه بإشارته.
٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٦٢/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٢.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ١٠٨/٤.
٧ ط س + أي.

وحيث كان مَناط الحكم ههنا اتّباع الشيطان اتّضح أنّ مَدار عدم المشيئة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة، ١٣/٣٢] اتّباعُ الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم، لا تحقّقُ القول، فليس في ذلك شائبة الجَبر، فتدبّر.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن، أو على تبليغ ما يوحَى إليّ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ دنيوي ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتَصنّعين بما ليسوا مِن أهله حتّى أنتحِل النبوّةَ وأتقوّل القرآنَ.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلَين كافّةً.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: ما أنبأ به مِن الوعد والوعيد وغيرِهما، أو صحّةَ خبره وأنّه الحقُّ والصِدق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو يومَ القيامة، أو عند ظهور الإسلام وفُشوّه. وقيل: مَن بقي علِم ذلك إذا ظهَر[١] وعلا، ومَن ماتَ علِمَه بعد الموت. وفيه مِن التهديد ما لا يخفى.

عن رسول الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿ص﴾ كان له بوَزن كلِّ جبل سخّره الله تعالى[٣] لداود عليه السلام عشر حسنات، وعُصم أن يُصرّ على ذنب صغير أو كبير».[٤] وقال أبو أمامة:[٥] «عصَمه الله تعالى مِن كلّ ذنب صغير أو كبير».[٦] والله تعالى[٧] أعلم.

---

١ ط س + أمره.

٢ م - تعالى.

٣ م - تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٥/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٣٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٥ هو صُدَيّ بن عَجلان بن الحارث الباهلي، أبو أمامة (ت. ٨١هـ/٧٠٠م)، الصحابي. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن عمر وعثمان وعليّ وأبي عبيدة ومعاذ وغيرهم. كان مع عليّ في صِفّين. وسكن الشام، فتوفّي في أرض حمص. وهو آخر مَن مات مِن الصحابة بالشام. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٣٩/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٠٣/٣.

٦ اللباب لابن عادل، ٤٦٣/١٦.

٧ س - تعالى.

سُورَةُ صٓ

مكيةٌ كما روي عن ابن عباس وغيره، وقيل: مدنيَّة، وليس بصحيحٍ كما قال الداني[1]. وهي ثمانٍ وثمانون آيةً في الكوفي، وستٌّ وثمانونَ في الحجازيِّ والبصريِّ والشاميِّ، وخمسٌ وثمانونَ في عَدِّ أيوب بن المتوكل وحده، قيل: ولم يقلْ أحدٌ: إنَّ «ص» وحدها آية، كما قيل في غيرها من الحروف في أوائل السور، وفيه بحثٌ.

وهي كالمتمِّمةِ لما قبلها من حيثُ إنه ذُكر فيها ما لم يُذكَرْ في تلك من الأنبياء عليهم السلام كداودَ وسليمانَ. ولمَّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلُ عن الكفار أنهم قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ وأنهم كفروا بالذكر لمَّا جاءهم، بدأ عزَّ وجلَّ في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر، وفصَّل ما أَجْمَلَ هناك من كُفْرهم، وفي ذلك من المناسبة ما فيه، ومَنْ دَقَّق النظرَ لاحَ له مناسباتٌ أُخَرُ، والله تعالى الموفق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓ﴾ بالسكون على الوقف عند الجمهور، وقرأ أُبيٌّ والحسنُ وابن أبي إسحاق وأبو السَّمَّال وابن أبي عبلة ونصرُ بن عاصم: «صادِ» بكَسْر الدال[2]؛ والظاهرُ أنه كَسْرٌ لالتقاء الساكنين، وهو حرفٌ من حروف المعجم نحو ﴿قٓ﴾ و﴿نٓ﴾.

---

(١) في البيان في عدِّ آي القرآن ص ٢١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه أمرٌ من صادَى أي: عارَضَ[١]، ومنه الصَّدَى: وهو ما يُعارض الصوت الأولَ ويقابله بمثله في الأماكن الخالية، والأجسام الصُّلبة العالية، والمعنى: عارِضِ القرآنَ بعملك، أي: اعملْ بأوامره ونواهيه، وقال عبد الوهاب[٢]: أي: اعرضه على عملك، فانظرْ أين عملُكَ من القرآن.

وقيل: هو أمرٌ من صادَى أي: حادَثَ، والمعنى: حادِثِ القرآنَ، وهو روايةٌ عن الحسن أيضاً، وله قُرْبٌ من الأول.

وقرأ عيسى ومحبوب عن أبي عمرو وفرقة: «صادَ» بفتح الدال[٣]، وكذا قرؤوا: «قافَ» و«نونَ» بالفتح فيهما؛ فقيل: هو لالتقاء الساكنين أيضاً طَلَباً للخِفَّة. وقيل: هو حركةُ إعرابٍ على أنَّ «صادَ» منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، أي: اذكرْ، أو: اقرأ صادَ، أو بفعلِ القَسَم بعد نَزْعِ الخافض لما فيه من معنى التعظيم المتعدِّي بنفسه نحو: اللهَ لأفعلنَّ، أو مجرورٌ بإضمار حرف القَسَم، وهو ممنوعٌ من الصَّرف للعَلَمية والتأنيث بناءً على أنه عَلَمٌ للسورة.

وقد ذكر الشريفُ أنه إذا اشتَهر مسمًّى بإطلاق لفظٍ عليه يُلاحَظُ المسمَّى في ضمن ذلك اللفظ، وأنه بهذا الاعتبار يصحُّ اعتبارُ التأنيث في الاسم.

وقرأ ابن أبي إسحاق في روايةٍ: «صادٍ» بالجرِّ والتنوين[٤]، وذلك إما لأنَّ الثلاثيَّ الساكن الوسطِ يجوزُ صَرْفه. بل قيل: إنه الأرجح، وإما لاعتبار ذلك اسماً للقرآن، كما هو أحدُ الاحتمالات فيه، فلم يتحقَّقْ فيه العِلَّتان فَوَجَبَ صَرْفه، والقولُ بأنَّ ذاكَ لكونه عَلَماً لمعنى السورة لا للفظها، فلا تأنيثَ فيه مع العَلَمية ليكونَ هناك علَّتان، لا يخلو عن دغدغة.

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥.

(٢) هو عبد الوهاب بن عطاء الخفَّاف راوي خبر الحسن السالف، وورد كلامه في تفسير الطبري ٢٠/ ٥ إثر كلام الحسن، وينظر ترجمته في تهذيب الكمال ١٨/ ٥٠٩.

(٣) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٢٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩١، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع وهارون الأعور والحسن في رواية: «صادُ» بضمِّ الدال[1]، وكأنه اعتُبر اسماً للسورة، وجُعل خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذه صادُ.

ولهم في معناه غير متقيِّدين بقراءة الجمهور اختلافٌ كأضرابه من أوائل السور، فأخرج عبدُ بن حميد عن أبي صالح قال: سُئل جابرُ بن عبد الله وابن عباس عن ﴿صٓ﴾ فقالا: ما ندري ما هو[2]. وهو مذهبُ كثيرٍ في نظائره.

وقال عكرمة: سألَ نافعُ بن الأزرق عبدَ الله بن عباس عن ﴿صٓ﴾ فقال: ﴿صٓ﴾ كان بحراً بمكةَ، وكان عليه عرشُ الرحمن إذ لا ليل ولا نهار.

وقال ابن جبير: هو بحرٌ يُحيي الله تعالى به الموتى بين النفختين.

والله تعالى أعلم بصحَّة هذين الخبرين.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: ﴿صٓ﴾ صدق الله[3]. وأخرج ابن مردويه عنه أنه قال: ﴿صٓ﴾ يقول: إني أنا الله الصادق[4].

وقال محمد بن كعب القرظي: هو مفتاحُ أسماء الله تعالى: صَمَدٌ، وصانعُ المصنوعات، وصادقُ الوعد.

وقيل: هو إشارةٌ إلى صدود الكفار عن القرآن. وقيل: حرفٌ مسرودٌ على منهاج التحدِّي، وجَنَحَ إليه غيرُ واحدٍ من أرباب التحقيق، وقيل: اسمٌ للسورة. وإليه ذهب الخليل وسيبويه والأكثرون. وقيل: اسمٌ للقرآن. وقيل غيرُ ذلك باعتبار بعضِ القراءات كما سمعتَ عن قريب.

ومن الغريب أنَّ المعنى: صادَ محمدٌ ﷺ قلوبَ الخلق واستمالها حتى آمنوا به. ولعلَّ القائلَ به اعتبره فعلاً ماضياً مفتوحَ الآخر أو ساكِنَه للوقف، وأنا لا أقول به ولا أرتضيه وجهاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.
(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٧.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

وهو على بعض هذه الأوجه لا حَظَّ له من الإعراب، وعلى بعضها يجوزُ أن يكونَ مُقسَماً به ومفعولاً لمضمَرٍ وخبرَ مبتدأ محذوف، وعلى بعضها يتعيَّنُ كونه مُقسماً به، وعلى بعضِ ما تقدَّم في القراءات يتأتَّى ما يتأتَّى مما لا يخفى عليك.

وبالجملة إن لم يُعتبر مُقسَماً به فالواو في قوله سبحانه ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ للقَسَم، وإن اعتبر مُقسَماً به، فهي للعطف عليه، لكن إذا كان قَسَماً منصوباً على الحذف والإيصال، يكونُ العَطْفُ عليه باعتبار المعنى والأصل. ثم المغايرةُ بينهما قد تكون حقيقيَّةً كما إذا أُريد بالقرآن كلِّه وبـ «ص» السورة، أو بالعكس، أو أريد بـ «ص» البحرُ الذي قيل به فيما مرَّ، وبالقرآن كلِّه أو السورة، وقد تكون اعتباريَّة كما إذا أُريد بكلٍّ السورةُ أو القرآنُ على ما قيل، ولا يخفى ما تقتضيه الجزالةُ الخالية عن التكلُّفِ.

وضُعِّفَ جَعْلُ الواو للقَسَم أيضاً بناءً على قول جَمْعٍ أنَّ تواردَ قَسَمين على مُقْسمٍ عليه واحدٍ ضعيفٌ.

والذكرُ ـ كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ الشرفُ[1]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. أو الذكرى والموعظة للناس على ما روي عن قتادة والضحاك. أو ذكرُ ما يحتاج إليه في أمر الدين من الشرائع والأحكام وغيرها من أقاصيص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخبار الأمم الدارجة، والوعد والوعيد على ما قيل.

وجواب القَسَم قيل: مذكورٌ، فقال الكوفيون والزجَّاج: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [الآية: ٦٤][2]، وتعقَّبه الفرَّاء بقوله: لا نجده مستقيماً؛ لتأخُّر ذلك جدّاً عن القَسَم[3]. وقال الأخفش: هو ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [الآية: ١٤][4]. وقال قوم: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الآية: ٣] وحذفت اللام،

(١) تفسير الطبري ٢٠/٨.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/٣١٩.
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٣٩٧.
(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٠.

أي: لَكَم، لـمَّا طال الكلامُ كما حذفت من: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [الشمس:٩] بعد قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ [الشمس:١] حكاه الفرَّاء[١] وثعلب، وتعقَّبه الطبرسيُّ بأنه غَلَطٌ؛ لأنَّ اللامَ لا تدخلُ على المفعول، و«كم» مفعول[٢].

وقال أبو حيان: إنَّ هذه الأقوال يجبُ اطِّراحها[٣].

ونقل السمرقنديُّ[٤] عن بعضهم أنه: «بل الذين كفروا..» إلخ فإنَّ «بل» لنفي ما قبله وإثبات ما بعده، فمعناه: ليس الذين كفروا إلا في عِزَّةٍ وشقاق. وجُوِّزَ أن يريد هذا القائلُ أنَّ «بل» زائدةٌ في الجواب، أو ربط بها الجواب لتجريدها لمعنى الإثبات.

وقيل: هو «ص»؛ إذ معناه: صَدَقَ الله تعالى، أو: صَدَقَ محمد ﷺ. ونُسب ذلك إلى الفراء وثعلب، وهو مبنيٌّ على جواز تقدُّم جواب القَسَم واعتقاد أنَّ «ص» تدلُّ على ما ذكر، ومع هذا في كون «ص» نفسه هو الجواب خفاء.

وقيل: هو جملة: هذه صاد، على معنى السورة التي أعجزتِ العربَ، فكأنه قيل: هذه السورةُ التي أعجزتِ العربَ والقرآنِ ذي الذِّكر. وهذا كما تقول: هذا حاتمٌ واللهِ، تريد: هذا هو المشهورُ بالسَّخاء واللهِ، وهو مبنيٌّ على جواز التقدُّم أيضاً.

وقيل: هو محذوفٌ، فقدَّرهُ الحوفيُّ: لقد جاءكم الحقُّ، ونحوه. وابن عطية: ما الأمر كما تزعمون، ونحوه[٥]. وقدَّرهُ بعضُ المحققين: ما كَفَرَ مَنْ كَفَرَ لِخَلَلٍ وجده، ودلَّ عليه بقوله تعالى: «بل الذين..» إلخ. وآخرُ: إنه لَمُعجزٌ، ودلَّ عليه ما في «ص» من الدلالة على التحدِّي بناءً على أنه اسمُ حرفٍ من حروف المعجم

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٧.
(٢) مجمع البيان ٢٣/ ٩٥.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٨٣.
(٤) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٥، وعنه نقل المصنف.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢.

ذُكر على سبيل التحدِّي والتنبيه على الإعجاز، أو ما في أُقسم بـ «ص» أو هذه «ص» من الدلالة على ذلك بناءً على أنه اسمٌ للسورة. أو: إنه لواجب العمل به، دلَّ عليه «ص» بناءً على كونه أمراً من المصاداة. وقدَّره بعضهم غير ذلك.

وفي «البحر»: ينبغي أن يُقدَّر هنا ما أُثبت جواباً للقَسَم بالقرآن في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١-٢]. ويقوِّي هذا التقدير ذِكْرُ النذارة هنا في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص:٤] وهناك في قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس:٦] فالرسالة تتضمَّنُ النذارةَ والبشارةَ، وجَعَلَ «بل» في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ للانتقال من هذا القَسَم والمقسَم عليه إلى ذِكْر حال تعزُّز الكفار ومشاقَّتهم في قبولهم رسالته ﷺ وامتثال ما جاء به[1]. وهي كذلك على كثيرٍ من الوجوه السابقة، وقد تُجعل على بعضها للإضراب عن الجواب بأن يقال مثلاً: إنه لمعجزٌ، بل الذين كفروا في استكبارٍ من الإذعان لإعجازه، أو هذه السورةُ التي أعجزت العربَ، بل الذين كفروا لا يُذعنون.

وجعلها بعضُهم للإضراب عمَّا يُفهَمُ مما ذكر ونحوه من أنَّ مَنْ كَفَرَ لم يكفر لِخَلَلٍ فيه، فكأنه قيل: مَنْ كَفَرَ لم يكفرْ لخللٍ فيه، بل كَفَرَ تكبُّراً عن اتباع الحقِّ وعناداً، وهو أظهرُ من جَعْلِ ذلك إضراباً عن صريحه، وإن قُدِّرَ نحو هذا المفهوم جواباً، فالإضرابُ عنه قَطْعاً.

وفي «الكشف»: عدُّ هذا الإضرابِ من قبيل الإضرابِ المعنويِّ على نحو: زيدٌ عفيفٌ عالمٌ، بل قومه استخفُّوا به، على الإضراب عمَّا يلزمُ الأوصافَ من التعظيم، كما نقل عن بعضهم = عدولٌ عن الظاهر.

ويمكن أن يكونَ الجوابُ الذي عنه الإضراب: ما أنتَ بمقصِّرٍ في تذكير الذين كفروا وإظهار الحقِّ لهم، ويُشعر به الآياتُ بعدُ، وسببُ النزول الآتي ذكرهُ إن شاء الله تعالى، فكأنه قيل: ص، والقرآن ذي الذِّكر، ما أنت بمقصِّرٍ في تذكير الذين كفروا، وإظهارِ الحقِّ لهم، بل الذين كفروا مقصِّرونَ في اتباعك والاعتراف

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

بالحقِّ، ووجهُ دلالة ما في النَّظْم الجليل على قولنا: بل الذين كفروا مقصِّرون.. إلخ ظاهرٌ. وهذه عِدَّةُ احتمالاتٍ بين يديك، وإليك أمرُ الاختيار، والسلامُ عليك.

والمراد بالعِزَّةِ ما يُظهرونه من الاستكبار عن الحقِّ، لا العزَّةُ الحقيقيةُ، فإنها لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

وأصل الشقاق: المخالفةُ، وكونك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحبك، أو من: شَقَّ العصا بينك وبينه، والمراد مخالفةُ الله تعالى ورسولِه ﷺ، والتنكير للدلالة على شِدَّتهما، والتعبيرُ بـ «في» [فيهما للدلالة][1] على استغراقهم فيهما.

وقرأ حماد بن الزِّبرقان، وسَوْر عن الكسائي، وميمونة عن أبي جعفر، والجَحدريُّ من طريق العقيلي: «في غِرَّةٍ» بالغين المعجمة المكسورة، والراء المهملة[2]، أي: في غفلةٍ عظيمةٍ عمَّا يجبُ عليهم من النظر فيه، ونُقل عن ابن الأنباريِّ أنه قال في كتاب «الرد على من خالف الإمام»: إنه قرأ بها رجلٌ، وقال: إنها أنسبُ بالشِّقاق، وهو القتال بجِدٍّ واجتهاد، وهذه القراءةُ افتراءٌ على الله تعالى. اهـ. وفيه ما فيه.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيدٌ لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضرابَهم، و«كم» مفعولُ «أهلكنا»، و«من قرن» تمييزٌ، والمعنى: قَرْناً كثيراً أهلكنا من القرون الخالية.

﴿فَنَادَوْا﴾ عند نزول بأسنا وحلول نقمتنا استغاثةً لينجوا من ذلك، وقال الحسن وقتادة: رفعوا أصواتهم بالتوبة حين عاينوا العذابَ لينجوا منه.

﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ حالٌ من ضمير «نادوا» والعائدُ مقدَّرٌ، وإن لم يلزم، أي: مناصهم. و«لات» هي «لا» المشبَّهة بـ «ليس» عند سيبويه[3]، زيدتْ عليها تاءُ

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٧/ ٢٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

(٣) الكتاب ١/ ٥٧-٥٨.

التأنيث لتأكيد معناها وهو النفي؛ لأنَّ زيادةَ البناء تدلُّ على زيادة المعنى، أو لأنَّ التاءَ تكونُ للمبالغة كما في: علَّامة، أو لتأكيد شَبَهها بـ «ليس» بجَعْلها على ثلاثة أحرفٍ ساكنة الوسط.

وقال الرضيُّ: إنها لتأنيث الكلمة، فتكون لتأكيد التأنيث، واختصَّت بلزوم الأحيان، ولا يتعيَّنُ لفظُ الحين إلا عند بعضٍ. وهو محجوجٌ بسماع دخولها على مرادفه، وقول المتنبي[1]:

لـقـد تـصبَّرتُ حتَّى لاتَ مُـصطَبَرٍ فـالآنَ أُقْـحِـمُ حتَّـى لاتَ مُـقـتَـحَـمِ

وإن لم يهمَّنا أمرهُ مخرَّجٌ على ذلك بجعل المصطبر والمقتحم اسمي زمانٍ، أو القول بأنها داخلةٌ فيه على لفظ «حين» مقدَّرٍ بعدها. والتزموا حَذْفَ أحد الجزأين، والغالبُ حَذْفُ المرفوع كما هنا على قراءة الجمهور، أي: ليس الحينُ حينَ مناص.

ومذهب الأخفش أنها «لا» النافية للجنس العاملة عملَ «إنَّ» زيدتْ عليها التاءُ، فـ : «حينَ مناصٍ» اسمها، والخبر محذوفٌ، أي: لهم[2].

وقيل: إنها «لا» النافية للفعل، زيدتْ عليها التاءُ، ولا عمل لها أصلاً، فإنْ وَلِيها مرفوعٌ فمبتدأٌ حُذف خبرُه، أو منصوبٌ كما هنا، فبعدها فعلٌ مقدَّرٌ عاملٌ فيه، أي: ولا ترى حينَ مناص.

وقرأ أبو السَّمَّال: «ولاتُ حينُ» بضمِّ التاء ورفع النون[3]، فعلى مذهب سيبويه «حين» اسمُ «لات» والخبرُ محذوفٌ، أي: ليس حينُ مناصٍ حاصلاً لهم، وعلى القول الأخير: مبتدأٌ خبره محذوفٌ، وكذا على مذهب الأخفش، فإنَّ من مذهبه كما في «البحر»[4] أنه إذا ارتفعَ ما بعدها فعلى الابتداء، أي: فلا حينُ مناصٍ كائن لهم.

---

(١) في ديوانه ٤/١٥٧.

(٢) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٣.

(٤) ٧/ ٣٨٤.

وقرأ عيسى بن عمر: «ولاتِ حينٍ» بكَسْر التاء مع النون[١]، كما في قول المنذر بن حرملة الطائي النصراني:

طَلَبُوا صُلْحَنا ولاتَ أوانٍ ... فأَجبنا أنْ لاتَ حين بقاءِ[٢]

وخُرِّجَ ذلك إما على أنَّ «لاتَ» تجرُّ الأحيان، كما أنَّ «لولا» تجرُّ الضمائر كـ: «لولاك» و«لولاه» عند سيبويه[٣]، وإما على إضمار «مِن»، كأنه قيل: لات من حين مناصٍ، ولاتَ من أوانِ صُلْحٍ، كما جَرُّوا بها مضمرةً في قولهم: على كم جِذْعٍ بيتك؟ أي: من جذعٍ، في أصحِّ القولين، وقولهم: ألا رجلٍ جزاهُ الله خيراً. يريدونَ: ألا من رجلٍ، ويكونُ موضعُ «من حين مناص» رَفْعاً على أنه اسمُ «لات» بمعنى: ليس، كما تقولُ: ليسَ من رجلٍ قائماً، والخبرُ محذوفٌ على قول سيبويه، وعلى أنه مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ على قول غيره، وخرَّج الأخفش «ولاتَ أوانٍ» على إضمار «حين» أي: ولاتَ حينُ أوانِ صُلْحٍ، فحُذفت «حين» وأُبقي «أوان» على جَرِّه[٤]. وقيل: إنَّ «أوان» في البيت مبنيٌّ على الكسر، وهو مشَّبهٌ بـ «إذ» في قول أبي ذؤيب:

نهيتُكَ عن طِلابِكَ أمَّ عمرٍو ... بعاقبةٍ وأنتَ إذٍ صحيحُ[٥]

ووجهُ التشبيه أنه زمانٌ قُطع عنه المضافُ إليه؛ لأنَّ الأصلَ: أوانُ صُلْحٍ، وعُوِّضَ التنوينُ فكُسِرَ لالتقاء الساكنين لِكونه مبنياً مثله، فهما شبهان في أنهما مبنيَّان مع وجود تنوينٍ في آخرهما للعِوَض يوجبُ تحريكَ الآخر بالكَسْر، وإن كان سبب البناء في «أوان» دون «إذ» شَبَهُ الغايات حيثُ جُعلَ زماناً قُطع عنه المضاف إليه، وهو مرادٌ، وليس تنوينُ العِوَضِ مانعاً عن الإلحاق بها، فإنها تُبنى إذا لم يكن

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٤.

(٢) البيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٧-٣٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥٢، والكشاف ٣/ ٣٥٩، والخزانة ٤/ ١٦٩. وروايته في المصادر عدا الكشاف: وليس حين بقاء.

(٣) الكتاب ٢/ ٣٧٣.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٧٠.

(٥) البيت في ديوان الهذليين ١/ ٦٨، والخزانة ٦/ ٥٣٩.

تنوينٌ؛ لأنَّ عِلَّتهُ الاحتياجُ إلى المحذوف، كاحتياج الحرف إلى ما يتمُّ به، وهذا المعنى قائمٌ نُوِّنَ أو لم ينوَّن، فإنَّ التنوينَ عِوَضٌ لفظيٌّ لا معنويٌّ، فلا تنافي بين التعويض والبناء، لكن اتفقَ أنهم لم يُعوِّضوا التنوينَ إلا في حال إعرابها، وكأنَّ ذلك لئلّا يتمحَّض للتعويض، بل يكونُ فيها معنى التمكُّن أيضاً، فلا منافاة، وثبتَ البناءُ فيما نحن فيه بدليلِ الكَسْر، وكانت العِلَّةُ التي في الغايات قائمةً، فأحيل البناءُ عليها، واتفق أنهم عوَّضوا التنوينَ هاهنا تشبيهاً بـ «إذ» في أنها لما قُطعتْ عن الإضافةُ نُوِّنَتْ، أو توفيةً لحقِّ اللفظ لمَّا فاتَ حقُّ المعنى، وخُرِّجتِ القراءةُ على حَمْل «مناصٍ» على أوانٍ في البيت؛ تنزيلاً لما أضيف إليه الظرفُ وهو «حين» منزلةَ الظرف؛ لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه كشيءٍ واحدٍ، فقُدِّرتْ ظرفيَّتهُ وهو قد كان مضافاً؛ إذ[1] أصله: مناصهم، فقُطع وصارَ كأنه ظرفٌ مبنيٌّ مقطوعٌ عن الإضافة، منوَّنٌ لِقَطْعه، ثم بني ما أُضيف إليه وهو «حين» على الكَسْر لإضافته إلى ما هو مبنيٌّ فرضاً وتقديراً، وهو «مناص» المشابه لـ «أوان».

وأورد عليه أنَّ ما ذُكر من الحمل لم يُؤثِّر في المحمول نفسه، فكيف يُؤثِّرُ فيما يُضاف إليه، على أنَّ في تخريج الجرِّ في البيت على ذلك ما فيه، والعجبُ كلُّ العجب ممن يرتضيه.

وضَمُّ التاء على قراءة أبي السَّمَّال وكَسْرُها على قراءة عيسى للبناء، وروي عن عيسى: «ولاتُ حينُ» بالضمِّ «مناصَ» بالفتح[2]، قال صاحب «اللوامح»: فإنْ صَحَّ ذلك فلعلَّهُ بنى «حين» على الضَّمِّ تشبيهاً بالغايات، وبنى «مناصَ» على الفتح مع «لات»، وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: ولاتَ مناصَ حينُ، لكن «لا» إنما تعمل في النكرات المتصلةِ بها دونَ المنفصلة عنها ولو بظرف، وقد يجوزُ أن يكونَ لذلك معنًى لا أعرفه. انتهى.

وأهونُ من هذا فيما أرى كون «حين» مُعرباً مضافاً إلى «مناص» والفتحُ لمجاورة واو العطف في قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ نظير فتح الراء من «غير» في قوله:

---

(١) في (م): إذا.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٨٤.

لم يمنعِ الشُّرْبَ منها غيرَ أنْ نطقتْ   حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقَالِ[(١)]

على قولٍ، والأغلبُ على الظَّنِّ عدمُ صحة هذه القراءة.

وقرأ عيسى أيضاً كقراءة الجمهور إلا أنه كَسَرَ تاء «لاتِ»[(٢)].

وعُلم من هذه القراءات أنَّ في تائها ثلاث لغات.

واختلفوا في أمر الوقف عليها، فقال سيبويه والفرَّاء وابن كيسان والزجَّاج[(٣)]: يُوقَفُ عليها بالتاء، وقال الكسائيُّ والمبرِّد: بالهاء، وقال أبو عليٍّ: ينبغي أن لا يكون خلافٌ في أنَّ الوقفَ بالتاء؛ لأنَّ قَلْبَ التاء هاءً مخصوصٌ بالأسماء.

وزعم قومٌ أنَّ التاءَ ليست ملحقةً بـ «لا»، وإنما هي مزيدةٌ في أول ما بعدها. واختاره أبو عبيد[(٤)]، وذكر أنه رأى في الإمام[(٥)]: «ولا تحينَ مناص» برسم التاء مخلوطاً بأول حين، ولا يردُ عليه أنَّ خَطَّ المصحف خارجٌ عن القياس الخطِّيِّ؛ إذ لم يقعْ في الإمام في محلٍّ آخرَ مرسوماً على خلاف ذلك حتى يقالَ: ما هنا مخالفٌ للقياس، والأصلُ اعتبارهُ إلا فيما خَصَّه الدليل، ومن هنا قال السخاويُّ في «شرح الرائية»: أنا أَستحبُّ الوقفَ على «لا» بعد ما شاهدته في مصحف عثمان رضي الله عنه، وقد سمعناهم يقولون: اذهبْ تلآن وتَحين، بدون «لا»، وهو كثيرٌ في النثر والنظم[(٦)]. انتهى، ومنه قوله:

---

(١) البيت لأبي قيس بن الأسلت، أو لأبي قيس بن رفاعة. ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٨٠، والخزانة ٣/ ٤١٣، وسلف ١٢/ ٦٩.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٤.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٩٨، وللزجاج ٤/ ٣٢٠.

(٤) في الأصل و(م): أبو عبيدة. والمثبت هو الصواب، ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٢٩، والدر المصون ٩/ ٣٤٩، والخزانة ٤/ ١٧٥.

(٥) أي: مصحف عثمان رضي الله عنه.

(٦) الوسيلة إلى كشف العقيلة لعلم الدين السخاوي ص٤٣٨، والعقيلة هي رائية الشاطبي المسماة: عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد.

العاطفونَ تَحِينَ لا مِنْ عاطف   والمُطعمونَ زمانَ ما من مُطْعِمِ(١)

وكون أصله: العاطفونه، بِهَاء السكت، فلما أُثبتْ في الدَّرْج قُلبت تاء، مما لا يُصغَى إليه، نعم الأولى اعتبارُ التاء مع «لا» لشهرة «حين» دون «تَحين»، وقال بعضهم: إنَّ «لات» هي ليس بعينها، وأصلُ ليس: لَيِسَ بكَسْر الياء، فأُبدلتْ أَلِفاً لتحرُّكها بعد فتحة، وأُبدلت السينُ تاءً كما في «سِتٌّ» فإنَّ أصله: سِدْسٌ.

وقيل: إنها فعلٌ ماضٍ، و«لات» بمعنى نَقَصَ وقلَّ، فاستعملتْ في النفي كـ: قلَّ. وليس بالمعوَّل عليه.

والمناصُ: المنجا والفَوْت، يقال: ناصَهُ ينوصُهُ: إذا فاته. وقال الفرَّاء: النَّوْصُ: التأخُّر(٢). يقال: ناصَ عن قِرْنه ينوصُ نَوْصاً ومَناصاً، أي: فرَّ وزاغ، ويقال: استناصَ: طَلَبَ المناص، قال حارثة بن بدر يصفُ فرساً له:

غَمْرُ الجِراءِ إذا قَصَرْتُ عِنانَه   بيَدي استناصَ ورامَ جَرْيَ المِسْحَلِ(٣)

وعلى المعنى الأول حمله بعضُهم هنا، وقال: المعنى: نادَوا واستغاثوا طَلَباً للنجاة، والحالُ أنْ ليسَ الحينُ حينَ فواتٍ ونجاة.

وعن مجاهدٍ تفسيرُهُ بالفرار، وأخرج الطستي عن ابن عباس أنَّ نافعَ بنَ الأزرق قال له: أَخبِرْني عن قوله تعالى: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ فقال: ليس بحينِ فرارٍ، وأنشد له قولَ الأعشى:

تذكَّرتُ ليلى لاتَ حين تذكُّرٍ   وقد بِنْتُ عنها والمناصُ بعيد(٤)

وعن الكلبيِّ أنه قال: كانوا إذا قاتلوا فاضطُرُّوا قال بعضهم لبعض: مناص؛ أي: عليكم بالفِرار، فلما أتاهم العذابُ قالوا: مناص، فقال الله تعالى: ﴿وَلَاتَ

---

(١) البيت لأبي وَجزة يزيد بن عبيد السعدي، وهو في الصحاح (حين)، والخزانة ٤/ ١٧٥.
(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٩٧.
(٣) البيت في العين ٧/ ١٦٠، والكشاف ٣/ ٣٥٩، واللسان (نوص).
(٤) الدر المنثور ٥/ ٢٩٦.

﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾. قال القشيري: فعلى هذا يكون التقدير: فنادَوا: مناص، فحذف لدلالة ما بعده عليه، أي: ليس الوقتُ وقتَ ندائكم به.

والظاهرُ أنَّ الجملةَ على هذا التفسير حاليةٌ، أي: نادَوا بالفرار وليس الوقتُ وقتَ فرار. وقال أبو حيان في تقرير الحالية: وهم لاتَ حين مناصٍ، أي: لهم[1]. وقال الجرجاني: أي: فنادَوا حين لا مناص، أي: ساعةَ لا منجا ولا فَوْتَ، فلما قدَّم «لا» وأخَّر «حين» اقتضى ذلك الواوَ، كما يقتضي الحالُ إذا جُعل مبتدأً وخبراً مثلَ: جاء زيدٌ راكباً، ثم تقول: جاء زيدٌ وهو راكبٌ، فـ «حين» ظرفٌ لقوله تعالى: (فَنَادَوا). انتهى.

وكون الأصل ما ذكر أنَّ «حين» ظرفٌ لـ «نادَوا» دعوى أعجميةٌ مخالفةٌ لذوق الكلام العربي لا سيَّما ما هو أفصحُ الكلام، ولا أدري ما الذي دعاه لذلك.

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ حكايةٌ لأباطيلهم المتفرِّعة على ما حكي من استكبارهم وشقاقهم، أي: عجبوا من أن جاءهم رسولٌ من جنسهم، أي: بشرٌ، أو من نوعهم وهم معروفون بالأمِّيَّة، فيكون المعنى: رسولٌ أميٌّ، والمراد أنهم عَدُّوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشدَّ الإنكار، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجَّبوا منه.

﴿وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وُضِعَ فيه الظاهرُ موضِعَ الضمير؛ غَضَباً عليهم وذمّاً لهم، وإيذاناً بأنه لا يتجاسرُ على مثل ما يقولون إلا المتوغِّلون في الكُفْر والفسوق.

﴿هَـٰذَا سَـٰحِرٌ﴾ فيما يُظهِره مما لا نستطيع له مثلاً ﴿كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ فيما يُسنده إلى الله عزَّ وجلَّ من الإرسال والإنزال.

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأن نفى الأُلوهيةَ عنها وقَصَرَها على واحدٍ، فالجَعْلُ بمعنى التصيير، وليس تصييراً في الخارج، بل في القول والتسمية كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف:١٩] وليس ذلك من باب إنكار وَحْدة الوجود في شيءٍ، ليقال: إنْ الله سبحانه نعى على الكَفَرة ذلك

---

(١) البحر ٧/ ٣٨٤.

الإنكار فتثبتُ الوحدة، فإنه عليه الصلاة والسلام ما قال باتحاد آلهتهم معه عزَّ وجلَّ في الوجود.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ أي: بليغٌ في العَجَب، فإنَّ فُعالاً بناءُ مبالغةٍ ك: رجل طُوال وسُراع، ووَجْهُ تعجُّبهم أنه خلافُ ما أَلْفَوا عليه آباءَهم الذين أجمعوا على تعدُّد الآلهة، وواظبوا على عبادتها، وقد كان مدارُهم في كلٍّ ما يأتونَ ويَذَرونَ التقليدَ، فيعدُّونَ خلافَ ما اعتادوه عجيباً بل محالاً.

وقيل: مدارُ تعجُّبهم زعمهُمْ عدم وفاء عِلْم الواحد وقدرته[1] بالأشياء الكثيرة، وهو لا يتمُّ إلا إن ادّعوا لآلهتهم علماً وقدرةً، والظاهرُ أنهم لم يدَّعوهما لها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، والسُّلَميُّ وعيسى وابن مقسم: «عُجَّاب» بشَدِّ الجيم[2]، وهو أبلغُ من المخفَّف، وقال مقاتل: «عُجَّاب» لغةُ أَزْدشنوءة، أخرج أحمد وابن أبي شيبةَ وعبدُ بن حميد والترمذيُّ وصححه، والنسائيُّ وابن جرير وغيرهم[3] عن ابن عباس قال: لما مرضَ أبو طالب دخل عليه رهطٌ من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابنَ أخيك يشتمُ آلهتنا، ويفعلُ ويقولُ ويقولُ، فلو بعثتَ إليه فنهيتَهُ. فبعثَ إليه، فجاء النبيُّ ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قَدْرُ مجلسٍ، فخشيَ أبو جهلٍ إن جلس إلى أبي طالبٍ أن يكونَ أرقَّ عليه، فَوَثَبَ فجلس في ذلك المجلس، فلم يجدْ رسولُ الله ﷺ مجلساً قُرْبَ عمِّه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابنَ أخي، ما بالُ قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتمُ آلهتَهم، وتقولُ وتقولُ؟! قال: وأكثَروا عليه من القول، وتكلَّم رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عمّ، إني أُريدهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها، يدينُ لهم بها العرب، وتؤدِّي إليهم بها العَجَمُ الجزيةَ» ففرحوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: ما هي وأبيكَ؟

---

(١) في الأصل و(م): قدره. والمثبت من إرشاد العقل السليم ٧/ ٢١٥ والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٢، والبحر ٧/ ٣٨٥.

(٣) أحمد (٣٤١٩)، وابن أبي شيبة ١٤/ ٢٩٩، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في الكبرى (١١٣٧٢)، وابن جرير ٢٣/ ١٩. وفي مطبوع الترمذي أنه حديث حسن.

لنعطينَّكها وعَشْراً، قال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فَزِعينَ ينفضونَ ثيابهم وهم يقولون: أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب. وفي روايةٍ أنهم قالوا: سَلْنا غيرَ هذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرَها» فغضبوا وقاموا غِضاباً قالوا: والله لنشتمنَّكَ وإلهكَ الذي يأمرك بهذا.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: وانطلق الأشرافُ من قريشٍ من مجلس أبي طالب بعد ما بَكَّتَهُمْ رسولُ الله ﷺ، وشاهدوا تصلُّبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجونه منه عليه الصلاة والسلام بواسطة عمِّه، وكان منهم أبو جهلٍ، والعاصُ بنُ وائل، والأسودُ بنُ المطلب بن عبد يغوث، وعقبةُ بن أبي مُعيط.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن أبي مجلز قال: قال رجلٌ يومَ بدرٍ: ما هم إلا النساء، فقال رسول الله ﷺ: «بل هم الملأُ» وتلا: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾(١).

﴿أَنِ امْشُوا﴾ الظاهرُ أنه أمرٌ بالمشي بمعنى نَقْلِ الأقدام عن ذلك المجلس، و«أن» مفسِّرة، فقيل: في الكلام محذوفٌ وَقَعَ حالاً من «الملأ»، أي: انطلقَ الملأُ يتحاوَرون، والتفسير لذلك المحذوف، وهو متضمِّنٌ معنى القول دون لفظه.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار الحذف، فإنَّ الانطلاقَ عن مجلس التقاول يستلزمُ عادةً تفاوضَ المنطلقين وتحاورَهم بما جرى فيه، وتضمُّنُ المفسَّر لمعنى القول أعمّ من كونه بطريق الدلالة وغيرها، كالمقارنة، ومثلُ ذلك كافٍ فيه.

وقيل: الانطلاقُ هنا الاندفاعُ في القول، فهو متضمِّنٌ لمعنى القول بطريق الدلالة، وإطلاقُ الانطلاق على ذلك، الظاهرُ أنه مجازٌ مشهورٌ نُزِّلَ منزلةَ الحقيقة، وجُوِّزَ أن يكون التجوُّز في الإسناد، وأصله: انطلقتْ ألسنتهم، والمعنى: شَرَعوا في التكلُّم بهذا القول.

وقال بعضهم: المراد بـ«امشوا»: سيروا على طريقتكم وداوموا على سيرتكم.

---

(١) تفسير أبي حاتم ١٠/٣٢٣٦.

وقيل: هو من مَشَتِ المرأةُ، إذا كَثُرَتْ ولادتها، ومنه الماشيةُ، وسُمِّيتْ بذلك لأنها من شأنها كثرةُ الولادة، أو تفاؤلاً بذلك، والمرادُ لازمُ معناه، أي: أكثِروا واجتمعوا.

وقيل: هو دعاءٌ بكثرة الماشية، افتتحوا به كلامهم للتعظيم، كما يقال: أسلمْ أيها الأمير، واختاروه من بين الأدعية لِعِظَمِ شأن الماشية عندهم.

وتُعُقِّب بأنه خطأٌ؛ لأنَّ فِعْلَهُ مزيدٌ، يقال: أَمشى إذا كَثُرَتْ ماشيتُهُ، فكان يلزمُ قَطْعُ همزته، والقراءة بخلافه، مع أنَّ إرادةَ هذا المعنى هنا في غاية البعد.

وأيًّاما كان فالبعض قال للبعض ذلك، وقيل: قال الأشرافُ لأتباعهم وعوامِّهم. وقرئ: «امشوا» بغير «أن»[1]، على إضمار القول دون إضمارها، أي: قائلين: امشوا.

﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادتها متحمِّلينَ لما تسمعونه في حقِّها من القَدْح.

وقرأ ابنُ مسعود: «وانطلقَ الملأ منهم يمشونَ أنِ اصبروا»[2] فجملةُ «يمشون» حاليةٌ أو مستأنفةٌ، والكلام في «أنِ اصبروا» كما في «أن امشوا» سواءٌ تعلَّقَ بـ: «انطلق» أو بما يليه.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ تعليلٌ للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به، والإشارةُ إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبيِّ ﷺ وتصلُّبه في أمر التوحيد ونفي أُلوهية آلهتهم، أي: إنَّ هذا لشيءٌ عظيمٌ يُرادُ من جهته ﷺ إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارفٍ يلويه ولا عاطفٍ يثنيه، لا قولٌ يقالُ من طَرَفِ اللسان، أو أمرٌ يُرجى فيه المسامحةُ بشفاعة إنسان، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم، واصبروا على عبادة آلهتكم.

وقيل: إنَّ هذا الأمرَ لشيءٌ من نوائب الدهر يُراد بنا، فلا حيلةَ إلا تجرُّع مرارة الصبر.

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٠-٣٦١، وتفسير الرازي ٢٦/ ١٧٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٤، والكشاف ٣/ ٣٦١، وتفسير البيضاوي ٥/ ١٥.

وقيل: إنَّ هذا الذي يدَّعيه من أمر التوحيد، أو يقصده من الرياسة والترفُّع على العرب والعجم، لشيءٌ يتمنَّى أو يريده كلُّ أحدٍ، ولكن لا يكونُ لكلٍّ ما يتمنَّاه أو يريده، فاصبروا.

وقيل: إنَّ هذا، أي: دينكم يُطلَبُ ليُنتَزَعَ منكم ويطرح، أو يُراد إبطاله.

وقيل: الإشارةُ إلى الصبر المفهوم من «اصبروا» أي: إنَّ الصبرَ لشيءٌ مطلوبٌ؛ لأنه محمودُ العاقبة.

وقال القفال: هذه كلمةٌ تُذكَرُ للتهديد والتخويف، والمعنى أنه ليس غرضُهُ من هذا القول تقرير الدين، وإنما غرضُهُ أن يستوليَ علينا، فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يُريد. فتأمل.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب ومقاتل: أرادوا مِلَّةَ النصارى. والتوصيفُ بالآخرة بحَسَبِ الاعتقاد؛ لأنهم الذينَ لا يؤمنون بنبوَّةِ محمد ﷺ، ومرادهم من قولهم: «ما سمعنا» إلخ: إنَّا سمعنا خلافَهُ، وهو عدمُ التوحيد، فإنَّ النصارى كانوا يُثلِّثون، ويزعمون أنه الدينُ الذي جاء به عيسى عليه السلام، وحاشاه.

وعن مجاهدٍ أيضاً وقتادة: أرادوا مِلَّةَ العرب ونِحْلَتَها التي أَدركوا عليها آباءهم.

وجُوِّزَ أن يكونَ «في الملَّة الآخرة» حالاً من اسم الإشارة، لا متعلِّقاً بـ «سمعنا»، أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه من التوحيد كائناً في المِلَّة التي تكونُ آخرَ الزمان، أرادوا أنهم لم يسمعوا من أهل الكتاب والكُهَّان الذين كانوا يُحدِّثونهم قبل بعثة النبيِّ ﷺ بظهور نبيٍّ أنَّ في دينه التوحيد، ولقد كذبوا في ذلك، فإنَّ حديثَ أنَّ النبيَّ المبعوثَ آخر الزمان يكسرُ الأصنامَ ويدعو إلى توحيد الملك العلَّام، كان أشهرَ الأمور قبل الظهور، وإن أرادوا على هذا المعنى: إنَّا سمعنا خلافَ ذلك، فكذِبهم أقبح.

﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ أي: افتعالٌ وافتراءٌ من غير سَبْق مَثَلٍ له.

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ونحن رؤساءُ الناس وأشرافهم، كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ومرادهم إنكار كونه ذِكْراً مُنزلاً من عند الله تعالى كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وأمثالُ هذه المقالات الباطلة دليلٌ على أنَّ مناطَ تكذيبهم ليس الحسد وقَصْر النظر على الحطام الدنيوي.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ من القرآن الذي أنزلته على رسولي المشحون بالتوحيد؛ لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن الأدلة المؤدِّية إلى العلم بحقِّيَّته، وليس في عقيدتهم ما يقطعونَ به، فلذا تراهم ينسبونه إلى السِّحر تارةً، وإلى الاختلاق أخرى، فـ «بل» للإضراب عن جميع ما قبله، و«بل» في قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ إضرابٌ عن مجموع الكلامين السابقين: حديثِ الحسد في قوله تعالى: «أأنزل» إلخ، وحديثِ الشَّكِّ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ أي: لم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زالَ عنهم ما بهم من الحسد والشك حينئذٍ، يعني: أنهم لا يُصدِّقونَ إلا أن يمسَّهمُ العذابُ، فيضطرُّوا إلى التصديق. أو إضرابٌ عن الإضراب قبله، أي: لم يذوقوا عذابي بعدُ، فإذا ذاقوه زالَ شَكُّهم واضطرُّوا إلى التصديق بذِكْري، والأول على ما في «الكشف» هو الوجهُ السديدُ، وينطبقُ عليه ما بعدُ من الآيات.

وقيل: المعنى: لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن، ولذلك شكُّوا فيه. وهو كما ترى. وفي التعبير بـ «لمَّا» دلالةٌ على أنَّ ذَوْقَهم العذابَ على شرف الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾ في مقابلة قوله سبحانه: «أأنزل» إلخ، ونظيره في رَدِّ نظيره: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١] و«أم» منقطعةٌ مقدَّرةٌ بـ «بل» والهمزة، والمراد بالعِنْدية الملك والتصرُّف، لا مجرَّدُ الحضور.

وتقديمُ الظرف لأنه محلُّ الإنكار، أي: بل أيملكونَ خزائنَ رحمته تعالى، ويتصرَّفون فيها حسبما يشاؤون، حتى إنهم يصيبون بها مَنْ شاؤوا، ويصرفونها عمَّن شاؤوا، ويتحكَّمون فيها بمقتضى رأيهم فيتخيَّروا للنبوَّة بعضَ صناديدهم.

وإضافة الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ للتشريف واللطف به عليه الصلاة والسلام.

و«العزيزُ»: القاهرُ على خَلْقه، و«الوهابُ»: الكثيرُ المواهب المصيبُ بها مواقعها، وحديثُ العزَّة والقهر يناسبُ ما كانوا عليه من ترفُّعهم بالنبوَّة عنه ﷺ تجبُّراً.

والمبالغةُ في «الوهَّاب» من طريق الكَمِّيَّة تناسِبُ قوله تعالى: «خزائن» وتدلُّ على حرمانٍ لهم عظيم، وفي ذلك إدماجُ أنَّ النبوةَ ليست عطاءً واحداً بالحقيقة، بل يتضمَّنُ عطايا جَمَّة تفوتُ الحَصْرَ، وهي من طريق الكيفية المشار إليها بإصابة المواقع؛ للدلالة على أنَّ مستحقَّ العطاء ومحلَّهُ مَنْ وُهِبَ ذلك وهو النبيُّ ﷺ، وفي الوصف المذكور أيضاً إشارةٌ إلى أنَّ النبوَّةَ موهبةٌ ربانيَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ترشيحٌ لما سبقَ، أي: بل أَلَهُمْ ملكُ هذه الأجرام العلوية والأجسام السفلية، حتى يتكلَّموا في الأمور الربانية، ويتحكَّموا في التدابير الإلهيَّة التي يستأثر بها ربُّ العزَّة والكبرياء.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾ جوابُ شَرْطٍ محذوف، أي: إن كان لهم ما ذُكر من الملك، فليصعدوا في المعارج والمناهج التي[1] يتوصَّل بها إلى السماوات، فليدبِّروها وليتصرَّفوا فيها، فإنهم لا طريقَ لهم إلى تدبيرها والتصرُّف فيها إلا ذاك. أو: إن ادَّعوا ما ذُكر من الملك، فليصعدوا وليتصرَّفوا حتى يُظَنَّ صِدْقُ دعواهم، فإنه لا أمارةَ عندهم على صِدْقها، فلا أقلَّ من أن يجعلوا ذلك أمارة.

وقال الزمخشريُّ ومتابعوه: أي: فليصعدوا في المعارج والطُّرق التي يُتوصَّل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبِّروا أمرَ العالم وملكوتَ الله تعالى، ويُنزلوا الوحيَ إلى مَنْ يختارونَ ويستصوبون[2]. وهو مناسبٌ للمقام، بَيْدَ أنَّ فيه دغدغة.

وأيًّاما كان ففي أمرهم بذلك تهكُّمٌ بهم لا يخفى.

---

(١) في (م): الذي.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٦١-٣٦٢.

والسببُ في الأصل: الوصلةُ من الحبل ونحوه. وعن مجاهدٍ: الأسبابُ هنا أبوابُ السماوات. وقيل: السماواتُ أنفسُها؛ لأنَّ الله تعالى جَعَلَها أسباباً عادية للحوادث السفلية.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ أي: هم جندٌ.. إلخ، فـ «جندٌ» خبرُ مبتدأ محذوف مقدَّر مقدَّماً كما هو الظاهر، و«ما» مزيدةٌ، قيل: للتقليل والتحقير، نحو: أكلتُ شيئاً ما. وقيل: للتعظيم والتكثير. واعترض بأنه لا يلائمه «مهزوم». وأُجيب بأنَّ الوَصْفَ بالعَظَمة والكَثْرة على سبيل الاستهزاء، فهي بحَسَبِ اللَّفظ عظمةٌ وكثرةٌ، وفي نفس الأمر ذِلَّةٌ وقِلَّةٌ، ورُجِّحَ بأنَّ الأكثرَ في كلامهم كونها للتعظيم، نحو: لأمرٍ ما جدعَ قصيرٌ أنفَه، لأمرٍ ما يسودُ من يسود. وقول امرئ القيس[1]:

وحديثُ الرَّكْبِ يومَ هُنا ... وحديثٌ ما على قِصَرِهْ

مع أنَّ الكلامَ لتسليته ﷺ وتبشيره بانهزامهم، وذلك أكملُ على هذا التقدير، بل قيل: إنَّ التبشيرَ بخذلان عدوٍّ[2] حقيرٍ، ربما أشعرَ بإهانةٍ وتحقير:

ألم ترَ أنَّ السيفَ ينقصُ قَدْرُهُ ... إذا قيل إنَّ السيفَ أمضى من العصا[3]

وفيه نظرٌ. و«هنالك» صفةُ «جند» أو ظرفُ «مهزوم»، وهو إشارةٌ إلى المكان البعيد، وأُريد به على قولٍ المكانُ الذي تفاوضوا فيه مع الرسول ﷺ بتلك الكلمات السابقة، وهو مكة، وجُعل ذلك إخباراً للغيب عن هزيمتهم يومَ الفتح. وقيل: يوم بدر، وروي ذلك عن مجاهد وقتادة، وأنت خبيرٌ بأنَّ «هنالك» إذا كان إشارةً إلى مكة ومتعلِّقاً بـ «مهزومٍ» لا يتسنَّى هذا إلا إذا أُريد من مكة ما يشملُ بَدْراً.

و«مهزومٌ» خبرٌ بعد خبر، وأصلُ الهَزْمِ: غَمْزُ الشيء اليابس حتى ينحطمَ، كَهَزْمِ الشَّنِّ، وهَزْمِ القِثَّاء والبِطِّيخ، ومنه الهزيمةُ؛ لأنه كما يُعبَّر عنه بذلك، يُعبَّر عنه[4]

---

(١) البيت في ديوانه ص١٢٧.

(٢) في (م): عدد. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٣٠٠ والكلام منه.

(٣) نُسب في يتيمة الدهر ٥/ ٢٩٩ للشيخ أبي بكر.

(٤) قوله: بذلك يُعبَّر عنه. ليس في (م).

بالحطم والكسر، والتعبيرُ عمَّا لم يقع باسم المفعول المُؤْذِنِ بالوقوع ـ على ما في بعض «شروح الكشاف» ـ للإيذان بشدَّةِ قُرْبه، حتى كأنه محقَّقٌ.

و«من الأحزاب» صفةُ «جند»، أي: هم جندٌ قليلونَ أذلَّاء، أو كثيرونَ عظماء كائنونَ هنالك، من الكفار المتحزِّبين على الرسل، مكسورونَ عن قريبٍ، أو جندٌ من الأحزاب مكسورونَ عن قريبٍ في مكانهم الذي تكلَّموا فيه بما تكلَّموا، فلا تبالِ بما يقولون، ولا تكترثْ بما يَهذُونَ.

وقال أبو البقاء: «جندٌ» مبتدأٌ، و«ما» زائدةٌ، و«هنالك» نعتٌ، وكذا «من الأحزاب»، و«مهزومٌ» خبرٌ[١]. وتعقَّبهُ أبو حيان بأنَّ فيه بُعْداً لِتَفلُّته عن الكلام الذي قبله[٢].

واعتبر الزمخشريُّ الحَصْرَ، أي: ما هم إلا جندٌ من المتحزِّبينَ مهزومٌ عن قريب، لا يتجاوزونَ الجنديةَ المذكورةَ إلى الأمور الربانية[٣]. وهو حَسَنٌ إلا أنه اختلفَ في منشأ ذلك فقيل: إنه كان حقُّ «الجند» أن يُعرَّفَ؛ لكونه معلوماً، فَنُكِّرَ سَوْقاً للمعلوم مَساقَ المجهول، كأنه لا يُعرَفُ منهم إلا هذا القَدْرُ، وهو أنهم جندٌ بهذه الصفة.

وقال صاحب «الكشف»: إنه التفخيمُ المدلولُ عليه بالتنكير وزيادة «ما» الدالة على الشيوع وغاية التعظيم لدلالتهما على اختصاص الوَصْف بالجندية من بين سائر الصفات، كأنه لا وَصْفَ لهم غيرها. وفيه منعٌ ظاهرٌ.

ويُفهِمُ كلامُ العلّامة الثاني أنه اعتبار كون «جند» خبراً مقدَّماً لمبتدأ محذوفٍ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي الحَصْرَ. فتدبَّر ولا تغفل.

وجعل الزمخشريُّ «هنالك» الموضوعَ للإشارة إلى المكان البعيد مستعاراً للمرتبة من العلوّ والشرف، على أنه إشارةٌ إلى حيثُ وَضَعوا فيه أنفسَهم من

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٤٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٨٦. والدر المصون ٩/ ٣٦٠، ووقع في مطبوع البحر: لفصله. بدل: لتفلته.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٦٤.

الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، كما في قولهم لمن انتُدِبَ لأمرٍ ليس من أهله: لستَ هنالك[1]. وفيه إيماءٌ إلى عِلَّةِ الذَّمِّ؛ وجُوِّزَ على هذا أن تكونَ «ما» نافيةً، أي: هم جندٌ ليسوا حيثُ وضعوا أنفسهم.

وتُعقِّبَ بأنه مما لم يَقلْهُ أحدٌ من أهل العربية، ولا يليقُ بالمقام، وفيه بحثٌ.

وجُوِّزَ أن تكون «هنالك» إشارة إلى الزمان البعيد، وهي - كما قال ابن مالك - قد يُشارُ بها إليه، نحو قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠] وتتعلَّق بـ «مهزومٍ».

والكلامُ إخبارٌ بالغيب إما عن هزيمتهم يومَ الفتح، أو يومَ بدر كما تقدَّم حكايته، أو يومَ الخندق. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: إشارةٌ إلى زمان الارتقاء في الأسباب، أي: هؤلاء القومُ جندٌ مهزومٌ إذا ارتقوا في الأسباب. وليس بالمَرْضيِّ.

وقيل: «ما» اسمٌ موصولٌ مبتدأً، و«هنالك» في موضع الصِّلة، و«جندٌ» خبرٌ مقدَّمٌ، و«مهزومٌ» و«من الأحزاب» صفتان، وهما المقصودان بالإفادة، و«ما هنالك» إشارةٌ إلى مكة، والمرادُ من الذين فيها: المشركون، والتعبيرُ عنهم بـ «ما» لأنهم كالأنعام بل هم أضلُّ، وقيل: الأصنامُ وعَبَدَتُها، وأمْرُ التعبير بـ «ما» عليه أظهر. ويقال فيه نحو ما قاله أبو حيان في كلام أبي البقاء وزيادةٌ لا تخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾ إلى آخره، استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ببيان أحوال العُتاة الطُّغاة مما فعلوا من التكذيب وفُعل بهم من العقاب، و«ذو الأوتاد» صفةُ «فرعون»، لا لجميع ما قبله، وإلا لقيل: ذوو الأوتاد.

و«الأوتاد» جمعُ: وَتِدٍ، وهو معروفٌ، وكَسْرُ التاء فيه أشهرُ من فتحها، ويقال: وَتِدٌ واتِدٌ، كما يقال: شُغلٌ شاغلٌ. قاله الأصمعيُّ، وأنشد:

(١) المصدر السابق.

لاقَتْ على الماء جُذَيلاً واتِدا ... ولم يكن يُخلِفُها المواعِدا[1]

وقالوا: وَدّ، بإبدال التاء دالاً والإدغام، وَ: وتّ، بإبدال الدال تاءً، وفيه قَلبُ الثاني للأول، وهو قليلٌ، وأصلُ إطلاق ذلك على البيت المُطْنِب بأوتاده، وهو لا يثبتُ بدونها كما قال الأعشى:

والبيتُ لا يُبتَنى إلا على عمدٍ ... ولا عمادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ[2]

فقيل: إنه شُبِّهَ هنا فرعونُ في ثبات مُلْكه ورسوخ سَلْطنته ببيتٍ ثابتٍ أُقيم عمادُهُ وثبتتْ أوتادُهُ؛ تشبيهاً مُضمَراً في النفس على طريق الاستعارة المكنية، وَوُصِفَ بذي الأوتاد على سبيل التخييل، فالمعنى: كذَّبتْ قبلَهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ الثابتُ مُلْكُهُ وسَلْطنتهُ.

وقيل: شُبِّهَ الملكُ الثابتُ من حيثُ الثباتُ والرسوخُ بذي الأوتاد، وهو البيتُ المُطْنِبُ بأوتاده، واستعيرَ ذو الأوتاد له على سبيل الاستعارة التصريحية. قيل: وهو أظهرُ مما مرَّ، نهايته أنه وُصِفَ بذلك فرعونُ مبالغةً لِجَعْله عين مُلكه، والمعنى على وَصْفه بثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الأمر.

وقال ابن مسعود وابن عباس في رواية عطية: «الأوتادُ»: الجنودُ يُقوُّون مُلْكَهُ كما يقوِّي الوتدُ الشيءَ، أي: وفرعونُ ذو الجنود. فالاستعارةُ عليه تصريحيةٌ في الأوتاد، وقيل: هو مجازٌ مرسلٌ للزوم الأوتاد للجند.

وقيل: المباني العظيمة الثابتة، وفيه مجازٌ أيضاً.

وقال ابن عباس في روايةٍ أخرى، وقتادة وعطاء: كانت له ـ عليه اللَّعنةُ ـ أوتادٌ وخُشُبٌ يُلعَبُ له بها وعليها.

---

(١) البيت لأبي محمد الفقعسي، وهو في اللسان (وتد). والشطر الأول منه في زهر الأكم ١/ ٨٦.

(٢) لم نقف عليه عن الأعشى، ونسب للأفوه الأودي في العقد الفريد ١/ ٩، والتمثيل والمحاضرة ص٥١، وأمالي القالي ٢/ ٢٢٤، والحماسة البصرية ٢/ ٦٩. والأفوه اسمه: صلاءة بن عمرو.

وقيل: كان يشبحُ المعذَّبَ بين أربع سَوارٍ، كلُّ طَرَفٍ من أطرافه إلى سارية، ويَضربُ في كلٍّ وَتِداً من حديد، ويتركه حتى يموت، وروي معناه عن الحسن ومجاهد.

وقيل: كان يمدُّه بين أربعة أوتادٍ في الأرض، ويُرسل عليه العقاربَ والحيَّات.

وقيل: يشدُّهُ بأربعة أوتادٍ، ثم يرفعُ صَخْرةً فتلقَى عليه فتشدَخُهُ.

وعلى هذه الأقوال الأربعة، فالأوتادُ ثابتةٌ على حقيقتها.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ أصحابُ الغيضة، وهم الذين أُرسل إليهم شعيبٌ عليه السلام، نُسبوا إلى غيضةٍ كانوا يسكنونها. وقيل: الأيكةُ: اسمُ بلدٍ لهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المكذِّبون ﴿ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ أي: الكفار المتحزِّبون على الرسل عليهم السلام، والمهزومون، وهو مبتدأٌ وخبرٌ، ويُفهمُ من ذلك أنَّ الأحزابَ الذين جُعل الجندُ المهزومُ منهم هم هم، وأنهم الذين وُجِدَ منهم التكذيبُ؛ لأنَّ المبتدأَ والخبرَ في مثله متعاكسان رأساً برأس، لا لأنَّ «أولئك» إشارةٌ إلى الأحزاب أولاً، والأحزابُ ثانياً هم المكذِّبون.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ استئنافٌ جيءَ به تقريراً لتكذيبهم على أبلغ وَجْهٍ، وتمهيداً لما يعقبهُ، فـ «إن» نافيةٌ، ولا عملَ لها؛ لانتقاض النفي بـ «إلا»، و«كلٌّ» مبتدأٌ، والاستثناءُ مفرغٌ من أعمِّ العام، وهو الخبر، أي: ما كلُّ حِزْبٍ من الأحزاب محكوماً عليه بحُكمٍ إلا محكوماً عليه بأنه كذَّبَ الرسلَ، أو مُخبَراً عنه بخبرٍ إلا مُخبَراً عنه بأنه كذَّبَ الرسلَ؛ لأنَّ الرسلَ يُصدِّقُ كلٌّ منهم الكُلَّ، وكلُّهم متَّفقونَ على الحقِّ، فتكذيبُ كلّ واحدٍ منهم تكذيبٌ لهم جميعاً.

وجُوِّزَ أن يكونَ من مقابلة الجمع، أي: ما كلُّهم محكوماً عليه بحُكْم، أو مخبراً عنه بشيءٍ إلا محكوماً عليه ـ أو إلا مُخبَراً عنه ـ بأنه كذَّب رسوله.

والحصرُ مبالغةٌ، كأنَّ سائرَ أوصافهم بالنظر إلى ما أُثبتَ لهم بمنزلة العَدَم، فيدلُّ على أنهم غالونَ في التكذيب، ويدلُّ على غُلوِّهم فيه أيضاً إعادتُهُ متعلِّقاً بالرسل، وتنويعُ الجملتين على اسميةٍ استثنائيةٍ وغيرها، أعني قوله تعالى: «كذبت

قبلهم» إلخ، وجَعْل كلِّ فرقةٍ مكذِّبةٍ للجميع على الوجه الأول، ويُسجِّلُ ذلك عليهم استحقاقَهم أشدَّ العقابَ، ولذا رُتِّبَ عليه قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ أي: ثبتَ وَوَقَعَ على كلٍّ منهم عقابي الذي كانت تُوجبه جناياتهم من أصناف العقوبات، فأغرقَ قومَ نوحٍ، وأَهلكَ فرعونَ بالغرق، وقومَ هودٍ بالريح، وثمودَ بالصَّيحةِ، وقومَ لوطٍ بالخَسْفِ، وأصحابَ الأيكة بعذابِ الظُّلَّة.

وجُوِّزَ أن يكونَ «أولئك الأحزاب» بدلاً من الطوائف المذكورة، والجملةُ بعدُ مستأنفةٌ لما سمعتَ، وأن يكونَ مبتدأً، والجملة بعده خبرٌ بحَذْفِ العائد، أي: إن كلٌّ منهم ـ أو كلُّهم ـ إلا كذَّب الرسلَ، والمجموعُ استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبله، مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم، وكلاهما خلافُ الظاهر.

وأما ما قيل من أنه خبرٌ، والمبتدأ قوله تعالى: «وعاد» إلخ أو: قوله تعالى: «وقوم لوط» إلخ = فمما يجبُ تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثاله.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ شروعٌ في بيان عقاب كفار مكةَ، إثرَ بيان عقاب أضرابهم، فإنَّ الكلامَ السابقَ مما يُوجبُ ترقُّبَ السامع بيانه، والنظرُ: بمعنى الانتظار، وعُبِّر به مجازاً بجَعْلِ مُحقَّقِ الوقوع كأنه أمرٌ منتظرٌ لهم، والإشارة بـ «هؤلاء» للتحقير، والمرادُ بالصَّيحة الواحدةِ النفخةُ الثانية، أي: ما ينتظرُ هؤلاء الكَفَرةُ الحقيرونَ الذين هم أمثالُ أولئك الطوائف المهلَكَةِ في الكُفْر والتكذيب شيئاً إلا النفخة الثانية التي تقومُ بها الساعة. قاله قتادة. وليس المرادُ أنها نفسها عقابٌ لهم؛ لعمومها للبرِّ والفاجر من جميع الأمم، بل المراد أنه ليس بينهم وبين ما أُعِدَّ لهم من العذاب إلا هي، لتأخير عقوبتهم إلى الآخرة، لما أنَّ تعذيبَهُمْ بالاستئصال حسبما يستحقُّونه والنبيُّ ﷺ موجودٌ، خارجٌ عن السنة الإلهية المبنية على الحِكَم الباهرة، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ [الأنفال: ٣٣] إذ المراد من «وأنت فيهم» وجوده عليه الصلاة والسلام، لا مجاورته لهم كما تُوهِّم، حتى يقال: لا دلالةَ في الآية على امتناع وقوعه بعد الهجرة؛ لمخالفته للتفسير المشهور.

وقيل: المراد بالصيحة المذكورة النفخةُ الأولى. وتُعقِّبَ بأنه مما لا وَجْهَ له أصلاً؛ لما أنه لا يُشاهِدُ هولَها ولا يُصعَقُ بها إلا مَنْ كان حيّاً عند وقوعها، وليس عقابهم الموعودُ واقعاً عَقيبها، ولا العذابُ المطلَقُ مؤخَّراً إليها، بل يَحِلُّ بهم من حينِ موتهم.

وقيل: المراد صيحةٌ يهلكون بها في الدنيا، كما هلكتْ ثمود، ولا يخفى أنَّ هذا تعذيبٌ بالاستئصال، وهو مما لا يقعُ كما سمعتَ، فلا يكونُ منتظراً.

وقال أبو حيان: الصيحةُ: ما نالهم من قَتْلٍ وأَسْرٍ وغَلَبةٍ، كما تقولُ: صاحَ بهم الدهر[1]. فهي مجازٌ عن الشَّرِّ كما في قولهم: ما ينتظرون إلا مثلَ صيحةِ الحُبْلى، أي: شرّاً يعاجلهم، وفيه بُعْدٌ.

وجُوِّزَ جَعْلُ «هؤلاء» إشارة إلى الأحزاب، ولمَّا سبق ذِكْرهم مكرَّراً مؤكَّداً استحضَرَهم المخاطَبُ في ذهنه، فَنُزِّلَ الوجودُ الذهنيُّ منزلةَ الخارجيِّ المحسوس، وأُشير إليهم بما يُشارُ به للحاضر المشاهَد، واحتمالُ التحقير قائمٌ، ولا ينبو عنه التعبيرُ بـ «أولئك»؛ لأنَّ البُعدَ في الواقع مع أنه قد يُقصَدُ به التحقيرُ أيضاً، والكلام بيانٌ لما يصيرون إليه في الآخرة من العقاب بعد ما نزل بهم في الدنيا من العذاب، وجَعْلُهُمْ منتظرين له؛ لأنَّ ما أصابهم من عذابِ الاستئصال ليس هو نتيجة ما جَنَوه من قبيح الأعمال؛ إذ لا يُعتَدُّ به بالنسبة إلى ما ثَمَّةَ من الأهوال، فهو تحذيرٌ لكفَّار قريش، وتخويفٌ لمن يُساقُ له الحديثُ، فلا وَجْهَ لما قاله أبو السعود من أنَّ هذا ليسَ في حَيِّزِ الاحتمال أصلاً؛ لأنَّ الانتظارَ سواءٌ كان حقيقةً أو استهزاءً، إنما يُتصوَّرُ في حقِّ مَنْ لم يترتَّب على أعماله نتائجها بَعْدُ، وبعد ما بُيِّنَ عقابُ الأحزاب واستئصالهم بالمرَّة، لم يبقَ مما أُريد بيانه من عقوباتهم أمرٌ منتظرٌ، بخلاف كفار قريشٍ حيث ارتكبوا ما ارتكبوا ولمَّا يلاقوا بعدُ شيئاً. قاله الخفاجيُّ[2].

ولا يخفى أنَّ المنساقَ إلى الذهن هو الاحتمال الأول، وهو المأثورُ عن السلف.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٨٩.

(٢) في حاشيته ٧/ ٣٠١-٣٠٢، وينظر إرشاد العقل السليم ٧/ ٢١٨.

والفَواق: الزمنُ الذي بين حَلْبَتَي الحالب ورَضْعَتَي الراضع، ويقال لِلَّبنِ الذي يجتمعُ في الضَّرْع بين الحَلْبتين: فِيْقَة، ويُجمَعُ على: أفواقٍ، وأفاويقُ جَمْعُ الجمعِ، والكلامُ على تقدير مضافين، أي: ما ينتظرون إلا صيحةً واحدةً ما لها من توقُّف مقدار فواقٍ، أو على ذِكْر الملزوم الذي هو الفَوَاق، وإرادةِ اللازم الذي هو التوقُّف مقدارَه، وهو مجازٌ مشهورٌ، والمعنى أنَّ الصيحةَ إذا جاءَ وقتُها لم تستأخرْ هذا القَدْرَ من الزمان.

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة تفسيرُهُ بالرجوع والتّرداد، وهو مجازٌ أُطلق فيه الملزومُ وأُريدَ اللازم، فإنَّ في الزمان بين الحَلْبتين يرجعُ اللَّبنُ إلى الضَّرعِ، والمعنى أنها صيحةٌ واحدةٌ فحسب، لا تُثنى ولا تُردَّدْ، فالجملةُ عليه صفةٌ مؤكِّدةٌ لوَحْدةِ الصَّيحة.

وقرأ السُّلميُّ وابنُ وثَّابٍ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وطلحةُ بضمِّ الفاء[1]، فقيل: هما بمعنًى واحدٍ، وهو ما تقدَّم كقَصاص الشَّعر وقُصاصه.

وقيل: المفتوحُ اسمُ مصدرٍ من أفاقَ المريضُ إفاقةً وفاقةً، إذا رَجَعَ إلى الصحة، وإليه يرجعُ تفسيرُ ابن زيد والسدي وأبي عبيدة والفرَّاء له بالإقامة والاستراحة، والمضمومُ اسمُ ساعةِ رجوعِ اللَّبن للضَّرْع[2].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ حكايةٌ لِمَا قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة، أي: قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية: ربَّنا عَجِّلْ لنا قِسْطنا ونصيبنا من العذاب الذي تُوعِدنا به، ولا تؤخِّرهُ إلى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحةُ المذكورةُ.

وتصديرُ دعائهم بالنِّداء المذكور؛ للإمعان في الاستهزاء، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال.

والقائلُ ـ على ما روي عن عطاء ـ النَّضْرُ بن الحارث بن علقمة بن كلدة، وهو

---

(١) التيسير ص١٨٧، والنشر ٢/ ٣٦١، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٦، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٩.
(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٧٩.

الذي قال الله تعالى فيه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج:١]. وأبو جهل على ما روي عن قتادة. وعلى القولين الباقون راضون، فلذا جيءَ بضمير الجمع.

والقِطُّ: القطعةُ من الشيء، من قَطَّهُ إذا قَطَعَهُ، ويقال لصحيفة الجائزة: قِطٌّ؛ لأنها قطعةٌ من القِرْطاس، ومن ذلك قولُ الأعشى:

ولا المَلِكُ النعمانُ يومَ لَقِيتُهُ ... بِنعمتهِ يُعطي القُطوطَ ويُطلقُ[1]

قيل: وهو في ذلك أكثرُ استعمالاً، وقد فسَّرهُ بها هنا أبو العالية والكلبيُّ، أي: عَجِّلْ لنا صحيفةَ أعمالنا لننظرَ فيها، وهي روايةٌ عن الحسن.

وجاء في روايةٍ أخرى عنه أنهم أرادوا نصيبَهم من الجنة، وروي هذا أيضاً عن قتادة وابن جبير، وذلك أنهم سمعوا رسولَ الله ﷺ يذكرُ وَعْدَ الله تعالى المؤمنينَ الجنةَ، فقالوا على سبيل الهزء: عَجِّلْ لنا نصيبنا منها؛ لنتنعَّمَ به في الدنيا. قال السمرقنديُّ: أقوى التفاسير أنهم سألوا أن يُعجَّلَ لهم النعيمُ الذي كان يَعِدُهُ عليه الصلاة والسلام مَنْ آمنَ؛ لقولهم: ربَّنا، ولو كان على ما يحمله أهلُ التأويل من سؤال العذاب أو الكتاب استهزاءً، لسألوا رسولَ الله ﷺ ولم يسألوا ربَّهم. وفيه بحثٌ يُعلَمُ مما مرَّ آنفاً.

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ على ما يتجدَّدُ من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ أي: اذكرْ لهم قِصَّتَه عليه السلام؛ تعظيماً للمعصية في أعينهم، وتنبيهاً لهم على كمال قُبْحِ ما اجترؤوا عليه، فإنه عليه السلام مع علوِّ شأنه وإيتائه النبوَّةَ والمُلْكَ لمَّا أَلَمَّ بما هو خلافُ الأولى، ناله ما أَلَمَّهُ وأدامَ غَمَّهُ ونَدَمَهُ، فما الظَّنُّ بهؤلاء الكَفَرة الأذلِّين، الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مُصرِّين. أو: اذكر قِصَّته عليه السلام في نفسك، وتحفَّظْ من ارتكاب ما يُوجبُ العتاب.

وقيل: إنه تعالى أمرهُ عليه الصلاة والسلام أن يذكرَ قصص الأنبياء عليهم السلام الذين عَرَضَ لهم ما عَرَضَ، فصبروا حتى فرَّجَ الله تعالى عنهم وأحسن

(١) ديوان الأعشى ص٢٦٩ وفيه: بإمَّته، بدل: بنعمته. وهما بمعنى.

عاقبتهم؛ ترغيباً له في الصبر، وتسهيلاً لأمره عليه، وإيذاناً ببلوغ ما يريده بذلك. وهو كما ترى.

وقيل: أمرهُ بالصَّبر وذِكْرِ قصص الأنبياء ليكونَ ذلك برهاناً على صحة نبوَّته ﷺ، والذكرُ على هذا والأولِ لسانيٌّ، وعلى ما بينهما قلبيٌّ، وهو مرادُ مَنْ فَسَّر «اذكر» على ذلك بـ: تذكَّر.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوَّة، يقال: فلانٌ أَيِّدٌ، وذو أَيْدٍ، وذو آدٍ وأيادٍ بمعنى، وأيادُ كلِّ شيءٍ: ما يتقوَّى به.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: رَجَّاعٌ إلى الله تعالى وطاعته عزَّ وجلَّ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا: الأوابُ: المسبِّحُ[1]. وعن عمرو بن شرحبيل: أنه المسبِّحُ بلغة الحبشة.

وأخرج الديلميُّ عن مجاهدٍ قال: سألتُ ابنَ عمر عن الأوَّاب فقال: سألتُ النبيَّ ﷺ عنه فقال: «هو الرجلُ يذكرُ ذنوبه في الخلاء، فيستغفر الله تعالى»[2].

وهذا إن صحَّ لا يُعدَلُ عنه، والجملةُ تعليلٌ لكونه عليه السلام ذا الأيد، وتدلُّ بأيِّ معنًى كان الأوابُ فيها على أنَّ المرادَ بالأيد القوَّةُ الدينية، وهي القوَّةُ على العبادة كما قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم؛ إذ لا يَحْسُنُ التعليلُ لو حُملتِ القوَّةُ على القوَّة في الجسم، نعم قد كان عليه السلام قويَّ الجسم أيضاً، إلا أنَّ ذلك غيرُ مرادٍ هنا؛ وفي التعبير عنه بعبدنا وَوَصْفِهِ بذي الأيد، والتعليلِ بما ذُكِرَ دلالةٌ على كثرة عبادته وَوُفور طاعته.

وقد أخرج البخاريُّ في «تاريخه» عن أبي الدرداء قال: كان النبيُّ ﷺ إذا ذَكَرَ داودَ وحدَّثَ عنه قال: «كان أَعبدَ البشر»[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٥٥٧ و٢١/ ٤٥٠.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٩٨، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٧٦ عن مجاهد قوله.

(٣) التاريخ الكبير ١/ ٨٩. وهو عند الترمذي (٣٤٩٠)، وقال: حديث حسن غريب.

وأخرج الديلميُّ عن ابن عمر[١] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: إني أعبدُ من داود».

وروي أنه كان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً، وكان يقومُ نصفَ الليل[٢]. وفي ذلك دلالةٌ على قوَّته في العبادة، لما في كلٍّ من الصيام والقيام المذكورَين من تَرْكِ راحةٍ تذكَّرها قريباً.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استئنافٌ لبيان قِصَّته عليه السلام، وجُوِّزَ كونه لتعليل قوَّته في الدين وأوَّابيَّته إلى الله عزَّ وجلَّ، و«مع» متعلِّقةٌ بـ «سخَّر»، وإيثارها على اللام؛ لأنَّ تسخيرَ الجبال له عليه السلام لم يكنْ بطريق تفويض التصرُّف الكلِّيِّ فيها إليه، كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام، بل بطريق الاقتداء به في عبادة الله تعالى.

وأُخِّر الظرفُ المذكور عن «الجبال» وقُدِّم في سورة الأنبياء فقيل: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ [الأنبياء:٧٩] قال بعضُ الفضلاء: لِذِكْر داودَ وسليمان ثمةَ، فَقُدِّم مسارعةً للتعيين، ولا كذلك هنا.

وجُوِّزَ تعلُّقها بقوله تعالى ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ وهو أقربُ بالنسبة إلى آية الأنبياء، وتسبيحهنَّ تقديسٌ بلسان قالٍ لائقٍ بهنَّ نظير تسبيح الحصى المسموع في كفِّ النبيِّ ﷺ[٣].

وقيل: تقديسٌ بلسان الحال، وتقييدهُ بالوقتين المذكورَين بعدُ يأباهُ؛ إذ لا اختصاصَ لتسبيحهنَّ الحاليِّ بهما، وكذا لا اختصاصَ له بكونه معه.

وقيل: المعنى: يَسِرْنَ معه، على أنَّ يُسبِّحْنَ من السِّباحة.

---

(١) في مسند الفردوس ٥/ ١٣٩: ابن عمرو.

(٢) أخرج أحمد (٦٤٩١)، والبخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) (١٨٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصفه ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً».

(٣) سلف ٢/ ٢٥٤.

والجملةُ حالٌ من «الجبال»، والعدولُ عن: مسبِّحاتٍ، مع أنَّ الأصلَ في الحال الإفرادُ؛ للدلالة على تجدُّدِ التسبيح حالاً بعد حالٍ نظير ما في قول الأعشى:

لَعَمْري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوءِ نارٍ في يفاعٍ تُحَرَّقُ[(١)]

وجُوِّزَ أن تكونَ مستأنفةً لبيان كيفية التسخير، ومقابلتها بـ «محشورةٍ» هنا كالمعيِّنة للحالية.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ هو كما قال الراغب: من زوال الشمس إلى الصباح[(٢)]. أي: يُسبِّحْنَ بهذا الوقت، وليس ذلك نصًّا في استيعابه بالتسبيح.

﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨﴾ أي: ووقت الإشراق، قال ثعلب: يقال: شَرَقَتِ الشمسُ: إذا طَلَعتْ، وأشرقَتْ: إذا أضاءتْ وَصَفَتْ، فوقتُ الإشراق وقتُ ارتفاعها عن الأفق الشرقيِّ وصفاءِ شعاعها، وهو الضحوةُ الصُّغرى، وروي عن أمِّ هانىءٍ بنتِ أبي طالب أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى صلاةَ الضُّحى، وقال: «هذه صلاةُ الإشراق»[(٣)].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء الخراسانيِّ أنَّ ابنَ عباس قال: لم يزلْ في نفسي من صلاة الضُّحى شيءٌ حتى قرأتُ هذه الآية: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾[(٤)]، وفي روايةٍ عنه أيضاً: ما عرفتُ صلاةَ الضُّحى إلا بهذه الآية[(٥)].

ووجهُ فَهْمِ الحبر إياها من الآية أنَّ[(٦)] كلَّ تسبيحٍ وردَ في القرآن فهو عنده ـ ما لم يُرَدْ به التعجُّبُ والتنزيه ـ بمعنى الصلاة، فحيثُ كانت صلاةً لداود عليه السلام وقُصَّتْ على طريق المدح عُلِم منه مشروعيتها.

---

(١) ديوان الأعشى ص٢٧٣. وجاء في هامش الأصل عند قوله: كثيرة: وفي بعض النسخ: كبيرة بالباء الموحدة بدل التاء المثلثة. وعند قوله: يفاع: اليفاع: أعلى الجبل.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (عشا).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/٤٠٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/٢٣٨: وفيه حجاج بن نصير ضعفه ابن المديني وجماعة، ووثقه ابن معين وابن حبان.

(٤) مصنف عبد الرزاق (٤٨٧٠)، وينظر الدر المنثور ٥/٢٩٨.

(٥) مستدرك الحاكم ٤/٥٣.

(٦) في (م): أي. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/٣٠٣، والكلام منها.

وفي «الكشف»: وجهه أنَّ الآيةَ دلَّتْ على تخصيصه عليه السلام ذَينك الوقتين بالتسبيح، وقد عُلم من الرواية أنه كان يُصلِّي مسبِّحاً فيهما، فحكي في القرآن ما كان عليه، وإن لم يُذكَرْ كيفيته، فيكون في الآية ذكرُ صلاة الضحى، وهو المطلوبُ، أوْ نقول: إنَّ تسبيحَ الجبال غيرُ تسبيح داود عليه السلام؛ لأنَّ الأولَ مجازٌ، فحُمِلَ تسبيحُ داودَ على المجاز أيضاً؛ لأنَّ المجازَ بالمجاز أنسب. اهـ.

وتُعقِّبَ بأنه إذا عُلم من الرواية، فكيف يقال: إنه أخذهُ من الآية، والتجوُّزُ ينبغي تقليله ما أمكن، وهذا بناء على أنَّ «معه» متعلِّقٌ بـ «يُسبِّحْنَ» حتى يكون هو عليه السلام مسبِّحاً، أي: مُصلِّياً، وإلا فتسبيحُ الجبال لا دلالةَ له على الصلاة، ومع هذا ففيه حينئذٍ جمعٌ بين معنيين مجازيَّيْنِ، إلا أن يقال به، أو يُجعلَ بمعنى: يُعَظِّمْنَ، ويُجعلُ تعظيمُ كلٍّ محمولاً على ما يناسبه، وبعد اللُّتيَّا والتي لا يخلو عن كَدَرٍ، وارتضى الخفاجيُّ الأولَ[1]، وأراهُ لا يخلو عن كَدَرٍ أيضاً.

وقال الجلبيُّ في ذلك: يجوز أن يقال: تخصيصُ هذين الوقتين بالذكر دلَّ على اختصاصهما بمزيد شَرَفٍ، فيصلحُ ذلك الشرفُ سبباً لتعيينهما للصلاة والعبادة، فإنَّ لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثراً في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات.

وهذا عندي أصفى مما تقدَّم، ويُشعر به ما أخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» وابن مردويه عن ابن عباس قال: كنتُ أمرُّ بهذه الآية: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ فما أدري ما هي، حتى حدَّثتني أمُّ هانئٍ أنَّ رسول الله ﷺ صلَّى يومَ فتح مكة صلاةَ الضحى ثمانِ ركعات، فقال ابن عباس: قد ظننتُ أنَّ لهذه الساعة صلاةً؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[2].

هذا، ولهم في صلاة الضحى كلامٌ طويلٌ، والحقُّ سُنِّيتها، وقد ورد فيها ـ كما قال الشيخُ وليُّ الدين ابن العراقي ـ أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ مشهورةٌ حتى

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣٠٣.

(٢) المعجم الأوسط (٤٢٥٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٩: فيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف.

قال محمد بن جرير الطبري: إنها بلغتْ مبلغ التواتر. ومن ذلك حديثُ أمِّ هانئ الذي في الصحيحين[١].

وزَعْمُ أنَّ تلك الصلاةَ كانت صلاةَ شكرٍ لذلك الفتح العظيمِ صادفتْ ذلك الوقتَ لا أنها عبادةٌ مخصوصةٌ فيه دون سببٍ، أو أنها كانت قضاءً عمَّا شغل ﷺ تلك الليلة من حِزْبه فيها = خلافُ ظاهرِ الخبر السابق عنها.

وكذا ما رواه أبو داود من طريق كريب عنها أنها قالت: صلَّى عليه الصلاة والسلام سُبْحة الضحى[٢]، ومسلم في «كتاب الطهارة»[٣] من طريق أبي مرَّةَ عنها أيضاً، ففيه: ثم صلَّى ثماني ركعات سُبْحةَ الضحى. وابن عبد البر في «التمهيد»[٤] من طريق عكرمة بن خالد أنها قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ مكةَ فصلَّى ثمانِ ركعات، فقلت ما هذه الصلاة؟ قال: «هذه صلاة الضحى».

واحتجَّ القائلونَ بالنفي بحديث عائشةَ: إنْ كان رسولُ الله ﷺ لَيَدَعُ العمل وهو يحبُّ أن يعملَ به؛ خشيةَ أن يعمل به الناس، فيُفرَضَ عليهم، وما سبَّح رسول الله ﷺ سبحةَ الضُّحى قطُّ، وإني لأُسبِّحها. رواه البخاري ومسلم وأبو داود ومالك[٥].

وحمله القائلون بالإثبات على نفي رؤيتها ذلك؛ لِمَا أنه روى عنها مسلم وأحمد وابن ماجه[٦] أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُصلِّي الضحى أربعاً، ويزيدُ ما شاء الله تعالى.

وقد شهد أيضاً بأنه عليه الصلاة والسلام كان يُصلِّيها ـ على ما قال

(١) صحيح البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦) ١/ ٤٩٧.
(٢) سنن أبي داود (١٢٩٠).
(٣) برقم (٣٣٦): (٧١).
(٤) ٨/ ١٣٦.
(٥) صحيح البخاري (١١٢٨)، وصحيح مسلم (٧١٨)، وسنن أبي داود (١٢٩٣)، والموطأ ١/ ١٥٢. ووقع في الأصل و(م): وأبو مالك، وهو خطأ.
(٦) صحيح مسلم (٧١٩)، وأحمد (٢٤٩٢٤)، وابن ماجه (١٣٨١).

الحاكم - أبو ذرٍّ الغفاري وأبو سعيدٍ وزيد بن أرقم وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وأبو الدرداء وعبد الله بن أبي أوفى وعتبان بن مالك وعتبة بن عبد السلمي ونعيم بن همام الغطفاني وأبو أمامة الباهلي وأم هانئ وأم سلمة. ومن القواعد المعروفة أنَّ المثبِتَ مقدَّمٌ على النافي، مع أنَّ روايةَ الإثبات أكثرُ بكثيرٍ من رواية النفي، وتأويلها أهونُ من تأويل تلك.

وذكر الشافعيةُ أنها أفضلُ التطوُّع بعد الرواتب، لكنَّ النوويَّ في «شرح المهذب»[1] قدَّم عليها صلاةَ التراويح، فجعلها في الفضل بين الرواتب والضحى، والمذهبُ عنهم وجوبها عليه ﷺ وأنَّ ذلك من خصوصيَّاته عليه الصلاة والسلام، واحتجَّ له بما أخرجه ابنُ العربيِّ بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب عليَّ النحرُ ولم يُكتَبْ عليكم، وأُمرت بصلاة الضحى ولم تُؤمروا بها» رواه الدارقطني أيضاً[2].

وقال شيخ الحفاظ أبو الفضل ابن حجر[3]: إنه لم يثبتْ ذلك في خبرٍ صحيح. وفي الأخبار ما يُعكِّر على القول به.

وذكر أنَّ أقلَّها ركعتان؛ لخبر البخاريِّ عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام أوصاه بهما وأن لا يدعهما[4]، وأدنى كمالها أربعٌ؛ لما صحَّ: كان ﷺ يُصلِّي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء[5]. فستٌّ فثمانٍ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة؛ لخبرٍ ضعيف[6] يُعمل به في مثل ذلك.

وذهب الكثير إلى أنَّ الأكثرَ ثمان، وذكروا أنها أفضل من اثنتي عشرة، والعملُ

(١) ٣/ ٥٢٥ وما بعده.

(٢) ٤/ ٢٨٢، وهو عند أحمد (٢٩١٧) وفي إسناده جابر الجعفي، وهو ضعيف.

(٣) فتح الباري ٣/ ٥٦.

(٤) صحيح البخاري (١١٧٨)، وهو عند أحمد (٧٥١٢)، ومسلم (٧٢١).

(٥) هو حديث السيدة عائشة السالف قبل قليل.

(٦) وهو ما أخرجه الترمذي (٤٧٣) عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصراً من ذهب في الجنة» وهو حديث غريب.

القليل قد يفضُلُ الكثيرَ، فما يقتضيه «أَجْرُكِ على قَدْر نَصَبِكِ»[١] أغلبيٌّ[٢].

وصرَّح ابنُ حجرٍ الهيتمي ـ عليه الرحمة ـ بالمغايرة بين صلاة الضحى وصلاة الإشراق، قال: ومما لا يُسَنُّ جماعةً ركعتان عَقِبَ الإشراق بعد خروج وقت الكراهة، وهي غيرُ الضحى[٣]. وتقدَّم لك ما يفيدُ اتحادهما، ويدلُّ عليه غيرُ ذلك من الأخبار، وصحَّ إطلاقُ صلاة الأوابين على صلاة الضحى، كإطلاقها على الصلاة المعروفة بعد المغرب. هذا، وتمام الكلام فيها في كتب الفقه والحديث.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطفٌ على «الجبال» على ما هو الظاهر.

﴿مَحْشُورَةً﴾ حالٌ من «الطير» والعاملُ «سخَّرنا»، أي: وسخَّرنا الطيرَ حالَ كونها محشورة، عن ابن عباس: كان عليه السلام إذا سبَّح جاوبته الجبالُ بالتسبيح، واجتمعتْ إليه الطيرُ فسبَّحتْ، وذلك حَشْرُها. ولم يُؤْتَ بالحال فعلاً مضارعاً كالحال السابقة؛ ليدلَّ على الحشر الدفعي الذي هو أدلُّ على القدرة؛ وذلك بتوسُّطِ مقابلته للفعل، أو لأنَّ الدفعية هي الأصلُ عند عدم القرينة على خلافها.

وقرأ ابن أبي عبلة والجحدري: «والطيرُ محشورةٌ»[٤] برفعهما مبتدأً وخبراً، ولعلَّ الجملةَ على ذلك حالٌ من ضمير «يُسبِّحنَ».

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، مصرِّحٌ بما فُهم منه إجمالاً من تسبيح الطير، واللام تعليليةٌ، والضميرُ لداود، أي: كلٌّ واحدٍ من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجَّاعٌ إلى التسبيح، وَوَضْعُ الأوابِ موضعَ المسبِّح؛ إما لأنها كانت تُرجعُ التسبيح، والمُرجِعُ رجَّاعٌ؛ لأنه يَرجعُ إلى فعله رجوعاً بعد رجوع، وإما لأنَّ الأوَّابَ هو التوَّابُ الكثيرُ الرجوع إلى الله تعالى، كما هو المشهور، ومَنْ دأبه إكثارُ الذكر وإدامةُ التسبيح والتقديس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٥٩)، والبخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) تحفة المحتاج ٢/ ٢٣١-٢٣٣ بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي.
(٣) تحفة المحتاج ٢/ ٢٣٧-٢٣٨.
(٤) القراءات الشاذة ص١٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٧، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٠.

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المرادُ: كلٌّ من الطير، فالجملةُ للتصريح بما فُهم. وكذا يجوزُ أن يُرادَ: كلٌّ من داود عليه السلام ومن الجبال والطير، والضميرُ لله تعالى، أي: كلٌّ من داود والجبال والطير لله تعالى أوَّابٌ، أي: مُسبِّحٌ مرجعٌ للتسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوَّيناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود ومزيد النعمة، واقتصر بعضهم على الهيبة، والسُّديُّ على الجنود، وروى عنه ابن جرير والحاكم أنه كان يحرسهُ كلّ يومٍ وليلةٍ أربعةُ آلاف(١).

وحكي أنه كان حول محرابه أربعون ألف مستلئم(٢) يحرسونه، وهذا في غاية البعد عادةً، مع عدم احتياج مثله عليه السلام إليه، وكذا القول الأول كما لا يخفى على مُنْصِفٍ.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ادَّعى رجلٌ من بني إسرائيلَ عند داودَ عليه السلام رجلاً ببقرةٍ(٣)، فجحده، فسُئِلَ البيِّنة، فلم تكنْ بيِّنة، فقال لهما عليه السلام: قوما حتى أنظرَ في أمركما. فقاما من عنده، فأُتيَ داودُ في منامه، فقيل له: اقتل الرجلَ المدَّعى عليه، فقال: إنَّ هذه رؤيا ولستُ أعجل. فأُتي الليلةَ الثانية فقيل له: اقتل الرجل، فلم يفعل، ثم أُتيَ الليلةَ الثالثة فقيل له: اقتل الرجل أو تأتيك العقوبة من الله تعالى، فأرسل عليه السلام إلى الرجل فقال: إنَّ الله تعالى أمرني أن أقتلك فقال: تقتلني بغير بيِّنة ولا ثبت؟ قال: نعم، والله لأُنفذنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ فيكَ. فقال له الرجل: لا تعجلْ عليَّ حتى أخبرك: إني والله ما أُخذتُ بهذا الذنب، ولكنني كنتُ اغتلتُ والدَ هذا فقتلته، فبذلك أُخذتُ، فأمر به داود عليه السلام فقتل، فعظُمتْ بذلك هيبته في بني إسرائيل، وشُدَّ به مُلكه.

---

(١) ابن جرير ٢٠/٤٦، والحاكم ٢/٥٨٦.

(٢) أي: من لأمة الحرب، وهي الدرع. القاموس (لأم). والمعنى عليه: يلبسون الدروع.

(٣) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، والذي في المصادر: عن ابن عباس أن رجلاً من بني إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم عند داود، فقال: إن هذا غصبني بقراً لي..، ينظر تفسير الطبري ٢٠/٤٧، وتفسير البغوي ٤/٥٠، وتاريخ مدينة دمشق ١٧/١٠٢.

وقرأ ابن أبي عبلة بشدِّ الدال[١].

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوَّة وكمال العلم وإتقان العمل، وقيل: الزبور وعلم الشرائع. وقيل: كلُّ كلامٍ وافقَ الحكمةَ فهو حكمة.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ أي: فَصْلَ الخصام، بتمييز الحقِّ عن الباطل، فالفصلُ بمعناه المصدريّ، والخطابُ الخصام؛ لاشتماله عليه، أو لأنه أحدُ أنواعه خُصَّ به؛ لأنه المحتاجُ للفصل.

أو: الكلام الذي يفصلُ بين الصحيح والفاسد، والحقّ والباطل، والصواب والخطأ، وهو كلامه عليه السلام في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات، فالخطابُ الكلامُ المخاطَبُ به، والفصلُ مصدرٌ بمعنى اسم الفاعل.

أو: الكلام الذي يُنبِّهُ المخاطَبَ على المقصود من غير التباس، يُراعَى فيه مظانُّ الفصل والوصل والعطف والاستئناف والإضمار والحذف والتكرار ونحوها، فالخطابُ بمعنى الكلام المخاطَب به أيضاً، والفصلُ مصدرٌ إما بمعنى اسم الفاعل، أي: الفاصل المميز للمقصود عن غيره، أو بمعنى اسم المفعول، أي: المقصود، أي: الذي فُصِلَ من بين أفراد الكلام بتلخيصه ومراعاة ما سمعتَ فيه، أو الذي فُصِلَ بعضُهُ عن بعضٍ ولم يُجْعل ملبَّساً مختلطاً.

وجوَّزَ أن يُرادَ بـ «فَصْل الخطاب»: الخطابُ القَصْدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مخلٌّ ولا إشباعٌ مملٌّ، كما جاء في وَصْفِ كلام نبيِّنا ﷺ: «لا نَزْرٌ ولا هَذَر»[٢] فالخطابُ بمعنى الكلام المخاطب به كما سلف، والفصل إما بمعنى الفاصل؛ لأنَّ القصدَ ـ أي: المتوسط ـ فاصلٌ بين الطرفين، وهما هنا المختصَرُ المخلُّ، والمُطْنِبُ المملُّ، أو لأنَّ الفَصْلَ والتمييزَ بين المقصود وغيره أظهرُ تحقُّقاً في الكلام القصد،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣/ ٣١٧ ضمن حديث طويل عن هشام بن حبيش بن خويلد ﷺ. والنَّزْر: القليل. والهَذَر: الهذيان، والمعنى: ليس بقليل فيدلَّ على عِيّ، ولا كثير فاسد. النهاية (نزر) و(هذر).

لما في أحد الطرفين من الإخلال وفي الطرف الآخر من الإملال المفضي إلى إهمال بعض المقصود، وإما بمعنى المفصول؛ لأنَّ الكلامَ المذكورَ مفصولٌ مميَّزٌ عند السامع على المخلِّ والمملِّ بسلامته عن الإخلال والإملال.

والإضافةُ على الوجه الأول من إضافة المصدر إلى مفعوله، وعلى ما عداه من إضافة الصِّفة لموصوفها، وما روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والشعبيِّ، وحكاهُ الطبرسيُّ[1] عن الأكثرين من أنَّ فَصْلَ الخطاب هو قوله: البيِّنةُ على المدَّعي واليمينُ على المدَّعى عليه، فقيل: هو داخلٌ في فَصْلِ الخطاب على الوجه الثاني، فإنَّ فيه الفصلَ بين المدَّعي والمدَّعى عليه، وهو من الفصل بين الحقِّ والباطل، وجاء في بعض الروايات: هو إيجابُ البيِّنة على المدَّعي واليمين على المدَّعى عليه. فلعلَّه أُريد أنَّ فَصْلَ الخطاب على الوجه الأول ـ أعني فصل الخصام ـ كان بذاك، وجَعْلُهُ نفسه على سبيل المبالغة.

وما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدي من أنه القضاء بين الناس بالحقِّ والإصابة والفهم، فهو ليس شيئاً وراءَ ما ذكر أولاً.

وأخرج ابن جرير[2] عن الشعبيِّ، وابن أبي حاتم والديلمي عن أبي موسى الأشعري: أنَّ فَصْلَ الخطاب الذي أُوتيه عليه السلام هو: أمَّا بَعْدُ، وذكر أبو موسى أنه عليه السلام أول من قال ذلك[3]، فقيل: هو داخلٌ في فصل الخطاب، وليس فَصْلُ الخطاب منحصراً فيه؛ لأنه يفصلُ المقصودَ عمَّا سيقَ مقدِّمةً له من الحمد والصلاة أو من ذكر الله عزَّ وجلَّ مطلقاً، وظاهره اعتبار فصل الخطاب بمعنى الكلام الذي يُنبِّهُ المخاطَبَ على المقصود، إلى آخر ما مرَّ. ويُوهم صنيعُ بعضهم دخوله فيه باعتبار المعنى الثاني لفصل الخطاب، ولا يتسنَّى ذلك، وحَمْلُ الخبر على الانحصار مما لا ينبغي؛ إذ ليس في إيتاء هذا اللفظ كثيرُ امتنان.

---

(١) مجمع البيان ٢٣/ ١٠٣.
(٢) في تفسيره ٢٠/ ٥١.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٣٠٠.

ثم الظاهرُ أنَّ المرادَ من: أمَّا بَعْدُ، ما يؤدِّي مؤدَّاهُ من الألفاظ، لا نفسُ هذا اللفظ؛ لأنه لفظٌ عربيٌّ، وداود لم يكن من العرب ولا نبيَّهم، بل ولا بينهم، فالظاهرُ أنه لم يكنْ يتكلَّمُ بالعربية. والذي يترجَّحُ عندي أنَّ المرادَ بفَصْلِ الخطاب فَصْلُ الخصام، وهو يتوقَّفُ على مزيد عِلْمٍ وفَهْمٍ وتفهيم وغير ذلك، فإيتاؤه يتضمَّنُ إيتاء جميع ما يتوقَّف هو عليه، وفيه من الامتنان ما فيه، ويلائمه أتمّ ملاءمة.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَنكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ﴾ استفهامٌ يُراد منه التعجُّب والتشويقُ إلى استماع ما في حَيِّزِهِ لإيذانه بأنه من الأنباء البديعة التي حقُّها أن تشيعَ فيما بين كلِّ حاضرٍ وبادي.

والجملةُ قيل: عطفٌ على «إنَّا سخَّرنا» من قبيل عَطْفِ القصة على القصة، وقيل: على «اذكر».

والخَصْمُ في الأصل مصدرٌ لِخَصَمَهُ بمعنى خاصَمهُ أو غَلَبهُ، ويُراد منه المخاصِمُ، ويُستعمل للمفرد والمذكَّر وفروعهما؛ وجاء للجمع هنا على ما قال جمعٌ لظاهر ضمائره بعد، وربما ثُنِّيَ وجُمِعَ على خُصومٍ وأخصام، وأصلُ المخاصمة ـ على ما قال الراغب ـ أن يتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْمِ الآخر، أي: بجانبه، أو أن يَجذبَ كلُّ واحدٍ خُصْم الجُوالق من جانب[١].

﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ أي: عَلَوا سُوْرَهُ ونزلوا إليه، فـ: تفعَّل للعلوِّ على أصله، نحو تَسَنَّم الجملَ، أي: علا سنامه، وتذرَّى الجبلَ: علا ذروته، والسُّورُ: الجدارُ المحيطُ المرتفع، والمحرابُ: الغُرْفةُ، وهي العِلِّيَّةُ، ومحرابُ المسجد مأخوذٌ منه؛ لانفصاله عمَّا عداه، أو لِشَرفهِ المنزَّلِ منزلةَ عُلوِّه. قاله الخفاجيُّ[٢].

وقال الراغب: محرابُ المسجد قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنه موضعُ محاربة الشيطان والهوى، وقيل: لكون حقِّ الإنسان فيه أن يكونَ حَريباً من أشغال الدنيا ومن تَوزُّع الخاطر، وقيل: الأصل فيه أنَّ محرابَ البيت صَدْرُ المجلس، ثم

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (خصم)، والجوالق: وعاء. القاموس (جلق).

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣٠٤.

لمَّا اتُّخذتِ المساجدُ سُمِّيَ صَدْرُهُ به، وقيل: بل المحرابُ أصله في المسجد، وهو اسمٌ خُصَّ به صَدْرُ المجلس، فسُمِّيَ صَدْرُ البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد. وكأنَّ هذا أصحّ[1]. انتهى.

وصرَّح الجلالُ السيوطيُّ أنَّ المحاريبَ التي في المساجد بهيئتها المعروفة اليوم لم تكن في عهد النبيِّ ﷺ، وله رسالةٌ في تحقيق ذلك[2].

و«إذ» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ مضافٍ إلى الخصم، أي: نبأُ تحاكُمِ الخَصْم إذ تسوَّروا، أو بـ «نبأ»، على أنَّ المرادَ به الواقع في عهد داود عليه السلام، وإسنادُ الإتيان إليه على حَذْفِ مضافٍ، أي: قصةُ نبأِ الخصم، وجُوِّزَ تعلُّقها به بلا حَذْفٍ على جَعْل إسناد الإتيان إليه مجازيّاً، أو بالخصم، وهو في الأصل مصدرٌ، والظرفُ قنوعٌ يكفيه رائحةُ الفعل، وزعم الحوفي تعلُّقها بـ «أتى» ولا يكاد يصحُّ؛ لأنَّ إتيانَ نبأ الخصم لم يكن وقتَ تسوُّرهم المحراب.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ «إذ» هذه بدلٌ من «إذ» الأولى بدلَ كلٍّ من كلّ، بأن يُجْعَلَ زمانُ التسوُّر وزمانُ الدخول ـ لقربهما ـ بمنزلة المتَّحِدَين، أو بدلَ اشتمالٍ بأن يُعتبَر الامتدادُ، أو ظرفٌ لـ «تسوَّروا»، ويعتبر امتداد وقته، وإلا فالتسوُّرُ ليس في وقت الدخول، ويجوزُ أن يُرادَ بالدخول إرادته، وفيه تكلُّفٌ؛ لأنه مع كونه مجازاً لا يتفرَّعُ عليه قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فيحتاجُ إلى تفريعه على التسوُّر، وهو أيضاً كما ترى، وجُوِّزَ تعلُّقه بـ : اذكر مقدَّراً.

والفزع: انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسانَ من الشيء المخيف. روي أنَّ الله تعالى بعثَ إليه ملكين في صورة إنسانين، قيل: هما جبريلُ ومكائيلُ عليهما السلام، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرسُ، فتسوَّرا عليه المحراب، فلم يشعرْ إلا وهما بين يديه جالسان، وكان عليه السلام ـ كما روي عن ابن عباس ـ جَزَّأ زمانه أربعةَ أجزاءٍ: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعظهمْ ويُبكِّيهم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (حرب).

(٢) وهي: إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب، وكلامه المذكور أعلاه في مقدمة رسالته.

وسبب الفزع؛ قيل: إنهم نزلوا من فوق الحائط وفي يوم الاحتجاب، والحرسُ حوله لا يتركونَ من يُريدُ الدخولَ عليه، فخاف عليه السلام أن يؤذوه، لاسيَّما على ما حكي أنه كان ليلاً.

وقيل: إنَّ الفزعَ من أجل أنه ظنَّ أنَّ أهل مملكته قد استهانوه حتى ترك بعضُهم الاستئذانَ، فيكونُ في الحقيقة فزعاً من فساد السِّيرة، لا من الداخلين.

وقال أبو الأحوص: فَزِعَ منهم؛ لأنهما دخلا عليه وكلٌّ منهما آخذٌ برأس صاحبه. وقيل: فَزِعَ منهم لِمَا رأى من تسوُّرهم موضعاً مرتفعاً جدّاً لا يمكن أن يُرتقى إليه بعد أشهرٍ مع أعوانٍ وكثرة عدد.

والظاهرُ أنَّ فزعه ليس إلا لتوقُّع الأذى لمخالفة المعتاد، فلما رأوه قد فزع ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وهو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ من حكاية فَزَعِهِ عليه السلام، كأنه قيل: فماذا قالوا عند مشاهدتهم فزعه؟ فقيل: قالوا له إزالةً لفزعه: «لا تخف».

﴿خَصْمَانِ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: نحن خصمان، والمراد هنا فوجان لا شخصان متخاصمان، وقد تقدَّم أنَّ الخَصْمَ يشملُ الكثيرَ، فيطابقُ ما مرَّ من جَمْعِ الضمائر، ويؤيِّده على ما قيل قوله سبحانه: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فإنَّ نحوَ هذا أكثرُ استعمالاً في قول الجماعة، وقراءة بعضهم: «بغى بعضُهم على بعض»[1] أظهرُ في التأييد، ولا يمنعُ ذلك كونُ التحاكم إنما وقع بين اثنين؛ لجواز أن يَصْحَبَ كلًّا منهما مَنْ يُعاضده، والعُرْفُ يُطلق الخصمَ على المخاصم ومعاضده، وإن لم يخاصِمْ بالفعل.

وجُوِّزَ أن يكون المرادُ اثنين، والضمائرُ المجموعةُ مرادٌ بها التثنية، فيتوافقان، وأُيِّدَ بقوله سبحانه: «إن هذا أخي».

وقيل: يجوزُ أن يُقدَّرَ «خصمان» مبتدأ خبرُهُ محذوفٌ، أي: فينا خصمان. وهو كما ترى. والظاهرُ أنَّ جملة «بغى» إلخ في موضع الصفة لـ «خصمان»، وأنَّ جملةَ: نحن خصمان.. إلخ استئنافٌ في موضع التعليل للنهي، فهي موصولةٌ بـ «لا تخف».

---

(١) البحر ٧/ ٣٩١، والدر المصون ٩/ ٣٦٨.

وجُوِّزَ أن يكونوا قد قالوا: لا تخفْ، وسكتوا حتى سُئلوا: ما أمرُكم؟ فقالوا: خصمان بغى.. إلخ، أي: جارَ بعضُنا على بعضٍ.

واستشكل قولهم هذا على القول بأنهم كانوا ملائكة، بأنه إخبارٌ عن أنفسهم بما لم يقعْ منهم، وهو كَذِبٌ، والملائكة منزَّهون عنه.

وأجيب بأنه إنما يكون كَذِباً لو كانوا قصدوا به الإخبار حقيقة، أما لو كان فرضاً لأمرٍ صوَّروه في أنفسهم لمَّا أتوا على صورة البشر، كما يذكر العالِمُ إذا صوَّرَ مسألةً لأحدٍ، أو كان كنايةً وتعريضاً بما وقع من داود عليه السلام = فلا.

وقرأ أبو يزيد الجراد عن الكسائيِّ: «خِصْمان» بكسر الخاء[1].

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تتجاوزه، وقرأ أبو رجاء وابن أبي عبلة وقتادة والحسن وأبو حيوة: «ولا تَشْطُطْ» من شَطَّ ثلاثيّاً، أي: ولا تَبْعُدْ عن الحقِّ. وقرأ قتادة أيضاً: «تُشِطَّ» مدغماً من أَشَطَّ رباعيّاً، وقرأ زرٌّ: «تُشاطِطْ» بضمِّ التاء وبألفٍ على وزن تُفاعِلْ مفكوكاً[2]، وعنه أيضاً[3]: «تُشَطِّطْ» من شَطَّطَ.

والمراد في الجميع: لا تَجُرْ في الحكومة، وأرادوا بهذا الأمر والنهي إظهار الحرص على ظهور الحقِّ والرضا به، من غير ارتياب بأنه عليه السلام يحكمُ بالحقِّ ولا يجور في الحُكْم، وأحدُ الخصمين قد يقولُ نحو ذلك للإيماء إلى أنه المحقُّ، وقد يقوله اتِّهاماً للحاكم، وفيه حينئذٍ من الفظاظة ما فيه؛ وعلى ما ذكرنا أولاً فيه بعضُ فظاظة، وفي تحمُّلِ داودَ عليه السلام لذلك منهم دلالةٌ على أنه يليقُ بالحاكم تحمُّلُ نحو ذلك من المتخاصِمَين، لاسيما إذا كان ممنْ معه الحقُّ، فحالُ المرء وقتَ التخاصم لا يخفى.

والعَجَبُ من حاكمٍ أو مُحَكَّمٍ أو مَن للخصوم نوعُ رجوعٍ إليه كالمفتي، كيف

---

(١) القراءات الشاذة ص١٢٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢. وجاء في (م): الجرار، وفي القراءات الشاذة: الخزان.

(٢) القراءات الشاذة ص١٢٩-١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩٩، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

(٣) أي: قتادة، كما في القراءات الشاذة ص١٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢، والكلام منه.

لا يقتدي بهذا النبيِّ الأوَّابِ عليه الصلاة والسلام في ذلك، بل يغضَبُ كلَّ الغضب لأدنى كلمةٍ تصدرُ ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهَّم منها الحطّ لِقَدْره، ولو فكَّر في نفسه لَعَلِمَ أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأوابِ لا يَعْدِلُ ـ والله العظيم ـ مَتْكَ ذباب[١]، اللهم وفِّقنا لأحسنِ الأخلاق، واعصمنا من الأغلاط.

﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وسط طريق الحقِّ بزَجْرِ الباغي عمَّا سَلَكَهُ من طريق الجَوْر وإرشاده إلى منهاج العدل.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ إلخ، استئنافٌ لبيان ما فيه الخصومة، والمراد بالأُخوَّة أخوَّةُ الدين، أو: أُخوَّةُ الصداقة والأُلفة، أو: أُخوَّةُ الشِّرْكة والخُلطة؛ لقوله تعالى: «وإن كثيرا من الخلطاء» وكلٌّ واحدٍ من هذه الأُخوَّاتِ يُدلي بحقٍّ مانعٍ من الاعتداء والظلم.

وقيل: هي أُخوَّةٌ في النَّسَبِ، وكان المتحاكمان أَخَوَين من بني إسرائيل لأبٍ وأمٍّ، ولا يخفى أنَّ المشهورَ أنهما كانا من الملائكة، بل قيل: لا خلافَ في ذلك.

و«أخي» بيانٌ عند ابن عطية[٢]، وبدلٌ أو خبرٌ لـ «إنَّ» عند الزمخشريِّ[٣]، ولعلَّ المقصودَ بالإفادة على الثاني قوله تعالى: ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وهي الأنثى من بقر الوَحْشِ ومن الضَّأن والشاء الجبليِّ، وتُستعَارُ للمرأة كالشاة كثيراً نحو قول ابن عون:

أنـــا أبـــوهـــنَّ ثـــلاثٌ هُـــنَّـــهْ

رابـعـةٌ فـي الـبـيـت صُـغْـراهُـنَّـهْ

ونـعـجـتـي خَـمْـسـاً تُـوفِّـيـهـنَّـهْ

ألا فـتًـى سـجـحٌ يُـغـذِّيـهـنَّـهْ[٤]

---

(١) مَتْكُ الذباب: أنفه، أو ذَكَره. القاموس المحيط (متك).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٣٦٨.

(٤) الأبيات في تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٨٨. وقوله: سجح، جاء بدلاً منه في (م): سحج، وفي القرطبي: سمح.

وقول عنترة[1]:

يا شاةَ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ له حَرُمَتْ عليَّ وليتَها لم تَحْرُمِ

وقول الأعشى[2]:

فرميتُ غَفْلَةَ عينِهِ عن شاتهِ فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وطِحَالَها

والظاهرُ إبقاؤها على حقيقتها هنا، ويُراد بها أنثى الضَّأن، وجُوِّزَ إرادةُ الامرأة، وسيأتي إن شاء تعالى ما يتعلَّقُ بذلك.

وقرأ الحسنُ وزيدُ بن عليٍّ: «تَسْعٌ وتَسْعونَ» بفتح التاء فيهما[3]، وكَثُرَ مجيءُ الفَعْل والفِعْل بمعنًى واحدٍ نحو السَّكْر والسِّكْر، ولا يبعد ذلك في التسع، لاسيَّما وقد جاوَرَ العَشْر. والحسن وابن هرمز: «نِعْجَة» بكَسْر النون[4]، وهي لغةٌ لبعض بني تميم.

وقرأ ابن مسعود: «ولي نَعجةٌ أنثى»[5] ووجَّه ذلك الزمخشريُّ[6] بأنه يقال: امرأةٌ أنثى للحسناء الجميلة، والمعنى وَصْفُها بالعَراقة في لِين الأنوثة وفتورها، وذلك أملحُ لها وأزيدُ في تَكَسُّرها وتَثَنِّيها، ألا ترى إلى وَصْفهم لها بالكَسُول والمِكْسال، وقولِه:

فَتُورُ القيام قَطيعُ الكلام لَغُوب العشاء إذا لم تنَمْ[7]

وقولِ قيس بن الخطيم:

---

(١) ديوانه ص٢٨.

(٢) ديوانه ص٧٧.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣.

(٤) المحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٦٩.

(٧) لم نقف عليه هكذا، ولم يذكر الزمخشري سوى صدره، وقد ورد في بيت امرئ القيس:

فَتور القيام قطيع الكلام تفترُّ عن ذي غروبٍ خَصِرْ

ينظر ديوانه ص ١٥٧.

تنامُ عن كِبْرِ شأنِها فإذا قامَتْ رويداً تكادُ تنغرفُ[1]

وفي الكلام عليه توفيةُ حقِّ القِسْمين، أعني: ما يرجعُ إلى الظالم وما يرجعُ إلى المظلوم، كأنه قيل: إنه مع وفور استغنائه وشِدَّةِ حاجتي ظَلَمني حَقِّي، وهذا ظاهرٌ إذا كانت النعجةُ مستعارةً، وإلا فالمناسبُ تأكيدُ الأنوثة بأنها كاملة فيها، فيكونُ أَدَرَّ وأحلب لما يُطْلَبُ منها، على أنَّ فيه رمزاً إلى ما ورّى عنه.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ مَلِّكنيها، وحقيقته: اجعلني أكفلها كما أَكْفَلُ ما تحتَ يدي، وقال ابن كيسان: اجعلها كِفْلي، أي: نصيبي، وعن ابن عباس وابن مسعود: تحوَّل لي عنها. وهو بيانٌ للمراد، وأَلْصَقُ بوجه الاستعارة.

﴿وَعَزَّنِى﴾ أي: غلبني، وفي المَثَل: من عَزَّ بَزَّ[2]، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، وقال الشاعر:

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ تُجاذبُهُ وقد عَلِقَ الجناحُ[3]

﴿فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: مخاطبته إياي محاجَّة بأنْ جاء بحِجاج لم أُطِقْ ردَّهُ.

وقال الضحاك: أي: إن تكلَّم كان أفصحَ مني، وإن حاربَ كان أبطشَ مني.

وقال ابن عطية: كان أَوجَهَ مني وأقوى، فإذا خاطبتُهُ كان كلامه أقوى من كلامي، وقوَّته أعظمُ من قوتي[4].

وقيل: أي: غلبني في مغالبته إياي في الخطبة، على أنَّ الخطابَ من خَطَبْتُ المرأة وخَطَبها هو، فخاطَبَني خطاباً، أي: غالبني في الخطبة، فغلبني حيث زوَّجها دوني، وهو قولُ مَنْ يجعلُ النعجةَ مستعارة.

---

(١) إصلاح المنطق ص٣٨، وأدب الكاتب ص٣٠٧، ولم يذكر الزمخشري سوى عجزه.

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٧، وقالت الخنساء في ديوانها ص٨١:

كأن لم يكونوا حمًى يُتَّقى إذ الناسُ إذ ذاك مَن عزَّ بزّا

(٣) نسب لمجنون ليلى، ولنُصيب بن رباح، ولتوبة بن الحُمَيِّر. ينظر ديوان مجنون ليلى ص٩٠، وشعر نصيب بن رباح ص٧٤، والكامل للمبرد ٢/ ٩٢٩، وشرح ديوان الحماسة ٣/ ١٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠.

وتعقَّبه صاحبُ «الكشف» فقال: حَمْلُ الخطاب على المغالبة في خِطبة النساء لا يلائمُ فصاحةَ التنزيل؛ لأنَّ التمثيلَ قاصرٌ عنه لِنبوِّ قوله: «وليَ نعجةٌ» عن ذلك أشدَّ النَّبْوَةِ، وكذا قوله: «أكفلنيها»، إذ ينبغي على ذلك أن يُخاطَبَ به وليُّ المخطوبة، إلا أن يُجْعل الأول مجازاً عما يَؤُولُ إليه الحال ظنًّا، والشرطُ في حسنه تَحقُّقُ الانتهاء كما في: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرًاۖ﴾ [يوسف:٣٦] والثاني مجازٌ عن تَرْكه الخطبة، ولا يخفى ما فيهما من التعقيد، ثم إنه لتصريحه ينافي الغرضَ من التمثيل، وهو التنبيهُ على عِظَمِ ما كان منه عليه السلام، وأنه أمرٌ يستحي من كَشْفه مع الستر عليه والاحتفاظ بحرمته. انتهى فتأمل.

وقرأ أبو حيوة وطلحة: «وعَزَني» بتخفيف الزاي، قال أبو الفتح: حُذفتْ إحدى الزايين تخفيفاً[(١)]، كما حُذفتْ إحدى السِّينَيْنِ في قول أبي زيد:

أَحَسْنَ به فهنَّ إليه شُوْسُ[(٢)]

وروي كذلك عن عاصم[(٣)]. وقرأ عبد الله وأبو وائل ومسروق والضحاك والحسن وعبيد بن عمير: «وعازَّني» بألفٍ بعد العين، وتشديد الزاي[(٤)]، أي: وغالبني.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، قُصد به المبالغةُ في إنكار فعل ذي النعجات الكثيرة وتهجين طَمَعه، وليس هذا ابتداءً من داود عليه السلام إثْرَ فراغ المدَّعي من كلامه، ولا فُتيا بظاهر كلامه قبل ظهور الحال لديه، فقيل: ذلك على تقدير: لقد ظلمكَ إن كان ما تقولُ حقّاً.

وقيل: ثَمَّ كلامٌ محذوفٌ، أي: فأقرَّ المدَّعى عليه، فقال: «لقد ظلمك» إلخ، ولم يُحْكَ في القرآن اعترافُ المدَّعى عليه؛ لأنه معلومٌ من الشرائع كلِّها أنه لا يحكمُ

(١) المحتسب ٢/ ٤٠٣، والقراءات الشاذة ص١٣٠.
(٢) وصدره: خلا أن العتاق من المطايا، وهو في الخصائص ٢/ ٤٣٨، ورسالة الصاهل والشاحج ص٦٤٥.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٢.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٢.

الحاكمُ إلا بعد إجابة المدَّعى عليه، وجاء في روايةٍ أنه عليه السلام لمَّا سَمِعَ كلامَ الشاكي قال للآخر: ما تقول؟ فأقرَّ، فقال له: لترجعنَّ إلى الحقِّ أو لأكسرنَّ الذي فيه عيناك، وقال للثاني: «لقد ظلمك» إلخ. فتبسَّما عند ذلك وذهبا ولم يَرَهما لحينه. وقيل: ذهبا نحو السماء بمرأى منه.

وقال الحَليمي: إنه عليه السلام رأى في المدَّعي مخايلَ الضَّعف والهضيمة، فَحَمَلَ أَمرَهُ على أنه مظلومٌ كما يقول، فدعاه ذلك إلى أن لا يسألَ المدَّعى عليه، فاستعجلَ بقوله: «لقد ظلمك»[1]. ولا يخفى أنه قولٌ ضعيفٌ ولا يُعوَّلُ عليه؛ لأنَّ مخايلَ الصِّدقِ كثيراً ما تظهرُ على الكاذب، والحيلةُ أكثرُ من أن تُحصى قديماً وحديثاً؛ وفيما وقع من إخوة يوسفَ عليه السلام ولم يكونوا أنبياء على الأصحِّ ما يُزيلُ الاعتمادَ في هذا الباب، وبعضُ الجهلة ذهب إلى نحو هذا، وزعم أنَّ ذَنْبَ داودَ عليه السلام ما كان إلا أنه صَدَّقَ أحدهما على الآخر، وظَلَمَهُ قبل مسألته.

والسؤالُ مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله، وتعديتُهُ إلى مفعولٍ آخر بـ «إلى» لتضمُّنه معنى الإضافة، كأنه قيل: لقد ظلمك بإضافة نعجتكَ إلى نعاجه على وجهِ السؤال والطَّلب، أو: لقد ظلمكَ بسؤال نعجتكَ مضافةً إلى نعاجه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: الشُّركاء الذين خَلَطُوا أموالهم، الواحد: خَلِيطٌ، وهي الخُلْطةُ، وقد غلبتْ في الماشية، وفي حُكْمها عند الفقهاء كلامٌ ذَكَرَ بعضاً منه الزمخشريُّ[2] ﴿لَيَبْغِي﴾ ليتعدَّى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ غيرَ مراعٍ حقَّ الشِّرْكة والصُّحبة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان.

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهم قليلٌ جدّاً، فـ «قليلٌ» خبرٌ مقدَّمٌ، و«هم» مبتدأٌ، و«ما» زائدة، وقد جاءت المبالغةُ في القِلَّة من التنكير وزيادة «ما» الإبهامية، ويتضمَّنُ ذلك التعجُّبَ، فإنَّ الشيءَ إذا بُولغَ فيه كان مظنَّةً للتعجُّب منه، فكأنه قيل: ما أقلَّهم، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٢/ ٥٥٢.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٧١.

وقرئ: «لَيَبغيَ» بفتح الياء[1] على تقدير حَذْف النون الخفيفة، وأصله: لَيَبْغِيَنْ، كما قال طَرَفَةُ بن العبد:

اضْرِبَ عنكَ الهمومَ طارِقَها ضَرْبَكَ بالسَّيفِ قَوْنَسَ الفرسِ[2]

يريد: اضربَنْ، ويكون على تقدير قَسَمٍ محذوفٍ، وذلك القَسَمُ وجوابه خبرٌ لـ «إنَّ»، وعلى قراءة الجمهور: اللامُ هي الواقعةُ في خبر «إنَّ»، وجملة «يبغي» إلخ هو الخبر. وقرئ: «ليَبغِ» بحذف الياء للتخفيف[3]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ [الفجر: ٤] وقوله:

محمدُ تَفْدِ نفسَكَ كلُّ نفسٍ إذا ما خِفْتَ من أمرٍ تَبالا[4]

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ إلخ، من كلام داود عليه السلام تتمَّةً لما ذكره أولاً، وقد نظر فيه ما كان عليه التداعي كما هو ظاهرُ التعبير بالخلطاء، فإنه غالبٌ في الشُّركاء الذين خَلَطوا أموالهم في الماشية، وجُعِلَ على وجه استعارة النَّعجة ابتداءً تمثيلٌ لم يُنظرْ فيه إلى ما كان عليه التداعي، كأنه قيل: وإنَّ البغيَ أمرٌ يوجدُ فيما بين المتلابسين، وخُصَّ الخُلَطاء لكثرته فيما بينهم، فلا عَجَبَ مما شَجَرَ بينكم، ويترتَّبُ عليه قَصْدُ الموعظة الحَسَنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الذين حُكِم لهم بالقِلَّة، وأن يُكرِّه إليهم الظُّلْمَ والاعتداء الذي عليه أكثرهم، مع التأسُّفِ على حالهم، وأنْ يُسلى المظلوم عمَّا جرى عليه من خَليطه، وأنَّ له في أكثر الخُلَطاء أسوة، أو كأنه قيل: إنَّ هذا الأمرَ الذي جرى بينكما أيها الخليطان كثيراً ما يجري بين الخلطاء، فيُنْظَرُ فيه إلى خصوص حالهما، قال في «الكشف»: والمحمل الأظهر هذا، وعلى التقديرين هو تذييلٌ يترتَّبُ عليه ما ذكر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

(٢) البيت في العقد الفريد ٥/ ٣٥٦، ورسالة الصاهل والشاحج ص٤٦١. والقونس: عظم ناتئ بين أذني الفرس. القاموس المحيط (قنس).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

(٤) البيت في المفصل ٩/ ٢٤، والخزانة ٩/ ١١ دون نسبة.

ثم قال: ولعلَّ الأظهرَ حَمْلُ الخلطاء على المتعارفين والمتضادّين وأضرابهم ممن بينهم ملابسةٌ شديدةٌ وامتزاجٌ، على نحو:

إنَّ الخليطَ أجَدُّوا البينَ فانجردوا[١]

والغَلَبةُ في الشركاء الذين خَلَطوا أموالهم في عُرْف الفقهاء، فَذِكْرُ الخُلَطاء لا ينافي ذِكْرَ الحلائل؛ إذ لم تردِ الخُلْطة. اهـ.

وأنت خبيرٌ بأنَّ ذلك وإن لم ينافِ ذِكْرَ الحلائل، لكنَّ أولويةَ عدم إرادة الحلائل وإبقاء النَّعجة على معناها الحقيقيِّ، مما لا ينبغي أن ينتطحَ فيه كبشان.

﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ الظَّنُّ مستعارٌ للعلم الاستدلالي؛ لما بينهما من المشابهة الظاهرة، وفي «البحر»[٢]: لمَّا كان الظَّنُّ الغالبُ يقاربُ العلم استعير له، فالمعنى: وعَلِمَ داود وأيقنَ بما جرى في مجلس الحكومة أنَّ الله تعالى ابتلاه.

وقيل: لمَّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صَعِدا إلى السماء حِيالَ وجهه، فعلم بذلك أنه تعالى ابتلاه.

وجُوِّز إبقاءُ الظَّنِّ على حقيقته، وأنكر ابنُ عطية مجيءَ الظَّنِّ بمعنى[٣] العلم اليقيني، وقال: لسنا نجدهُ في كلام العرب، وإنما هو توقيفٌ بين معتقِدَين غَلَبَ أحدهما على الآخر، وتُوقعه العربُ على العلم الذي ليس بواسطة الحواسّ، فإنه اليقينُ التامُّ، ولكنْ يخلطُ الناسُ في هذا ويقولون: ظَنَّ بمعنى أيقنَ. إلى آخر ما أطال، ويُفهَمُ منه أنَّ إطلاقَ الظَّنِّ على العلم الاستدلالي حقيقةٌ، والمشهورُ أنه مجاز، وظاهرُ ما بَعْدُ أنه هنا بمعنى العلم.

و«أنما» المفتوحةُ ـ على ما حقَّق بعضُ الأجلة ـ لا تدلُّ على الحَصْر كالمكسورة، ومَنْ قال بإفادتها إياه حَمْلاً على المكسورة ـ كالزمخشري[٤] ـ لم يَدَّعِ

---

(١) سلف ١٨/ ٣٩٣.

(٢) ٧/ ٣٩٣.

(٣) في الأصل و(م): بعد، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٠-٥٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٣، وعنه نقل المصنف منه.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٧١.

الاطِّرد، فليس المقصودُ هاهنا قَصْرَ الفتنة، عليه عليه السلام؛ لأنه يقتضي انفصالَ الضمير، ولا قَصْرَ ما فُعِلَ به على الفعل؛ لأنَّ كلَّ فِعلٍ ينحلُّ إلى عامٍّ وخاصٍّ، فمعنى ضربته: فعلتُ ضَرْبه، على أنَّ المعنى: ما فعلنا به إلا الفتنة كما قال أبو السعود[1]؛ لأنه على ما قيل تعسُّفٌ وإلغاز، ومَنْ يدَّعي الاطِّراد يلتزمُ الثاني من القَصْرَين المنفيين، ويمنعُ كونَ ما ذُكر تعسُّفاً وإلغازاً.

وقرأ عمر بن الخطاب وأبو رجاء والحسن بخلافٍ عنه: «فتَّنَّاه» بتشديد التاء والنون مبالغة[2]، والضحاك: «أفتنَّاه»[3] كقوله على ما نقله الجوهريُّ عن أبي عبيدة:

لئن فَتَنَتْني لَهْيَ بالأمسِ أَفْتَنَتْ سعيداً فأمسى قد غوى كلَّ مُسلمِ[4]

وقتادة وأبو عمرو في رواية: «أنما فَتَنَاهُ» بضمير التثنية[5]، وهو راجعٌ إلى الخصمين.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ إثر ما عَلِمَ أنَّ ما صَدَرَ عنه ذنبٌ ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً، على أنَّ الركوعَ مجازٌ عن السجود؛ لأنه لإفضائه إليه جُعل كالسبب، ثم تُجوِّزَ به عنه، أو هو استعارةٌ لمشابهته له في الانحناء والخضوع، والعربُ تقول: نخلةٌ راكعةٌ، ونخلةٌ ساجدةٌ، وقال الشاعر:

فَخَرَّ على وجهه راكعاً وتابَ إلى الله من كلِّ ذنب[6]

وقيل: أي: خَرَّ للسجود راكعاً، أي: مُصلِّياً، على أنَّ الركوعَ بمعنى الصلاة؛ لاشتهار التجوُّز به عنها. وتقدير متعلّقٍ لـ «خَرَّ» يدلُّ عليه غلبةُ فحواه؛

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٧/ ٢٢٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٣.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠١، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٣.
(٤) الصحاح (فتن)، ونسب البيت لأعشى همدان.
(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠١.
(٦) البيت في النكت والعيون ٥/ ٨٩، وتفسير القرطبي ١٨/ ١٧٧ دون نسبة.

لأنه بمعنى سَقَطَ على الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

وقال الحسين بن الفضل: أي: خَرَّ من ركوعه، أي: سَجَدَ بعد أن كان راكعاً. وظاهره إبقاءُ الركوع على حقيقته وجَعْلُ «خَرَّ» بمعنى سَجَدَ، والجمهورُ على ما قدَّمنا.

واستشهد به أبو حنيفة ﷺ وأصحابه على أنَّ الركوعَ يقومُ مقامَ السجود في سجدة التلاوة، وهو قول الخطَّابيِّ من الشافعية، ولا فرقَ في ذلك بين الصلاة وخارجها كما في «البزازيَّة» وغيرها.

وفي «الكشف»: قالوا ـ أي: الحنفية ـ: إنَّ القياسَ يقتضي أن يقومَ الركوعُ مقامَ السجود؛ لأنَّ الشارعَ جعله ركوعاً، وتجوَّزَ بأحدهما عن الآخر؛ لقيامه مقامه وإغنائه غناءه. وأيَّدوه بأنَّ السجودَ لم يُؤمَرْ به لعينه، ولهذا لم يُشْرَعْ قربةً مقصودةً، بل للخضوع، وهو حاصلٌ بالركوع. فإن قلت: إنَّ سجدةَ داودَ عليه السلام كانت سجدةَ شكرٍ، والكلامُ في سجدة التلاوة. قلتُ: لا عليَّ في ذلك؛ لأني لم أستدلَّ بفعل داود عليه السلام، بل بجَعْلِ الشارع إياه مغنياً غناءَ السجود، ولأصحابنا ـ يعني الشافعية ـ أن يمنعوا أنَّ علاقةَ المجاز ما ذكروه بل مطلق الميل عن الخضوع المشترك بينهما، أو لأنه مقدّمته، كما قال الحسن: لا يكون ساجداً حتى يركع أو خرَّ مصلِّياً، والمعتبرُ غايةُ الخضوع، وليست في الركوع. اهـ.

ولا يخفى أنَّ المعروفَ من النبيِّ ﷺ السجودُ، ولم نقفْ في خبرٍ على أنه عليه الصلاة والسلام رَكَعَ للتلاوة بدله ولو مرَّةً، وكذا أصحابه ﷺ، وليس أمرُ القياس المذكور بالقويّ، فالأحوطُ فِعْلُ الوارد لا غير، بل قال بعض الشافعية: إنَّ قولَ الأصحاب: لا يقومُ الركوعُ مقام السجدةِ، ظاهرٌ في جواز الركوع، وهو بعيدٌ، والقياسُ حرمته، وعنى صاحب «الكشف» بما ذكر في السؤال من أنَّ سجدةَ داود عليه السلام كانت سجدة شكرٍ، أنها كانت كذلك من نبيِّنا ﷺ، فقد أخرج النسائيُّ وابن مردويه بسندٍ جيدٍ عن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ سجد في «ص»، وقال:

«سَجَدَها داودُ توبةً، ونسجُدُها شكراً»(١) أي: على قَبول توبة داود عليه السلام من خوف الأولى بعَليِّ شأنه، وقد لقي عليه السلام على ذلك من القلق المزعج ما لم يَلْقَهُ غيره كما ستعلمه إن شاء الله تعالى، وآدمُ عليه السلام وإن لقيَ أمراً عظيماً أيضاً، لكنه كان مَشُوباً بالحزن على فراق الجنة، فجُوزيَ لذلك بأمرِ هذه الأمة بمعرفة قَدْره، وأنه أنعمَ عليه نعمةً تستوجب دوامَ الشكر إلى قيام الساعة.

ولقصَّته على ما في بعض الروايات شَبَهٌ لما وَقَعَ لنبيِّنا ﷺ في قصة زينب المقتضي للعَتَبِ عليه بقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ [الأحزاب:٣٧] الآية، فيكونُ ذِكْرُها مُذكِّراً له عليه الصلاة والسلام ما وقع، وما آل الأمرُ إليه مما هو أرفعُ وأجلُّ، فكأنَّ ذلك اقتضى دوامَ الشكر بإظهار السجود له، ولعلَّ ذلك وجهُ تخصيصِ داودَ بذلك مع وقوع نظيره لغيره من الأنبياء عليهم السلام. فتأمله، ولا تغفلْ عن كون السورة مكِّيَّةً على الصحيح، وقصة زينب رضي الله عنها مدنيَّة، وينحلُّ الإشكالُ بالتزام كون السجود بعد القصة، فليُنقَّر.

وهي عند الحنفية إحدى سَجَدات التلاوة الواجبة كما ذُكر في الكتب الفقهية، ومَنْ فَسَّرَ «خَرَّ راكعاً» بـ: خرَّ للسجود مصلِّياً، ذهب إلى أنَّ ما وقع من داود عليه السلام صلاةٌ مشتملةٌ على السجود، وكانت للاستغفار، وقد جاء في شريعتنا مشروعيةُ صلاة ركعتين عند التوبة، لكن لم نقفْ في خبرٍ على ما يُشعر بحَمْلِ ما هنا على صلاة داود عليه السلام لذلك، وإنما وقفنا على أنه سَجَدَ.

﴿وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ أي: رَجَعَ إلى الله تعالى بالتوبة ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما استَغْفَرنا منه.

أخرج أحمد وعبد بن حميد عن يونس بن خباب(٢) أنَّ داودَ عليه السلام بكى أربعينَ ليلةً حتى نبتَ العشبُ حوله من دموعه، ثم قال: يا ربِّ قَرِحَ الجبين، وَرَقأ الدمع، وخطيئتي عليَّ كما هي. فنُودي: يا داود، أجائعٌ فَتطْعَمَ، أم ظمآنُ

---

(١) السنن الكبرى (١٠٣١).

(٢) في الأصل و(م): يونس بن حبان، والمثبت من الدر المنثور ٥/ ٣٠٣، وهو الصواب. وروي الخبر عن مجاهد أيضاً كما سيرد.

فتسقى، أم مظلومٌ فيُنْتَصَرَ لك ؟ فَنَحِبَ نَحْبةً هاجَ ما هنالك من الخُضْرة، فغفر له عند ذلك.

وفي رواية عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»[(١)] عن مجاهدٍ أنه خَرَّ ساجداً أربعينَ ليلةً حتى نبتَ من دموع عينيه من البقل ما غطَّى رأسه، ثم قال.. إلخ.

وروي أنه لم يشربْ ماءً إلا وثُلُثاه من دمعه، وجَهَدَ نفسَهُ راغباً إلى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلِك، واشتغلَ بذلك عن الملك حتى وَثَبَ ابنٌ له ـ يقال له: إيشا ـ على مُلْكه، ودعا إلى نفسه، فاجتمعَ إليه أهلُ الزَّيغ من بني إسرائيل، فلما غُفر له حاربه فهزمه.

وأخرج أحمد[(٢)] عن ثابت أنه عليه السلام اتخذَ سبعَ حشايا، وحشاهنَّ من الرماد حتى أنفذها دموعاً، ولم يشربْ شراباً إلا مَزَجَهُ بدَمْعِ عينيه.

وأخرج[(٣)] عن وهبٍ أنه اعتزلَ النساء، وبكى حتى رَعِشَ وخدَّدتِ الدموعُ في وجهه.

ولم ينقطعْ خوفُهُ عليه السلام وقلقهُ بعد المغفرة، فقد أخرج أحمد والحكيم الترمذيُّ وابن جرير عن عطاء الخراساني: أنَّ داودَ نَقَشَ خطيئته في كَفِّه لكي لا ينساها، وكان إذا رآها اضطربتْ يداه[(٤)].

وأخرج أحمد وغيره عن ثابت عن صفوان، وعبد بن حميد من طريق عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجدلي: ما رفع داودُ رأسهُ إلى السماء بعد الخطيئة حتى مات[(٥)].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ قربة بعد المغفرة ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ وحُسْنَ مرجعٍ في

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٤ وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/ ٥٥٢، والطبري ٢٠/ ٧٣-٧٤.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٤.
(٣) أي: أحمد، كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٤.
(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ٦٩، والدر المنثور ٥/ ٣٠٤.
(٥) الدر المنثور ٥/ ٣٠٣.

الجنة، وأخرج عبد بن حميد[١] عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية: يدنو من ربِّه سبحانه حتى يضعَ يده عليه. وهو ـ إن صحَّ ـ من المتشابه.

وأخرج أحمد في «الزهد» والحكيم الترمذيُّ وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مالك بن دينار أنه قال فيها: يُقامُ داودُ عليه السلام يومَ القيامة عند ساقِ العرش، ثم يقول الربُّ عزَّ وجلَّ: يا داودُ مجِّدْني اليومَ بذلك الصوت الحَسَنِ الرَّخيم الذي كنتَ تمجِّدني به في الدنيا. فيقول: يا ربِّ كيف وقد سلبته؟ فيقول: إني رادُّهُ عليك اليوم، فيندفعُ بصوتٍ يستغرقُ نعيمَ أهل الجنة[٢].

هذا واختلف في أصلِ قصَّته التي ترتَّب عليها ما ترتَّب، فقيل: إنه عليه السلام رأى امرأةَ رجلٍ يقال له: أُوريا، من مؤمني قومه ـ وفي بعض الآثار أنه وزيره ـ فمالَ قلبُهُ إليها، فسأله أن يُطلِّقها، فاستحى أن يردَّهُ، ففعل، فتزوَّجها وهي أمُّ سليمان، وكان ذلك جائزاً في شريعته معتاداً فيما بين أُمَّته، غير مخلٍّ بالمروءة، حيثُ كان يسألُ بعضُهم بعضاً أن ينزلَ له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبته، وقد كان الرجلُ من الأنصار في صَدْرِ الإسلام بعد الهجرة إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهما لمن اتَّخذه أخاً له من المهاجرين، لكنه عليه السلام لِعِظَم منزلته وارتفاع مرتبته وعلوِّ شأنه نبِّه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحادُ أمَّته، ويسألَ رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة أن ينزلَ عنها، فيتزوجها مع كثرة نسائه، بل كان يجبُ عليه أن يُغالبَ ميلَهُ الطبيعي، ويقهر نفسه، ويصبر على ما امتُحنَ به.

وقيل: إنه أضمرَ في نفسه إن قُتل أُوريا تزوَّج بها، وإليه مالَ ابن حجر في «تحفته»[٣].

وقيل: لم يكن أُوريا تزوَّجها، بل كان خَطَبها، ثم خَطَبها هو، فآثره عليه السلام أهلُها، فكان ذَنْبُهُ أن خَطَبَ على خِطْبة أخيه المؤمن. وفي بعض الآثار أنه فعل ذلك ولم يكن عالماً بخِطْبة أخيه، فعُوتِبَ على تَرْك السؤال، هل خَطَبها أحدٌ أم لا؟

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٠٦.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٠٥.
(٣) تحفة المحتاج ٢/ ٢٠٦.

وقيل: إنه كان في شريعته أنَّ الرجلَ إذا ماتَ وخَلَّفَ امرأةً، فأولياؤه أحقُّ بها، إلا أن يرغبوا عن التزوُّج بها، فلما قُتل أُوريا خَطَبَ امرأته ظاناً أنَّ أولياءه رَغِبوا عنها، فلما سمعوا منعتهم هيبته وجلالته أن يخطبوها.

وقيل: إنه كان في عبادةٍ، فأتاهُ رجلٌ وامرأةٌ متحاكِمَين إليه، فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها، وهو نظرٌ مباحٌ، فمالتْ نفسُهُ ميلاً طبيعياً إليها، فشُغِلَ عن بعض نوافله، فعُوتِبَ لذلك.

وقيل: إنه لم يتثبَّتْ في الحكم، وظلم المدَّعى عليه قبل سؤاله لما ناله من الفزع، وكانت الخصومة بين المتخاصمين، وكانا من الإنس على الحقيقة، إما على ظاهر ما قُصَّ، أو على جَعْلِ النعجة فيه كناية عن المرأة. ونُقل هذا عن أبي مسلم.

والمقبولُ من هذه الأقوال ما بَعُدَ من الإخلال بمنصب النبوّة، وللقُصَّاص كلامٌ مشهورٌ لا يكادُ يصحُّ؛ لما فيه من مزيد الإخلال بمنصبه عليه السلام.

ولذا قال عليٌّ كرّم الله تعالى وجهه ـ على ما في بعض الكتب ـ: من حَدَّثَ بحديثِ داودَ عليه السلام على ما يرويه القُصَّاص جلدتهُ مئةً وستينَ، وذلك حَدُّ الفِريةِ على الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، وهذا اجتهادٌ منه كرّم الله تعالى وجهه، ووجهُ مضاعفة الحدِّ على حَدِّ الأحرار أنهم عليهم السلام سادةُ السادة، وهو وجهٌ مستحسنٌ، إلا أنَّ الزينَ العراقيَّ ذكر أنَّ الخبرَ نفسه لم يصحَّ عن الأمير كرّم الله تعالى وجهه.

وقال أبو حيان: الذي نذهبُ إليه ما دلَّ عليه ظاهرُ الآية من أنَّ المتسوِّرين المحرابَ كانوا من الإنس، دخلوا عليه من غير المدخل، وفي غير وقتِ جلوسه للحكم، وأنه فَزِعَ منهم ظاناً أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربِّه عزَّ وجلَّ، فلما اتَّضحَ له أنهم جاؤوا في حكومةٍ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قصَّ الله تعالى، وأنَّ داودَ عليه السلام ظَنَّ دخولَهم عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاءً من الله تعالى له أن يغتالوه، فلم يقعْ ما كان ظَنَّهُ، فاستغفرَ من ذلك الظَّنِّ حيثُ أخلفَ ولم يكن ليقعَ مظنونه، وخرَّ ساجداً ورَجَعَ إلى الله تعالى، وأنه سبحانه

غَفَرَ له ذلك الظَّنّ، فإنه عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ ولم يتقدَّم سوى قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ونعلم قَطْعاً أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام معصومونَ من الخطايا، لا يمكنُ وقوعُهم في شيءٍ منها، ضرورةَ أنَّا لو جوَّزنا عليهم شيئاً من ذلك بَطَلَتِ الشرائعُ ولم يُوثَقْ بشيءٍ مما يذكرون أنه وحيٌ من الله تعالى، فما حكى الله تعالى في كتابه يمرُّ على ما أراده الله تعالى، وما حكى القُصَّاص مما فيه نقصٌ لمنصبِ الرسالة طرحناه، ونحن كما قال الشاعر:

ونـؤثِـرُ حُكْـمَ العـقـل في كـلِّ شُـبـهةٍ إذا آثـر الأخـبـار جـلّاس قُـصّـاص[1]

انتهى. ويقرب مِن هذا مِن وَجْهٍ ما قيل: إنَّ قوماً قصدوا أن يقتلوهُ عليه السلام، فتسوَّروا المحرابَ فوجدوا عنده أقواماً، فتصنَّعوا بما قصَّ الله تعالى من التحاكم، فَعَلِمَ غَرَضَهمْ فقصد أن ينتقمَ منهم، فظَنَّ أنَّ ذلك ابتلاءٌ من الله تعالى وامتحانٌ له، هل يغضبُ لنفسه أم لا؟ فاستغفرَ ربَّه مما عَزَمَ عليه من الانتقام منهم وتأديبهم لحقِّ نفسه، لعدوله عن العفو الأَلْيق به.

وقيل: الاستغفار كان لمن هَجَمَ عليه، وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ﴾ على معنى: فغفرنا لأجله. وهذا تعسُّفٌ وإن وقع في بعض كتب الكلام.

وعندي أنَّ تَرْكَ الأخبار بالكلية في القصة مما لا يكادُ يقبله المنصف، نعم لا يُقبلُ منها ما فيه إخلالٌ بمنصب النبوَّة، ولا يقبل تأويلاً يندفع معه ذلك، ولا بدَّ من القول بأنه لم يكن منه عليه السلام إلا تركُ ما هو الأَولى بعليِّ شأنه والاستغفار منه، وهو لا يُخِلُّ بالعصمة.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إما حكاية لما خُوطب به عليه السلام مبيِّنة لِزُلْفاه عنده عزَّ وجلَّ، وإما مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على «غفرنا»، أو حالٌ من فاعله، أي: وقلنا له، أو قائلينَ له: يا داودُ إنَّا جعلناك خليفةً في الأرض، أي: استخلفناك على الملك فيها والحُكْم فيما بين أهلها، أو: جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحقِّ، وهو على الأول مثلُ: فلانٌ خليفةُ السلطان، إذا

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٣.

كان منصوباً من قِبَله لتنفيذ ما يريده، وعلى الثاني من قبيل: هذا الولدُ خليفةُ عن أبيه، أي: سادٌّ مَسَدَّهُ قائمٌ بما كان يقومُ به من غير اعتبارٍ لحياةٍ وموتٍ وغيرهما، والأول أظهرُ، والمِنَّةُ به أعظمُ، فهو عليه السلام خليفةُ الله تعالى بالمعنى الذي سمعتَ، قال ابن عطية: ولا يقالُ: خليفة الله تعالى إلا لرسوله، وأما الخلفاءُ فكلُّ واحدٍ منهم خليفةُ مَنْ قبله، وما يجيءُ في الشعر من تسمية أحدهم: خليفة الله، فذلك تجوُّزٌ كما قال قيس الرقيَّات:

خليفةُ الله في بَرِيَّتِهِ ... جَفَّتْ بذاك الأقلامُ والكتب[1]

وقالت الصحابة لأبي بكر: خليفة رسول الله، وبذلك كان يُدْعى إلى أن تُوفِّيَ، فلما وليَ عمرُ قالوا: خليفةُ خليفةِ رسول الله، فعُدِلَ عنه اختصاراً إلى: أمير المؤمنين[2].

وذهب الشيخ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ إلى أنَّ الخليفةَ من الرسل مَنْ فُوِّضَ إليه التشريع. ولعلَّه من جملة اصطلاحاته، ولا مُشاحَّةَ في الاصطلاح.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على احتياج الأرض إلى خليفةٍ من الله عزَّ وجلَّ، وهو قولُ مَنْ أَوْجَبَ على الله تعالى نَصْبَ الإمام؛ لأنه من اللُّطف الواجب عليه سبحانه، والجماعةُ لا يقولون بذلك، والإمامةُ عندهم من الفروع، وإن ذكروها في كتب العقائد، وليس في الآية ما يلزمُ منه ذلك كما لا يخفى، وتحقيقُ المطلب في محلِّه.

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ الذي شَرَعَهُ الله تعالى لك، فالحقُّ خلافُ الباطل، و«أل» فيه للعهد، وجُوِّزَ أن يُرادَ به ما هو من أسمائه تعالى، أي: بحكم الحقِّ، أي: الله عزَّ وجلَّ؛ للعلم بأنَّ الذَّواتِ لا يكونُ محكوماً بها.

وتُعقِّبَ بأنَّ مقابلته بالهوى تأبى ذلك، ولعلَّ مَنْ يقولُ به يجعلُ المقابلَ المضافَ المحذوف، والمقابلة باعتبار أنَّ حُكْمَ الله تعالى لا يكونُ إلا بالحقِّ،

---

(١) البيت في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٥٥، والكامل ٢/ ٨٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٢.

وفُرِّعَ الأمرُ بالحكم بالحقِّ على ما تقدَّم؛ لأنَّ الاستخلافَ بكلا المعنيين مقتضٍ للحُكْم العدل، لا سيَّما على المعنى الأول؛ لظهور اقتضاء كونه عليه السلام خليفة له تعالى أن لا يخالف حُكْمُهُ حُكْمَ مَن استخلفه، بل يكونُ على وَفْق إرادته ورضاه.

وقيل: المترتِّبُ مُطْلقُ الحُكْم؛ لظهور ترتُّبه على كونه خليفة. وذكر الحقّ؛ لأنَّ به سداده، وقيل: ترتُّب ذلك؛ لأنَّ الخلافةَ نعمةٌ عظيمةٌ، شُكْرها العدل.

وفي «البحر»: أنَّ هذا أمرٌ بالديمومة، وتنبيهٌ لغيره ممَّن وَليَ أمورَ الناس أن يحكمَ بينهم بالحقِّ، وإلا فهو من حيث إنه معصومٌ لا يحكُمُ إلا بالحقِّ[1]. وعلى نحو هذا يُخرَّجُ النهيُ عندي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فإنَّ اتباعَ الهوى مما لا يكادُ يقعُ من المعصوم.

وظاهرُ السياق أنَّ المرادَ: ولا تتبعْ هوى النفس في الحكومات، وعمَّمَ بعضُهم فقال: أي: في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا.

وأُيِّدَ بهذا النهي ما قيل: إنَّ ذنبهُ عليه السلام المبادرةُ إلى تصديق المدَّعي، وتظليمُ الآخر قبل مساءلته، لا الميلُ إلى امرأة أُوريا، فكأنه قيل: ولا تَتَّبعِ الهوى في الحكم كما اتَّبعته أولاً. وفيه أنَّ اتِّباعَ الهوى وحُكْمَهُ بغير ما شَرَعَ الله تعالى له غيرُ مناسبٍ لمقامه، لاسيَّما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه آتاهُ الحُكْمَ وفَصْلَ الخطاب، فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصبُ الخلافة، وتنبيهاً لمن هو دونه عليه السلام.

وأصل الهوى: مَيْلُ النفس إلى الشهوة، ويقال للنفس المائلة إليها، ويكون بمعنى المهوي كما في قوله:

هوايَ مع الرَّكْبِ اليمانِينَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ وجثماني بمكَّةَ مُوثَقُ[2]

ويه فسَّرهُ هنا بعضُهم، فقال: أي: لا تتَّبع ما تهوى الأنفس.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٩٥.

(٢) البيت لجعفر بن علبة الحارثي وهو في الحماسة البصرية ٢/ ١٢٥، ومعاهد التنصيص ١/ ١٢٠، والخزانة ١٠/ ٣٠٧.

﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنَّصْبِ على أنه جوابُ النهي، وقيل: هو مجزومٌ بالعطف على النهي مفتوحٌ لالتقاء الساكنين، أي: فيكون الهوى أو اتِّباعُهُ سبباً لضلالك عن دلائله التي نَصَبها على الحقِّ، وهي أعمُّ من الدلائل العقلية والنقلية، وصدُّ ذلك عن الدلائل إما لعدم فَهْمها أو العمل بموجبها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ تعليلٌ لما قبله ببيان غائلته، وإظهارُ «سبيل الله» في موضع الإضمار لزيادة التقرير، والإيذانِ بكمال شناعة الضَّلال عنه، وخبرُ «إنَّ» إما جملةُ «لهم عذاب» على أنَّ «لهم» خبرٌ مقدَّمٌ و«عذابٌ» مبتدأ، وإما الظرفُ و«عذابٌ» مرتفعٌ على الفاعلية بما فيه من الاستقرار.

وقرأ ابن عباس والحسن بخلافٍ عنهما وأبو حيوة: «يُضِلّون» بضمِّ الياء[1]، قال أبو حيان: وهذه القراءةُ أعمُّ؛ لأنه لا يُضِلُّ إلا ضالٌّ في نفسه، وقراءة الجمهور أوضحُ؛ لأنَّ المرادَ بالموصول مَنْ أَضَلَّهمُ اتباعُ الهوى، وهم بعد أنْ أَضَلَّهم صاروا ضالِّين[2].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ متعلِّقٌ بالاستقرار، والباءُ سببيةٌ، و«ما» مصدريةٌ، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ مفعول «نسوا» على ما هو الظاهر، أي: ثابتٌ لهم ذلك العذابُ بسبب نسيانهم وعدم ذِكْرهم يومَ الحساب؛ وعليه يكونُ تعليلاً صريحاً لثبوتِ العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الإشعار بعِلِّيَّة ما يستتبعه ويستلزمه، أعني الضلال عن سبيل الله تعالى، فإنه مستلزمٌ لنسيان يوم الحساب بالمرَّةِ، بل هذا فَرْدٌ من أفراده.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنَّ الكلامَ من التقديم والتأخير، أي: لهم يومَ الحساب عذابٌ شديدٌ بما نسوا[3]. فيكونُ «يوم الحساب» ظَرْفاً لقوله تعالى: (لَهُمْ) وجعل النسيان عليه مجازاً عن ضلالهم عن سبيل الله بعلاقة السببية، ومن

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٩٥.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٧٨.

ضرورته جَعْلُ مفعول النسيان «سبيل الله»، وعليه يكون التعليلُ المصرَّحُ به عينَ التعليل المشعِرِ به بالذات، غيرَه بالعنوان. فتدبر.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ أي: خَلْقاً باطلاً، فهو منصوبٌ على النيابة عن المفعول المطلق نحو: كُلْ هنيئاً، أي: أكْلاً هنيئاً. والباطلُ: ما لا حِكْمة فيه، وجُوِّزَ كونه حالاً من فاعل «خلقنا» بتقدير مضافٍ، أي: ذوي باطل، والباطلُ: اللعبُ والعَبَثُ، أي: ما خلقنا ذلك مبطلين لاعبين كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦].

وجُوِّزَ كونه حالاً من المفعول أيضاً بنحو هذا التأويل.

وأيّاما كان، فالكلامُ مستأنَفٌ مقرِّرٌ لما قبله من أمرِ المعاد والحساب، فإنَّ خَلْقَ السماء والأرض وما بينهما من المخلوقات مشتملاً على الحِكَم الباهرة والأسرار البالغة والفوائد الجمَّة، أقوى دليلٍ على عِظَمِ القُدْرة، وأنه لا يتعاصاها أمرُ المعاد والحساب، فإنَّ خَلْقَ ذلك كذلك مُؤذِنٌ بأنه عزَّ وجلَّ لا يتركُ الناسَ إذا ماتوا سُدًى، بل يُعيدهم ويحاسبهم، ولعلَّه الأولى.

وجُوِّزَ كونُ الجملة في موضع الحال في فاعل: «نسوا» جيءَ بها لتفظيع أمر النسيان، كأنه قيل: بما نسوا يومَ الحساب، مع وجود ما يُؤذِنُ به. وهو كما ترى.

وجُوِّزَ كون «باطلاً» مفعولاً له، ويُفَسَّرُ بخلاف الحقِّ، ويُرادُ به متابعةُ الهوى، كأنه قيل: ما خلقنا هذا العالم للباطل الذي هو متابعةُ الهوى، بل للحقِّ الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرُّع بالشرع، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ولا يخفى بُعْدُهُ، وعليه تكون الجملةُ مستأنفةً لتقرير أمرِ النهي عن اتباع الهوى، وقيل: تكونُ عَطْفاً على ما قبلها بحَسَبِ المعنى، كأنه قيل: لا تتَّبعِ الهوى لأنه يكونُ سبباً لضلالك، ولأنه تعالى لم يخلقِ العالمَ لأجل متابعة الهوى، بل خَلَقَهُ للتوحيد والتمسُّك بالشرعِ، فلا تغفل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما نفي من خَلْقِ ما ذُكر باطلاً ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: مظنونهم؛ ليصحَّ الحَمْلُ، أو يُقدَّرَ مضافٌ، أي: ظَنُّ ذلك ظَنُّ الذين كفروا، فإنَّ

إنكارهم المعادَ والجزاءَ قولٌ بأنَّ خَلْقَ ما ذُكِرَ خالٍ عن الحكمة، وإنما هو عَبَثٌ، ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] أو فإنَّ إنكارهم ذلك قولٌ بنفي عِظَم القدرة، وهو قولٌ بنفي دليله، وهو خَلْقُ ما ذُكِرَ مشتملاً على الحِكَمِ الباهرة والأسرار، وهذا بناءٌ على الوجه الأول في بيان التقرير، وهو كما ترى.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، والفاءُ لإفادة ترتُّبِ ثبوتِ الويل لهم على ظنِّهم الباطل، كما أنَّ وَضْعَ الموصول موضعَ ضميرهم؛ لإشعار ما في حَيِّزِ الصِّلة بعِلِّيَّةِ كُفْرهم له، ولا تَنافي بينهما؛ لأنَّ ظَنَّهم من باب كُفْرهم، فيتأكَّدُ أَمْرُ التعليل.

و«من» في قوله تعالى ﴿مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ ابتدائيةٌ أو بيانيةٌ أو تعليليةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ونظائره، وتفيدُ على هذا عِلِّيَّةَ النار لثبوت الويل لهم صريحاً بعد الإشعار بعِلِّيَّةِ ما يؤدِّي إليها من ظنِّهم وكُفْرهم، أي: فويلٌ لهم بسبب النار المترتِّبةِ على ظَنِّهم وكُفْرهم، قيل: والكلامُ عليه على تقدير مضافٍ، أي: من دخول النار.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ «أم» منقطعةٌ وتُقَدَّرُ بـ «بل» والهمزة، والهمزةُ لإنكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكَدِه، و«بل» للإضراب الانتقالي من تقرير أمرِ البعث والحساب بما مرَّ من نفي خَلْقِ العالم باطلاً، إلى تقريره وتحقيقه بإنكار التسوية بين الفريقين، أي: بل أَنجعلُ المؤمنينَ المصلحينَ كالكَفَرة المفسدين في الأرض التي جُعِلَتْ مقرّاً لهم كما يقتضيه عدمُ البعث وما يترتَّبُ عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتُّع في الحياة الدنيا، بل أكثرُ الكَفَرة أوفرُ حَظّاً منها من أكثر المؤمنين، لكنَّ ذلك الجَعْلَ مُحالٌ مخالفٌ للحكمة، فتعيَّنَ البعثُ والجزاءُ حَتْماً لرفع الأوَّلينَ إلى أعلى عِلِّيين، وردِّ الآخرين إلى أسفل سافلين.

كذا قالوا، وظاهره أنَّ مُحالية جَعْلِ الفريقين سواءً حِكْمةٌ تقتضي تعيُّنَ المعاد الجسماني، وفيه خفاءٌ، والظاهر أنَّ المعادَ الروحانيَّ يكفي لمقتضى الحِكْمة من إثابة الأولين وتعذيب الآخَرين، فالدليلُ العقليُّ الذي تُشير إليه الآيةُ ظاهرٌ في إثبات

معادٍ، لكن بعد إبطال التناسخ، وهو كافٍ في الرَّدِّ على كَفَرة العرب، فإنهم لا يقولون بمعادٍ بالكلية، ولم يخطرْ ببالهم التناسخُ أصلاً، ولإثبات المعاد الجسمانيِّ طريقٌ آخرُ مشهورٌ بين المتكلِّمين، وجَعْلُ هذا الدليل العقليّ طريقاً لإثباته يحتاجُ إلى تأمُّلٍ، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن إثبات ما ذُكِرَ بلزوم المُحال الذي هو التسويةُ بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهرُ منه استحالةً، وهي التسويةُ بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكَفَرة، وحَمْلُ الفجَّار على فَجَرة المؤمنين مما لا يُساعده المقام، ويجوز أن يُرادَ بهذين الفريقين عينُ الأوَّلينِ، ويكونُ التكرير باعتبار وَصْفَين آخرين هما أَدْخَلُ في إنكار التسوية من الوصفين الأولين، وأيَّاما كان، فليس المرادُ من الجمعين في الموضعين أناساً بأعيانهم، ولذا قال ابن عباس: الآيةُ عامةٌ في جميع المسلمين والكافرين.

وقيل: هي في قومٍ مخصوصين من مشركي قريشٍ قالوا للمؤمنين: إنَّا نُعطَى في الآخرة من الخير ما لا تُعطون، فنزلت.

وأنت تعلم أنَّ العبرةَ لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أخرجها ابنُ عساكر(١) أنه قال: «الذين آمنوا»: عليٌّ وحمزةُ وعبيدةُ بن الحارث رضي الله عنهم، و«المفسدين في الأرض»: عتبةُ والوليدُ بن عتبة وشيبة، وهم الذين تبارزوا يوم بدر. ولعلَّه أراد أنهم سببُ النزول.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، هو عبارةٌ عن القرآن أو السورة، ويجوز على الثاني تقديره مذكَّراً، أي: هو، أو: هذا، وهو الأولى عند جمعٍ؛ رعايةٌ للخبر، وتقديرُهُ مؤنَّثاً رعايةً للمرجع، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ صفتهُ.

وقوله سبحانه: ﴿مُبَٰرَكٌ﴾ أي: كثيرُ المنافع الدينية والدنيوية، خبرٌ ثانٍ للمبتدأ، أو صفةُ «كتاب» عند من يُجوِّزُ تأخيرَ الوَصْفِ الصَّريح عن غير الصريح.

---

(١) في تاريخ دمشق ٧/ ١٧٥.

وقرئ: «مباركاً» بالنصب[1] على أنه حالٌ من مفعول «أنزلنا» وهي حالٌ لازمةٌ؛ لأنَّ البركة لا تفارقه. جَعَلَنا الله تعالى في بركاته ونَفَعنا بشريف آياته.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بـ : «أنزلناه»، وجُوِّزَ أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ يدلُّ عليه. وأصله: ليتدبَّروا، بتاء بعد الياء آخرِ الحروف. وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه بهذا الأصل[2]. أي: أنزلناه ليتفكَّروا في آياته التي من جملتها هذه الآياتُ المعرِبةُ عن أسرار التكوين والتشريع، فيعرفوا ما يَدْبر[3]، ويَتْبَعُ ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة، وضميرُ الرفع لأُولي الألباب على التنازع وإعمال الثاني، أو للمؤمنين فقط، أو لهم وللمفسدين.

وقرأ أبو جعفر: «لِتَدَبَّروا» بتاء الخطاب وتخفيف الدال[4]، وجاء كذلك عن عاصمٍ والكسائيِّ بخلافٍ عنهما، والأصل لِتَتَدبَّروا بتاءين، فحذفتْ إحداهما على الخلاف الذي فيها، أهي تاءُ المضارعة أم التاءُ التي تليها، والخطابُ للنبيِّ ﷺ وعلماءِ أمته على التغليب، أي: لِتدَّبَّرَ أنت وعلماء أمتك.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: وليتَّعظْ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب، أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لِفَرْطِ تمكُّنهم من معرفته، لِمَا نُصب عليه من الدلائل، فإنَّ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لبيان ما لا يُعرفُ إلا من جهة الشرع؛ كوجوب الصلوات الخمس والإرشاد على ما يستقلُّ العقلُ بإدراكه، كوجود الصانع القديم جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ﴾ وقرئ: «نَعِمَ» على الأصل[5]، والمخصوص بالمدح محذوفٌ، أي: نِعْمَ العبدُ هو، أي: سليمان، كما يُنبئُ عنه تأخيرُهُ عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لـ «وهبنا»، ولأنَّ قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ - أي:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٢، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٣) بوزن يضرب بمعنى: يَتْبع، من دَبَره: إذا تبعه. حاشية الشهاب ٧/ ٣٠٨.

(٤) النشر ٢/ ٣٦١.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٧٣، والبحر ٧/ ٣٩٦.

رَجَّاعٌ إلى الله تعالى بالتوبة كما يُشعر به السياق، أو إلى التسبيح مُرجِّعٌ له، أو إلى مرضاته عزَّ وجلَّ ـ تعليلٌ للمدح، وهو من حاله، لِمَا أنَّ الضميرَ المجرورَ في قوله سبحانه ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ يعودُ إليه عليه السلام قَطْعاً.

و«إذ» منصوبٌ بـ «اذكر»، والمراد من ذِكْرِ الزمان ذِكْرُ ما وقع فيه، أو ظرفٌ لـ «أوَّابٍ» أو لـ «نِعْم» والظرفُ قنوعٌ، لكن يَرِدُ على الوجهين أنَّ التقييدَ يُخِلُّ بكمال المدح، فالأولُ أولى، وهو كالاستشهاد على أنه أوابٌ، أي: اذكرْ ما صَدَرَ عنه إذ عُرِض عليه ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ إلخ، فإنه يشهدُ بذلك، والعَشيُّ ـ على ما قال الراغب ـ من زوال الشمس إلى الصباح[1]، وقال بعضٌ: منه إلى آخر النهار. والظَّرفان متعلِّقان بـ «عُرِض»، وقوله تعالى: ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ نائبُ الفاعل، وتأخيره عنهما لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من التشويق إلى المؤخَّر.

والصافنُ من الخيل: الذي يرفعُ إحدى يديه أو رجليه، ويقفُ على مقدَّم حافرها، وأنشد الزجاج:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزالُ كأنَّهُ ... مما يقومُ على الثلاثِ كسيرا[2]

وقال أبو عبيدة: هو الذي يجمعُ يديه ويُسوِّيهما، وأما الذي يقفُ على طَرَفِ الحافر فهو المتخيِّم[3]. وعن «التهذيب» ومتن اللغة: هو المُخِيِّم[4]، وقال القتبي: الصافنُ: الواقفُ في الخيل وغيرها[5]، وفي الحديث: «مَنْ سَرَّهُ أن يقومَ الناسُ له صفوناً فليتبوَّأ مقعدهُ من النار»[6] أي: يُديمون له القيام. حكاه قُطْربٌ، وأنشد للنابغة:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (عشا).

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٣٠. وجاء في (م): كثيراً. بدل: كسيرا.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٨٢.

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٦٠٦.

(٥) غريب القرآن للقتبي ص٣٧٩.

(٦) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٤٢: لم أجده هكذا. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٣٥: هذا حديث موضوع. وأخرج الترمذي (٢٧٥٥) من حديث معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَرَّه أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوَّأ مقعده من النار».

لنا قُبَّةٌ مضروبةٌ بفنائها عِتاقُ المَهارى والجياد الصَّوافن[1]

وقال الفراء: رأيتُ العربَ على هذا، وأشعارُهم تدلُّ على أنه القيامُ خاصَّة[2].

والمشهورُ في الصُّفون ما تقدم، وهو من الصفات المحمودة في الخيل، لا تكادُ تتحقَّقُ إلا في العِرَاب[3] الخُلَّص.

﴿الْجِيَادُ ٣١﴾ جمعُ: جوادٍ، للذكر والأنثى، يقال: جاد الفرسُ: صارَ رائضاً، يجودُ جُودةً بالضَّمِّ، وهو جوادٌ، ويُجمعُ أيضاً على أجوادٍ وأجاويد، وقال بعضهم: هو جَمْعُ: جَوْدٍ، كَثَوبٍ وأثواب، وفُسِّرَ بالذي يُسرعُ في مَشْيه، وقيل: هو الذي يجودُ بالركض، وقيل: وُصِفَتْ بالصُّفون والجودة؛ لبيان جَمْعها بين الوصفين المحمودين واقفةً وجاريةً، أي: إذا وقفتْ كانت ساكنةً مطمئنةً في مواقفها، وإذا جَرَتْ كانت سراعاً خفافاً في جريها، والخيلُ تُمدَحُ بالسُّكون في الموقف، كما تُمدَحُ بالسُّرعة في الجري، ومن ذلك قولُ مسلم بن الوليد:

وإذا احتبى قَرَبُوسَهُ بعِنانه عَلَكَ الشَّكيمَ إلى انصراف الزائر[4]

وقيل: جمع[5] جيِّدٍ - كَكَيِّسٍ - ضِدُّ الرَّديء، ويجمع على جياداتٍ وجَيائد، وضُعِّفَ بأنه لا فائدةَ في ذكره مع «الصافنات» حينئذٍ، وبأنه يفوتُ عليه مَدْحُ الخيل باعتبار حالَيها، وكون الجياد أعمّ، فذِكْرُهُ تعميمٌ بعد تخصيصٍ فيه نظرٌ.

وفي «البحر»: قيل: الجياد: الطوال الأعناق، من الجِيْد، وهو العنق[6]. وأنا في شكٍّ من ثبوته، قال في «القاموس»: الجِيدُ، بالكَسْر: العُنُقُ، أو مُقَلَّدُهُ، أو مُقَدَّمُهُ،

---

(١) البيت في النكت والعيون ٥/ ٩١، والبحر ٧/ ٣٨٨.
(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤٠٥.
(٣) في (م): العرب، وهو تصحيف.
(٤) البيت في دلائل الإعجاز ص٧٥، ومعاهد التنصيص ٢/ ١٣٢ منسوباً ليزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان. والقربوس: حِنوُ السَّرْج، والعنان: سير اللجام الذي تمسك به الدابة، والشكيمة: الحديدة المعترضة في فم الفرس فيها الفأس.
(٥) قوله: جمع. ليس في (م).
(٦) البحر المحيط ٧/ ٣٨٨.

جمعه: أجيادٌ وجُيودٌ، وبالتَّحريك: طُولُها، أو دِقَّتُها مع طُول، وهو أَجْيَدُ، وهي جَيْداءُ وجيدانةٌ، جمعه جُودٌ[١]. وراجعتُ غيرَهُ فلم أجدْ فيه زيادةً على ذلك، فليُنقَّر.

ويمكن أن يقال: إنَّ الجيادَ جمعٌ شاذٌّ لـ: أَجْيَد أو جَيداء أو جَيدانة، أو هو جمعٌ لـ: جَيَد بالتحريك كجَمَل[٢] وجمال، ويُراد بجيدٍ أَجْيَد أو نحوه نظير ما يُراد بالخَلْقِ المخلوق. والله تعالى أعلم.

وأيًّاما كان فالوصفان يُوصَفُ بهما المذكَّرُ والمؤنَّثُ من الخيل، والجمعُ بألفٍ وتاءٍ لا يخصُّ المؤنَّثَ، فلا حاجةَ بعد القول بأنَّ ما عُرِضَ كان مشتملاً على ذكور الخيل وإناثها إلى القول بأنَّ في الصافنات تغليبَ المؤنَّث على المذكَّر، وأنه يجوزُ بِقِلَّةٍ.

وأُريد بالجمع هنا الكثرةُ، فعن الكلبيِّ أنَّ هذه الخيل كانت ألف فرسٍ غزا سليمان عليه السلام دمشقَ ونصيبين فأصابها.

واستشكلتْ هذه الروايةُ بأنَّ الغنائمَ لم تَحِلَّ لغير نبيِّنا ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح[٣].

وأجيب بأنه يحتملُ أن تكونَ فَيْئاً لا غنيمة.

وعن مقاتلٍ أنها ألفُ فرسٍ وَرِثَها من أبيه داود، وكان عليه السلام قد أصابها من العمالقة، وهم بنو عِمْليق بن عَوْص بن عاد بن إرَم.

واستشكلت هذه زيادةً على الأولى بأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يُورِّثون كما جاء في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه[٤]، محتجًّا به في مسألة فَدَكٍ والعوالي بمحضرِ الصحابة، وهم الذين لا تأخذهم في الله لومةُ لائم.

---

(١) القاموس المحيط (جيد).

(٢) في (م): كجعل.

(٣) أخرجه أحمد (١٤٢٦٤)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٩)، والبخاري (٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩).

وأجيب بأنَّ المرادَ بالإرث حيازةُ التصرُّفِ لا الملك، وعَقْرُها تقرُّباً ـ على ما في الأوجه في الآية بَعْدُ، وجاءَ في بعض الروايات ـ لا يقتضي الملك.

وقال عوف: بلغني أنها كانتْ خيلاً ذات أجنحةٍ، أُخرجتْ له من البحر، لم تكنْ لأحدٍ قبله ولا بعده. وروي كونُها كذلك عن الحسن. وأخرج ابنُ جريرٍ وغيره عن إبراهيم التيمي أنها كانت عشرينَ ألفَ فرسٍ ذات أجنحة[1].

وليس في هذا شيءٌ سوى الاستبعاد، وإذا لم يُلتفتْ إلى الأخبار في ذلك ـ إذ ليس فيها خبرٌ صحيحٌ مرفوعٌ أو ما في حكمه يُعوَّلُ عليه فيما أعلم ـ فَلَنا أن نقولَ: هي خيلٌ كانت له، كالخيل التي تكونُ عند الملوك، وَصَلَتْ إليه بسببٍ من أسباب الملك، فاستعرضَها فلم تزلْ تُعرَض عليه حتى غربت الشمس، قيل: وغَفَلَ عن صلاة العصر، وحكى هذا الطبرسيُّ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وقتادة والسُّدِّي، ثم قال: وفي رواياتِ أصحابنا أنه فاته أولُ الوقت. وقال الجبائيُّ: لم يَفُتْهُ الفرضُ، وإنما فاته نفلٌ كان يفعله آخرَ النهار[2].

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ قاله عليه السلام اعترافاً بما صَدَرَ عنه من الاشتغال، ونَدَماً عليه، وتمهيداً لما يَعقُبهُ من الأمر بردِّها وعَقْرها على ما هو المشهور، والخيرُ كَثُرَ استعماله في المال، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[3] [البقرة: ٢٧٣]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وقال بعض العلماء: لا يقال للمال خيرٌ حتى يكونَ كثيراً، ومن مكانٍ طَيِّبٍ، كما روي أنَّ علياً كرَّم الله تعالى وجهه دَخَلَ على مولًى له فقال: ألا أُوصي يا أمير المؤمنين؟ قال: لا؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] وليس لك

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٨٣ وفيه: عشرين فرساً.
وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٩ بلفظ: عشرين ألف فرس. ونسبه لابن جرير وغيره.
(٢) مجمع البيان ٢٣/ ١١٣.
(٣) في الأصل و(م): يعلمه الله. والمثبت هو الصواب.

مالٌ كثيرٌ[(١)]. وروي تفسيرُهُ بالمال هنا عن الضحاك وابن جبير.

وقال أبو حيان: يُرادُ بالخير الخيلُ، والعربُ تُسمِّي الخيلَ: الخير، وحَكَى ذلك عن قتادة والسُّدِّي[(٢)]. ولعلَّ ذلك لتعلُّق الخير بها، ففي الخبر: «الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[(٣)].

والإحبابُ ـ على ما نُقل عن الفراء[(٤)] ـ مُضمَّنٌ معنى الإيثار، وهو مُلْحَقٌ بالحقيقة لشهرته في ذلك، وظاهرُ كلام بعضهم أنه حقيقةٌ فيه، فهو مما يتعدَّى بـ «على»، لكن عُدِّيَ هنا بـ «عن» لتضمينه معنى الإنابة، و«حُبَّ الخير» مفعولٌ به، أي: آثرتُ حُبَّ الخير منيباً له عن ذِكْرِ ربِّي، أو: أَنَبْتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربِّي مُؤْثراً له.

وجُوِّزَ كونُ «حُبَّ» منصوباً على المصدر التشبيهيِّ، ويكون مفعول «أحببتُ» محذوفاً، أي: أحببتُ الصافنات ـ أو عَرْضَها ـ حُبّاً مثلَ حُبِّ الخير، منيباً لذلك عن ذِكْرِ ربِّي، وليس المرادُ بالخير عليه الخيل، وذكر أبو الفتح الهمداني أنَّ «أحببتُ» بمعنى لَزِمْتُ، من قوله:

ضَـرْبَ بـعـيـرِ الـسَّـوء إذ أحـبَّـا[(٥)]

واعترض بأنَّ أَحَبَّ بهذا المعنى غريبٌ لم يردْ إلا في هذا البيت، وغرابةُ اللَّفظ تدلُّ على اللُّكنة، وكلامُ الله عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن ذلك، مع أنَّ اللُّزومَ لا يتعدَّى بـ «عن» إلا إذا ضُمِّنَ معنًى يتعدَّى به، أو تُجوِّزَ به عنه، فلم يبقَ فائدةٌ في العدول عن المعنى المشهور مع صحَّته أيضاً بالتضمين.

وجعل بعضُهم الأحبابَ من أول الأمر بمعنى التقاعد والاحتباس و«حُبَّ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦٣٥١)، والبيهقي ٦/ ٢٧٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٩٦.

(٣) أخرجه أحمد (٥١٠٢)، والبخاري (٨٩٩)، ومسلم (٤٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٤٠٥ بنحوه.

(٥) الرجز لأبي محمد الفقعسي، وهو في الأصمعيات ص١٦٣، والاشتقاق ص٣٩، وقبله:

حُـلْـتَ عـلـيـه بـالـقـطـيـع ضـربـا

الخير» مفعولاً لأجله، أي: تقاعدتُ واحتبستُ عن ذِكْرِ ربِّي لِحُبِّ الخير.

وتُعقِّبَ بأنَّ الذي يدلُّ عليه كلامُ اللُّغويين أنه لزومٌ عن تعب أو مرض ونحوه، فلا يناسب تقاعد النشاط والتلهِّي الذي كان عليه السلام فيه. وقول بعض الأجلَّة بعد التنزُّل عن جواز استعمال المقيَّد في المطلق: لمَّا كان لزومُ المكان لمحبَّة الخيل على خلاف مرضاة الله تعالى جَعَلَها من الأمراض التي تحتاجُ إلى التداوي بأضدادها، ولذلك عَقَرَها، ففي «أحببتُ» استعارةٌ تبعيَّةٌ لا يخفى حُسْنها ومناسبتُها للمقام = ليس بشيءٍ؛ لخفاء هذه الاستعارة نفسِها وعدم ظهور قرينتها.

وبالجملة، ما ذكره أبو الفتح مما لا ينبغي أن يُفتَحَ له بابُ الاستحسان عند ذوي العرفان.

وجُوِّزَ حَمْلُ «أحببتُ» على ظاهره من غير اعتبارِ تضمينه ما يتعدَّى بـ «عن»، وجَعْلُ «عن» متعلِّقةً بمقدَّرٍ كـ: معرضاً وبعيداً، وهو حالٌ من ضمير «أحببتُ»، وجُوِّزَ في «عن» كونها تعليليَّة، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

و«ذكر» مضافٌ إلى مفعوله، وجُوِّزَ أن يكونَ مضافاً إلى فاعله. وقيل: الإضافةُ على معنى اللام، ولا يُرادُ بالذكر المعنى المصدريُّ، بل يُرادُ به الصلاة، فمعنى «عن ذِكْرِ ربِّي»: عن صلاة ربِّي التي شَرَعها، وهو كما ترى.

وبعضُ مَنْ جَعَلَ «عن» للتعليل فَسَّرَ ذِكْرَ[1] الرَّبِّ بكتابه عزَّ وجلَّ وهو التوراة، أي: أحببتُ الخيلَ بسبب كتاب الله تعالى، وهو التوراةُ، فإنَّ فيه مَدْحَ ارتباطها، وروي ذلك عن أبي مسلم.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو: «إنيَ أحببتُ» بفتح الياء[2].

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝٣٢﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: «أحببت» باعتبار استمرار المحبَّة ودوامها حسب استمرار العَرْض، أي: أَنَبْتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربِّي، واستمرَّ ذلك حتى غَرَبَتِ الشمسُ، تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبَّأة

---

(١) في (م): ذلك.

(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.

بحجابها على طريق الاستعارة التبعيَّة، ويجوزُ أن يكونَ هناك استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ.

وأيًّاما كان، فما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن كعبٍ قال: الحجابُ هو حجابٌ من ياقوتٍ أخضر، محيطٌ بالخلائق، منه اخضرَّت السماء(١). وما قيلَ: إنه جبلٌ دونَ قافٍ بسنةٍ، تغرُبُ الشمسُ وراءه. لا يَخْفَى حالُه، والناسُ في ثبوت جبل قافٍ بين مُصدِّقٍ ومكذِّب، والقَرافيُّ يقول: لا وجودَ له. وإليه أميلُ، وإن قال المثبتون ما قالوا.

والباء للظرفيَّة أو الاستعانة أو الملابسة، وعَوْدُ الضمير إلى الشمس من غير ذِكْرٍ؛ لدلالة العَشيِّ عليها.

والضميرُ المنصوبُ في قوله تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ للصافنات على ما قال غيرُ واحد، وظاهر كلامهم أنه للصافنات المذكور في الآية، ولعلَّكَ تختارُ أنه للخيل الدالُّ عليها الحالُ المشاهَدةُ، أو الخير في قوله: «إني أحببت حب الخير»؛ لأنَّ «رُدُّوها» من تتمَّة مقالته عليه السلام، والصافناتُ غيرُ مذكورةٍ في كلامه، بل في كلام الله تعالى لنبيِّنا ﷺ.

والكلامُ ـ على ما قال الزمخشريُّ ـ على إضمار القول، أي: قال: رُدُّوها عليَّ(٢)، والجملةُ مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: رُدُّوها. وتعقَّبه أبو حيان بأنه لا يحتاجُ إلى الإضمار؛ إذ الجملةُ مندرجةٌ تحت حكاية القول في قوله تعالى: «فقال إني» إلخ(٣).

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فصيحةٌ مُفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سُرْعة الامتثال بالأمر كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فَرَدُّوها عليه

---

(١) ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤١، وكتاب العظمة ص٣٧٤، وينظر الدر المنثور ٥/ ٣٠٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٤.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

فَطَفِقَ.. إلخ، وطَفِقَ من أفعال الشروع، واسمها ضميرُ «سليمان»، و«مَسْحاً» مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ مقدَّرٍ هو خبرها، أي: شَرَعَ يَمْسَحُ مَسْحاً، لا حالٌ مؤوَّلٌ بماسحاً كما جوَّزه أبو البقاء[١]؛ إذ لا بدَّ لـ «طَفِقَ» من الخبر، وليس هذا مما يَسُدُّ الحالُ فيه مَسَدَّه. وقرأ زيدُ بن عليٍّ: «مِساحاً»[٢] على وزن قِتال.

﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بسوقها وأعناقها، على أنَّ التعريفَ للعهد، وأنَّ «أل» قائمةٌ مقامَ الضمير المضاف إليه، والباءُ متعلِّقةٌ بالمسح، على معنى: شَرَعَ يمسحُ السيفَ بسوقها وأعناقها، وقال جَمْعٌ: هي زائدةٌ، أي: شَرَعَ يمسحُ سوقَها وأعناقها بالسيف، ومسحته بالسيف ـ كما قال الراغب ـ كنايةٌ عن الضرب[٣].

وفي «الكشاف»[٤]: يمسحُ السيفَ بسوقها وأعناقها: يقطعها، تقولُ: مَسَحَ عِلاوته، إذا ضَرَبَ عُنقه، ومَسَح المسفر الكتاب: إذا قَطَعَ أطرافه بسيفه.

وعن الحسن: كَسَفَ عراقيبها وضَرَبَ أعناقها، أراد بالكَسْفِ القَطْعَ، ومنه الكَسْفُ في ألقاب الزحاف في العَرُوض[٥]. ومَنْ قاله بالشين المعجمة فمصحّفٌ.

وكون المراد القطع قد دلَّ عليه بعضُ الأخبار، أخرج الطبرانيُّ في «الأوسط»، والإسماعيلي في «معجمه»، وابن مردويه، بسندٍ حَسَنٍ عن أُبيٍّ بن كعبٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾: «قَطَعَ سُوقَها وأعناقَها بالسيف»[٦].

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٥٣.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٩٧.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (مسح).
(٤) ٣/ ٣٧٤.
(٥) في الأصل و(م): والعروض. والمثبت من المصدر. والكسف أو الكشف في الشعر: حذف متحرك الوتد المفروق. والزِّحاف: حدوث تغيير في ثواني الأسباب. مفتاح العلوم ص ٥٢٥، ومعجم مصطلحات العروض والقافية لمحمد علي الشوابكة وأنور أبو سويلم ص٢٢٧-٢٢٨.
(٦) المعجم الأوسط (٦٩٩٣)، ومعجم الإسماعيلي ٣/ ٧٥٣. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٩٩: فيه: سعيد بن بشير، وثقه شعبة وغيره، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات.

وقد جعلها عليه السلام بذلك قرباناً لله تعالى، وكان تقريبُ الخيل مشروعاً في دينه، ولعلَّ كَشْفَ العراقيب ليتأتَّى ذبحها بسهولة.

وقيل: إنه عليه السلام حَبَسها في سبيل الله تعالى، وكان ذلك المسحُ الصادرُ منه وَسْماً لها؛ لتُعرَفَ أنها خيلٌ محبوسةٌ في سبيل الله تعالى، وهو نظيرُ ما يُفعلُ اليومَ من الوَسْم بالنار، ولا بأس به في شَرْعنا ما لم يكنْ في الوجه، ولعلَّه عليه السلام رأى الوَسْمَ بالسيف أهون من الوَسْم بالنار فاختاره، أو كان هو المعروف في تلك الأعصار بينهم، ويُروى أنه عليه السلام لمَّا فعل ذلك سَخَّرَ له الريحَ كرامةً له.

وقيل: إنه عليه السلام أراد بذلك إتلافَها حيثُ شغلته عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ، وصار تعلُّقُ قلبه بها سبباً لغفلته، واستدلَّ بذلك الشبليُّ قُدِّسَ سِرُّهُ على حِلِّ تحريق ثيابه بالنار حين شغلته عن ربِّه جلَّ جلاله؛ وهذا قولٌ باطلٌ لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه، وحاشا نبيَّ الله أن يُتلفَ مالاً محترماً لمجرَّدِ أنه شُغِلَ به عن عبادة، وله سبيلٌ لأنْ يُخرجه عن مِلْكه مع نَفْعٍ هو من أجلِّ القُرَب إليه عزَّ وجلَّ، على أنَّ تلك الخيل لم يكن عليه السلام اقتناها واستعرضها بَطَراً وافتخاراً، معاذَ الله تعالى من ذلك، وإنما اقتناها للانتفاع بها في طاعة الله سبحانه، واستعرضها للتطلُّع على أحوالها ليُصلحَ من شأنها ما يحتاجُ إلى إصلاح، وكلُّ ذلك عبادةٌ، فغايةُ ما يلزمُ أنه عليه السلام نسيَ عبادةً لِشُغله بعبادةٍ أخرى، فاستدلالُ الشِّبلي قُدِّسَ سِرُّهُ غيرُ صحيح، وقد نبَّه أيضاً على عدم صحَّته عبد الوهاب الشعرانيّ من السادة الصوفية في كتابه: «اليواقيتُ والجواهر في عقائد الأكابر» ولكن بحَمْل الآية على مَحْمَلٍ آخر.

وما ذكرناه في محملها وتفسيرها هو المشهورُ بين الجمهور، ولهم فيها كلامٌ غير ذلك، فقيل: ضميرُ «رُدُّوها» للشمس، والخطابُ للملائكة عليهم السلام الموكَّلين بها، قالوا: طَلَبَ ردَّها لمَّا فاته صلاةُ العصر؛ لِشُغله بالخيل، فَرُدَّتْ له حتى صلَّى العصر، وروي هذا القولُ عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، كما قال الخفاجيُّ(١) والطبرسيُّ(٢).

---

(١) في حاشيته ٧/ ٣١٠.

(٢) في مجمع البيان ٢٣/ ١١٣.

وتعقَّبَ ذلك الرازيُّ بأنَّ القادرَ على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى، فكان يجبُ أن يقول: رُدَّها عليَّ، دونَ «رُدُّوها» بضمير الجمع. فإن قالوا: هو للتعظيم، كما في: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩﴾ [المؤمنون:٩٩] قلنا: لفظُ «رُدُّوها» مُشعرٌ بأعظم أنواع الإهانة، فكيف يليقُ بهذا اللفظ رعاية التعظيم؛ وأيضاً: إنَّ الشمسَ لو رَجَعَتْ بعد الغروب لكان مشاهداً لكلِّ أهل الدنيا، ولو كان كذلك لتوافرتِ الدواعي على نقله، وحيثُ لم ينقله أحدٌ عُلِمَ فساده[١].

والذي يقول بِرَدِّ الشمس لسليمان يقول: هو كَرَدِّها ليوشع، ورَدِّها لنبيِّنا ﷺ في حديث العِير ويومَ الخندق حين شُغِلَ عن صلاة العصر، ورَدِّها لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورضي عنه بدعائه عليه الصلاة والسلام، فقد روي عن أسماء بنت عُمَيس أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُوحَى إليه ورأسه في حِجْر عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، فلم يُصَلِّ العَصْرَ حتى غربتِ الشمسُ، فقال رسول الله ﷺ: «صلَّيتَ يا عليّ»؟ قال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فارددْ عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتها غربَتْ ثم رأيتها طلعت بعد ما غربَتْ، ووقعتْ على الأرض، وذلك بالصَّهْباء في خيبر. وهذا الخبر في صِحَّته خلافٌ، فقد ذكره ابنُ الجوزيِّ في «الموضوعات»، وقال: إنه موضوعٌ بلا شكٍّ، وفي سنده أحمد بن داود، وهو متروكُ الحديث كذَّابٌ كما قاله الدارقطني، وقال ابن حبان: كان يضعُ الحديثَ. وقال ابن الجوزي: قد روى هذا الحديثَ ابنُ شاهين، فذكره، ثم قال: وهذا حديثٌ باطلٌ، ومِنْ تَغَفُّلِ واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يَلْمَحْ عدم الفائدة فيها، وأنَّ صلاةَ العصر بغيبوبة الشمس تصيرُ قضاءً، ورجوعُ الشمس لا يُعيدها أداءً[٢]. انتهى.

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً في الرد على الروافض[٣] ذكر فيه الحديثَ بطرقه ورجاله وأنه موضوعٌ، وقال الإمام أحمد: لا أصل له.

---

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٠٥.
(٢) الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢٦٦.
(٣) وهو كتاب: منهاج السنة النبوية، ينظر ٨/ ١٦٤ وما بعدها.

وصحَّحه الطحاويُّ[(١)] والقاضي عياض[(٢)]، ورواه الطبرانيُّ في «معجمه الكبير»[(٣)] بإسنادٍ حَسَنٍ، كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقيّ في «شرح التقريب»[(٤)] عن أسماءَ أيضاً، لكن بلفظٍ آخر. ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة، وكان أحمد بن صالح يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلُّف عن حفظ حديث أسماء؛ لأنه من علامات النبوَّة[(٥)].

وكذا اختلف في حديث الرَّدِّ يومَ الخندق، فقيل: ضعيف، وقيل: موضوعٌ، وادَّعى العلامةُ ابن حجر الهيتمي صِحَّته[(٦)].

وما في حديث العير ـ وأظنُّ أنهم اختلفوا في صِحَّته أيضاً ـ ليس صريحاً في الرَّدِّ، فإنَّ لفظ الخبر أنه لما أسري بالنبي ﷺ وأخبرَ قومَهُ بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا: متى يجيء؟ قال: يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم أشرفتْ قريشٌ ينظرونَ وقد ولَّى النهار ولم يجئ، فدعا رسول الله ﷺ، فَزِيدَ له في النهار ساعة، وحُبستْ عليه الشمس[(٧)]. والحَبْسُ غيرُ الرَّدِّ، ولو كان هناك رَدٌّ لأدركه قريشٌ ولقالوا فيه ما قالوا في انشقاق القمر، ولم يُنقل، وقيل: كأنَّ ذلك كان بركةً في الزمان، نحو ما يذكره الصوفيةُ مما يُعبِّرون عنه بنَشْر الزمان، وإن لم يتعقَّله الكثيرُ.

وكذا ما كان ليوشع عليه السلام، فقد جاء في الحديث الصحيح: «لم تُحبَسِ الشمسُ على أحدٍ إلا ليوشع بن نون»[(٨)]. والقصةُ مشهورةٌ، وهذا الحديثُ الصحيحُ

---

(١) في شرح مشكل الآثار ٣/ ٩٥ عقب الحديث (١٠٦٨).
(٢) في الشفا ١/ ٥٤٩.
(٣) ٢٤/ (٣٨٢).
(٤) وهو طرح التثريب في شرح التقريب، ينظر ٧/ ٢٤٧-٢٤٨.
(٥) ينظر الشفا ١/ ٥٤٩ وقد نقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٩ عن الذهبي في تلخيص الموضوعات أن أسانيد هذا الحديث ساقطة ليست بصحيحة.
(٦) في تحفة المحتاج بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ١/ ٤٢٠.
(٧) ذكره ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٢١ وعزاه ليونس بن بكير في زياداته في مغازي ابن إسحاق. وقال: هذا منقطع.
(٨) أخرجه أحمد (٨٣١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عند الكلِّ يُعارضُ جميعَ ما تقدَّم. وتأويله بأنَّ المرادَ: لم تُحبسْ على أحدٍ من الأنبياء غيري إلا ليوشع، أو بالتزام أنَّ المتكلِّمَ غيرُ داخلٍ في عموم كلامه، بعد تسليم قبوله، لا ينفي معارضته خبر الرَّدِّ لسليمان عليه السلام، فإنه بظاهره يستدعي نفي الردِّ الذي هو أعظمُ من الحبس له عليه السلام.

وبالجملة، القولُ بِرَدِّ الشمس لسليمان عليه السلام غيرُ مُسلَّمٍ، وعدمُ قولي بذلك ليس لامتناع الردِّ في نفسه كما يزعمه الفلاسفة، بل لِعَدَمِ ثبوته عندي، والذوقُ السليمُ يأبى حَمْلَ الآية على ذلك؛ لنحو ما قال الرازي، ولغيره من تعقيبِ طلب الردِّ بقوله تعالى: «فطفق» إلخ.

ثم ما قدَّمنا نقله من وقوع الصلاة بعد الردِّ قضاءً هو ما ذهب إليه البعض.

وفي «تحفة» العلَّامة ابن حجر الهيتمي: لو عادتِ الشمسُ بعد الغروب عادَ الوقتُ كما ذكره ابن العماد، وقضيةُ كلام الزركشيِّ خلافه، وأنه لو تأخَّر غروبُها عن وقته المعتاد قدّرَ غروبها عنده، وخرج الوقتُ وإن كانت موجودة. انتهى كلامُ الزركشي، وما ذكره آخراً بعيدٌ، وكذا أولاً، فالأوجه كلامُ ابن العماد، ولا يضرُّ كونُ عَوْدِها معجزةً له ﷺ؛ لأنَّ المعجزةَ نفسُ العَوْد، وأما بقاءُ الوقت بعَوْدها فحُكْمُ الشرعِ، ومن ثَمَّ لما عادتْ صلَّى عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه العصرَ أداءً، بل عَوْدُها لم يكن إلا لذلك[1]. انتهى.

ولا يحضرني الآن ما لأصحابنا الحنفية في ذلك، بَيْدَ أني رأيتُ في «حواشي تفسير البيضاوي» لشهاب الدين الخفاجي[2]، وهو من أَجِلَّة الأصحاب ادِّعاءَ أنَّ الظاهرَ أنَّ الصلاةَ بعد الردِّ أداء، ثم قال: وقد بحثَ الفقهاء فيه بحثاً طويلاً ليس هذا محلّه.

وقيل: ضميرُ «توارتْ» للخيلِ كضمير «رُدُّوها». واختاره جَمْعٌ، فقيل: الحجابُ: إصطبلاتها، أي: حتى دخلتِ إصطبلاتها، وقيل: حتى توارتْ في المسابقة بما يحجُبها عن النظر.

---

(١) تحفة المحتاج ١/ ٤١٩-٤٢٠.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٠.

وبعضُ من قال بإرجاع الضمير للخيل جَعَلَ «عن» للتعليل، ولم يجعلِ المسحَ بالسُّوق والأعناق بالمعنى السابق، فقالت طائفةٌ: عُرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة، فأشار إليهم: إني في صلاة، فأزالوها عنه حتى دخلتْ في الإصطبلات، فقال لمَّا فرغَ من صلاته: «إني أحببتُ حُبَّ الخير» أي: الذي لي عند الله تعالى في الآخرة بسبب ذِكرِ ربِّي، كأنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل حتى دخلت إصطبلاتها، رُدُّوها عليَّ، فَطَفِقَ يمسحُ أعرافَها وسُوقها محبةً لها وتكريماً. وروي أنَّ المسحَ كان ذلك عن ابن عباس والزهري وابن كيسان، ورجَّحه الطبريُّ(١)، وقيل: كان غَسْلاً بالماء.

ولا يخفى أنَّ تطبيقَ هذه الطائفة الآيَةَ على ما يقولون ركيكٌ جدّاً.

وقال الرازيُّ: قال الأكثرون: إنه عليه السلام فاته صلاةُ العَصْر بسبب اشتغاله بالنظر إلى الخيل، فاستردَّها وعَقَرَ سُوقَها وأعناقها؛ تقرُّباً إلى الله تعالى، وعندي أنه بعيدٌ، ويدلُّ عليه وجوهٌ:

الأول: أنه لو كان مَسْحُ السُّوق والأعناق قَطْعها، لكان معنى قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦]: اقطعوها، وهذا لا يقوله عاقلٌ، بل لو قيل: مَسَحَ رأسَهُ بالسيف، فربمَّا فُهم منه ضَرْبُ العنق، أما إذا لم يُذْكَر لفظُ السيف لم يُفْهَمْ منه ذلك ألبتَّة.

الثاني: أنَّ القائلين بهذا القول جمعوا على سليمانَ أنواعاً من الأفعال المذمومة؛ فأوَّلها: تَرْكُ الصلاة. وثانيها: أنه استولى عليه الاشتغالُ بحبِّ الدنيا إلى حيث نسي الصلاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»(٢). وثالثها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغلْ بالتوبة والإنابة. ورابعها: على القول برجوع ضمير «رُدُّوها» إلى الشمس أنه خاطَبَ رَبَّ العالمين بكلمةٍ لا يذكرها الرجلُ الحصيفُ إلا مع الخادم الخسيس. وخامسها: أنه أَتْبَعَ هذه

---

(١) في تفسيره ٢٠/ ٨٧.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب ٧/ ٣٣٨ عن الحسن مرسلاً بإسناد حسن كما قال العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤١٢.

المعاصي بعَقْرِ الخيل سُوقها وأعناقها، وقد وَرَدَ النهيُ عن ذَبْحِ الحيوان إلا لأكله(١). فهذه أنواعٌ من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أنَّ لَفْظَ القرآن لا يدلُّ على شيءٍ منها. وسادسها: أنَّ ذِكْرَ هذه القصة ـ وكذا التي قبلها ـ بعد أمره بالصبر على سفاهة الكفار، يقتضي أنْ تكونَ مشتملةً على الأعمال الفاضلة، والأخلاق الحميدة، والصبر على طاعة الله تعالى، والإعراض عن الشهوات واللَّذَّات، وأما اشتمالُها على الإقدام على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة، فبمراحلَ عن مقتضى التعقيب، فثبتَ أنَّ كتابَ الله تعالى ينادي على القول المذكور بالفساد.

والصوابُ أن يقال: إنَّ رِباطَ الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين نبيِّنا ﷺ، ثم إنَّ سليمانَ احتاجَ إلى الغزو، فجلس وأَمَرَ بإحضار الخيل، وأَمَرَ بإجرائها، وذَكَرَ: إنِّي لا أُحبُّها لأجل الدنيا ونصيب النفس، وإنما أُحبُّها لأمر الله تعالى وتقوية دينه، وهو المراد من قوله تعالى: «عن ذكر ربِّي» ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارتْ بالحجاب، أي: غابتْ عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يَردُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادتْ إليه طَفِقَ يمسحُ سُوقها وأعناقها، والغرضُ من ذلك المسح أمور:

الأول: تشريفٌ لها، وإبانةٌ لِعِزَّتها لكونها من أعظم الأعوان في دَفْع العدو.

والثاني: أنه أرادَ أن يظهرَ أنه في ضَبْط السياسة والملك يتَّضعُ إلى حيثُ يُباشرُ أكثرَ الأمور بنفسه.

والثالث: أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنُها ويمسحُ سُوقها وأعناقها حتى يعلمَ هل فيها ما يدلُّ على المرض.

فهذا التفسيرُ الذي ينطبقُ عليه لَفْظُ القرآن انطباقاً موافقاً، ولا يلزمنا نسبةُ شيءٍ من تلك المنكرات والمحذورات إلى نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام.

ثم قال: وأقول: أنا شديدُ التعجُّب من الناس، كيف قبلوا ما شاعَ من الوجوه

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٣١٦) من حديث القاسم مولى عبد الرحمن.

السخيفة، مع أنَّ العقلَ والنقلَ يَردَّانها، وليس لهم في إثباتها شبهةٌ، فضلاً عن حُجَّة، ولَفْظُ الآية لا يدلُّ على شيءٍ من تلك الوجوه التي يذكرها الجمهور كما قد ظهر ظهوراً لا يرتابُ العاقل فيه، وبِفَرَضِ الدلالة يقال: إنَّ الدلائلَ الكثيرةَ قامتْ على عصمة الأنبياء عليهم السلام، ولم يدلَّ دليلٌ على صحَّة تلك الحكايات، وروايةُ الآحاد لا تصلحُ معارضةً للدلائل القوية، فكيف الحكاياتُ عن أقوامٍ لا يُبالى بهم ولا يُلتفتُ إلى أقوالهم[1]؟! انتهى كلامه.

وكان عليه الرحمة قد اعترض القولَ برجوع ضميرِ «توارت» إلى الشمس دون «الصافنات»، بأنَّ الصافناتِ، مذكورةٌ بصريحها والشمسُ ليست كذلك، وعَوْدُ الضمير إلى المذكور أولى من عَوْده إلى المقدَّر، وأيضاً أنه قال: «إني أحببتُ حُبَّ الخير عن ذِكْر ربِّي حتى توارتْ بالحجاب» وظاهره يدلُّ على أنه كان يُعيدُ ويُكرِّرُ قوله: «إني أحببتُ حُبَّ الخيرَ عن ذِكْرِ ربيِّ» إلى أن توارتْ بالحجاب، فإذا كانتِ المتواريةُ الشمسَ، يلزمُ القولُ بأنه كرَّر ذلك من العَصْر إلى المغرب، وهو بعيدٌ، وإذا كانتِ الصافناتِ كان المعنى: أنه حين وَقَعَ بَصَرُهُ عليها حالَ عَرْضِها كان يقولُ ذلك إلى أنْ غابتْ عن عينه، وذلك مناسبٌ، وأيضاً: القائلون بالعَوْد إلى الشمس قائلونَ بتَرْكه عليه السلام صلاةَ العصر، ويأباهُ: «إني أحببتُ» إلخ؛ لأنَّ تلك المحبَّةَ لو كانتْ عن ذِكْر الله تعالى لما نسي الصلاةَ، ولما تَرَكَ ذِكْرَ الله عزَّ وجلَّ[2].

وأقول: ما عند الجمهور أولى بالقَبول، وما ذكره عليهم من الوجوه لا يُلتفتُ إليه ولا يُعوَّل عليه؛ أما ما قاله من أنه لو كان مَسْحُ السوق والأعناق بمعنى القَطْع لكان: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦] أمْراً بقَطْعها، ففيه أنَّ هذا إنما يتمُّ لو قيل: إنَّ المسحَ كلَّما ذُكِرَ بمعنى القَطْع، ولم يُقَلْ ولا يُقال، وإنما قالوا: إنَّ المسحَ في الآية بمعنى القَطْع، وقد قال بذلك رسول الله ﷺ كما جاء في خبرٍ حَسَنٍ، وقد قدَّمناه لك عن الطبرانيِّ والإسماعيلي وابن مردويه[3]، وليس بعد قوله عليه الصلاة

(١) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٠٥-٢٠٧.
(٢) تفسير الرازي ٢٦/ ٢٠٤-٢٠٥.
(٣) سلف ص٢٧٥.

والسلام قولٌ لقائلٍ، ويكفي مثلُ ذلك الخبر في مثل هذا المطلب؛ إذ ليس فيه ما يُخالفُ العقلَ أو نقلاً أقوى كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر هذا المعنى للمسح الزمخشريُّ أيضاً[١]، وهو من أَجِلَّة علماء هذا الشأن، وصَحَّ نقلُهُ عن جماعةٍ من السلف، وقال الخفاجيُّ: استعمالُ المَسْحِ بمعنى ضَرْبِ العنق استعارةٌ وقعتْ في كلامهم قديماً[٢]. نعم احتياجُ ذلك للقرينة مما لا شُبهةَ فيه، والقرينةُ عند مَنْ يدَّعيه هاهنا السياقُ وعَوْدُ ضمير «توارتْ» على الشمس، وهو كالمتعيّن كما سيتَّضحُ لك إن شاء الله تعالى.

وأما قوله: إنهم جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة، فَفِرْيةٌ من غير مرية.

وقوله: أولها: تَرْكُ الصلاة، فيه أنَّ التَّرْكَ المذمومَ ما كان عن عمدٍ، وهم لا يقولون به، وما يقولون به التركُ نسياناً، وهو ليس بمذمومٍ؛ إذ النسيانُ لا يدخلُ تحتَ التكليف، على أنَّ كونَ ما تُرك فرضاً مما لم يجزمْ به الجميع.

وقوله: ثانيها: أنه استولى عليه الاشتغالُ بحُبِّ الدنيا إلى حيثُ تَرَكَ الصلاةَ، فيه أنَّ ذلك اشتغالٌ بخيلِ الجهاد، وهو عبادة.

وقوله: ثالثها: أنه بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغلْ بالتوبة والإنابة، فيه أنَّا لا نُسلِّم أنه عليه السلام ارتكبَ ذنباً حقيقةً، فضلاً عن كونه عظيماً، نعم ربما يقال: إنه عليه السلام لم يستحسنْ ذلك بمقاومة، فأتبعه التقرُّب بالخيل التي شُغِلَ بسببها، وذلك يدلُّ على التوبة دلالةً قوية، ولم يكن ليتعطَّلَ أمرُ الجهاد به، فقد أُوتي عليه السلام غير ذلك، على أنَّ كونَ ما ذُكر كالاستشهاد على قوله تعالى: «إنه أواب» مُشعرٌ بتضمُّنه الأَوْبةَ، وإن ذهبنا إلى تعلُّق «إذ عُرض» بـ «أوَّاب» يكادُ لا يَرِدُ هذا الكلام رأساً.

وقوله: رابعها: أنه خاطَبَ ربَّه عزَّ وجلَّ بلَفْظٍ غيرِ مناسب، فيه أنه إن وَرَدَ

(١) في الكشاف ٣/ ٣٧٤.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٠.

فإنما يَرِد على القول برجوع ضمير «رُدُّوها» إلى الشمس، ونحن لا نقول به، فلا يلزمنا الجوابُ عنه، والذي نقوله: إنَّ الضميرَ للخيل، والخطابَ لخدمته، ومع هذا لم يقلْ تلك الكلمةَ تهوُّراً وتجبُّراً كما يُتوهَّم.

وقوله: خامسها: إنه أتبع هذه المعاصي بعَقْرِ الخيل، وقد وَرَدَ النهي.. إلخ، فيه أنه عليه السلام لم يفعلْ معصيةً ليقال: أتبعَ هذه المعاصي، وأنَّ الخيلَ عُقرتْ قرباناً، وكان تقريبُها مشروعاً في دينه، فهو طاعة.

ومن مجموع ما ذكرنا يُعلَمُ ما في قوله: سادسها.. إلخ على أنه قد تقدَّم لك وجهُ رَبْطِ هذه القصص بما قبلها، وهو لا يتوقَّفُ على التزام ما قاله في هذه القصة، وما زَعَمَهُ من أنه الصوابُ، ففيه إرجاعُ ضمير «توارت» إلى الخيل، ولا يخفى على ذي ذوقٍ سليمٍ وطبعٍ مستقيمٍ أنَّ تواريَ الخيل بالحجاب عبارةٌ ركيكةٌ يُجَلُّ عنها الكتابُ المتين.

وفيه أيضاً أنه لا يكادُ ينساقُ إلى الذهن متعلَّق «حتى توارت» الذي أشار إليه في تقرير ما زَعَمَ صوابيَّته، وتعلُّقه بـ «قال» على ما يُشير إليه كلامه المنقولُ آخراً مما يُستبْعَدُ جدّاً، فإنَّ الظاهرَ أنَّ قوله: «حتى توارت بالحجاب» من المحكيِّ كالذي قبله والذي بعده، لا من الحكاية، وأيضاً كونُ الردِّ للمَسْحِ الذي ذكره خلاف ما جاء في الخبر الحسن، وهو في نفسه بعيد، والأغراض التي ذكرها فيه لا يخفى حالها، ودعواهُ أنَّ هذا التفسيرَ هو الذي ينطبقُ عليه لفظُ القرآن مما لا يتمُّ لها دليلٌ، ولعلَّ الدليلَ على عَدَمِ الانطباق ظاهرٌ.

وقوله: أنا شديدُ التعجُّب من الناس.. إلخ، أقولُ فيه: أنا تعجُّبي منه أشدُّ من تعجُّبه من الناس، حيث خفي عليه حُسْنُ الوجه الذي استحسنه الجمهور ولم يطَّلعْ على ما ورد فيه من الأخبار الحسان، وظَنَّ أنَّ القولَ به منافٍ للقول بعِصْمةِ الأنبياء عليهم السلام حتى قال ما قال، وَرَشَقَ على الجمهور النِّبالَ.

وقوله في ترجيح رجوع ضمير «توارت» إلى «الصافنات» على رجوعه إلى الشمس: إنها مذكورةٌ بصريحها دون الشمس، ليس بشيءٍ، فإنَّ رجوعَهُ إلى الشمس

يجعلُ الكلامَ ركيكاً، فلا ينبغي ارتكابه لمجرَّد أنَّ فيه رجوع الضمير إلى مذكورٍ صريحاً، على أنَّ في كونه راجعاً إلى الصافنات المذكورة صريحاً بحثاً، ولا يَرِدُ على الجمهور لزومُ تخالف الضمائر في المرجع، وهو تفكيكٌ؛ لأنَّ التخالفَ مع القرينة لا ضَيْرَ فيه.

وأَعْجَبُ مما ذكرَ زَعْمُهُ أنه يلزمُ على ما قال الجمهور أنَّ سليمان عليه السلام كرَّر قوله: «إني أحببتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربي» من العَصْر إلى المغرب، فإنَّ الجمهورَ ما حاموا حولَ ما يلزمُ منه ذلك أصلاً؛ إذ لم يقلْ أحدٌ منهم بأنَّ «حتى» متعلِّقةٌ بـ «قال» كما زَعَمَ هو، بل هي عندهم متعلِّقةٌ بـ «أحببت» على المعنى الذي أسلفناه، ومَن أنصفَ لا يرتضي أيضاً القولَ بأنه عليه السلام كرَّرَ ذلك القولَ إلى أن غابت الخيلُ عن عينه كما قال به هذا الإمام.

ويَرِدُ على قوله: القائلون بالعَوْد إلى الشمس قائلونَ بتَرْكه عليه السلام صلاةَ العصر، ويأباه «إني أحببت» إلخ؛ لأنَّ تلك المحبة لو كانت عن ذِكْرِ الله تعالى لما نسي الصلاةَ = أنَّ الجمهورَ لا يقولون بأنَّ «على» للتعليل، والإباءُ المذكورُ ـ على تقدير تسليمه ـ لا يتسنَّى إلا على ذلك، وما يقولونه ـ وقد أسلفناه لك ـ بمراحلَ عنه.

وبالجملة، قد اختلَّتْ أقوالُ هذا الإمام في هذا المقام، ولم ينصف مع الجمهور وهم أعرفُ منه بالمأثور، نعم ما ذكره في الآية وجهٌ ممكنٌ فيها على بُعدٍ إذا قُطِعَ النظرُ عن الأخبار وما جاء عن السلف من الآثار، وقد ذَكَرَ نحوَهُ عبد الوهاب الشعرانيُّ في كتابه «اليواقيت والجواهر» وهو في الحقيقة ـ والله تعالى أعلم ـ من كلام الشيخ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ وقد خالف الجمهورَ كالإمام، قال في الباب المئة والعشرين من «الفتوحات»[1]: ليس للمفسِّرين الذين جعلوا التواري للشمس دليلٌ، فإنَّ الشمسَ ليس لها هنا ذِكْرٌ، ولا للصلاة التي يزعمون، ومساقُ الآية لا يدلُّ على ما قالوه بوجهٍ ظاهرٍ ألبتَّة، وأما استرواحهم فيما فسَّروه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ فالمرادُ بتلك الفتنة إنما هو الاختبارُ بالخيل، هل

(١) بل في الباب الرابع والعشرين ومئة.

يُحبُّها عن ذِكْرِ ربِّه تعالى لها، أو يُحبُّها لعينها؟ فأَخبر عليه السلام عن نفسه أنه أحبَّها عن ذِكْرِ ربِّه سبحانه إياها، لا لِحُسْنها وكمالها وحاجته إليها، إلى آخر ما قال.

وقد كان قُدِّسَ سِرُّهُ معاصراً للإمام، وكتب إليه رسالةً يُرغِّبه فيها بسلوك طريقة القوم، ولم يجتمعا، وغالبُ الظَّنِّ أنه لم يأخذْ أحدهما من الآخر ما قال في الآية، بل لم يسمعه، وعِلْمُ كلٍّ منهما لا يُنكَرُ، والشيخ بحرٌ لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وما ذكره في الاسترواح مما لم أقفْ عليه لأحدٍ من المفسِّرين، والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن كثير: «بالسُّؤق» بهمزةٍ ساكنة[1]، قال أبو عليٍّ[2]: وهي ضعيفةٌ، لكنَّ وَجْهَها في القياس أنَّ الضمةَ لمَّا كانت تلي الواوَ قُدِّرَ أنها عليها، كما يفعلون بالواو المضمومة حيث يُبدلونها همزة، ووجهُها من القياس[3] أنَّ أبا حَيَّةَ النميري كان يهمزُ كلَّ واوٍ ساكنةٍ قبلَها ضمة، وكان ينشد:

أَحَــبُّ الــوافــدَيْــنِ إلــيَّ مُــؤْســى[4]

وقال أبو حيان: ليستْ ضعيفةً؛ لأنَّ الساق فيه الهمزة، فوزنه: فُعْلٌ بسكون العين، فجاءت هذه القراءةُ على هذه اللغة[5].

وتُعقِّبَ بأنَّ هَمْزَ الساق إبدالٌ على غير القياس؛ إذ لا شُبهةَ في كونه أجوف، فلا بدَّ من التوجيه بما تقدم.

وقرأ ابن محيصن: «بالسُّؤُوق» بهمزةٍ مضمومةٍ بعدها واوٌ ساكنةٌ بوزن الفُسُوق، ورواها بكَّار عن قنبل[6]، وهو جَمْعُ ساقٍ أيضاً.

---

(١) التيسير ص١٦٨، والنشر ٢/ ٣٣٨.
(٢) في الحجة للقراء السبعة ٦/ ٦٨-٦٩.
(٣) كذا في الأصل و(م) والبحر ٧/ ٣٩٧ نقلاً عن أبي عليٍّ، والذي في الحجة: السماع.
(٤) صدر بيت لجرير، وهو في ديوانه ص١١٦، وعجزه: وجَعْدَةُ لو أضاءهما الوقود، وسلف ١٩/ ٤٦٠ برواية: أَحَبُّ المُؤْقِدَيْنِ.
(٥) البحر المحيط ٤/ ٣٩٧.
(٦) الكشاف ٣/ ٣٧٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «بالساق» مفرداً[١]؛ اكتفى به عن الجمع لأمْنِ اللَّبْس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ أظهرُ ما قيل في فتنته عليه السلام أنه قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأة، تأتي كلُّ واحدةٍ بفارسٍ يُجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقلْ: إن شاء الله، فطافَ عليهنَّ فلم تحملْ إلا امرأة، وجاءتْ بشِقِّ رجلٍ» وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً، وفيه: «فو الذي نفسُ محمدٍ بيده، لو قال: إن شاء الله؛ لجاهدوا فرساناً»[٢] لكنَّ الذي في «صحيح البخاري» أربعينَ، بدلَ: سبعين[٣]، وأنَّ الملك قال له: قلْ: إن شاء الله، فلم يقلْ. وغايتُهُ تَرْكُ الأَولى، فليس بذَنْبٍ وإن عدَّهُ هو عليه السلام ذنباً، فالمراد بالجَسَدِ ذلك الشِّقُّ الذي وُلِدَ له، ومعنى إلقائه على كُرسيِّهِ: وَضْعُ القابلة له عليه لِيَراهُ.

وروى الإماميَّةُ عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنه وُلد لسليمان ابنٌ، فقالت الجنُّ والشياطين: إن عاشَ له ولدٌ لَنَلْقَينَّ منه ما لَقينا من أبيه من البلاء، فأشفقَ عليه السلام منهم، فجعلهُ وظِئْرَهُ في السحاب من حيثُ لا يعلمون، فلم يشعرْ إلا وقد أُلقي على كُرسِّيهِ ميتاً؛ تنبيهاً على أنَّ الحَذَرَ لا يُنجِّي من القَدَر، وعُوتبَ على تَرْكه التوكُّلَ اللائقَ بالخواصِّ من تَرْكِ مباشرةِ الأسباب، ورُوي ذلك عن الشعبيِّ أيضاً[٤]. ورواه بعضُهم عن أبي هريرةَ على وجهٍ لا يَشُكُّ في وَضْعه إلا مَنْ يَشُكُّ في عِصْمة الأنبياء عليهم السلام، وأنا في صحَّةِ هذا الخبر لستُ على يقينٍ، بل ظاهرُ الآية أنَّ تسخيرَ الريح بعد الفتنة، وهو ظاهرٌ في عدم صِحَّة الخبر؛ لأنَّ الوَضْعَ في السحاب يقتضي ذلك.

وأخرج عبد بن حميد والحكيم الترمذي[٥] من طريق عليِّ بن زيدٍ عن سعيد بن المسيب أنَّ سليمانَ عليه السلام احتجبَ عن الناس ثلاثةَ أيامٍ، فأوحى الله تعالى

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٧/ ٣٩٧.
(٢) صحيح البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤)، وهو عند أحمد (٧٧١٥).
(٣) كذا في حاشية الشهاب ٧/ ٣١١. والصواب أنه في البخاري: سبعين. وفي رواية: تسعين، وفي أخرى: مئة.
(٤) مجمع البيان ٢٣/ ١١٤.
(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٣١٢.

إليه أنْ: يا سليمان، احتجبتَ عن الناس ثلاثةَ أيامٍ فلم تنظرْ في أمور عبادي، ولم تُنصفْ مظلوماً من ظالم. وكان مُلْكُهُ في خاتمه، وكان إذا دخل الحمَّامَ وَضَعَ خاتمه تحتَ فراشه، فجاء الشيطانُ فأخذهُ، فأقبل الناسُ على الشيطان، فقال سليمان: يا أيها الناس، أنا سليمان نبيُّ الله تعالى. فدفعوه، فَسَاحَ أربعينَ يوماً، فأتى أهلَ سفينةٍ فأعطوه حُوتاً فشقَّها، فإذا هو بالخاتم فيها، فتختَّم به ثم جاء، فأخذ بناصيته فقال عند ذلك: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾.

وأخرج النسائيُّ وابن جرير وابن أبي حاتم ـ قال ابن حجر والسيوطيُّ: بسندٍ قويٍّ[(١)] ـ عن ابن عباس: أراد سليمانُ عليه السلام أن يدخلَ الخلاءَ، فأعطى لجرادةَ خاتمه ـ وكانت امرأتَهَ، وكانت أَحَبَّ نسائه إليه ـ فجاء الشيطانُ في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي. فأعطته، فلما لَبِسَهُ دانتِ الإنسُ والجِنُّ والشياطينُ، فلما خَرَجَ سليمانُ قال لها: هاتي خاتمي. قالت: قد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان، قالت: كذبتَ لستَ سليمان، فجعل لا يأتي أحداً فيقول له: أنا سليمان، إلا كَذَّبه، حتى جَعَلَ الصبيانُ يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك عَرَفَ أنه من أمرِ الله تعالى، وقام الشيطانُ يحكمُ بين الناس، فلما أراد الله تعالى أن يَرُدَّ عليه سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا: أَتُنْكِرْنَ من سليمان شيئاً؟ قلنَ: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّضٌ، وما كان يأتينا قبلَ ذلك، فلما رأى الشيطانُ أنه قد فُطِنَ له، ظَنَّ أنَّ أمرَه قد انقطعَ، فأمر الشياطينَ فكتبوا كُتُباً فيها سِحْرٌ ومَكْرٌ، فدفنوها تحت كُرسيِّ سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس وقالوا: بهذا كان يظهرُ سليمانُ على الناس ويغلبهم، فأكْفَرَ الناسُ سليمانَ، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فَطَرَحهُ في البحر، فتلقَّتهُ سمكةٌ، فأخذته، وكان عليه السلام يعملُ على شَطِّ البحر بالأجر، فجاء رجلٌ فاشترى سَمَكاً فيه تلك السَّمكة، فدعا سليمانَ فحملَ معه السمكَ إلى باب داره، فأعطاه تلك السمكة، فَشَقَّ بطنها، فإذا الخاتم فيه، فأخذهُ فَلَبِسَهُ، فدانتْ له الإنسُ والجِنُّ والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَبَ الشيطانُ إلى جزيرةٍ في البحر، فأرسل في طلبه، وكان

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣١٠، والخبر في السنن الكبرى للنسائي (١٠٩٢٦)، وتفسير الطبري ٢/ ٣٢٤.

مَريداً فلم يقدروا عليه حتى وجدوه نائماً، فبنوا عليه بنياناً من رصاصٍ، فاستيقظَ فأوثقوه وجاؤوا به إلى سليمان، فأمرَ فنُقِرَ له صندوقٌ من رخام، فأُدخل في جوفه، ثم سُدَّ بالنحاس، ثم أُمر به فَطُرِحَ في البحر.

وذُكر في سبب ذلك أنه عليه السلام كان قد غزا صيدون في الجزائر، فقتل مَلِكَها وأصاب ابنته، وهي جرادةُ المذكورة، فأَحَبَّها، وكان لا يرقأُ دَمْعُها جَزَعاً على أبيها، فأمرَ الشياطينَ فمثَّلوا لها صورته ـ وكان ذلك جائزاً في شريعته ـ وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها، يَسْجُدْنَ لها كعادتهنَّ في مُلْكه، فأخبرهُ آصَفُ[1] فَكَسَرَ الصورةَ وضَرَبَ المرأة، فعُوتب بذلك حيث تغافلَ عن حال أهله.

واختلف في اسم ذلك الشيطان، فعن السُّدِّي أنه حبقيق؛ وعن الأكثرين أنه صَخْرٌ، وهو المشهور، وإنما قال سبحانه: (جَسَدًا) لأنه إنما تمثَّلَ بصورة غيره، وهو سليمانُ عليه السلام، وتلك الصورةُ المتمثّلة ليس فيها روحُ صاحبها الحقيقيِّ، وإنما حَلَّ في قالبها ذلك الشيطان، فلذا سُمِّيتْ جَسَداً، وعبارة «القاموس»[2] صريحةٌ في أنَّ الجَسَدَ يُطلَقُ على الجِنِّي.

وقال أبو حيان وغيره: إنَّ هذه المقالةَ من أوضاع اليهود وزنادقة السوفسطائية، ولا ينبغي لعاقلٍ أن يعتقدَ صِحَّةَ ما فيها، وكيف يجوزُ تمثُّلُ الشيطان بصورة نبيٍّ حتى يَلتبسَ أمرُهُ عند الناس، ويعتقدوا أنَّ ذلك المتصوَّر هو النبيّ، ولو أمكن وجودُ هذا لم يُوثَقْ بإرسال نبيٍّ، نسأل الله تعالى سلامة ديننا وعقولنا[3].

ومن أقبح ما فيها زَعْمُ تسلُّط الشيطان على نساء نبيِّه، حتى وطئهنَّ وهُنَّ حُيَّضٌ. الله أكبرُ، هذا بهتانٌ عظيمٌ، وخَطْبٌ جسيم، ونسبةُ الخبر إلى ابن عباس رضي الله عنهما لا تسلم صِحَّتها، وكذا لا تسلمُ دعوى قوَّة سَنَده إليه، وإن قال بها مَن سمعت.

(١) آصَف: كاتب سليمان صلوات الله عليه، دعا بالاسم الأعظم فرأى سليمانُ العرش مستقراً عنده. القاموس المحيط (أصف).

(٢) مادة (جسد).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٩٧.

وجاء عن ابن عباس برواية عبد الرزاق وابن المنذر[١] ما هو ظاهرٌ في أنَّ ذلك من أخبار كَعْب، ومعلومٌ أنَّ كعباً يرويه عن كتب اليهود، وهي لا يُوثَقُ بها، على أنَّ إشعارَ ما يأتي بأنَّ تسخيرَ الشياطين بعد الفتنة يأبى صِحَّةَ هذه المقالة كما لا يخفى، ثم إنَّ أمرَ خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواصِّ والعوامِّ، ويُستبعد جدّاً أن يكون الله تعالى قد رَبَطَ ما أعطى نبيَّه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم، وعندي أنه لو كان في ذلك الخاتم السِّرُّ الذي يقولون، لَذَكَرَهُ الله عزَّ وجلَّ في كتابه، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقال قوم: مَرِضَ سليمان عليه السلام مَرَضاً كالإغماء، حتى صار على كُرسيِّه كأنه جَسَدٌ بلا روح، وقد شاع قولهم في الضعيف: لَحْمٌ على وَضَم[٢]، وجَسَدٌ بلا روح، فالجسدُ الملقى على الكرسيِّ هو عليه السلام نفسه. وروي ذلك عن أبي مسلم، وقال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الصحة، وجعل «جَسَداً» حالاً من مفعول «ألقينا» المحذوف، كأنه قيل: ولقد فتنَّا سليمانَ ـ أي: ابتليناه وأمرضناه ـ وألقيناه على كرسِّيه ضعيفاً كأنه جَسَدٌ بلا روح، ثم رَجَعَ إلى صِحَّته. ولا يخفى سقمُهُ، والحقُّ ما ذُكر أولاً في الحديث المرفوع.

وعَطْفُ «أناب» بـ «ثم» وكان الظاهر الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾، قيل: إشارةٌ إلى استمرار إنابته وامتدادها، فإنَّ الممتَدَّ يُعطَفُ بها نظراً لأواخره، بخلاف الاستغفار، فإنه ينبغي المسارعةُ إليه، ولا امتدادَ في وقته.

وقيل: إنَّ العَطْفَ بـ «ثم» هنا لما أنه عليه السلام لم يعلم الداعي إلى الإنابة عَقيبَ وقوعه، وهذا بخلاف ما كان في قصة داود عليه السلام، فإنَّ العَطْفَ هناك على ظَنِّ الفتنة، واللائقُ به أن لا يُؤخِّر الاستغفارُ عنه. وقيل: العَطْفُ بها هنا لما أنَّ بين زمان الإنابة وأول زمان ما وقع منه عليه السلام من تَرْك الاستثناء مدَّةً

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٣١٠.

(٢) الوَضَم: ما وقيتَ به اللحمَ عن الأرض من خشب وحصير. وتركهم لحماً على وضم: أوقعهم فذلَّلهم وأوجعهم. القاموس المحيط (وضم).

طويلة، وهي مُدَّةُ الحمل، وليس بين زمان استغفار داود عليه السلام وأول زمان ما وقع منه كذلك.

﴿قَالَ﴾ بدلٌ من «أناب» وتفسيرٌ له على ما في «إرشاد العقل السليم»[(١)]، وهو الظاهر. ويمكن أن يكون استئنافاً بيانياً نشأ من حكاية ما تقدَّم، كأنه قيل: فهل كان له حالٌ لا يضرُّ معه مَسْحُ الخيل سُوقها وأعناقها؟ وهل كان بحيثُ تقتضي الحكمةُ فتنته؟ فأُجيب بما أُجيب، وحاصله: نعم كان له حالٌ لا يضرُّ معه المَسْحُ، وكان بحيثُ تقتضي الحكمةُ فتنتهُ، فقد دعا بمُلْكٍ عظيمٍ فوُهِبَ له، ويمكن أن يُقرَّرَ الاستئنافُ على وجهٍ آخر، وكذا يمكن أن يكونَ استئنافاً نحويّاً لحكاية شيءٍ من أحواله عليه السلام، فتأمل.

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما لم أستحسنْ صدورَهُ عني.

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: لا يصحُّ لأحدٍ غيري لِعَظمته، ف «بعد» هنا نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: غير الله تعالى، وهو أعمُّ من أن يكونَ الغيرُ في عَصْره، والمراد وَصْفُ الملك بالعَظَمة على سبيل الكناية، كقولك: لفلانٍ ما ليس لأحدٍ من الفَضْل والمال، وربما كان في الناس أمثالُهُ، تريدُ أنَّ له من ذلك شيئاً عظيماً، لا أن لا يُعطى أحدٌ مثله ليكون منافسة.

وما أخرج عبد بن حميد والبخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُّ، والحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ عفريتاً جعل يتفلَّتُ عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي، وإنَّ الله تعالى أمكنني منه، فلقد هَممْتُ أن أربطه إلى ساريةٍ من سواري المسجد حتى تُصبحوا فتنظروا إليه كلّكم، فَذَكَرْتُ قولَ أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فردَّهُ الله تعالى خاسئاً»[(٢)] لا ينافي ذلك؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أراد كمالَ رعايةِ دعوة

---

(١) ٧/ ٢٢٧.

(٢) صحيح البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١)، والنسائي في الكبرى (١١٣٧٦)، ونوادر الأصول ص١١١، وهو عند أحمد (٧٩٦٩).

أخيه سليمان عليه السلام بِتَرْكِ شيءٍ تضمَّنه ذلك المُلْك العظيم، وإلا فالمُلْكُ العظيمُ ليس مجرَّدَ رَبْطِ عفريتٍ إلى سارية، بل هو سائرُ ما تضمَّنه قوله تعالى الآتي: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ إلخ.

وقيل: إنَّ عَدَمَ المنافاة؛ لأنَّ الكنايَةَ تُجامعُ إرادةَ الحقيقةِ كما تُجامعُ إرادةَ عَدَمِها، ولعلَّه إنما طلب عليه السلام ذلك ليكونَ علامةً على قبول سؤاله المغفرةَ وجَبْرَ قَلْبٍ عمَّا فاته بتَرْكِ الاستثناء، أو ليتوصَّل به إلى تكثير طاعته لله عزَّ وجلَّ ونعمت الدنيا الصالحة للعبد الصالح، فلا إشكال في طَلَبِ الملك في هذا المقام إذا قلنا بما يقتضيه ظاهرُ النَّظْم الجليل من صدور الطَّلبين معاً.

وقال الزمخشريُّ: كان سليمان عليه السلام ناشئاً في بيت الملك والنبوَّة، ووارثاً لهما، فأراد أن يطلبَ من ربِّه عزَّ وجلَّ معجزةً، فطلب على حَسَبِ إلفه مُلْكاً زائداً على الممالك زيادةً خارقةً للعادة، بالغةً حَدَّ الإعجاز؛ ليكون ذلك دليلاً على نبوَّته، قاهراً للمبعوث إليهم، ولن تكون معجزةً حتى تخرقَ العادات، فذلك معنى: «لا ينبغي لأحد من بعدي»[1]. فقوله: «من بعدي» بمعنى: من دوني وغيري كما في الوجه السابق، وحُسْنُ طَلَبِ ذلك معجزةً مع قَطْع النَّظر عن الإلف أنه عليه السلام كان زمن الجبَّارين وتفاخرهم بالملك، ومعجزةُ كلِّ نبيٍّ من جنس ما اشتهر في عصره، ألا ترى أنه لمَّا اشتهر السِّحرُ وغَلَبَ في عهد الكليم عليه السلام، جاءهم بما يتلقَّفُ ما أتوا به، ولما اشتهر الطِّبُّ في عهد المسيح عليه السلام، جاءهم بإبراء الأكْمَه والأبرص وإحياء الموتى، ولما اشتهر في عهد خاتم الرسل ﷺ الفصاحة، أتاهم بكلامٍ لم يقدروا على أقْصَرِ فَصْلٍ من فصوله.

واعتُرض بأنَّ اللائقَ بطَلَبِ المعجزةِ أن يكون في ابتداء النبوَّة، وظاهرُ النَّظْم الجليل أنَّ هذا الطَّلَبَ كان بعد الفتنة والإنابة، كيف لا وقوله تعالى: «قال» إلخ بدلٌ من «أناب» وتفسيرٌ له، والفتنةُ لم تكنْ في الابتداء كما يُشعر به النَّظْمُ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٥.

وأجيب بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ اللائقَ بطَلَبِ المعجزةِ كونها في ابتداء النبوَّة، وإن سُلِّمَ فليس في الآية ما ينافي وقوعه، وكذا وقوعُ الفتنة في ابتدائها لاسيَّما إن قلنا: إنَّ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ إلخ ليس تفسيراً لـ «أناب».

وأجيب على القول بأنَّ الفتنةَ كانت سَلْبَ الملك بأنَّ رجوعَهُ بعدُ كالابتداء.

وذكر بعضُ الذاهبين إلى ذلك أنه عليه السلام أقام في مُلْكه قبل الفتنة عشرينَ سنة، وأقام بعدها عشرينَ سنة أيضاً، وقالوا في هذه الآية: إنَّ مَصَبَّ الدعاء الوَصْفُ، فمعنى الآية: هَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ غيري ممن هو في عصري، بأنْ يسلبه مني كهذه السلبة. وروي هذا المعنى عن عطاء بن أبي رباح وقتادة، وحاصله الدعاء بعَدمِ سَلْبِ مُلْكه عنه في حياته، ويُفهم مما في سياق التفريع إجابةُ سؤاله عليه السلام، وأنَّ ما وُهِبَ له لا يُسلَبُ عنه بَعْدُ.

وجُوِّزَ أن يكونَ هذا دعاءً بِعَدَم السَّلْبِ، وإن لم يتقدَّم سَلْبٌ، ودوامُ نعمة الله عزَّ وجلَّ مما يَحْسُنُ الدعاءُ به، والآثار مَلأى من ذلك، فهذا الوجهُ لا يتعيَّنُ بناؤه على تفسير الفتنة بسَلْبِ الملك على ما حكي سابقاً.

وقال الجبائيُّ: إنه عليه السلام طَلَبَ مُلْكاً لا يكونُ لغيره أبداً، ولم يطلبْ ذلك إلا بعد الإذن، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يطلبون إلا ما يؤْذَنُ لهم في طَلَبه، وجائزٌ أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه إن سأل ذلك كان أصلح له في الدين، وأعلمه أنْ لا صلاحَ لغيره فيه، وهو نظيرُ قول القائل: اللهم اجعلني أكثرَ أهل زماني مالاً إذا علمتَ أنَّ ذلك أصلح لي، فإنه حَسَنٌ لا يُنْسَبُ قائله إلى شُحٍّ. اهـ.

قيل: ويجوز أن يكونَ معنى الآية عليه: هَبْ لي مُلْكاً ينبغي لي حِكمة، ولا ينبغي حِكمةً لأحدٍ غيري، وأراد بذلك طَلَب أن يكون عليه السلام متأهِّلاً لِنِعَمِ الله عزَّ وجلَّ. وهو كما ترى. وقيل غير ذلك.

ومن أعجبِ ما رأيتُ ما قاله السيد المرتضى: إنه يجوزُ أن يكونَ إنما سألَ مُلْكَ الآخرة وثوابَ الجنة، ويكونُ معنى قوله: «لا ينبغي لأحدٍ من بعدي»: لا يستحقُّهُ بعدَ وصوله إليه من حيثُ لا يصحُّ أن يعمل ما يستحقُّ به ذلك لانقطاع

التكليف. ولا يخفى أنه مما لا يرتضيه الذوقُ، والتفريعُ الآتي آبٍ عنه كلَّ الإباء.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على بعض الأقوال المذكورة فيها على تكفير من ادَّعى استخدامَ الجِنِّ وطاعتهم له، وأيَّدَ ذلك بالحديث السابق[1]، والحقُّ أنَّ استخدامَ الجِنِّ الثابت لسليمان عليه السلام لم يكنْ بواسطة أسماءٍ ورياضات، بل هو تسخيرٌ إلهيٌّ من غير واسطة شيءٍ، وكان أيضاً على وجهٍ أتمّ، وهو مع ذلك بعض الملك الذي استوهبه. فالمختصُّ على تقدير إفادة الآية الاختصاصَ مجموعُ ما تضمَّنه قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا﴾ إلخ فالظاهرُ عدمُ إكفار مَنْ يدَّعي استخدامَ شيءٍ من الجِنِّ، ونحن قد شاهدنا مراراً مَنْ يدَّعي ذلك، وشاهدنا آثارَ صِدْقِ دعواه على وجهٍ لا يُنكرهُ إلا سوفسطائي أو مكابر.

ومن الاتفاقيات الغريبة أني اجتمعتُ يومَ تفسيري لهذه الآية برجلٍ مَوْصليٍّ يدَّعي ذلك، وامتحنتُهُ بما يُصدِّقُ دعواه في مَحْفَلٍ عظيمٍ، ففعل وأتى بالعَجَبِ العُجاب، وكانت الأدلةُ على نفي احتمال الشَّعبذة ونحوها ظاهرةً لذوي الألباب، إلا أنَّ لي إشكالاً في هذا المقام، وهو أنَّ الخادمَ الجنيَّ قد يُحضِرُ الشيءَ الكثيفَ من نحو صندوقٍ مقفلٍ بين جَمْعٍ في حُجْرةٍ أُغلقت أبوابها، وسُدَّتْ منافذها، ولم يشعر به أحد، ووجهُ الإشكال أنَّ الجنيَّ لطيفٌ، فكيف سَتَرَ الكثيفَ فلم يُرَ في الطريق، وكيف أخرجه من الصندوق وأدخله الحُجْرةَ وقد سُدَّتِ[2] المنافذ، وتَلَطُّفُ الكثيف ثم تكثُّفه بَعْدُ مما لا يقبله إلا كثيفٌ أو سخيفٌ، ومثلُ ذلك كونُ الإحضار المذكور على نحو إحضار عَرْشِ بلقيس بالإعدام والإيجاد كما يقوله الشيخ الأكبر، أو بوجهٍ آخرَ من الإعجاز[3] كما يقول غيره، ولعلَّ الشرعَ أيضاً يأبى هذا، وسرعةُ المرور إن نفعتْ ففي عدم الرؤية في الطريق.

وقُصارى ما يقال: لعلَّ للجِنِّيِّ سِحْراً أو نحوه، سَلَبَ به الإحساسَ، فَتَصَرَّفَ بالصندوق ومنافذ الحُجْرة حَسْبَما أراد، وأتى بالكثيف يَحملهُ ولم يشعرْ به أحدٌ من

---

(١) وهو حديث العفريت الذي كان يتفلَّت.

(٢) في (م): سددت.

(٣) قوله: من الإعجاز، ليس في (م).

الناس، فإنْ تَمَّ هذا فبها، وإلا فالأمرُ مُشكلٌ والله المتعال أعلم بحقيقة الحال[(١)].

وظاهر جَعْل جملة: «قال ربِّ اغفر لي» تفسيراً للإنابة يقتضي أنَّ الاستغفار مقصودٌ لذاته، لا وسيلةٌ للاستيهاب، وفي كون الاستيهاب مقصوداً لذاته أيضاً احتمالان.

وتقديمُ الاستغفار على تقدير كونهما مقصودين بالذات؛ لمزيد اهتمامه بأمر الدين، وقد يُجْعَلُ مع هذا وسيلةً للاستيهاب المقصود أيضاً، فإنَّ افتتاحَ الدعاء بنحو ذلك أرجى للإجابة، وجُوِّزَ على بُعْدٍ بَعْدَ التزام الاستئناف في الجملة كونُ الاستيهاب هو المقصود لذاته، والاستغفارُ وسيلة له، وسيجيءُ إن شاء الله تعالى ما قيل في الاستئناس له.

وقرئ: «من بعديَ» بفتح الياء[(٢)]، وحكي القراءة به في «لي»[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥﴾ تعليلٌ للدعاء بالمغفرة والهبة معاً، لا للدعاء بالأخيرة فقط، فإنَّ المغفرةَ أيضاً من أحكام وَصْف الوهَّابية قَطْعاً، ومَنْ جوَّزَ كَوْنَ الاستيهاب هو المقصود استأنسَ له بهذا التعليل ظَنّاً منه أنه للدعاء بالأخيرة فقط، وكذا بِعَدَمِ التعرُّضِ لإجابة الدعاء بالأولى، فإنَّ الظاهرَ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ إلى آخره، تفريعٌ على طَلَبه مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، ولو كان الاستغفارُ مقصوداً أيضاً لقيل: فغفرنا له وسخَّرنا له الريح.. إلخ.

وأُجيب بأنه يجوزُ أن يقال: إنَّ المغفرة لمن استغفرَ - لا سيَّما الأنبياء عليهم السلام - لمَّا كانتْ أمراً معلوماً بخلاف هِبةِ مُلْكٍ لمن استوهبَ، لم يصرِّح بها، واكتفى بدلالة ما ذُكر في حَيِّز الفاء، مع ما في الآية بعد على ذلك، وتَقوَى هذه الدلالة على تقدير أن يكونَ طلبُ الملك علامةً على قبول استغفاره وإجابة دعائه. فتأمل.

---

(١) قوله: والله المتعال أعلم بحقيقة الحال، ليس في (م).

(٢) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر، التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.

(٣) ذكرها أبو السعود في تفسيره ٧/ ٢٢٧.

والتسخيرُ: التذليلُ، أي: فذلَّلناها لطاعته إجابةً لدعوته، وقيل: أَدَمْنا تذليلها كما كان.

وقرأ الحسنُ وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر: «الرياح» بالجمع(١)، قيل: وهو أَوفقُ؛ لِمَا شاع من أنَّ الريحَ تُستعمل في الشَّرِّ، والرياحُ في الخير، وقد علمتَ أنَّ ذلك ليس بمطَّرد.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ بيانٌ لتسخيرها له عليه السلام، أو حالٌ، أي: جاريةً بأمره.

﴿رُخَآءً﴾ أي: ليِّنةً من الرخاوة لا تُحرِّكُ لشدَّتها. واستشكل هذا بأنه ينافي قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١] لوَصْفها ثمةَ بالشِّدَّة، وهنا باللِّين.

وأجيب بأنها كانتْ في أَصْلِ الخِلْقة شديدةً، لكنها صارتْ لسليمانَ لَيِّنةً سهلةً. أو أنها تشتدُّ عند الحمل وتلينُ عند السير، فوُصِفَتْ باعتبار حالين. أو أنها شديدةٌ في نفسها، فإذا أراد سليمانُ عليه السلام لِينَها لانتْ على ما يُشير إليه قوله تعالى: «بأمره». أو أنها تلينُ وتعصفُ باقتضاء الحال.

وقال ابن عباس والحسن والضحاك: «رُخاءً»: مطيعةً لا تخالفُ إرادته، كالمأمور المنقاد، فالمرادُ بلينها انقيادُها له، وهو لا ينافي عَصْفَها، واللِّينُ يكون بمعنى الإطاعة، وكذا الصَّلابةُ تكون بمعنى العصيان.

﴿حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾ أي: قَصَدَ وأراد، كما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وحكى الزجاج(٢) عن العرب: أصابَ الصَّوابَ فأخطأ الجواب. وعن رؤبةَ أنَّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طِلْبَتُنا. ورجعا، ويقال: أصابَ الله تعالى بك خيراً، وأنشد الثعلبيُّ:

أصابَ الكلامَ فلم يستطعْ فأخطا الجوابَ لَدى المعضلِ(٣)

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٣ عن أبي جعفر، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٣٩٨.

(٢) كما في البحر ٧/ ٣٩٨، وذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٧٥ عن الأصمعي.

(٣) البيت في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٦، وتفسير القرطبي ١٨/ ٢٠٨، والبحر ٧/ ٣٩٨، وعندهم: المفصل، بدل: المعضل.

وعن قتادة: أنَّ «أصاب» بمعنى أراد لغةُ هَجَر. وقيل: لغة حِمْير. وجُوِّزَ أن يكون «أصاب» من صابَ يصوبُ بمعنى نزل، والهمزةُ للتعدية، أي: حيث أنزل جنوده. و«حيث» متعلِّقةٌ بـ «سخَّرنا» أو بـ «تجري».

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عَطْفٌ على الريح ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧﴾ بدلٌ من «الشياطين»، وهو بدلُ كلٍّ من كلٍّ إن أُريد المعهودونَ المسخَّرون، أو أُريد مَنْ له قوَّةُ البناء والغَوص والتمكُّن منهما. أو بدلُ بعضٍ إن لم يُرَدْ ذلك، فيقدَّرُ ضميرٌ، أي: منهم. والغَوْصُ لاستخراج الحِلية، وهو عليه السلام ـ على ما قيل ـ أولُ من استخرجَ الدُّرَّ.

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ عَطْفٌ على «كل» لا على «الشياطين»؛ لأنهم منهم، إلا أن يُراد العَهْدُ، ولا على ما أُضيف إليه «كل» لأنه لا يَحسُنُ فيه إلا الإضافةُ إلى مفردٍ منكَّرٍ أو جَمْعٍ مُعرَّفٍ.

والأصفاد جمع: صَفَدٍ، وهو القيدُ في المشهور، وقيل: الجامعة، أعني الغُلَّ الذي يجمعُ اليدين إلى العنق، قيل: وهو الأنسبُ بـ «مقرَّنين»؛ لأنَّ التَّقرينَ بها غالباً، ويُسمَّى به العطاء؛ لأنه ارتباطٌ للمنعَم عليه، ومنه قول عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: مَنْ بَرَّكَ فقد أَسَرَكَ، ومَنْ جفاك فقد أَطْلَقَكَ. وقول القائل: غَلَّ يداً مُطْلِقُها، وفكَّ رقبةً معتقُها، وقال أبو تمام(١):

هِمَمي معلقةٌ عليك رقابُها ... مغلولةٌ إنَّ العطاءَ إسارُ

وتبعه المتنبي في قوله(٢):

وقيَّدتُ نفسي في ذَراك محبَّةً ... ومن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تقيَّدَا

وفرَّقوا بين فعليهما، فقالوا: صَفَدَهُ: قيَّدهُ، وأَصْفَده: أعطاه، عكسُ وَعَدَهُ وأَوْعَده. ولهم في ذلك كلامٌ طويلٌ قال فيه الخفاجيُّ ما قال، ثم قال: والتحقيق عندي أنَّ هاهنا مادَّتين في كلٍّ منهما ضارٌّ ونافعٌ، وقليلُ اللَّفظ وكثيره، وقد وَرَدَ في إحداهما الضارُّ بلفظٍ قليلٍ مقدَّم، والنافعُ بلفظٍ كثيرٍ مؤخَّر، وفي الأخرى عكسُهُ،

---

(١) في ديوانه ٢/ ١٨١.
(٢) في ديوانه ٢/ ١٥.

ووجههُ في الأول أنه أمرٌ واقعٌ؛ لأنه وُضِعَ للقيد، ثم أُطلق على العطاء؛ لأنه يُقيِّدُ صاحبه، وعُبِّرَ بالأقلِّ في القيد لضيقه المناسب لِقِلَّةِ حروفه، وبالأكثر في العطاء؛ لأنه من شأن الكرم، وقُدِّمَ الأولُ لأنه أصلٌ أخفّ، وعُكِسَ ذلك في وَعَدَ وأَوْعَدَ، فعبّر في النافع بالأقلِّ وقدّمَ، وأخّرَ الضارّ وكثّر حروفه؛ لأنه مستقبلٌ غيرُ واقع، والخيرُ الموعودُ به يُحمد سرعة إنجازه وقلّة مدّة وقوعه، فإن أهنأ البرِّ عاجله، وهذا يناسبُ قِلَّةَ حروفه، وفي الوعيد يُحمَدُ تأخيره لِحُسْنِ الخلف والعفو عنه، فناسَبَ كثرة حروفه، ثم قال: وهذا تحقيقٌ في غاية الحُسْنِ، وما عداهُ وَهْمٌ فارغٌ فاعرفه(١).

والمراد بهؤلاء المقرَّنين المَرَدةُ، فتفيدُ الآيةُ تفصيلَ الشياطين إلى عَمَلَةٍ استعملهم عليه السلام في الأعمال الشاقَّة؛ كالبناء والغَوْص، ومَرَدةٍ قَرَنَ بعضَهم ببعضٍ بالجوامع ليكفُّوا عن الشَّرِّ، وظاهره أنَّ هناك تقييداً حقيقةً، وهو مشكلٌ لأنَّ الشياطينَ إما أجسامٌ ناريةٌ لطيفةٌ قابلةٌ للتشكُّل، وإما أرواحٌ خبيثةٌ مجرَّدةٌ، وأيَّاما كان لا يمكنُ تقييدها ولا إمساكُ القيد لها.

وأُجيبَ باختيار الأول، وهو الصحيح، والأصفاد غيرُ ما هو المعروف، بل هي أصفادٌ يتأتَّى بها تقييدُ اللَّطيف على وجهٍ يمنعه عن التصرُّف، والأمر من أوَّله خارقٌ للعادة.

وقيل: إنَّ لَطَافةَ أجسامهم بمعنى شفافتها، والشفافةُ لا تأبى الصَّلابة؛ كما في الزُّجاج والفَلَكِ عند الفلاسفة، فيمكنُ أن تكونَ أجسامهم شفافةً وصُلْبةً، فلا تُرى لشفافتها، ويتأتَّى تقييدُها لصلابتها، وأَنكر بعضُهم الصلابةَ؛ لتحقُّق نفوذ الشياطين فيما لا يمكنُ نفوذُ الصُّلب فيه، وأنهم لا يُدرَكون باللَّمس والصُّلْبُ يُدرَكُ به.

وقيل: لا مانع من أنه عليه السلام يُقيِّدهم بشكلٍ صلب، فيقيِّدهم حينئذٍ بالأصفاد، والشيطانُ إذا ظَهَرَ متشكِّلاً بشكلٍ قد يتقيَّدُ به، ولا يمكنه التشكُّل بغيره، ولا العَوْدُ إلى ما كان، وقد نصَّ الشيخُ الأكبر محيي الدين قُدِّسَ سِرُّهُ أنَّ نظر

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٣.

الإنسانِ يقيِّدُ الشيطانَ بالشكل الذي يراه فيه، فمتى رأى الإنسانُ شيطاناً بشكلٍ ولم يَصْرِفْ نَظَرَهُ عنه بالكلية لم يستطيع الشيطانُ الخفاءَ عنه، ولا التشكُّلَ بشكلٍ آخرَ، إلى أن يجدَ فرصة صَرْفِ النظر عنه ولو برمشة عين.

وزعم الجبائيُّ أنَّ الشيطانَ كان كثيفَ الجسم في زمن سليمان عليه السلام ويُشاهده الناس، ثم لما تُوفِّيَ عليه السلام أماتَ الله عزَّ وجلَّ ذلك الجِنَّ وخَلَقَ نوعاً آخرَ لطيفَ الجسم، بحيثُ لا يُرى ولا يَقوى على الأعمال الشاقَّة.

وهذا لا يُقبَلُ أصلاً إلا بروايةٍ صحيحة، وأنَّى هي؟!

وقيل: الأقرب أنَّ المرادَ تمثيلُ كَفِّهم عن الشرور بالإقران في الصَّفَد، وليس هناك قيدٌ ولا تقييدٌ حقيقة.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ إما حكايةٌ لما خُوطب به سليمان عليه السلام مبيِّنةٌ لِعِظَم شأن ما أوتي من الملك، وأنه مُفوَّضٌ إليه تفويضاً كُليّاً، وإما مقولٌ لقولٍ مُقدَّرٍ هو معطوفٌ على «سخَّرنا» أو حالٌ من فاعله، أي: وقلنا، أو: قائلين له هذا.. إلخ، والإشارة إلى ما أعطاه مما تقدَّم، أي: هذا الذي أعطيناكَهُ من الملك العظيم والبَسْطة، والتسليط على ما لم يُسَلَّطْ عليه غيرُكَ، عطاؤنا الخاصُّ بك، فأَعْطِ مَنْ شِئْتَ وامنعْ مَنْ شِئْتَ غيرَ مُحاسَبٍ على شيءٍ من الأمرين، ولا مسؤول عنه في الآخرة، لتفويض التصرُّف فيه إليك على الإطلاق، فـ «بغير حسابٍ» حالٌ من المستكنِّ في الأمر، والفاءُ جزائيةٌ، و«هذا عطاؤنا» مبتدأٌ وخبرٌ، والإخبارُ مفيدٌ لما أشرنا إليه من اعتبار الخصوص، أي: عطاؤنا الخاصُّ بك، أو يقال: إنَّ ذِكْرَهُ ليس للإخبار به، بل ليترتَّبَ عليه ما بعده كقوله:

هــذه دارُهــمْ وأنــت مــشــوقٌ ... مــا بــقــاءُ الــدمــوع فــي الآمــاق[1]

وجُوِّزَ أن يكون «بغير حساب» حالاً من العطاء نحو: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] أي: هذا عطاؤنا متلبِّساً بغير حسابٍ عليه في الآخرة، أو: هذا عطاؤنا

(١) البيت في المدهش ص١٤٧ منسوباً للشبلي.

كثيراً جدّاً لا يُعَدُّ ولا يُحْسَبُ لغاية كثرته، وأن يكونَ صِلَةَ العطاء، واعتبره بعضهم قيداً له لتتمَّ الفائدة، ولا يحتاجُ لاعتبار ما تقدَّم، وعلى التقديرين ما في البين اعتراضٌ، فلا يضرُّ الفصلُ به، والفاء اعتراضيةٌ، وجاء اقترانُ الاعتراض بها كما جاء بالواو كقوله:

واعلمْ فعِلمُ المرء ينفعهُ أن سوفَ يأتي كلّ ما قُدِرا[1]

وقيل: الإشارةُ إلى تسخير الشياطين، والمراد بالمَنِّ والإمساك إطلاقهم وإبقاؤهم في الأصفاد، والمَنُّ قد يكونُ بمعنى الإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤] والأولى في قوله تعالى: «بغير حساب» حينئذٍ كونه حالاً من المستكنِّ في الأمر، وهذا القولُ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس[2].

وما روي عنه من أنه إشارةٌ إلى ما وُهِبَ له عليه السلام من النساء والقدرة على جماعهنَّ، لا يكاد يصحُّ؛ إذ لم يجرِ لذلك ذِكْرٌ في الآية، وإلى الأول ذهب الجمهور وهو الأظهر.

وقرأ ابن مسعود: «هذا فامننْ أو أمسك عطاؤنا بغير حساب»[3].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لَقُرْبَةً وكرامةً مع ما لَهُ من الملك العظيم، فهو إشارةٌ إلى أنَّ مُلْكَهُ لا يضرُّهُ ولا ينقصه شيئاً من مقامه.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ حُسْنَ مَرْجِعٍ في الجنة، وهو عَطْفٌ على «زلفى».

وقرأ الحسن وابن أبي عبلة: «وحُسْنُ» بالرفع[4]، على أنه مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، أي: له، والوقفُ عندهما على «لَزُلفى».

هذا، وأَمْرُ سليمانَ عليه السلام من أعظم الأمور، وكان مع ما آتاه الله تعالى

---

(١) سلف ١/ ٤٢٨.
(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ١٠٢، والدر المنثور ٥/ ٣١٥.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٧٦.
(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٩٩.

من الملك العظيم، يعملُ الخُوصَ بيده، ويأكلُ خبزَ الشعير، ويُطعم بني إسرائيل الحُوَّارَى، أخرجه أحمد في «الزهد»[1] عن عطاء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما رَفَعَ سليمان عليه السلام طَرْفه إلى السماء تخشُّعاً»[2] حيث أعطاه الله تعالى ما أعطاه، وكان في عَصْره من ملوك الفرس كيخسرو، فقد ذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في «تاريخه» أنه عليه السلام وَرِثَ مُلْكَ أبيه في عصر كيخسرو بن سباوش، وسار من الشام إلى العراق فبلغ خبره كيخسرو، فهرب إلى خراسان، فلم يلبثْ حتى هلك، ثم سار سليمانُ إلى مروٍ، ثم إلى بلاد التُّرك، فوغل فيها، ثم جاوَزَ بلادَ الصين، ثم عطف إلى أن وافى بلادَ فارس، فنزلها أياماً، ثم عاد إلى الشام، ثم أَمَرَ ببناء بيت المقدس، فلما فَرَغَ سارَ إلى تهامة، ثم إلى صنعاء، وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى، وغزا بلادَ المغرب الأندلسَ وطَنْجة وغيرهما، ثم انطوى البساطُ وضُرب له بين عساكر الموتى الفسطاط، فسبحان الملك الدائم الذي لا يزول ملكه ولا ينقضي سلطانه.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ قال ابن إسحاق: الصحيح أنه كان من بني إسرائيل، ولم يصحَّ في نَسَبه شيءٌ غير أنَّ اسم أبيه: أموص، وقال ابن جرير: هو أيوبُ بن أموص بن رازح[3] بن عَيص بن إسحاق عليه السلام، وحكى ابن عساكر[4] أنَّ أمه بنتُ لوطٍ، وأنَّ أباه ممن آمنَ بإبراهيم، فعلى هذا كان عليه السلام قبل موسى، وقال ابن جرير: كان بعد شعيب[5]، وقال ابن أبي خيثمة: كان بعد سليمان.

وقوله تعالى: «اذكر» إلخ عَطْفٌ على «اذكر عبدنا داود»، وعدمُ تصدير قصة سليمان عليه السلام بهذا العنوان؛ لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام،

---

(١) ص١١٥. والخوص: ورق النخل. والحُوَّارَى: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق، وكلُّ ما حُوِّرَ - أي: بُيِّضَ - من طعام. القاموس المحيط (خوص) و(حور).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٣١٤.

(٣) في الأصل: روح، وفي (م): روم. والمثبت من تاريخ الطبري ١/ ٣٢٢.

(٤) في تاريخ دمشق ١٠/ ٥٨.

(٥) تاريخ الطبري ١/ ٣٢٥.

و«أيوب» عَطْفُ بيانٍ لـ «عبدنا»، أو بدلٌ منه بدلَ كلٍّ من كلّ، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلُ اشتمال منه، أو من «أيوب».

﴿أَنِّى﴾ أي: بأني.

وقرأ عيسى بكَسْر همزة: «إِنِّي»[1].

﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وقرئ بإسكان ياء «مسَّني» وإسقاطها[2] ﴿بِنُصْبٍ﴾ بضمِّ النون وسكون الصاد: التعب، كالنَّصَب بفتحتين، وقيل: هو جَمْعُ نَصَبٍ كَوَثَنٍ وَوُثْنٍ. وقرأ أبو جعفر وشيبة، وأبو عمارة عن حفص، والجعفيُّ عن أبي بكر، وأبو معاذ عن نافع بضمَّتين[3]، وهي لغة، ولا مانع من كون الضمة الثانية عارضةً للإتباع، وربما يقال: إنَّ في ذلك رمزاً إلى ثِقَل تعبه وشِدَّته.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ والحسنُ والسديُّ وابنُ أبي عبلةَ ويعقوبُ والجحدريُّ بفتحتين[4]، وهي لغةٌ أيضاً، كالرُّشْدِ والرَّشَد.

وقرأ أبو حيوةَ، ويعقوب في روايةٍ، وهبيرة عن حفص، بفتح النون وسكون الصاد، قال الزمخشريُّ[5]: على أصل المصدر. ونصَّ ابنُ عطيةَ على أنَّ ذلك لغة أيضاً، قال بعد ذكر القراءات: وذلك كلُّه بمعنًى واحد، وهو المشقَّةُ، وكثيراً ما يُستعمل النصب في مشقَّة الإعياء. وفرَّق بعضُ الناس بين هذه الألفاظ، والصوابُ أنها لغاتٌ بمعنًى، من قولهم: أنصبني الأمرُ: إذا شَقَّ عليَّ[6]. انتهى.

والتنوينُ للتفخيم، وكذا في قوله تعالى ﴿وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ وأراد به الألم، وهو المراد بالضُّرِّ في قوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقيل: النُّصب والضُّرُّ في الجسد، والعذابُ في الأهل والمال.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٠.
(٢) يعني في الوصل، وقراءة إسكان الياء لحمزة، وهي في التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.
(٣) النشر ٢/ ٣٦١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٤٠٠.
(٤) النشر ٢/ ٣٦١ عن يعقوب، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٤٠٠.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٧/ ٤٠٠.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٧، والبحر ٧/ ٤٠٠.

وهذا حكايةٌ لكلامه عليه السلام الذي نادى به ربَّه عزَّ وجلَّ بعبارته، وإلا لقيل: إنه مَسَّه.. إلخ بالغَيبة. وإسنادُ المَسِّ إلى الشيطان قيل: على ظاهره، وذلك أنه ـ عليه اللَّعنةُ ـ سَمِعَ ثناءَ الملائكة عليهم السلام على أيوبَ عليه السلام، فَحَسَدَهُ، وسألَ الله تعالى أن يُسلِّطَهُ على جَسَده وماله وولده، ففعل عزَّ وجلَّ ابتلاءً له، والقصةُ مشهورة.

وفي بعض الآثار أنَّ الماسَّ له شيطانٌ يقال له: مسوط.

وأنكر الزمخشريُّ ذلك فقال: لا يجوز أن يُسلِّطَ الله تعالى الشيطانَ على أنبيائه عليهم السلام ليقضيَ من إتعابهم وتعذيبهم وَطَرَهُ، ولو قَدر على ذلك لم يَدَعْ صالحاً إلا وقد نَكَبهُ وأهلكَهُ، وقد تكرَّرَ في القرآن أنه لا سُلطانَ له إلا الوسوسةُ فحسبْ، وجَعَلَ إسنادَ المسِّ إليه هنا مجازاً فقال: لمَّا كانتْ وسوستُهُ إليه وطاعتهُ له فيما وَسْوَسَ سبباً فيما مَسَّهُ الله تعالى به من النصب والعذاب نَسَبَهُ إليه، وقد راعى عليه السلام الأدبَ في ذلك حيث لم ينسبهُ إلى الله سبحانه في دعائهِ مع أنه جلَّ وعلا فاعِلُه، ولا يَقْدِرُ عليه إلا هو(١).

وهذه الوسوسة، قيل: وسوسته إليه عليه السلام أن يسألَ الله تعالى البلاءَ ليمتحنَ ويُجرِّبَ صبرهُ على ما يصيبه، كما قال شرفُ الدين عمر بن الفارض(٢):

وبما شئتَ في هواكَ اختبرني فاختياري ما كان فيه رضاكا

وسؤاله البلاءَ دون العافية ذنبٌ بالنسبة لمقامه عليه لا حقيقةً، والمقصودُ من ندائه بذلك الاعترافُ بالذنب.

وقيل: إنَّ رجلاً استغاثه على ظالم، فَوَسْوَسَ إليه الشيطانُ بتَرْكِ إغاثته، فلم يُغِثْهُ، فمسَّهُ الله تعالى بسبب ذلك بما مسَّه.

وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملكٍ كافرٍ، فداهنه ولم يغزهُ وسوسةً من الشيطان، فعاتبه الله تعالى بالبلاء.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٦.

(٢) في ديوانه ص١٥٦.

وقيل: وَسْوَسَ إليه فأُعجبَ بكثرة ماله وولده، فابتلاه الله تعالى لذلك.

وكلُّ هذه الأقوال عندي متضمِّنةٌ ما لا يليق بمنصبِ الأنبياء عليهم السلام.

وذهب جَمْعٌ إلى أنَّ النُّصب والعذابَ ليسا ما كانا له من المرض والألم، أو المرض وذهاب الأهل والمال، بل أمران عَرَضا له وهو مريضٌ فاقد الأهل والمال، فقيل: هما ما كانا له من وسوسة الشيطان إليه في مرضه من عِظَمِ البلاء والقنوط من الرحمة والإغراء على الجزع، كان الشيطان يوسوس إليه بذلك، وهو يُجاهده في دَفْعِ ذلك، حتى تَعِبَ وتألَّم على ما هو فيه من البلاء، فنادى ربَّهُ يستصرفُهُ عنه، ويستعينهُ عليه: «أني مسَّنيَ الشيطانُ بِنُصبٍ وعذاب».

وقيل: كانا من وسوسة الشيطان إلى غيره، فقيل: إنَّ الشيطانَ تعرَّضَ لامرأته بصورة طبيب، فقالت له: إنَّ هاهنا مبتلًى، فهل لك أن تداويه؟ فقال: نعم، بشرط أن يقول إذا شفيتُهُ: أنت شفيتني. فمالتْ لذلك وعَرَضَتْ كلامه لأيوبَ عليه السلام، فعرفَ أنه الشيطانُ، وكان عليه ذلك أشدّ مما هو فيه، فنادى ربَّه: «أني مسني» إلخ.

وقيل: إنَّ الشيطانَ طلب منها أن تذبحَ لغير الله تعالى إذا عالجه وبَرِئَ، فمالتْ لذلك، فَعَظُمَ عليه ـ عليه السلام ـ الأمرُ فنادى.

وقيل: إنه كان يعودهُ ثلاثةٌ من المؤمنين، فارتدَّ أحدهم، فسأل عنه فقيل له: ألقى إليه الشيطانُ أنَّ الله تعالى لا يبتلي الأنبياءَ والصالحين، فتألَّم من ذلك جدّاً فقال ما قال. وفي روايةٍ: مَرَّ به نفرٌ من بني إسرائيل، فقال بعضُهم لبعض: ما أصابه هذا إلا بذنبٍ أصابه، وهذا نوعٌ من وسوسة الشيطان، فَعَظُمَ عليه ذلك فقال ما قال.

والإسنادُ على جميع ما ذُكر باعتبار الوسوسة، وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله سبحانه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ إما حكايةٌ لما قيل له، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على «نادى»، أي: فقلنا له: «اركضْ برجلك» أي: اضربْ بها.

وكذا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ فإنه أيضاً إما حكايةٌ لِمَا قيل له بعد امتثاله بالأمر ونبوع الماء، أو مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ معطوفٍ على مقدَّرٍ ينساقُ إليه الكلام، كأنه قيل: فَضَرَبها فنبعتْ عينٌ، فقلنا له: هذا مغتَسَلٌ تغتسلُ به وتشربُ منه، فيبرأُ ظاهركَ وباطنك، فالمغتسَلُ اسمُ مفعولٍ على الحذف والإيصال، وكذا الشراب، وعن مقاتلٍ: أنَّ المغتسَلَ اسمُ مكان، أي: هذا مكانٌ تغتسلُ فيه. وليس بشيء.

وظاهرُ الآية اتحادُ المخبَر عنه بمغتسلٍ وشراب، وقيل: إنه عليه السلام ضَرَبَ برجله اليمنى، فنبعتْ عينٌ حارَّةٌ فاغتسلَ منها، وبرجله اليسرى، فنبعتْ باردةٌ فشرب منها. وقال الحسن: رَكَضَ برجله فنبعتْ عينٌ فاغتسل منها، ثم مشى نحواً من أربعينَ ذراعاً، ثم رَكَضَ برجله، فنبعتْ أخرى فشربَ منها. ولعلَّه عَنَى بالأولى عيناً حارَّةً.

وظاهرُ النَّظْمِ عدمُ التعدُّد، و«باردٌ» على ذلك صفةُ «شراب» مع أنه مقدَّمٌ عليه صفة «مغتسل»[1]، وكونُ هذا إشارةً إلى جنس النابع، أو يُقدَّرُ: وهذا باردٌ.. إلخ = تكلُّفٌ لا يُخرج ذلك عن الضعف.

وقيل: أُمر بالرَّكْضِ بالرِّجْل ليتناثرَ عنه كلُّ داءٍ بجسده. وكان ذلك على ما روي عن قتادة والحسن ومقاتل بأرض الجابية من الشام، وفي الكلام حَذْفٌ أيضاً، أي: فاغتسلَ وشَرِبَ، فكشفنا بذلك ما به من ضُرّ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ بإحيائهم بعد هلاكهم، على ما روي عن الحسن.

وروى الطبرسيُّ عن أبي عبد الله رضي الله عنه أنَّ الله تعالى أحيا له أهله الذين كانوا ماتوا قبل البليَّة، وأهله الذين ماتوا وهو في البليَّة[2].

وفي «البحر»: الجمهورُ على أنه تعالى أحيا له مَنْ ماتَ من أهله، وعافى المرضى، وجَمَعَ عليه مَنْ تشتَّتَ منهم، وقيل - وإليه أميلُ -: وَهَبَهُ مَنْ كان حيّاً منهم،

---

(١) العبارة في حاشية الشهاب ٧/ ٣١٤ (والكلام منه): مع أنه تقدَّم عليه صفةً لـ «مغتسَل». وهي أنسب بالسياق.

(٢) مجمع البيان ٢٣/ ١١٩.

وعافاه من الأسقام، وأرغدَ لهم العيش، فتناسلوا حتى بلغَ عددهم عددَ من مضى[1].

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فكان له ضِعْفُ ما كان. والظاهرُ أنَّ هذه الهبةَ كانت في الدنيا، وزعم بعضٌ أنَّ هذا وَعْدٌ، وتكونُ تلك الهبةُ في الآخرة.

﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: لرحمةٍ عظيمةٍ عليه من قِبَلنا.

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾﴾ وتذكيراً لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبرَ، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يُصيبهم كما لجأ، ليفعل سبحانه بهم ما فعل به من حُسْن العاقبة.

روي عن قتادةَ أنه عليه السلام ابتلي سبعَ سنين وأشهراً، وأُلقي على كُناسة بني إسرائيل، تختلفُ الدوابُّ في جَسَده، فَصَبَرَ، ففرَّجَ الله تعالى عنه، وأعظمَ له الأجر وأحسن.

وعن ابن عباس أنه صار ما بين قدميه إلى قَرْنه قرحةً واحدة، وأُلقي على الرماد حتى بدا حجابُ قلبه، فكانت امرأته تسعى إليه فقالت له يوماً: أما ترى يا أيوبُ، قد نزل بي والله من الجهد والفاقة ما إن بِعْتُ قروني برغيفٍ فأطعمتك، فادعُ الله تعالى أن يشفيكَ ويريحك؟ فقال: ويحكِ كنَّا في النعيم سبعين عاماً، فاصبري حتى نكونَ في الضُّرِّ سبعين عاماً. فكان في البلاء سبعَ سنين، ودعا فجاء جبريلُ عليه السلام فأخذَ بيده، ثم قال: قُمْ، فقام عن مكانه، وقال: اركضْ برجلكَ هذا مغتسلٌ باردٌ وشراب، فاغتسلَ وشربَ فبرئ، وألبسه الله تعالى حُلَّةً من الجنة، فتنحَّى فجلس في ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت: يا عبد الله أين المبتلَى الذي كان هاهنا؟ لعلَّ الكلابَ ذهبت به أو الذئاب، وجعلتْ تكلِّمهُ ساعةً، فقال: ويحكِ أنا أيوب، قد رَدَّ الله تعالى عليَّ جسدي. ورَدَّ الله تعالى عليه ماله وولده ومثلهم معهم، وأمطرَ عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذُ الجرادَ بيده ويجعله في ثوبه، وينشر كساءه فيجعل فيه، فأوحى الله تعالى إليه: يا أيوب، أما شبعتَ؟ قال: يا ربِّ من الذي يشبعُ من فضلك ورحمتك.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠١.

وفي «البحر»: روى أنس عن النبيِّ ﷺ: «أن أيوبَ بقي في محنته ثماني عشرةَ سنة، يتساقط لحمهُ حتى مَلَّه العالم، ولم يصبرْ عليه إلا امرأته»(١).

وعِظَمُ بلائه عليه السلام مما شاع وذاع، ولم يختلفْ فيه اثنان، لكن في بلوغ أمره إلى أن أُلقي على كُناسة ونحو ذلك، فيه خلافٌ؛ قال الطبرسيُّ: قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكونَ بصفةٍ يستقذرهُ الناس عليها؛ لأنَّ في ذلك تنفيراً، فأما الفقرُ والمرضُ وذهابُ الأهل، فيجوز أن يمتحنه الله تعالى بذلك(٢).

وفي «هداية المريد» لِلَّقاني: أنه يجوز على الأنبياء عليهم السلام كلُّ عَرَضٍ بشريٍّ ليس محرَّماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مُزْرِياً ولا مُزْمِناً، ولا مما تَعافُه الأنفُسُ، ولا مما يؤدِّي إلى النفرة، ثم قال بعد ورقتين: واحترزنا بقولنا: ولا مزمناً ولا مما تعافه الأنفس، عمَّا كان كذلك؛ كالإقعاد والبَرَصِ والجُذام والعمى والجنون، وأما الإغماءُ فقال النوويُّ: لاشكَّ في جوازه عليهم؛ لأنه مرضٌ، بخلاف الجنون فإنه نَقْصٌ، وقيَّدَ أبو حامد الإغماءَ بغير الطويل، وجزمَ به البلقيني، وقال السبكيُّ: وليس كإغماء غيرهم؛ لأنه إنما يسترُ حواسَّهم الظاهرةَ دون قلوبهم؛ لأنها معصومةٌ من النوم الأخف. قال: ويمتنعُ عليهم الجنونُ وإن قلَّ؛ لأنه نَقْصٌ، ويلحقُ به العَمى، ولم يَعْمَ نبيٌّ قطُّ، وما ذُكر عن شعيبٍ من كونه كان ضريراً لم يثبتْ، وأما يعقوبُ فحصلتْ له غشاوةٌ وزالت. اهـ.

وفرَّقَ بعضُهم في عُروضِ ذلك بين أن يكونَ بعد التبليغ وحصول الغرض من النبوَّة فيجوز، وبين أن يكونَ قبلُ فلا يجوز.

ولعلَّكَ تختارُ القول بحِفْظِهم مما تعافه النفوس ويؤدِّي إلى الاستقذار والنفرة مطلقاً، وحينئذٍ فلا بدَّ من القول بأنَّ ما ابتلي به أيوبُ عليه السلام لم يصلْ إلى حَدِّ الاستقذار والنفرة كما يُشعرُ به ما روي عن قتادة ونقله القُصَّاصُ في كتبهم، وذكر بعضُهم أنَّ داءهُ كان الجُدَريَّ، ولا أعتقدُ صِحَّة ذلك، والله تعالى أعلم.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٠، وينظر حديث أنس عند البزار (٢٣٥٧ - كشف)، وابن حبان (٢٨٩٨).

(٢) مجمع البيان ٢٣/ ١١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عَطْفٌ على «اركض»، أو على «وهبنا» بتقدير: قلنا خُذْ بيدك.. إلخ. والأول أقربُ لَفْظاً، وهذا أنسبُ معنًى، فإنَّ الحاجةَ إلى هذا الأمر لا تمسُّ إلا بعد الصحة واعتدال الوقت، فإنَّ امرأته رحمة بنت إفرائيم - أو: ميشا[1] - بن يوسف، أو: ليا بنت يعقوب، أو: ماخير بنت ميشا بن يوسف، على اختلاف الروايات، ولا يخفى لُطْفُ «رحمة منَّا» على الرواية الأولى = ذهبت لحاجةٍ فأبطأت، أو بلَّغتْ أيوب عن الشيطان أن يقول كلمةً محذورةً فيبرأ، وأشارت عليه بذلك، فقالت له: إلى متى هذا البلاءُ، كلمةٌ واحدةٌ ثم استغفِرْ ربَّك فيغفرُ لك؟! أو جاءته بزيادةٍ على ما كانت تأتي به من الخبز، فظنَّ أنها ارتكبتْ في ذلك محرَّماً، فحلف ليضربنَّها إن برئَ مئةَ ضربة، فأمره الله تعالى بأَخْذِ الضِّغثِ، وهو الحزمةُ الصغيرةُ من حشيشٍ أو ريحانٍ أو قُضبان، وقيل: القبضةُ الكبيرةُ من القُضبان، ومنه: ضِغْثٌ على إبَّالة[2]. والإبَّالةُ: الحزمةُ من الحطب، والضِّغثُ: القبضةُ من الحطب أيضاً عليها، ومنه قول الشاعر:

وأسفلَ مني نَهْدةً قد ربطتُها   وألقيتُ ضِغْثاً من خَلًى متطيَّبِ[3]

وقال ابن عباس هنا: الضِّغْثُ: عِثكال النخل. وقال مجاهد: الأَثْلُ، وهو نبتٌ له شوك. وقال الضحاك: حُزْمةٌ من الحشيش مختلفة. وقال الأخفش: الشجرُ الرطب. وعن سعيد بن المسيب أنه عليه السلام لما أُمرَ أَخَذَ ضِغْثاً من ثُمام[4] فيه مئةُ عود. وقال قتادة: هو عودٌ فيه تسعةٌ وتسعونَ عوداً، والأصلُ تمامُ المئة. فإنْ كان هذا معتبراً في مفهوم الضِّغثِ - ولا أظنُّ - فذاك، وإلا فالكلام على إرادة

---

(١) كذا في الأصل، وفي (م): مشيا، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣١٤، والإعلام بأصول الأعلام ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) مثل يضرب لمن حمَّلك مكروهاً ثم زادك عليه. ينظر مجمع الأمثال ١/ ٤١٩، والمستقصى ٢/ ١٤٨.

(٣) البيت في تفسير الطبري ٢٠/ ١١١، ومجاز القرآن ٢/ ١٨٥ عن عوف بن الخرع، وهو في البحر المحيط ٧/ ٣٩٩ دون نسبة.

(٤) الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية. المعجم الوسيط (ثمم).

المئة، فكأنه قيل: خُذْ بيدكَ ضِغْثاً فيه مئة عود ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ أي: بذلك الضغث ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ بيمينك فإنَّ البرَّ يتحقَّقُ به.

ولقد شَرَعَ الله تعالى ذلك رحمةً عليه وعليها؛ لحُسْنِ خِدْمتها إياه ورضاه عنها، وهي رُخْصَةٌ باقيةٌ في الحدود في شريعتنا، وفي غيرها أيضاً، لكن غير الحدود يُعلَمُ منها بالطريق الأولى، فقد أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي أمامةَ بن سهل بن حنيف قال: حملتْ وليدةٌ في بني ساعدة من زنًى، فقيل لها: ممنْ حَمْلُكِ؟ قالت: من فلانٍ المقعَد، فسُئل المقعدُ فقال: صدقتْ. فرُفِعَ ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «خذوا عُثْكُولاً فيه مئةُ شِمراخٍ، فاضربوه به ضربةً واحدة» ففعلوا[1].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن محمد بن عبد الرحمن عن ثوبان أنَّ رجلاً أصابَ فاحشةً على عهد رسول الله ﷺ وهو مريضٌ على شفا موت، فأَخبر أهلَهُ بما صنع، فأمر النبيُّ ﷺ بقِنْوٍ فيه مئة شِمراخٍ، فضُرب به ضربةً واحدة[2].

وأخرج الطبرانيُّ عن سهل بن سعد أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أُتي بشيخ قد ظهرتْ عروقه، قد زنى بامرأةٍ، فضربه بضِغْثٍ فيه مئة شِمراخٍ ضربةً واحدة[3].

ولا دلالة في هذه الأخبار على عمومِ الحُكْم مَنْ يُطيقُ الجلدَ المتعارف، لكنَّ القائل ببقاء حُكْمِ الآية قائلٌ بالعموم، لكن شَرَطوا في ذلك أن يصيبَ المضروبَ كلُّ واحدةٍ من المئة، إما بأطرافها قائمة، أو بأعراضها مبسوطةً على هيئة الضرب.

وقال الخفاجي: إنهم شرطوا فيه الإيلام، أما مع عدمه بالكلية فلا، فلو ضربَ بسوطٍ واحدٍ له شُعبتان خمسينَ مرَّةً مَنْ حَلَفَ على ضَرْبه مئةً بَرَّ إذا تألَّم، فإن لم

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٣١٧، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٤٧٢)، والنسائي في الكبرى (٧٢٦٦). والعثكال: العِذق من أعذاق النخل الذي يكون فيه الرُّطب. النهاية (عثكل).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٦٨، والمصنَّف (١٦١٣٣).

(٣) المعجم الكبير (٥٨٢٠) قال في المجمع ٦/ ٢٥٢: فيه أبو بكر بن أبي سبرة، وهو متروك.

يتألَّم لا يَبرُّ ولو ضَرَبهُ مئة؛ لأنَّ الضَّرْبَ وُضِعَ لفعلٍ مؤلمٍ بالبدن بآلة التأديب، وقيل: يحنثُ بكلِّ حالٍ كما فُصِّلَ في «شروح الهداية» وغيرها[1]. انتهى.

وأخرج ابن عساكر[2] عن ابن عباس: لا يجوز ذلك لأحدٍ بعد أيوب، إلا الأنبياء عليهم السلام.

وفي أحكام القرآن العظيم[3] للجلال السيوطي عن مجاهد قال: كانت هذه لأيوبَ خاصة. وقال إلكيا[4]: ذهب الشافعيُّ وأبو حنيفة وزفر إلى أنَّ مَنْ فَعَلَ ذلك فقد بَرَّ في يمينه، وخالف مالكٌ ورآه خاصّاً بأيوبَ عليه السلام.

وقال بعضهم: إنَّ الحُكْمَ كان عامّاً ثم نُسخ، والصحيحُ بقاءُ الحكم.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ للزوج ضَرْبَ زوجته، وأن يحلفَ ولا يستثني، وعلى أنَّ الاستثناءَ شَرْطُهُ الاتصال؛ إذ لو لم يُشترطْ لأَمَرَهُ سبحانه وتعالى بالاستثناء، ولم يحتجْ إلى الضرب بالضِّغث.

واستدلَّ عطاءٌ بها على مسألةٍ أخرى، فأخرج سعيدُ بن منصور بسندٍ صحيحٍ عنه أنَّ رجلاً قال له: إنِّي حلفتُ أن لا أكسو امرأتي دِرْعاً حتى تقفَ بعرفة، فقال: احملها على حمارٍ، ثم اذهبْ فقفْ بها بعرفة، فقال: إنما عَنيتُ يومَ عرفة. فقال عطاء: أيوبُ حين حَلَفَ ليجلدنَّ امرأته مئة جلدةٍ أَنوى أن يضربَها بالضِّغثِ، إنما أمرهُ الله تعالى أن يأخذ ضِغْثاً فيضربها به، ثم قال: إنما القرآن عِبَرٌ، إنما القرآن عِبَرٌ[5].

وللبحث في ذلك مجال، وكثيرٌ من الناس استدلَّ بها على جواز الحِيَل، وجَعَلها أصلاً لصحَّتها، وعندي أنَّ كلَّ حيلةٍ أوجبتْ إبطالَ حِكْمةٍ شرعيةٍ لا تُقبلُ، كحيلةِ سقوط الزكاة، وحيلةِ سقوط الاستبراء، وهذا كالتوسُّطِ في المسألة، فإنَّ من

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٤.
(٢) في تاريخ دمشق ٦٩/ ١٢٤.
(٣) واسمه: الإكليل في استنباط التنزيل، والكلام فيه ص ٢٢٢.
(٤) في أحكام القرآن ٢/ ٣٦١، والكلام من الإكليل.
(٥) الإكليل ص ٢٢٢.

العلماء مَنْ يُجوِّزُ الحيلةَ مطلقاً، ومنهم مَنْ لا يُجوِّزها مطلقاً، وقد أطال الكلامَ في ذلك العلَّامةُ ابن تيمية.

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال. وقد كان عليه السلام يقول كلّما أصابته مصيبة: اللهمَّ أنت أخذتَ وأنت أعطيت. ويَحْمَدُ الله عزَّ وجلَّ. ولا يُخِلُّ بذلك شكواهُ إلى الله تعالى من الشيطان؛ لأنَّ الصبرَ عدمُ الجزع، ولا جَزَعَ فيما ذكر، كتمنِّي العافية وطلب الشفاء، مع أنه قال ذلك ـ على ما قيل ـ خيفةَ الفتنة في الدين كما سمعتَ فيما تقدَّم، ويُروى أنه قال في مناجاته: إلهي قد علمتَ أنه لم يُخالفْ لساني قلبي، ولم يتبعْ قلبي بصري، ولم يُلهني ما ملكتْ يميني، ولم آكل إلا ومعي يتيم، ولم أَبِتْ شبعانَ ولا كاسياً ومعي جائعٌ أو عريان. فكشف الله تعالى عنه.

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ﴾ أي: أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ تعليلٌ لِمَدْحِهِ، وتقدَّم معنى الأوَّاب(١).

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الثلاثةُ عَطْفُ بيانٍ لـ «عبادنا»، أو بدلٌ منه. وقيل: نصب بإضمار أعني.

وقرأ ابن عباس وابن كثير وأهل مكة: «عبدنا»، بالإفراد(٢)، فـ «إبراهيمُ» وحدهُ بدلٌ أو عَطْفُ بيانٍ أو مفعولُ أعني، وخُصَّ بعنوان العبودية لمزيد شَرَفه، وما بعده عَطْفٌ على «عبدنا»، وجُوِّزَ أن يكونَ المراد بـ «عبدنا» عبادنا، وَضْعاً للجنس موضعَ الجمع، فتتَّحد القراءتان.

﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ أولي القوَّة في الطاعة، والبصيرة في الدين، على أنَّ الأيدي مجازٌ مرسلٌ عن القوَّة، والأبصار جمعُ: بَصَرٍ، بمعنى بصيرة، وهو مجازٌ أيضاً لكنه مشهورٌ فيه. أو: أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، على أنَّ ذِكْرَ الأيدي من ذِكْرِ السَّبب وإرادة المسبَّب، والأبصار بمعنى البصائر مجازٌ عمَّا يتفرَّعُ عليها من العلوم كالأول أيضاً. وفي ذلك على الوجهين تعريضٌ بالجَهَلة

---

(١) ص٢٦٧-٢٦٨ من هذا الجزء.

(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١، والبحر المحيط ٧/ ٤٠١.

البطَّالين أنهم كفاقدي الأيدي والأبصار، وتوبيخٌ على تَرْكهمُ المجاهدةَ والتأمُّلَ مع تمكُّنهم منهما.

وقيل: الأيدي: النِّعَمُ، أي: أولي النِّعَم التي أسداها الله تعالى إليهم من النبوَّة والمكانة، أو: أولي النِّعَم والإحسانات على الناس بإرشادهم وتعليمهم إياهم، وفيه ما فيه.

وقرئ: «الأيادي»[١] على جَمْعِ الجمع، كـ: أوطف[٢] وأواطف.

وقرأ عبد الله والحسن وعيسى والأعمش: «الأيد» بغير ياءٍ[٣]، فقيل: يُراد الأيدي بالياء، وحُذفت اجتزاءً بالكَسْرة عنها، ولمَّا كانت «أل» تُعاقبُ التنوين حُذفتِ الياءُ معها كما حُذفت مع التنوين. حكاه أبو حيان، ثم قال: وهذا تخريجٌ لا يَسوغُ؛ لأنَّ حَذْفَ هذه الياء مع وجود «أل» ذَكَرَهُ سيبويه في الضرائر. وقيل: الأيد: القوَّةُ في طاعة الله تعالى، نظير ما تقدم[٤].

وقال الزمخشريُّ بعد تعليل الحَذْفِ بالاكتفاء بالكَسْرة: وتفسيره بالأيد من التأييد قَلِقٌ غيرُ متمكِّنٍ[٥]. وعُلِّلَ بأنَّ فيه فواتَ المقابلة وفواتَ النكتة البيانيَّة، فلا تغفل.

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ تعليلٌ لما وُصفوا به، والباءُ للسببية، و«خالصة»: اسمُ فاعلٍ، وتنوينُها للتفخيم، وقوله تعالى ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ بيانٌ لها بعد إبهامها للتفخيم، وجُوِّزَ أن يكونَ خبراً عن ضميرها المقدَّرِ، أي: هي ذِكْرى الدار. وأيًّاما كان فـ «ذِكْرى» مصدرٌ مضافٌ لمفعوله، وتعريفُ الدار للعهد، أي: الدارُ الآخرة، وفيه إشعارٌ بأنها الدارُ في الحقيقة، وإنما الدنيا مجازٌ، أي: جعلناهم خالصين لنا بسبب خَصْلةٍ خالصة جليلةِ الشأن، لا شَوْبَ فيها، هي تذكُّرهم دائماً

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٧، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

(٢) الوَطَف: كثرة شعر الحاجبين والعينين. القاموس (وطف).

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحتسب ٢/ ٤٠٣.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

(٥) الكشاف ٣/ ٣٧٨.

الدارَ الآخرة، فإنَّ خُلوصهم في الطاعة بسبب تذكُّرهم إياها، وذلك لأنَّ مَطْمَحَ أنظارهم ومَطْرَحَ أفكارهم في كلِّ ما يأتون ويَذَرون جوارُ الله عزَّ وجلَّ، والفوزُ بلقائه، ولا يتسنَّى ذلك إلا في الآخرة.

وقيل: أخلصناهم بتوفيقهم لها واللُّطف بهم في اختيارها، والباء كما في الوجه الأول للسببية، والكلامُ نحو قولك: أكرمته بالعلم، أي: بسبب أنه عالمٌ أكرمته، أو: أكرمتهُ بسبب أنك جعلته عالماً، وقد يُتخيَّلُ في الثاني أنه صلة، ويعضدُ الوجهَ الأولَ قراءةُ الأعمش وطلحة: «بخالصتهم»[(١)].

وأخرج ابن المنذر[(٢)] عن الضحاك أنَّ «ذِكْرى الدار» تذكيرهم الناسَ الآخرةَ، وترغيبهم إياهم فيها، وتزهيدهم إياهم فيها على وجهٍ خالص من الحظوظ النفسانيةِ كما في شأن الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: المراد بـ «الدار» الدارُ الدنيا، وبذِكْراها الثناءُ الجميلُ ولسانُ الصدق الذي ليس لغيرهم. وحكي ذلك عن الجبائيِّ وأبي مسلم، وذكره ابن عطية احتمالاً[(٣)]، وحاصلُ الآية عليه كما قال الطبرسي: إنَّا خصصناهم بالذِّكْر الجميل في الأعقاب[(٤)].

وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع وهشام بإضافة «خالصةٍ» إلى «ذكرى»[(٥)] للبيان، أي: بما خَلَصَ من ذكرى الدار، على معنى أنهم لا يشوبونَ ذكراها بهم آخرَ أصلاً، أو على غير ذلك من المعاني، وجُوِّزَ على هذه القراءة أن تكون «خالصة» مصدراً، كالعاقبة والكاذبة، مضافاً إلى الفاعل، أي: أخلصناهم بأنْ خَلَصَتْ لهم ذِكْرى الدار.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٢.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٣١٨.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠٩.
(٤) مجمع البيان ٢٣/ ١٢٤.
(٥) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١ عن نافع وهشام وأبي جعفر.

وظاهر كلام أبي حيان أنَّ احتمالَ المصدرية ممكنٌ في القراءة الأولى أيضاً، لكنه قال: الأظهر أن تكونَ اسم فاعل[١].

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ أي: المختارين من بين أبناء جنسهم، وفيه إعلالٌ معروف.

و«عندنا»: يجوز فيه أن يكونَ من صِلَة الخبر، وأن يكون من صلة محذوفٍ دلَّ عليه «لمن المصطفين»، أي: وإنهم مصطفون عندنا، ولم يُجوِّزوا أن يكونَ من صلة «المصطفين» المذكور؛ لأنَّ «أل» فيه موصولةٌ، ومصطفين صلةٌ، وما في حَيِّز الصِّلة لا يتقدَّمُ معموله على الموصول؛ لئلّا يلزم تقدُّم الصِّلة على الموصول.

واعتُرِض بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ «أل» فيه موصولةٌ؛ إذ لم يُرَدْ منه الحدوث، ولو سُلِّمَ فالمتقدِّم ظَرْفٌ، وهو يُتوسَّعُ فيه ما لا يُتوسَّعُ في غيره.

والظاهر أنَّ الجملةَ عَطْفٌ على ما قبلها، وتأكيدُها لمزيد الاعتناء بكونهم عنده تعالى من المصطفين من الناس.

﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ الفاضلين عليهم في الخير، وهو جَمْعُ: خيرٍ، مقابل شَرٍّ الذي هو أفعل تفضيل في الأصل، وكان قياسُ أفعل التفضيل أن لا يُجمَعَ على أفعال، لكنه للزومِ تخفيفه ـ حتى إنه لا يقال: أَخْيَرُ، إلا شذوذاً، أو في ضرورة ـ جُعِلَ كأنه بنيةٌ أصلية. وقيل: جمع: خَيِّرٍ، المشدَّد، أو: خَيْرٍ، المخفَّف منه، كأمواتٍ في جمع مَيِّتٍ بالتشديد أو مَيْتٍ بالتخفيف.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ﴾ فَصَلَ ذِكْرَهُ عن ذِكْرِ أبيه وأخيه؛ اعتناءً بشأنه من حيثُ إنه لا يشركُ العربَ فيه غيرُهم، أو للإشعار بعراقته في الصبر الذي هو المقصود بالذكر.

﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ قال ابن جرير: هو ابن أخطوب بن العجوز، وذكر أنه استخلفه إلياس على بني إسرائيل، ثم استنبئ[٢]. واللامُ فيه زائدةٌ لازمةٌ لمقارنتها للوضع،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٢.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٤٦٤.

ولا ينافي كونه غير عربيٍّ، فإنها قد لزمتْ في بعض الأعلام الأعجمية كالإسكندر، فقد لَحَّنَ التبريزيُّ من قال: إسكندر، مجرِّداً له منها، والأولى عندي أنه إذا كان اسماً أعجميًّا و«أل» فيه مقارِنة للوضع أن لا يقال بزيادتها فيه.

وقيل: هو اسمٌ عربيٌّ منقولٌ من يَسَعُ، مضارع: وَسِعَ. حكاه الجلال السيوطيُّ في «الإتقان»(١). وفي «القاموس»(٢): يَسَعُ كـ: يَضَع: اسمٌ أعجميٌّ أُدخل عليه «أل»، ولا تدخل على نظائره كـ: يزيد.

وقرأ حمزة والكسائي: «واللَّيْسَع» بلامَين والتشديد(٣)، كأنَّ أصله: لَيْسَع، بوزن فَيْعَلٍ من اللَّسْع، دخل عليه «أل» تشبيهاً بالمنقول الذي تدخله لِلَمْحِ أصله، وجزم بعضُهم بأنه على هذه القراءة أيضاً عَلَمٌ أعجميٌّ دخلَ عليه اللام.

﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ قيل: هو ابن أيوب، وعن وَهْبٍ أنَّ الله تعالى بعثَ بعد أيوب شرفَ بن أيوب نبيّاً، وسماه: ذا الكفل، وأمره بالدعاء إلى توحيده، وكان مقيماً بالشام عمرَه حتى مات وعمرُه خمسٌ وسبعون سنة.

وفي «العجائب» للكرماني: قيل: هو إلياس، وقيل: هو يُوشع بن نون، وقيل: هو نبيٌّ اسمه: ذو الكفل، وقيل: كان رجلاً صالحاً تكفَّلَ بأمورٍ فوفَّى بها، وقيل: هو زكريا من قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]. اهـ.

وقال ابن عساكر: هو نبيٌّ تكفَّل الله تعالى له في عمله بضِعْفِ عمل غيره من الأنبياء. وقيل: لم يكن نبيّاً، وإن اليسع استخلفه، فتكفَّل له أن يصومَ النهارَ ويقومَ الليل، وقيل: أن يصلِّيَ كلَّ يومٍ مئة ركعة.

وقيل: كان رجلاً من الصالحين كان في زمانه أربع مئة نبيٍّ من بني إسرائيل، فقتلهم ملكٌ جبَّارٌ إلا مئة منهم فرُّوا من القتل، فآواهم وأخفاهم وقام بمؤنتهم، فسمَّاه الله تعالى: ذا الكِفْل.

---

(١) ٢/ ١٠٧٢.
(٢) مادة (وسع).
(٣) التيسير ص١٠٤، والنشر ٢/ ٢٦٠.

وقيل: هو اليسعُ، وأنَّ له اسمين. ويأباه ظاهرُ النظم.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: وكلُّهم ﴿مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ المشهورين بالخيريَّة.

﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من الآيات الناطقة بمحاسنهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شَرَفٌ لهم، وشاعَ الذِّكْرُ بهذا المعنى؛ لأنَّ الشَّرَفَ يلزمه الشهرةُ والذكر بين الناس، فتجوَّز به عنه بعلاقة اللزوم، والمراد: في ذِكْر قصصهم وتنويه الله تعالى بهم شَرَفٌ عظيم لهم.

أو المعنى: هذا المذكورُ من الآيات نوعٌ من الذِّكْرِ الذي هو القرآن، وذكر ذلك للانتقال من نوعٍ من الكلام إلى آخر، كما يقول الجاحظ في كتبه: فهذا بابٌ، ثم يشرعُ[1] في باب آخر، ويقولُ الكاتبُ إذا فرغ من فصلٍ من كتابه، وأراد الشروعَ في آخر: هذا، وكان كيتَ وكيتَ. ويحذفُ ـ على ما قيل ـ الخبر في مثل ذلك كثيراً، وعليه: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص:٥٥] وستسمعُ إن شاء الله تعالى الكلامَ فيه، فلا يقال: إنه لا فائدة فيه؛ لأنه معلومٌ أنه من القرآن.

وقال ابن عباس: هذا ذِكْرُ مَنْ مضى من الأنبياء عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾ ـ أي: مرجعٍ ـ شروعٌ في بيان أَجْرهم الجزيل في الآجل، بعد بيان ذِكْرهم الجميل في العاجل، والمراد بالمتقين؛ إما الجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أوليّاً، وإما نفسُ المذكورين، عبَّر عنهم بذلك مَدْحاً لهم بالتقوى التي هي الغايةُ القصوى في الكمال، والجملةُ فيما أرى عَطْفٌ على الجملة قبلها، كأنه قيل: هذا شَرَفٌ لهم في الدنيا، وإنَّ لهم ولأضرابهم، أو: إنَّ لهم في الآخرة لحسن مآب، أو هي من قبيل عَطْفِ القصة على القصة.

وقال الشهاب الخفاجي عليه الرحمة: هي حالية[2]. ولم يُبيِّنْ صاحبَ الحال، ويبعد أن يكون «ذكراً» لأنه نكرةٌ متقدمةٌ، وأن يكون «هذا» لأنه مبتدأ، ومع ذلك في المعنى على تقدير الحالية خفاءٌ.

---

(١) في (م): شرع.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٥.

وقال بعضُ أَجِلَّةِ المعاصرين: إنه أراد أنَّ الكلامَ على معنى: والحالُ كذا، أي: الأمرُ والشأنُ كذا، ولم يُرِدْ أنَّ الجملةَ حالٌ بالمعنى المعروف الذي يقتضي ذا حالٍ وعاملاً في الحال، إلى غير ذلك، وادَّعى أنَّ الأمرَ كذلكَ في كلِّ جملةٍ يقال إنها حالٌ وليس فيها ضميرٌ يعودُ على ما قبلها، نحو: جاء زيدٌ والشمسُ طالعةٌ، وقال: إنه الذي ينبغي أن يُعوَّلَ عليه وإن لم يذكره النحويون. اهـ.

والحال لا يخفى على ذي تمييز. وإضافة «حُسْن» إلى «مآب» من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ إما بتأويل: مآبٍ ذي حُسْنٍ، وإما بدونه قصداً للمبالغة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ بدلُ اشتمال، وجُوِّزَ أن يكون نَصْباً على المدح، وجعله الزمخشريُّ عَطْفَ بيانٍ لـ «حُسْن مآب»[1]. و«عَدْن» قيل: من الأعلام الغالبة غلبةً تقديريةً، ولزومُ الإضافة فيها أو تعريفها باللام أغلبيٌّ كما صرَّح به ابن مالك في «التسهيل»، و«جنات عَدْنٍ» كمدينة طَيبة، لا كإنسان زيد، فإنه قبيح. وقيل: العَلَمُ مجموع «جناتِ عدن»، وهو أيضاً من غير الغالب؛ لأنَّ المرادَ من الإضافة التي تعوضها العلم بالغلبة إضافة تفيده تعريفاً، وعلى القولين هو مُعيَّنٌ، فيصلحُ للبيان، لكن تعقَّبَ ذلك أبو حيان[2] بأنَّ للنحويين في عَطْفِ البيان مذهبين؛ أحدهما أنَّ ذلك لا يكون إلا في المعارف، فلا يكونُ عَطْفُ البيان إلا تابعاً لمعرفة، وهو مذهب البصريين، والثاني أنه يجوزُ أن يكونَ في النكرات، فيكون عَطْفُ البيان تابعاً لنكرة، كما تكونُ المعرفةُ فيه تابعةً لمعرفةٍ، وهذا مذهب الكوفيين وتبعهم الفارسي؛ وأما تخالفهما في التنكير والتعريف، فلم يذهب إليه أحدٌ سوى الزمخشري، كما قد صرَّحَ به ابنُ مالكٍ في «التسهيل»[3] فهو بناءٌ للأمر على مذهبه.

وذهب آخرون أنَّ عَدْناً مصدرُ: عَدَنَ بمكان كذا: استقرَّ، ومنه المعدِنُ لمستقرِّ الجواهر، ولا عَلميَّةَ ولا نَقْلَ هناك، ومعنى «جناتِ عَدْنٍ» جناتِ استقرارٍ وثباتٍ، فإنْ كان عَطْفَ بيانٍ فهو على مذهب الكوفيين والفارسي.

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٨.

(٢) في البحر ٧/ ٤٠٥.

(٣) ص ١٧١.

ومن الغريب ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال: سألتُ كَعْباً عن قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ فقال: جناتُ كرومٍ وأعنابٍ، بالسريانية[1]. وفي تفسير جويبر[2] أنه بالروميَّة.

وقوله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾ إما صفةٌ لـ «جناتِ عَدْنٍ»، وإليه ذهب ابن إسحاق وتبعه ابن عطية[3]، أو حالٌ من ضميرها المستتر في خبر «إنَّ»، والعامل فيه الاستقرار المقدَّرُ أو نفسُ الظرف؛ لتضمُّنه معناه ونيابته عنه، وإليه ذهب الزمخشريُّ[4] ومختصرو كلامِهِ، أو حالٌ من ضميرها المحذوف مع العامل لدلالة المعنى عليه، والتقدير: يدخلونها مفتَّحةً. وإليه ذهب الحوفيُّ.

و«الأبواب» نائبُ فاعلِ «مفتَّحة» عند الجمهور، والرابط العائد على الجنات محذوفٌ، تقديره: الأبوابُ منها، واكتفى الكوفيون عن ذلك بـ «أل» لقيامها مقام الضمير، فكأنه قيل: مفتَّحةً لهم أبوابها، وذهب أبو عليٍّ إلى أنَّ نائبَ فاعل «مفتَّحة» ضميرُ الجنات، و«الأبوابُ» بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ كما هو ظاهرُ كلام الزمخشري[5]، ولا يصحُّ أن يكونَ بدلَ بعضٍ من كلٍّ؛ لأنَّ أبوابَ الجناتِ ليست بعضاً من الجنات على ما قال أبو حيان[6].

وقرأ زيد بن عليٍّ وعبد الله بن رفيع وأبو حيوة: «جناتُ عَدْنٍ مفتَّحةٌ» برفعهما[7] على أنهما خبران لمحذوفٍ، أي: هو - أي: المآبُ - جناتُ عدنٍ مفتَّحةٌ لهم أبوابه، أو: هو جناتُ عدنٍ هي مفتَّحةٌ لهم أبوابها، أو على أنهما مبتدأٌ وخبرٌ.

ووَجْهُ ارتباط الجملة بما قبلها أنها مفسِّرةٌ لحُسْنِ المآب؛ لأنَّ محصّلها: جناتٌ أبوابها فُتِّحتْ إكراماً لهم، أو هي معترضةٌ.

---

(١) تفسير الطبري ١١/ ٥٦١.
(٢) في (م): ابن جرير.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٥١٠، والكلام من البحر ٧/ ٤٠٥، وفيه: أبو إسحاق.
(٤) في الكشاف ٣/ ٣٧٨.
(٥) في الكشاف ٣/ ٣٧٨.
(٦) في البحر المحيط ٧/ ٤٠٥.
(٧) القراءات الشاذة ص١٣٠، والكشاف ٣/ ٣٧٨، والبحر ٧/ ٤٠٥.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾، وقوله سبحانه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾﴾ قيل: حالان من ضمير «لهم»، وهما حالان مقدَّران؛ لأنَّ الاتكاءَ وما بعده ليس في حالِ تفتيح الأبواب بل بعده.

وقيل: الأولُ حالٌ مقدَّرةٌ من الضمير المذكور، والثاني حالٌ من ضمير «متكئين»، وجُوِّزَ جعلُهما حالَين من المتقين، ولا يصحُّ إلا إن قلنا بأنَّ الفاصلَ ليس بأجنبيٍّ، والظاهرُ أنه أجنبيٌّ.

وقال بعض الأجلَّة: الأظهر أنَّ «متكئين» حالٌ من ضمير «يدعون» قُدِّمَ رعايةً للفاصلة، و«يدعون» استئنافٌ لبيان حالهم، كأنه قيل: ما حالهم بعد دخولها؟ فقيل: يَدعونَ فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشرابٍ متَّكئينَ فيها.

والاقتصارُ على الفاكهة للإيذان بأنَّ مطاعِمَهُمْ لمحضِ التفكُّهِ والتلذُّذ، دونَ التغذِّي فإنه لتحصيل بدلٍ، ولا تَحلُّلَ ثمةَ.

ولمَّا كانت الفاكهةُ تتنوَّعُ، وَصَفَها سبحانه بالكَثْرة، وكثرتُها باختلاف أنواعها وكثرةِ كلِّ نوعٍ منها، ولمَّا كان الشرابُ نوعاً واحداً وهو الخمر، أُفردَ. وقيل: وُصِفَتِ الفاكهةُ بالكَثْرةِ ولم يُوصفِ الشرابُ؛ للإيذان بأنه يكون على الشراب نقلٌ كثيرٌ، سواءٌ تعدَّدتْ أنواعه أم اتَّحدتْ. ويمكن أن يقال ـ والله تعالى أعلم ـ: التقديرُ: وشرابٌ كثيرٌ. لكن حُذِفَ «كثيرٌ» لدلالة ما قبلُ ورعايةً للفاصلة.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: على أزواجهنَّ، لا ينظرنَ إلى غيرهم، أو: قاصراتٌ طَرْفَ أزواجهنَّ عليهنَّ، فلا ينظرونَ إلى غيرهنَّ لشِدَّةِ حسنهنَّ، وتمام الكلام قد مرَّ وحلا.

﴿أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لِداتٌ على سِنٍّ واحدةٍ تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوعُ الصَّدْر، أو لسقوطهنَّ معاً على الأرض حين الولادة ومسِّهنَّ ترابها، فكأنَّ التِّرْبَ بمعنى المتارب، كالمِثْل بمعنى المماثل.

والظاهر أنَّ هذا الوصفَ بينهنَّ، فيكونُ في ذلك إشارة إلى محبة بعضهنَّ لبعضٍ، وتصادقهنَّ فيما بينهنَّ، فإنَّ النساءَ الأتراب يتحاببنَ ويتصادقنَ، وفي ذلك

راحةٌ عظيمةٌ لأزواجهنَّ، كما أنَّ في تباغض الضرائر نَصَباً عظيماً وخَطْباً جسيماً لهم، وقد جُرِّبَ ذلك وصَحَّ، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

وقيل: إنَّ ذلك بينهنَّ وبين أزواجهنَّ، أي: إنَّ أسنانهنَّ كأسنانهم ليحصلَ كمالُ التَّحابِّ. ورُجِّحَ بأنَّ اهتمامَ الرجل بحصول المحبة بينه وبين زوجته أشدُّ من اهتمامه بحصولها بين زوجاته، وفيه توقُّفٌ، ثم إنَّ الوصفَ الأولَ على المعنى الأول متكفِّلٌ بالدلالة على محبَّتهنَّ لأزواجهنَّ، وعلى المعنى الثاني متكفِّلٌ بالدلالة على محبة أزواجهنَّ لهنَّ، وإذا حصلتِ المحبةُ من طَرَفٍ، فالغالبُ حصولُها من الطرف الآخر، وقد قيل: من القلب إلى القلب سبيلٌ، والأمرُ في الشاهد أنَّ كَوْنَ الزوجاتِ أصغر من الأزواج أحبُّ لهم، لا التساوي. واختار بعضُهم كونَ ذلك بينهنَّ وبين أزواجهنَّ، ويلزمُ منه مساواةُ بعضهنَّ لبعضٍ، وهذا إذا كان المرادُ بقوله تعالى: «وعندهم» إلخ: وعند كلِّ واحدٍ منهم، ولو كان المراد: وعند مجموعهم، وكان الجمعُ موزَّعاً بأن يكونَ لكلِّ واحدٍ واحدٍ من أهل الجنة واحدةٌ واحدةٌ من قاصرات الطَّرْف الأتراب، كان اعتبار كون الوَصْفِ بينهنَّ وبين الأزواج كالمتعيِّن، لكنَّ هذا الفرضَ خلافُ ما نطقتْ به الأخبار، سواءٌ قلنا بما روي عن ابن عباس من أنَّ الآيةَ في الآدميَّات، أو قلنا بما قاله صاحبُ «الغنيان» من أنها في الحور. وقيل بناءً على ما هو الظاهر في الوصف: إنَّ التساوي في الأعمار بين الحور وبين نساء الجنة، فالآية فيهما.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لأجل يوم الحساب، فإنَّ ما وُعدوه لأجل طاعتهم وأعمالهم الصالحة، وهي تظهر بالحساب، فجعل كأنه علَّةٌ لتوقُّفِ إنجاز الوعد، فالنسبةُ لليوم والحساب مجازيةٌ.

وجُوِّزَ أن تكون اللامُ بمعنى «بعد» كما في: كتبَ لخمسٍ خَلَوْنَ من جُمادى الآخرة، مثلاً، وهو أقلُّ مؤنة.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُوعَدون» بياء الغَيبة[1]، وعلى قراءة الجمهور بتاء الخطاب فيه التفاتٌ.

---

(١) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذُكِرَ من ألوان النِّعَم والكرامات ﴿لَرِزْقُنَا﴾ أعطيناكموه ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ انقطاعٌ أبداً.

﴿هَٰذَا﴾ قال الزجاج: أي: الأمرُ هذا، على أنه خبرُ مبتدأ محذوف[١]، وقال أبو عليٍّ: أي: هذا للمؤمنين، على أنه مبتدأٌ خبرهُ محذوفٌ، وقدَّره بعضهم كما ذكر.

وجوَّزَ أبو البقاء احتمال كونه مبتدأً محذوفَ الخبر، واحتمال كونه خبراً محذوفَ المبتدأ[٢]، وجوَّزَ بعضُهم كونه فاعلَ فعلٍ محذوفٍ، أي: مضى هذا.

وكونه مفعولاً لفعلٍ محذوف، أي: خُذْ هذا، وجُوِّزَ أيضاً كون «ها» اسم فعل بمعنى: خُذْ، و«ذا» مفعوله من غير تقدير، وَرَسْمُهُ متَّصلاً يُبعدهُ، والتقديرُ أسهلُ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾ عَطْفٌ على ما قبله، ولزومُ عَطْفِ الخبر على الإنشاء على بعض الاحتمالات جوابه سَهْلٌ، وأشار الخفاجيُّ إلى الحالية هنا أيضاً[٣]، ولعلَّ أَمْرَها على بعض الأقوال المذكورة هَيِّنٌ.

والطاغون هنا الكفار كما يدلُّ عليه كلامُ ابن عباس، حيث قال: أي: الذين طغوا عليَّ وكذَّبوا رسلي. وقال الجبائيُّ: أصحابُ الكبائر كفاراً كانوا أو لم يكونوا.

وإضافةُ «شَرٍّ» إلى «مآبٍ» كإضافة «حُسْنِ» إليه فيما تقدم، وظاهرُ المقابلة يقتضي أن يقال: لَقُبْحَ مآبٍ هنا، أو: لخيرَ مآبٍ فيما مضى، لكنَّ مثله لا يُلتفتُ إليه إذا تقابلتِ المعاني؛ لأنه من تكلُّفِ الصَّنعةِ البديعية كما صرَّح به المرزوقيُّ في «شرح الحماسة»[٤]. كذا قيل، وقيل: إنه من الاحتباك، وأصله: إنَّ للمتقينَ لخير

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/٣٣٨- ٣٣٩بنحوه.
(٢) الإملاء ٤/ ٢٥٧بنحوه.
(٣) حاشية الشهاب ٧/٣١٦.
(٤) ١/١١٦.

مآبٍ وحُسْن مآب، وإنَّ للطاغين لَقُبح مآبٍ وشَرّ مآب. واستحسنه الخفاجيّ[1]، وفيه نوعُ بُعْدٍ.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ يُعلَمُ إعرابه مما سلف؛ وقوله سبحانه: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها ويُقاسُونَ حَرَّها، حالٌ من «جهنم» نفسها، أو من الضمير المستتر في خبر «إنَّ» الراجع «لشرّ مآب»، المراد به هي[2]، والحالُ مقدَّرةٌ.

﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هي، يعني جهنم، فالمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، و«المِهادُ» كالفراش لَفْظاً ومعنًى، وقد استُعير مما يفترشه النائم، والمَهْدُ كالمهاد، وقد يُخَصُّ بمقرّ الطفل.

﴿هَٰذَا﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: العذابُ هذا، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ جملةٌ مرتَّبةٌ على الجملة قبلها، فهي بمنزلة جزاء شَرْطٍ محذوف، وقوله تعالى: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو حميمٌ وغسَّاقٌ، و«ذا» قد يُشار به لمتعدِّد، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أي: منه حميمٌ ومنه غسَّاقٌ، كما في قوله:

حتى إذا ما أضاءَ الصُّبحُ في غَلَسٍ　　وغُودِرَ البقلُ مَلْوِيٌّ ومحصودُ[3]

أي: منه ملويٌّ ومنه محصودٌ.

أو «هذا» مبتدأٌ، خبرُهُ: «حميم»، وجملةُ: «فليذوقوه» معترضةٌ، كقولك: زيدٌ فافهم رجلٌ صالح.

أو «هذا» مبتدأٌ، خبرُهُ: «فليذوقوه» على مذهب الأخفش في إجازته: زيدٌ فاضربه، مستدلًّا بقوله:

وقائلةٍ خَوْلانُ فانكِحْ فتاتَهُمُ[4]

---

(١) في حاشيته ٧/ ٣١٦، وما قبله منه.

(٢) أي: جهنم. ينظر حاشية الشهاب ٧/ ٣١٧.

(٣) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١٣٦٦، قال شارحه: يقال: قد ألوى النبتُ إلواءً: إذا جفَّ، ومحصود: قد حصد.

(٤) صدر بيت لم يعرف قائله، وسلف ٧/ ١٨٩، و١٨/ ١٦٩ و١٩/ ٧٨، وعجزه:

وأكرومةُ الحيين خلوٌ كما هيا

أو «هذا» في محلِّ نَصْبٍ بفعلٍ مُضْمَرٍ يُفسِّرُه «فليذوقوه»، أي: ليذوقوا هذا فليذوقوه ـ ولعلَّكَ تختارُ القولَ بأنَّ «هذا» مبتدأٌ و«حميمٌ» خبره، وما في البين اعتراضٌ، وقد قدَّمه في «الكشاف»[1] ـ والفاء تفسيريةٌ تعقيبيةٌ، وتُشعر بأنَّ لهم إذاقةً بعد إذاقة، وفي «حميم وغسَّاق» على هذين الوجهين الاحتمالان المذكوران أولاً.

والحميم: الماء الشديد الحرارة.

والغسَّاقُ ـ بالتشديد كما قرأ به ابن أبي اسحاق وقتادة وابن وثَّاب وطلحةُ وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ والفضلُ وابن سعدان وهارون عن أبي عمرو[2]، وبالتخفيف كما قرأ به باقي السبعة ـ: اسمٌ لما يجري من صديدِ أهل النار، كما روي عن عطاء وقتادة وابن زيد. وعن السُّدِّيِّ: ما يسيلُ من دموعهم.

وأخرج ابن جرير عن كعبٍ أنه عينٌ في جهنم، تسيلُ إليها حُمَةُ كلِّ ذي حُمَةٍ، من حَيَّةٍ وعقربٍ وغيرهما، يُغمَسُ فيها الكافرُ فيتساقطُ جلدهُ ولحمهُ[3].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه الزمهرير[4].

وقيل: هو مشدَّداً ومخفَّفاً وَصْفٌ من غَسقَ كضرب وسمع بمعنى سال، يقال: غَسَقَتِ العينُ: إذا سالَ دمعُها، فيكون على ما في «البحر» صفةً حُذِفَ موصوفها[5]. أي: ومذوقٌ غسَّاقٌ، ويُرادُ به: سائلٌ من جلود أهل النار، مثلاً، والوصفيةُ في المشدَّد أظهر؛ لأنَّ فَعَّالاً بالتشديد قليلٌ في الأسماء، ومنه الفيّادُ[6]: ذَكَرُ البوم، والخَطَّار: دهنٌ يُتَّخذُ من الزيت، والعَقَّار: ما يتداوى به من النبات.

---

(١) ينظر ٣/ ٣٧٩.

(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١، عن حمزة والكسائي وحفص، والكلام من البحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ١٢٩.

(٤) تفسير الطبري ٢٠/ ١٣١.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

(٦) في (م): الغياد.

ومن الغريب ما قاله الجواليقيُّ(١) والواسطيُّ أنَّ الغسَّاقَ هو الباردُ المنتنُ بلسان التُّرك، والحقُّ أنه عربيٌّ، نعم النُّتونةُ وَصْفٌ له في الواقع، وليست مأخوذةً في المفهوم، فقد أخرج أحمد والترمذيُّ وابنُ حبان وجماعةٌ، وصحَّحه الحاكم، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ دلواً من غسَّاقٍ يُهرَاق في الدنيا، لأنتنَ أهلُ الدنيا»(٢).

وقيل: الغسَّاقُ: عذابٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ. ويُبعده هذا الخبر.

﴿وَءَاخَرُ﴾ أي: ومذوقٌ آخرُ، وفسَّره ابنُ مسعودٍ كما رواه عنه جمعٌ بالزمهرير، أو: وعذابٌ آخرُ.

وقرأ الحسنُ ومجاهدٌ والجحدريُّ وابنُ جبير وعيسى وأبو عمرو: «وأُخَرُ» على الجمع(٣)، أي: ومذوقاتٌ، أو: أنواعُ عذابٍ أُخَر.

﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أي: من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدَّة والفظاعة، وتوحيدُ الضمير - دون تثنيته نظراً للحميم والغسَّاق - على أنه لِمَا ذُكر، أو للشراب الشامل للحميم والغسَّاق، أو للغسَّاق.

وقرأ مجاهدٌ «شِكْلِهِ» بكَسْر الشين(٤)، وهي لغةٌ فيه، كَمِثْلٍ، وإذا كان بمعنى الغُنْجِ فهو بالكَسْر لا غير.

﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أجناسٌ.

و«آخر» على القراءتين يحتملُ أن يكونَ خبر مبتدأ محذوف، أي: وهذا مذوقٌ أو عذابٌ آخر، أو: هذه مذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَر، والجملةُ معطوفةٌ على «هذا حميم»، وإن شئتَ فقَدِّرْ: هو أو هي، وَاعطفِ الجملةَ على «هو حميم».

---

(١) في المعرَّب ص٢٨٣.

(٢) مسند أحمد (١١٢٣٠)، والترمذي (٢٥٨٤)، والحاكم ٢/ ٥٠١ و٤/ ٦٠١، ولم نقف عليه عند ابن حبان، وقد أخرجه شيخه أبو يعلى (١٣٨١)، ولعلّه المراد.

(٣) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦١، عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٧/ ٤٠٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٧٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١١، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٦.

وأن يكون مبتدأً خبره محذوف، أي: ومنه مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، أو: ومنه مذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَر، والعَطْفُ على «منه حميم»، وجُوِّزَ أن يُقدَّرَ الخبرُ لهم، أي: ولهم مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، أو: ولهم مذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخر، والعَطْفُ على «هذا فليذوقوه».

و«من شكله» و«أزواج» في جميع ذلك صفتان لـ «آخر» أو «أُخر». و«آخر» وإن كان مفرداً في اللفظ، فهو جَمْعٌ وصادقٌ على متعدِّدٍ في المعنى.

ويحتمل أن يكون «آخر» أو «أُخر» مبتدأ، و«من شكله» صفته، و«أزواجٌ» خبر، والجواب عن عدم المطابقة على قراءة الإفراد ما سمعت. وأن يكون ذلك عَطْفاً على «حميم» عَطْفَ المفرَدِ على المفرد، و«من شكله» صفتُهُ، و«أزواجٌ» صفةٌ للثلاثة المتعاطفة.

وجُوِّزَ أن يكون «آخرُ» مبتدأ، و«من شكله» خبره، و«أزواجٌ» فاعلُ الظرف. وأن يكون الأولُ مبتدأ و«من شكله» خبرٌ مقدَّمٌ، و«أزواجٌ» مبتدأ، والجملةُ خبرُ المبتدأ الأول، أعني: «آخر»، وصَحَّ الابتداءُ به؛ لأنه من بابِ: ضعيفٌ عاذَ بقُرْملة، فالمبتدأ في الحقيقة الموصوفُ المحذوف، أي: نوعٌ آخرُ، أو: مذوقٌ آخرُ، وقيل: لأنه جيءَ به للتفصيل، ومما ذكروا من المسوِّغات أن تكونَ النكرةُ للتفصيل نحو: الناسُ رجلان؛ رجلٌ أكرمته، ورجلٌ أَهَنْتَهُ، وبحث فيه ابن هشام في «المغني»[1]. وجعلوا ضميرَ «شكله» على الوجهين عائداً على «آخر»، وهما لا يكادان يتسنَّيان على القراءة بالجمع، فتدبَّر ولا تغفل.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جمعٌ كثيرٌ من أتباعكم في الضلال ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ راكبُ الشِّدَّةَ داخلٌ فيها، أو: متوسِّطٌ شِدَّةً مخيفة. ﴿مَّعَكُمْ﴾ والمراد: هذا فوجٌ داخلٌ معكم النارَ مُقاسٍ فيها ما تقاسونه، وهذا حكايةُ ما تقوله ملائكة العذاب لرؤساء الضلال عند دخول النار تقريعاً لهم، فهو بتقدير: فيقال لهم عند الدخول: هذا.. إلخ.

وفي «الكشاف» واستظهره أبو حيان: أنه حكايةُ كلامِ الطاغين بعضهم مع

---

(١) ص٦١٤.

بعض، يُخاطبُ بعضُهم بعضاً في شأن أتباعهم يقول: هذا فوجٌ مقتحمٌ معكم[(١)].

والظرفُ متعلِّقٌ بـ «مقتحم»، وجُوِّزَ فيه أن يكونَ نعتاً ثانياً لـ «فوج» أو حالاً منه، لأنه قد وُصِفَ، أو من الضمير المستتر فيه، ومنع أبو البقاء جوازَ كونه ظَرْفاً، قائلاً: إنه يلزم عليه فساد المعنى[(٢)]. وتبعه الكواشيُّ وصاحب «الأنوار».

وتعقَّبه صاحب «الكشف» بأنه إن كان الفسادُ لإنبائه عن تزاحمهم في الدخول ـ وليس المعنى على المزاحمة بين الفريقين الأتباع والمتبوعين؛ لأنهم بعد الدخول يقولون ذلك لا عند المزاحمة ـ فغيرُ لازمٍ؛ لأنَّ الاقتحامَ لا يُنبئُ عن التزاحم، ولا هو لازمٌ له، وإنما مِثْلُ: ضربتُ معه زيداً، ينبئُ عن المشاركة في الضرب والمقارنة، فكذلك اقتحامُ المتبوعين النارَ مع الأتباع يُنبئُ عن المشاركة في ركوب كلٍّ من الطائفتين قَحْمَةَ النار، ومقاساة شِدَّتها في زمانٍ متقاربٍ عُرْفاً، ولو قيل: هذا فوجٌ معكم مقتحمونَ، لم يُفِدْ أنَّ المخاطبين أيضاً كذلك، وفَسَدَ المعنى المقصود، والعَجَبُ ممَّن جَوَّزَ أن يكون حالاً من ضمير «مقتحم» ولم يُجوِّزْ أن يكون ظرفاً، وإن كان بغير ذلك فليفدْ أولاً ثم ليعترض. انتهى.

وقال بعضهم: إنَّ وجهَ فساد الظرفية دون الحالية أنه ليس المراد أنهم اقتحموا في الصُّحبة ودخلوا فيها، بل: اقتحموا في النار مصاحبين لكم ومقارنين إياكم. وهو كلامٌ فاسدٌ لا مُحصَّلَ له؛ لأنَّ مدلولَ «مع» المعبَّر عنه بالصُّحبة معناه الاجتماعُ في التلبُّس بمدلول متعلّقها، فيفيدُ اشتراكَ الطائفتين في الاقتحام، لا في الصُّحبة كما توهمه، ولا يدلُّ على اتحاد زمانيهما كما صرَّح به في «المغني»، ولو سُلِّم فهو لتقاربه عُدَّ متَّحداً كما أُشير في عبارة «الكشف» إليه، فالحقُّ أنه لا فساد.

وقوله تعالى: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾ دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم، سواءٌ كان قائلُ ما تقدَّم الملائكةَ عليهم السلام، أو بعضَ الرؤساء لبعضٍ، أو صفةٌ لـ «فوج» أو حالٌ منه لوَصْفه، أو من ضميره، وأيَّاما كان يؤوَّلُ بـ: مقول لهم: «لا مرحباً» لأنه

(١) الكشاف ٣/ ٣٧٩، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٦.
(٢) الإملاء ٤/ ٢٥٩. قال السمين في الدر ٩/ ٣٩١: ولم أدرِ من أيِّ أوجهٍ يفسد والحالية والصفة في المعنى كالظرفية!.

دعاءٌ، فهو إنشاءٌ لا يُوصَفُ به، وكذا لا يكونُ حالاً بدون تأويل، والمعنى على استحقاقهم أن يقال لهم ذلك، لا أنهم قيل لهم ذلك بالفعل، وهو على الوصفية والحالية من كلام الملائكة عليهم السلام إن كانوا هم القائلين، أو من كلام بعض الرؤساء.

وجُوِّزَ كونه ابتداء كلام منهم.

و«مرحباً» من الرُّحب بضمِّ الراء، وهو السَّعةُ، ومنه: الرُّحبةُ، للفضاء الواسع، وهو مفعولٌ به لفعلٍ واجب الإضمار، و«بهم» بيانٌ للمدعوِّ عليهم، وتكون الباء للبيان كاللام في نحو: سقياً له، وكون اللام دون الباء كذلك دعوى من غير دليل، أي: ما أَتوا بهم رُحْباً وَسَعة.

وقيل: الباء للتعدية، فمجرورها مفعولٌ ثانٍ لأتوا، وهو مبنيٌّ على زَعْم أنَّ اللامَ لا تكونُ للبيان، وكفى بكلام الزمخشريِّ وأبي حيان دليلاً على خلافه، ويقال: مرحباً بك، على معنى: رحبت بلادك رُحباً، كما يقال على معنى: أتيتَ رُحْباً من البلاد لا ضيقاً.

ويُفهَمُ من كلام بعضهم جوازُ أن يكون «مرحباً» مفعولاً مطلقاً لمحذوفٍ، أي: لا رَحُبَتْ بهم الدارُ مرحباً، والجمهور على الأول. وأيّاما كان فالمرادُ بذلك مُثبَتاً الدعاءُ بالخير ومنفيّاً الدعاءُ بالسوء.

﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ تعليلٌ من جهة الملائكة لاستحقاقهم الدعاء عليهم، أو وَصْفِهم بما ذكر، أو تعليلٌ من الرؤساء لذلك، والكلامُ عليه يتضمَّنُ الإشارةَ إلى عدم انتفاعهم بهم، كأنه قيل: إنهم داخلون النارَ بأعمالهم مثلنا، فأيُّ نفعٍ لنا منهم، فلا مرحباً بهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباعُ ـ وهم الفوجُ المقتحم ـ للرؤساء: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أي: بل أنتم أحقُّ بما قيل لنا، ولعلَّهم إنما خاطبوهم بذلك على تقدير كون القائل الملائكةَ الخزنة عليهم السلام، مع أنَّ الظاهرَ أن يقولوا بطريق الاعتذار إلى أولئك القائلين: بل هم لا مرحباً بهم، قَصْداً منهم إلى إظهار صِدْقهم بالمخاصمة مع

الرؤساء، والتحاكم إلى الخزنة طَمَعاً في قضائهم بتخفيف عذابهم، أو تضعيف عذاب خُصَمائهم.

وفي «البحر»: خاطبوهم لتكونَ المواجهةُ لمن كانوا لا يقدرون على مواجهتهم في الدنيا بقبيحٍ أشفى لصدورهم، حيث تسبَّبوا في كُفْرهم، وأنكى للرؤساء[1]. وهذا أيضاً بتأويل القول بناءً على أنَّ الإنشاءَ لا يكون خبراً، أي: بل أنتم مقولٌ فيكم، أي: أَحقُّ أن يُقال فيكم: لا مرحباً بكم.

﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ تعليلٌ لأَحقِّيتهم بذلك، وضميرُ الغَيبة في «قدَّمتموه» للعذاب؛ لِفَهمه مما قبله، أو للمصدر الذي تضمَّنه «صالوا»، وهو الصَّلْيُ، أي: أنتم قدَّمتمُ العذابَ أو الصَّليَ ودخولَ النار لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدَّمنا من العقائد الزائغة والأعمال السيئة، لا أنَّا باشرناها من تلقاء أنفسنا.

وفي الكلام مجازان عقليَّان؛ الأول: إسنادُ التقديم إلى الرؤساء؛ لأنهم السببُ فيه بإغوائهم، والثاني: إيقاعه على العذاب أو الصَّلْي، مع أنه ليس المقدَّم، بل المقدَّمُ عملُ السوء الذي هو سببٌ له.

وقيل: أطلق الضمير الذي هو عبارةٌ عن العذاب أو الصَّلي المسبَّب عن العمل على العمل مجازاً لغويّاً. وقيل: لا حاجةَ إلى ارتكاب المجاز فيه، فتقديمُ العذاب أو الصَّلْي بتأخير الرحمة منهم.

﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ أي: فبئس المقرُّ جهنم، وهو من كلام الأتباع، وكأنهم قصدوا بذلك التشفِّي والإنكاء، وأنَّ ذلك المقرَّ مشترَكٌ. وقيل: قصدوا بالذَّمِّ المذكورِ تغليظَ جناية الرؤساء عليهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الأتباعُ أيضاً، وقول ابن السائب: القائلُ جميعُ أهل النار، خلافُ الظاهر جدّاً، فلا يُصار إليه. وتوسيطُ الفعل بين كلاميهم؛ لما بينهما من التباين ذاتاً وخطاباً، أي: قالوا مُعرضين عن خصومة رؤسائهم متضرِّعين إلى الله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ أي: مضاعفاً، ومعناه:

---

(١) البحر المحيط ٧/٤٠٦.

ذا ضِعْفٍ، أي: مِثْلٍ، وهو أن يزيدَ على عذابه مثله، فيصير بتلك الزيادة مثلين لعذابِ غيره، ويُطلَقُ الضِّعفُ على الزيادة المطلقة.

وقال ابن مسعود هنا: الضِّعفُ: حيَّاتٌ وعقارب.

والظاهر من بعض عباراتهم أنَّ «مَنْ» موصولةٌ، ونصَّ الخفاجيُّ على أنها شرطية[1].

وفي «البحر»: «مَنْ قَدَّمَ» هم الرؤساء، وقال الضحاك: هو إبليس وقابيل[2]. وهو أنسبُ، بخلاف الظاهر المحكيِّ عن ابن السائب.

﴿وَقَالُوا۟﴾ الضميرُ للطاغين عند جَمْعٍ، أي: قال الطاغون بعضُهم لبعضٍ على سبيل التعجُّب والتحسُّر: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: الأراذل الذين لا خيرَ فيهم ولا جدوى، يعنون بذلك فقراءَ المؤمنين، وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم إياهم في الدين.

وقيل: الضمير لصناديد قريشٍ كأبي جَهْلٍ وأميَّةَ بن خَلَف وأصحاب القَليب، والرجالُ: عمارٌ وصهيب وسلمان وخَبَّاب وبلال وأضرابهم ﷺ، بناءً على ما روي عن مجاهدٍ من أنَّ الآيةَ نزلتْ فيهم.

واستضعفه صاحب «الكشف» وسببُ النزول لا يكون دليلاً على الخصوص.

واستظهر بعضُهم أنَّ الضميرَ للأتباع؛ لأنه فيما قبل - يعني قوله تعالى: (قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ) إلخ - لهم أيضاً، وكانوا أيضاً يسخرونَ من فقراء المؤمنين تَبَعاً لرؤسائهم.

وأيَّاما كان فجملةُ: «كنَّا» إلخ صفةُ «رجالاً».

وقوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بهمزة استفهامٍ سقطتْ لأجلها همزةُ الوصل، كما قرأ بذلك الحجازيان وابن عامر وعاصم وأبو جعفر والأعرج والحسن وقتادة[3]،

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٣١٨.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

(٣) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

استئنافٌ لا محلَّ له من الإعراب، قالوه حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم، وتأنيباً لها في الاستسخار منهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ متَّصلٌ بقوله تعالى: «ما لنا لا نرى» إلخ، و«أم» فيه متصلةٌ، وتقدُّمُ ما فيه معنى الهمزة يغني عن تقدُّمها، على ما يقتضيه كلام الزمخشريِّ[1]، والمعنى: ما لنا لا نراهم في النار، أليسوا فيها فلذلك لا نراهم، بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها. أو بقوله تعالى: (أَتَّخَذْنَـٰهُمْ) إلخ. و«أم» فيه إمَّا متصلةٌ أيضاً، والمقابلة باعتبار اللازم، والمعنى: أيّ الأمرين فعلنا بهم: الاستسخار منهم، أم الازدراء بهم وتحقيرهم وأنَّ أبصارنا تعلو عنهم وتقتحمهم، على معنى إنكار الأمرين جميعاً على أنفسهم، وعن الحسن: كلَّ ذلك قد فعلوا؛ اتخذوهم سخريّاً وزاغتْ عنهم أبصارهم محقِّرةً لهم، وإما منقطعةٌ كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار، وأنكروا على أنفسهم أشدَّ منه، وهو أنهم جعلوهم محقَّرين لا يُنظَرُ إليهم بوجهٍ.

وفي «زاغت» دون: أزغنا، مبالغةٌ عظيمةٌ، كأنَّ العينَ بنفسها تمجُّهم لقُبْحِ منظرهم، وأين هذا من السّخر، فقد يكون المسخورُ منه محبوباً مكرماً.

وجُوِّزَ أن يكون معنى «أم زاغت» على الانقطاع: بل زاغتْ أبصارنا وكَلَّتْ أفهامنا حتى خفي عنَّا مكانهم، وأنهم على الحق المبين.

وقرأ النحويان وحمزة: «اتَّخذناهم» بغير همزةٍ[2]، فَجُوِّزَ أن تكونَ مقدَّرةً لدلالة «أم» عليها، فتتَّحد القراءتان، وأن لا تكون كذلك، ويكونُ الكلامُ إخباراً، فقال ابن الأنباري: الجملةُ حالٌ، أي: وقد اتخذناهم سخريّاً[3]، وجُوِّزَ كونها مستأنفةً لبيان ما قبلها. وقال الزمخشريُّ وجماعةٌ: صفةٌ ثانيةٌ لـ «رجالاً»[4]. و«أم زاغت» متَّصلٌ بقوله تعالى: (مَا لَنَا لَا نَرَىٰ) إلخ كما سمعتَ أولاً.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨٠ بنحوه.
(٢) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢.
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٦٤.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٨٠.

وجُوِّزَ أن تكونَ «أم» فيه منقطعة، كأنهم أضربوا عمَّا قبلُ، وأنكروا على أنفسهم ما هو أشدُّ منه، أو أضربوا عن ذلك إلى بيان أنَّ ما وقع منهم في حَقِّهم كان لزيغ أبصارهم وكلالِ أفهامهم عن إدراك أنهم على الحقِّ بسبب رَثاثة حالهم.

وقرأ عبد الله وأصحابه ومجاهد والضحاك وأبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع وحمزة والكسائي: «سُخْرِيّاً» بضمِّ السين[1]، ومعناه على ما في «البحر»[2] من السُّخرة والاستخدام، ومعنى «سِخْرِيّاً» بالكَسْر على المشهور من السِّخْر وهو الهُزْء، وهو معنى ما حكي عن أبي عمرو، قال: ما كان من مثل العبودية فسُخْرَى بالضَّمِّ، وما كان من مِثْل الهزء فسِخْرَى بالكَسْر، وقيل: هو بالكَسْر من التسخير.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي حُكي عنهم ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ أن يتكلَّموا به، فالمرادُ من حَقِّيَّته تحقُّقه في المستقبل.

وقوله تعالى: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو تخاصم، والجملةُ بيانٌ لذلك، وفي الإبهام أولاً والتبيين ثانياً مزيدُ تقرير له، وقال ابن عطية: بدلٌ من «حق»[3]، والمبدَلُ منه ليس في حكم السقوط حقيقة، وقيل: بدلٌ من محلِّ اسم «إنَّ».

والمراد بالتخاصم التقاول، وجُوِّزَ إرادةُ ظاهره، فإنَّ قولَ الرؤساء: «لا مرحباً بهم» وقولَ الأتباع: «بل أنتم لا مرحباً بكم» من باب الخصومة، فسمَّى التفاوضَ كلَّه تخاصماً لاشتماله عليه، قيل: وهذا ظاهرٌ أنَّ التقاولَ بين المتبوعين والأتباع، أما لو جُعِلَ الكلُّ من كلام الخزنة فلا، ولو جعل «لا مرحباً» من كلام الرؤساء، و«هذا فوجٌ» من كلام الخزنة، فيصحُّ أن يجعل تخاصماً مجازاً.

وقرأ ابن أبي عبلة: «تخاصَمَ» بالنَّصب[4]، فهو بدلٌ من «ذلك». وقال

---

(١) التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩، عن نافع وحمزة والكسائي وأبي جعفر، والكلام من البحر ٧/ ٤٠٧.
(٢) ٧/ ٤٠٧.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٢.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٨٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٢، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

الزمخشريُّ: صفةٌ له[١]، وتُعقِّبَ بأنَّ وَصْفَ اسم الإشارة وإن جاز أن يكونَ بغير المشتقِّ، إلا أنه يلزمُ أن يكونَ مُعرَّفاً بـ «أل» كما ذكره في «المفصَّل»[٢] من غير نقلِ خلافٍ فيه، فبينه وبينَ ما يستدعيه القولُ بالوصفية تناقضٌ، مع ما في ذلك من الفصل الممتنع أو القبيح.

وأجاب صاحب «الكشف» بأنَّ القياسَ يقتضي التجويزَ؛ لأنَّ اسمَ الإشارة يحتاجُ إلى رافعٍ لإبهامه دالٍّ على ذاتٍ معيَّنةٍ، سواءٌ كان فيه اختصاصٌ بحقيقةٍ أخرى أو بحقائقَ، أو لا، وهذا القدرُ لا يُخرجُ الاسمَ عن الدلالة على حقيقة الذات المعيَّنة التي يصحُّ بها أن يكونَ وَصْفاً لاسم الإشارة، وأما الاستعمال فمعارَضٌ بأصل الاستعمال في الصفة، فكما أنَّ الجمهورَ حملوا على الصِّفة في نحو: هذا الرجلُ، مع احتمال البدل والبيان، كذلك الزمخشريُّ حملَ على الوَصْفِ مع احتمال البدل؛ لأنه التفتَ لفت المعنى، ولا يناقضُ ما في «المفصَّل»؛ لأنه ذَكَرَ ذلك في باب النداء خاصةً، على تقدير عدم استقلال اسم الإشارة، ولأنَّ حالَ الاستقلال أقلُّ لم يتعرَّضْ له، وقد بيّن في موضعه أنه في النداء خاصةً يمتنعُ وَصْفُ اسم الإشارة إذا لم يستقلَّ بالمضاف إلى المعرَّف باللام[٣]، على أنه كثيراً ما يخالفُ في أحد الكتابين «الكشاف» و«المفصَّل» الآخَر، والإشكالُ بأنه يلزمُ الفَصْل غير قادحٍ، فإنه يجوزُ، لا سيَّما على تقدير استقلال اسم الإشارة. اهـ. ولا يخلو عن شيء.

وقرأ ابنُ السَّمَيْفع: «تخاصَمَ» فعلاً ماضياً، «أهلُ» بالرفع على أنه فاعلٌ له[٤].

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي مكة: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أنذرتكم عذابَ الله تعالى للمشركين، والكلامُ رَدٌّ لقولهم: «هذا ساحرٌ كذَّابٌ»، فإنَّ الإنذارَ ينافي السحرَ والكذبَ.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨٠.
(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠، والبحر المحيط ٧/ ٤٠٧.

وقد يقال: المراد: إنما أنا رسولٌ منذرٌ، لا ساحرٌ كذاب، وفيه من الحُسْنِ ما فيه، فإنَّ كلَّ واحدٍ من وَصْفَي الرسالة والإنذار ينافي كلَّ واحدٍ من وَصْفَي السحر والكذب، لكنَّ منافاةَ الرسالة للسحر أظهرُ، وبينهما طِباقٌ، فكذلك الإنذار للكذب، وضُمَّ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لإفادة أنَّ له ﷺ صفة الدعوة إلى توحيده عزَّ وجلَّ أيضاً، فالأمران مستقلّان بالإفادة.

و«من» زائدةٌ للتأكيد، أي: ما إلهٌ أصلاً إلا الله ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ أي: الذي لايحتملُ الكَثْرةَ في ذاته بحسب الجزئيات، بأن يكونَ له سبحانه ماهيةٌ كليةٌ، ولا بحسب الأجزاء ﴿ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾ لكلِّ شيء.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، منه سبحانه خَلْقُها، وإليه تدبير جميع أمورها ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ في أمرٍ من أموره جلَّ شأنه، فتندرجُ في ذلك المعاقبةُ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾ المبالغ في المغفرة، يغفرُ ما يشاء لمن يشاء.

[وفي هذه الأوصاف][1] تقريرٌ للتوحيد، أما الوصفُ الأولُ فظاهرٌ في ذلك غيرُ محتاجٍ للبيان، وأما القهار لكلِّ شيءٍ، فلأنه لو كان إلهٌ غيرهُ سبحانه لم يكنْ قهَّاراً له، ضرورةَ أنه لا يكونُ حينئذٍ إلهاً، بل ربما يلزمُ أن يكونَ مقهوراً، وذلك منافٍ للألوهية، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وأما «رب السماوات» إلخ فلأنَّه لو أمكن غيره معه تعالى شأنه جاء دليلُ التمانع المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلم تتكوَّنِ السماواتُ والأرضُ وما بينهما، وقيل: لأنَّ معنى «رب السموات» إلخ، ربّ كلّ موجودٍ، فيدخلُ فيه كلُّ ما سواه، فلا يكون إلهاً. وأما «العزيزُ» فلأنه يقتضي أن يغلبَ غيرَهُ ولا يُغلَبَ، ومع الشِّرْكة لا يتمُّ ذلك.

وأما «الغفار» فلأنه يقتضي أن يغفرَ ما يشاءُ لمن يشاء، فربما شاءَ مغفرةً لأحدٍ وشاءَ الآخر منه العقاب، فإن حصلَ مرادُهُ، فالآخَرُ ليس بإله، وإن حَصَلَ مرادُ

(١) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٧/ ٣١٩، وتفسير أبي السعود ٧/ ٢٣٤.

الآخر ولم يحصلْ مراده، لم يكن هو إلهاً، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وما قيل في برهان التمانع سؤالاً وجواباً يقال هنا.

وفي هذه الأوصاف من الدلالة على الوعد والوعيد ما لا يخفى، وللاقتصار على وَصْفِ الإنذار صريحاً فيما تقدَّم قُدِّم وَصْفُ «القهَّار» على وَصْفِ «الغفار» هنا. وجُوِّزَ أن يكون المقصودُ هو تحقيق الإنذار، وجيءَ بالثاني تتميماً له وإيضاحاً لما فيه من الإجمال، أي: قلْ لهم: ما أنا إلا منذرٌ لكم بما أعلم، وإنما أنذرتكم عقوبةَ مَنْ هذه صِفتُهُ، فإنَّ مِثْلَهُ حقيقٌ بأن يُخافَ عقابه، كما هو حقيقٌ بأن يُرجى ثوابه. والوجه الأول أوفقُ لمقتضى المقام؛ لأنَّ التعقيبَ بتلك الصفات في الدلالة على أنَّ الدعوةَ إلى التوحيد مقصودةٌ بالذات بمكانٍ لا يُنكر، ولأنَّ هذا بالنسبة إلى ما مرَّ من صَدْرِ السورة إلى هنا بمنزلةِ أن يقول المستدلُّ بعد تمام تقريره: فالحاصلُ، فالأولى أن يكونَ على وزان المبسوط، وفيه قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] فافهم.

﴿قُلْ﴾ تكريرُ الأمر للإيذان بأنَّ المقولَ أمرٌ جليلٌ، له شأنٌ خطيرٌ لا بدَّ من الاعتناء به أمراً وائتماراً. ﴿هُوَ﴾ أي: ما أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً، وأنَّ الله تعالى واحداً لا شريك له. ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ جدّاً، لا ريبَ فيه أصلاً ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ متمادون في الإعراض عنه لتمادي غفلتكم، وهذه الجملةُ صفةٌ ثانيةٌ لـ «نبأ»، والكلامُ بجملته تحسيرٌ لهم وتنبيهٌ على مكان الخطأ، وإظهارٌ لغاية الرأفة والعَطْفِ الذي يقتضيه مقامُ الدعوة.

واستظهر بعضُ الأجلَّة أنَّ «هو» للقرآن، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، واستشهد بآخر السورة وقال: إنه يدخلُ [فيه] ما ذُكِرَ دخولاً أوليًّا، واختارَ كونَ هذه الجملة[1] استئنافاً ناعياً عليهم سوءَ حالهم بالنسبة إليه، وأنهم لا يقدرون قَدْرَهُ الجليلَ مع غاية عظمته الموجبة للإقبال عليه وتلقِّيه بحُسْنِ القَبول.

---

(١) يعني الجملة: «أنتم عنه معرضون» كما في تفسير أبي السعود ٧/ ٢٣٤، والكلام وما بين حاصرتين منه.

وكأنَّ الكلامَ عليه ناظرٌ إلى ما في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:١-٢] جيءَ به ليستدلَّ على أنه واردٌ من جهته تعالى بما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ إلخ، حيث تضمَّنَ ذِكْرَ نبأً من أنبائه على التفصيل من غير سابقةِ معرفةٍ به، ولا مباشرةِ سببٍ من أسبابها المعتادة، كالنظر في الكتب الإلهية والسماع من الكتابين، وهو حُجَّةٌ بيِّنةٌ دالةٌ على أنه بطريق الوحي من عند الله تعالى، وأنَّ سائرَ أنبائه أيضاً كذلك؛ وهو على ما قلنا تذكيرٌ لإثبات النبوَّة بذِكْرٍ مختصرٍ منه، تمهيداً لإرشاد الطريق وتذكيراً للباقي، وتسلُّقاً منه إلى استماع ما ذِكْرُهُ لُطْفٌ للمدعوِّينَ وتنويهٌ للداعي، وعدم التعرض لنحو ذلك في أمر التوحيد لظهور أدلَّته مع كونه ذكر شيء منها غضّاً طريًّا، وهو ما أشارت إليه الصفاتُ المذكورةُ آنفاً، فلا يقال: إنَّ التعرُّضَ لإثبات النبوَّة دونَ التوحيد دليلٌ على أنَّ المقصودَ بالإفادة هو النبوَّةُ، وأنَّ الثاني جيءَ به تتميماً لذلك.

وأنت تعلم أنَّ النبوَّةَ وكونَ القرآن وحياً من عند الله تعالى متلازمان، متى ثبتَ أحدهما ثبتَ الآخر، لكن يُرجِّحُ جَعْلَ الآية في النبوَّة وإثباتها القُرْبُ وتصديرُ هذه الآية بنحو ما صُدِّرَتْ به الآيةُ المتضمِّنةُ دعوى النبوَّة قبلها من قوله تعالى: «قل»، فإن سَلِمَ لك هذا المرجِّحُ فذاك، وإلا فلا تَعْدِلْ عمَّا روي عن ابن عباس ومن معه.

وعن الحسن أنَّ ذلك يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢] وقيل: ما تقدَّم من أنباء الأنبياء عليهم السلام، وقيل: تخاصُمُ أهل النار، وعُدِّيَ العِلْمُ بالباء نظراً إلى معنى الإحاطة.

والملأ: الجماعةُ الأشراف؛ لأنهم يملؤون العيونَ رواءً، والنفوسَ جلالةً وبهاءً، وهو اسمُ جمعٍ ولذا وُصِفَ بالمفرد، أعني: الأعلى، والمراد به عند ملأ: الملائكةُ وآدمُ عليهم السلام وإبليسُ عليه اللعنة، وكانوا في السماء، فالعلوُّ حِسِّيٌّ، وكان التقاولُ بينهم على ما ستعلمه إن شاء الله تعالى، و«إذ» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يقتضيه المقام؛ إذ المرادُ نفيُ علمه عليه السلام بحالهم لا بذواتهم، والتقديرُ: ما كان لي فيما سَبَقَ عِلْمٌ ما بوجهٍ من الوجوه بحالِ الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم،

وهو أَولى من تقدير الكلام كما ذهب إليه الجمهور، أي: ما كان لي عِلْمٌ بكلامِ الملأ الأعلى وقتَ اختصامهم؛ لأنَّ عِلْمه ﷺ غيرُ مقصورٍ على ما جرى بينهم من الأقوال فقط، بل عامٌّ لها وللأفعال أيضاً من سجودِ الملائكة عليهم السلام وإباء إبليسَ واستكباره حسبما ينطق به الوحي، فالأَولى اعتبارُ العموم في نفيه أيضاً.

وقيل: «إذ» بدلُ اشتمالٍ من «الملأ»، أو ظرفٌ لـ «عِلْم». وفيه بحثٌ.

والاختصام فيما يُشير إليه سبحانه بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [الآية: ٧١]، والتعبير بـ «يختصمون» المضارع لأنه أمرٌ غريبٌ، فأُتي به لاستحضاره حكاية للحال، وضميرُ الجميع للملأ، وحكى أبو حيان كونه لقريشٍ واستبعده[1]، وكأنَّ في «يختصمون» حينئذٍ التفاتاً من الخطاب في «أنتم عنه معرضون» إلى الغَيبة، والاختصام في شأن رسالته ﷺ أو في شأن القرآن أو شأن المعاد، وفيه عدولٌ عن المأثور وارتكابٌ لما لا يكاد يُفهَمُ من الآية من غيرِ داعٍ إلى ذلك، ومع هذا لا يقبله الذوقُ السليم.

وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين إجمال اختصامهم وتفصيله تقريراً لثبوت عِلْمه عليه الصلاة والسلام وتعييناً لسببه، إلا أنَّ بيانَ انتفائه فيما سبق لمَّا كان منبئاً عن ثبوته الآن، ومن البيِّن عدمُ ملابسته ﷺ بشيءٍ من مباديه المعهودة، تعيَّنَ أنه ليس إلا بطريق الوحي حَتْماً، فجعلَ ذلك أمراً مُسلَّمَ الثبوت، غنيّاً عن الإخبار به قَصْداً، وجَعَلَ مَصَبَّ الفائدة إخبارَه بما هو داعٍ إلى الوحي ومصحِّحٌ له، فالقائمُ مقامَ الفاعل لـ «يوحى» إما ضميرٌ عائدٌ إلى الحال المقدَّر كما أُشير إليه سابقاً أو ما يعمُّهُ وغيره، فالمعنى: ما يُوحى إليَّ حالُ الملأ الأعلى، أو: ما يوحى إليَّ الذي يُوحى من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم لأمرٍ من الأمور، إلا لأني نذيرٌ مبينٌ من جهته تعالى، فإنَّ كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعي الوحي إليه ومصحِّحاته.

وجُوِّزَ كونُ الضمير القائم مقامَ الفاعل عائداً إلى المصدر المفهوم من «يُوحى»،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٩.

أي: ما يُفعل الإيحاء إليَّ بحالِ الملأ الأعلى ـ أو بشيءٍ من الأمور الغيبية التي من جملتها حالهم ـ لأمرٍ من الأمور إلا لأني.. إلخ.

وجُوِّز أيضاً كون الجارِّ والمجرور نائب الفاعل، و«أنَّما» على تقدير اللام، قال في «الكشف»: ومعنى الحَصْر أنه ﷺ لم يُوحَ إليه لأمرٍ إلا لأنه نذيرٌ مبينٌ، وأيُّ مبينٍ، كقولك: لم تستقضِ يا فلانُ إلا لأنك عالمٌ عاملٌ مرشد.

وجوَّزَ الزمخشريُّ أن يكون بعد حَذْفِ اللام مقاماً مقام الفاعل[1]، ومعنى الحَصْر أني لم أُومر إلا بهذا الأمر وحده، وليس إليَّ غير ذلك؛ لأنه الأمرُ الذي يشتملُ على كلِّ الأوامر؛ إما تضمُّناً وإما التزاماً، أو: لم أُومر إلا بإنذاركم، لا بهدايتكم وصَدِّكم عن العناد، فإنَّ ذلك ليس إليَّ.

وما ذُكر أولاً أوفقُ بحال الاعتراض كما لا يخفى على من ليس أجنبيّاً عن إدراك اللطائف.

وقرأ أبو جعفر: «إنَّما» بالكَسْر، على الحكاية[2]، أي: ما يُوحى إليَّ إلا هذه الجملة، وإيحاؤها إليه أَمرُهُ عليه الصلاة والسلام أن يقولها، وحاصلُ معنى الحَصْر قريبٌ مما ذُكر آنفاً، وجُوِّزَ أن يُراد: لم أُومرْ إلا بأنْ أقولَ لكم هذا القول، دون أن أقولَ: أعلمُ الغيبَ بدون وحي مثلاً. فتدبَّر ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إلخ، شروعٌ في تفصيل ما أُجمل من الاختصام الذي هو ما جرى بينهم من التقاول، فهو بدلٌ من «إذ يختصمون» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وجُوِّزَ كونه بدلَ بعض.

وصحَّ إسنادُ الاختصام إلى الملائكة مع أنَّ التقاولَ كان بينهم وبين الله تعالى كما يدل عليه: «إذ قال ربك» إلخ، لأنَّ تكليمه تعالى إياهم كان بواسطة الملك، فمعنى المقاولة بين الملأ الأعلى مقاولة ملك من الملائكة مع سائر الملائكة عليهم السلام في شأنِ الاستخلاف، ومع إبليسَ في شأن السجود، ومع آدم في قوله:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨١.
(٢) النشر ٢/ ٣٦٢.

﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة:٣٣] ومعنى كون المقاولة بين الملائكة وآدم وإبليس وجودها فيما بينهم في الجملة، ولا يلزمُ الجَمْعُ بين الحقيقة والمجاز في الإسناد، فالكلُّ حقيقةٌ؛ لأنَّ الملأ الأعلى شاملٌ للملك المتوسِّط، وهو المقاول بالحقيقة، وهو عزَّ وجلَّ مقاولٌ بالمجاز، ولا تقل: المخاصم؛ ليكونَ الأمرُ بالعكس، وما يقال: إنَّ قوله تعالى: «إذ قال ربك» يقتضي أن تكونَ مقاولته تعالى إياهم بلا واسطة، فهو ممنوعٌ؛ لأنه إبدالُ زمانِ قصَّةٍ عن زمان التفاوض فيها، والغرضُ أن تُعلمَ القصة لا مطابقة كلِّ جزءٍ جزءٍ لكلِّ جزءٍ جزءٍ، فذلك غيرُ لازمٍ ولا مراد.

ثم فيه فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ مقاولةَ الملك إياهم أو إياهما عن الله تعالى، فهم مقاولوه تعالى أيضاً، وأُريد هذا المعنى من هذا الإيراد لا من اللفظ؛ ليلزمَ الجمعُ المذكورُ آنفاً، وجَعْلُ الله عزَّ وجلَّ من الملأ الأعلى بأنْ يُرادَ به ما عدا البشر؛ ليكونَ الاختصامُ قائماً به تعالى وبهم على معنى أنه سبحانه في مقابلتهم يخاصمونه ويخاصمهم، مع ما فيه من إيهام الجهة له عزَّ وجلَّ ينبو المقامُ عنه نبوّاً ظاهراً، ولم يذكر سبحانه جوابَ الملائكة عليهم السلام لتتمَّ المقاولةُ؛ اختصاراً بما كرّر مراراً، ولهذا لم يقلْ جلَّ شانه: إني خالقٌ خَلْقاً من صفته كيتَ وكيتَ، جاعلٌ إياه خليفة.

وروعي هذا النسقُ هاهنا لنكتةٍ سَرِيَّةٍ وهي أن يُجعَلَ مصبُّ الغرض من القصة حديث إبليس ليلائم ما كان فيه أهل مكة، وأنه بامتناعه عن امتثال أمرٍ واحدٍ جرى عليه ما جرى، فكيف يكونُ حالهم وهم مغمورون في المعاصي؟ وفيه أنه أولُ من سَنَّ العصيانَ، فهو إمامهم وقائدهم إلى النار، وذِكْرُ حديث سجود الملائكة وطيّ مقاولتهم في شأن الاستخلاف ليفرِّقَ بين المقاولتين، وأنَّ السؤالَ قبل الأمر ليس مثله بعده، فإنَّ الثاني يلزمه التواني.

ثم فيه حديثُ تكريم آدم عليه السلام ضِمْناً دلالة على أنَّ المعلِّمَ والناصحَ يُعَظَّمُ، وأنه شَرْعٌ منه تعالى قديم، وكان على أهل مكة أن يعاملوا النبيَّ ﷺ معاملةَ الملائكة لآدم، لا معاملةَ إبليس له. قاله صاحب «الكشف»، وهو حَسَنٌ، بَيْدَ أنَّ ما علّل به الاختصارَ من تكرار ذلك مراراً لا يتمُّ إلا إذا كان ذلك في سورةٍ مكية نزلتْ قبل هذه السورة، وقد علَّلَ بعضُهم تَرْكَ الذكر بالاكتفاء بما في البقرة، وفيه

أنَّ نزولها متأخِّرٌ عن نزول هذه السورة؛ لأَنها مدنيَّة وهذه مكية، فلا يصحُّ الاكتفاءُ إحالةً عليها قبل نزولها، وكونُ المراد اكتفاء السامعين للقرآن بعد ذلك، لا يخفى حاله، ولعلَّ القصةَ كانت معلومةً سماعاً منه ﷺ، وكان عالماً بها بواسطة الوحي، وإن لم تكن إذ ذاك نازلةً قرآناً، فاختُصرت هاهنا لما ذكر في «الكشف» اكتفاءً بذلك.

وقال فيه أيضاً: ولك(١) أن تقول: التقاولُ بين الملائكة وآدم عليهم السلام حيث قال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة:٣١] تبكيتاً لهم بما نسبوا إليه من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠] وبينه وبين إبليس، إما لأنه داخلٌ في الإنكار والتبكيت، بل هو أشدّهم في ذلك، لكنْ غلَّبَ الله تعالى الملائكةَ لأنه أخسّ من أن يُقرَنَ مع هؤلاء مفرَداً في الذكر، أو لأنه أُمر بالسجود لمعلِّمه فامتنع وأسمعه ما أسمع. وقوله تعالى: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ) إلخ، للإتيان بطَرَفٍ مشتملٍ على قصةِ المقاولة، وتصويرِ أصلها، فلم يلزمْ منه أن يكونَ الربُّ جلَّ شأنه من المقاولين، وإن كان بينه سبحانه وبينهم تقاولٌ قد حكاه الله تعالى.

وهذا أقلُّ تكلُّفاً مما فيه دعوى أنَّ تكليمَهُ تعالى كان بواسطة الملك؛ إذ للمانع أن يمنعَ التوسُّطَ على أصلنا وعلى أصل المعتزلة أيضاً، لا سيَّما إذا جُعل المبكَّتون الملائكةَ كلَّهم، وعلى الوجهين ظَهَرَ فائدةُ إبدال «إذ قال ربك» من «إذ يختصمون» على وجهٍ بيِّنٍ.

والاعتراضُ بأنه لو كان بدلاً لكان الظاهرُ: إذ قال ربِّي؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الآية:٦٩] فليس المقامُ مما يقتضي الالتفاتَ = غير قادحٍ، فإنه على أسلوب قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الزخرف:٩-١٠] فالخطابُ بـ «لكم» نظراً إلى أنه من قول الله تعالى تمَّم قولهم، وذنبه كذلك هاهنا هو من قول الله تعالى لتتميم قول النبيِّ ﷺ، وهذا على نحو ما يقول مخاطِبكَ: جاءني الأمير، فتقول: الذي أكرمَكَ وحباكَ، أو يقول: رأيتُ الأميرَ يومَ الجمعة، فتقول: يومَ خلَعَ عليكَ الخِلْعة

---

(١) في (م): وذلك.

الفلانيَّة، ومنه عُلم أنه ليس من الالتفات في شيءٍ، وأنَّ هذا الإبدالَ على هذا الأسلوب لمزيد الحُسْن. انتهى.

وجُوِّزَ أن يقال: إنَّ «إذ» في قوله تعالى: «إذ قال ربك» ظرفٌ لـ: «يختصمون»، والمراد بالملأ الأعلى الملائكةُ، وباختصامهم قولهم لله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] في مقابلة قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى غير ذلك، ولا يتوقَّفُ صحةُ إرادة ذلك على جَعْل الله تعالى من الملأ، ولا على أنه سبحانه كلَّمهم بواسطةِ ملك، ولا تقدُّم تفصيلِ الاختصام مطلقاً، بل يكفي ذِكْرُهُ بعد النزول سواء ذُكِرَ قرآناً أم لا، ويُرجِّحُ تفسيرَ الملأ بما ذُكر على تفسيره بما يعمُّ آدمَ عليه السلام أنَّ ذاك على ما سمعتَ يستدعي القولَ بأنَّ آدمَ كان في السماء، وهو ظاهرٌ في أنه عليه السلام خُلِقَ في السماء، أو رُفِعَ إليها بعد خَلْقه في الأرض، وكلا الأمرين لا يُسلِّمهما كثيرٌ من الناس.

وقد نقل ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»[(١)] عن جَمْعٍ أنَّ آدمَ عليه السلام إنما خُلِقَ في الأرض، وأنَّ الجنة التي أُسْكِنَها بعد أن جَرى ما جَرى كانت فيها أيضاً، وأتى بأدلةٍ كثيرةٍ قويةٍ على ذلك، ولم يُجبْ عن شيءٍ منها، فتدبر.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الملأ الأعلى الملائكة، وأنَّ اختصامهم كان في الدرجات والكفارات، فقد أخرج الترمذيُّ وصحَّحه، والطبرانيُّ وغيرهما[(٢)] عن معاذ بن جبل قال: احتبسَ عنَّا رسولُ الله ﷺ ذاتَ غَداةٍ من صلاةِ الصبحِ، حتى كِدْنا نتراءى عينَ الشمس، فخرج سريعاً فثوَّبَ بالصلاة، فصلَّى رسول الله ﷺ، فلمَّا سلَّم دعا بصوته فقال: «على مصافِّكم» ثم التفتَ إلينا، ثم قال: «أما إنِّي أحدِّثكم بما حبسني عنكم الغداةَ، إني قمتُ الليلةَ، فقمتُ وصلَّيتُ ما قُدِّرَ لي، ونَعَسْتُ في صلاتي حتى استثقلتُ، فإذا أنا بربِّي تباركَ وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد، قلت: لبيكَ ربِّي. قال: فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قلت:

---

(١) ١/ ١١ وما بعدها.

(٢) الترمذي (٣٢٣٥)، والطبراني في الكبير ٢٠/ ١٠٩ (٢١٦). وهو عند أحمد (١٦٦٢١) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ.

لا أدري، فَوَضَعَ كَفَّه بين كتفيَّ، فوجدتُ بَرْدَ أنامله بين ثدييَّ، فتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفته، فقال: يا محمد، قلت: لبيكَ. قال: فيمَ يختصمُ الملأ الأعلى؟ قلت: في الدرجات والكفَّارات، فقال: ما الدرجات؟ فقلتُ: إطعامُ الطعام، وإفشاءُ السلام، والصلاةُ بالليل والناس نيام، قال: صدقتَ، فما الكفَّارات؟ قلتُ: إسباغُ الوضوء في المكاره، وانتظارُ الصلاة بعد الصلاة، ونَقْلُ الأقدام إلى الجماعات، قال: صدقتَ، سَلْ يا محمد، فقلت: اللهمَّ إنِّي أسألكَ فِعْلَ الخيرات، وتَرْكَ المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحمني، وإذا أردتَ بعبادك فتنةً فاقبضني إليك غيرَ مفتون، اللهمَّ إني أسألك حُبَّكَ وحُبَّ من أَحبَّكَ، وحُبَّ عملٍ يُقرِّبني إلى حُبِّك»، قال النبيُّ ﷺ: «تعلَّموهنَّ وادرسوهنَّ، فإنهنَّ حقٌّ».

ومعنى اختصامهم في ذلك على ما في «البحر» اختلافُهم في قَدْرِ ثوابه[(١)].

ولا يخفى أنَّ حَمْلَ الاختصام في الآية على ما ذُكر بمراحلَ عن السياق، فإنه مما لم يعرفه أهلُ الكتاب، فلا يُسلِّمه المشركون له عليه الصلاة والسلام أصلاً، نعم هو اختصامٌ آخر لا تعلُّقَ له بالمقام. وجَعَلَ هؤلاء «إذ» في «إذ قال» منصوباً بـ «اذكر» مقدَّراً، وكذا كلُّ من قال: إنَّ الاختصامَ ليس في شأن آدم عليه السلام، يجعله كذلك. والشهاب الخفاجي قال: الأظهر - أي: مطلقاً - تعلُّق «إذ» بـ «اذكر» المقدَّر على ما عُهد في مثله؛ ليبقى «إذ يختصمون» على عمومه، ولئلا يفصلَ بين البدل والمبدل منه، وليشملَ ما في الحديث الصحيح من اختصامهم في الكفارات والدرجات، ولئلا يحتاجَ إلى توجيهِ العدول عن «ربِّي» إلى «ربك»[(٢)]. انتهى، وفيه شيءٌ لا يخفى.

ومن غريب ما قيل في اختصامهم، ما حكاه الكرمانيُّ في «عجائبه» أنه عبارةٌ عن مناظرتهم بينهم في استنباط العلوم، كمناظرة أهل العلم في الأرض، ويُرَدُّ به على مَنْ يزعمُ أنَّ جميعَ علومهم بالفعل، والمعروفُ عن السلف أنه المقاولةُ في شأن آدم عليه السلام، والردّ به حاصلٌ أيضاً، والمراد بالملائكة في: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٠٩.

(٢) حاشية الشهاب ٧/ ٣٢٠.

﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ ما يعمُّ إبليس؛ لأنه إذ ذاك كان مغموراً فيهم، ولعلَّ التعبيرَ بهم دون الضمير الراجع إلى الملأ الأعلى على القول بالاتحاد؛ لشيوع تعلُّقِ القول بهم بين أهل الكتاب بهذا العنوان، أو لشهرةِ المقابلة بين الملك والبشر، فيلطف جدّاً قوله سبحانه ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ وقيل: عبَّر بذلك إظهاراً للاستغراق في المقول له، والمراد: إني خالقٌ فيما سيأتي، وفي التعبير بما ذُكر ما ليس في التعبير بصيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعلٌ ألبتَّة من غير صارف.

والبشر: الجسمُ الكثيفُ يلاقي ويباشر، أو بادي البشرة ظاهر الجلد غير مستورٍ بشعر أو وَبَرٍ أو صوف، والمراد به آدم عليه السلام؛ وذكر هنا خلقهُ من طينٍ، وفي «آل عمران»: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [الآية:٥٩]، وفي «الحِجْر»: ﴿مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الآية:٢٨]، وفي «الأنبياء»: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ [الآية:٣٧]، ولا منافاةَ، غايةُ ما في الباب أنه ذُكِرَ في بعض المادة القريبة وفي بعض المادة البعيدة، ثم إنَّ ما جرى عند وقوع المحكيِّ ليس اسم البشر الذي لم يخلق مسمَّاه حينئذٍ فضلاً عن تسميته به، بل عبارةٌ كاشفةٌ عن حاله، وإنما عبَّر عنه بهذا الاسم عند الحكاية.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صَوَّرته بالصورة الإنسانية والخِلْقة البشرية، أو: سَوَّيتُ أجزاءَ بدنه بتعديل طبائعه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ تمثيلٌ لإضافة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها، فليس ثمَّةَ نفخٌ ولا منفوخٌ، أي: فإذا أكملتُ استعدادَهُ وأفضْتُ عليه ما يحيا به من الروح الطاهرة التي هي أمري. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أَمْرٌ من «وقع»، وفيه دليلٌ على أنَّ المأمورَ به ليس مجردَ الانحناء كما قيل، أي: فاسقطوا له ﴿سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تحيةً له وتكريماً.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: فَخَلَقَهُ فسوَّاه، فنفخَ فيه الروحَ، فَسَجَدَ له الملائكة ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيثُ لم يبقَ أحدٌ منهم إلا سجد ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: بطريق المعيَّةِ بحيثُ لم يتأخَّرْ أحدٌ منهم عن أحدٍ، فـ «كلّ» للإحاطة و«أجمع» للاجتماع، ولا اختصاصَ لإفادته ذلك بالحالية خلافاً لبعضهم، وتحقيقه على ما في «الكشف» أنَّ الاشتقاقَ الواضحَ يُرشِدُ إلى أنَّ فيه معنى الجمع والضَّمِّ، والأصلُ في الإطلاق

الخطابيّ التنزيلُ على أكمل أحوال الشيء، ولا خفاء في أنَّ الجمعَ في وقتٍ واحدٍ أكملُ أصنافه، لكنْ لمَّا شاع استعماله تأكيداً أُقيم مُقامَ «كلّ» في إفادة الإحاطة من غير نظر إلى الكمال، فإذا فُهمتِ الإحاطةُ بلفظٍ آخرَ لم يكن بُدٌّ من ملاحظة الأصل؛ صَوْناً للكلام عن الإلغاء، ولو سَلِمَ فـ «كلّ» تأكيدُ الشمول بإخراجه عن الظهور إلى النصوص، و«أجمعون» تأكيدُ ذلك التأكيد، فيفيدُ أتمَّ أنواع الإحاطة، وهو الإحاطةُ في وقتٍ واحد، واستخراجُ هذه الفائدة من جَعْله كإقامة المظهر مقام المضمَرِ لا يلوحُ وجهه، والنقضُ بقوله سبحانه: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ منشؤهُ عدمُ تصوُّرِ وجهِ الدلالة.

وظاهرُ هذه الآية وآية «الحِجْر» أنَّ سجودَهم مترتِّبٌ على ما حكي من الأمر التعليقيِّ، وكثيرٌ من الآيات الكريمة كالتي في «البقرة» و«الأعراف»[1] وغيرهما ظاهرةٌ في أنه مترتِّبٌ على الأمر التنجيزيِّ، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك فليراجع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ متَّصلٌ لما أنه ـ وإن كان جِنِّيّاً ـ معدودٌ في زمرة الملائكة، موصوفٌ بصفاتهم، لا يقومُ ولا يقعدُ إلا معهم، فشملته الملائكةُ تغليباً، ثم استثني استثناءَ واحدٍ منهم، أو لأنَّ من الملائكة جِنْساً يتوالدون وهو منهم. أو هو استثناءٌ منقطع.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ على الأول استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية تَرْكِ السجود المفهوم من الاستثناء، فإنَّ تَرْكَهُ يحتملُ أن يكونَ للتأمل والتروِّي، وبه يتحقَّقُ أنه للإباء والاستكبار، وعلى الثاني: يجوزُ اتصاله بما قبله، أي: لكن إبليس استكبرَ وتعظَّم.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: وصار منهم باستكباره وتعاظُمه على أمر الله تعالى، وتَرْكُ الفاء المؤذنةِ بالسببية إحالةٌ على فِطْنةِ السامع، أو لظهور المراد. وكون التعاظم على أمره عزَّ وجلَّ لا سيَّما الشفاهي موجباً للكُفْر مما لا ينبغي أن يُشَكَّ فيه، على أنَّ هذا الاستكبارَ كان متضمِّناً استقباحَ الأمر وعَدَّهُ جَوْراً،

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٤) وما بعدها، وسورة الأعراف الآية (١١) وما بعدها.

ويجوزُ أن يكون المعنى: وكان من الكافرين في عِلْمِ الله تعالى لِعِلْمِهِ عزَّ وجلَّ أنه سيعصيه، ويصدرُ عنه ما يصدرُ باختياره وخُبْثِ طويَّته واستعداده.

﴿قَالَ﴾ عزَّ وجلَّ على سبيل الإنكار والتوبيخ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ أي: من السجود ﴿لِمَا خَلَقۡتُ﴾ أي: للذي خلقتُه، على أنَّ «ما» موصولةٌ والعائدُ محذوف، واستُدلَّ به على جواز إطلاق «ما» على آحاد مَنْ يعقل، ومَن لم يُجِزْ قال: إنَّ «ما» مصدريةٌ، ويُراد بالمصدر المفعول، أي: أن تسجدَ لمخلوقٍ.

﴿بِيَدَيَّۖ﴾ وهذا عند بعض أهل التأويل من الخَلَفِ تمثيلٌ لكونه عليه السلام معتنًى بخَلْقه، فإنَّ من شأن المُعتنَى به أن يُعمَلَ باليدين، ومن آثار ذلك خَلْقه من غير توسُّطِ أبٍ وأمٍّ، وكونه جسماً صغيراً انطوى فيه العالم الأكبر، وكونه أهلاً لأن يُفاضَ عليه ما لا يُفاض على غيره، إلى غير ذلك من مزايا الآدميَّة.

وعند بعضٍ آخر منهم: اليدُ بمعنى القدرة، والتثنيةُ للتأكيد الدالِّ على مزيد قدرته تعالى؛ لأنها تَرِدُ لمجرد التكرير نحو: ﴿ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: ٤] فأُريد به لازمُهُ، وهو التأكيد، وذلك لأنَّ لله تعالى في خَلْقه أفعالاً مختلفةً من جَعْله طِيناً مخمَّراً، ثم جسماً ذا لحمٍ وعظمٍ، ثم نفخ الروح فيه وإعطائه قوَّةَ العلم والعمل، ونحو ذلك مما هو دالٌّ على مزيد قدرة خالقِ القُوى والقُدَر.

وجُوِّز أن يكون ذلك لاختلاف فعل آدم، فقد يصدرُ منه أفعالٌ مَلَكيَّةٌ، كأنها من آثار اليمين، وقد يصدرُ منه أفعالٌ حيوانيَّةٌ، كأنها من آثار الشمال، وكلتا يديه سبحانه يمين.

وعند بعضٍ: اليد بمعنى النعمة، والتثنيةُ إما لنحو ما مرَّ، وإما على إرادة نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

والسلف يقولون: اليدُ مفردةً وغيرَ مفردةٍ ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ على المعنى اللائق به سبحانه، ولا يقولون في مثل هذا الموضع: إنها بمعنى القدرة أو النعمة، وظاهرُ الأخبار أنَّ للمخلوق بها مزيةً على غيره، فقد ثبت في الصحيح أنه سبحانه قال في

جواب الملائكة: اجعلْ لهم الدنيا ولنا الآخرة: وعِزَّتي وجلالي لا أجعلُ مَن خَلَقتُهُ بيديَّ كَمَنْ قلت له: كُنْ، فكان(١).

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خلقَ الله تعالى أربعاً بيده: العرش، وجنات عَدن، والقلم، وآدم، ثم قال لكلِّ شيءٍ: كُنْ، فكان(٢).

وجاء في غير ما خبر أنه تعالى كتب التوراةَ بيده.

وفي حديث مُحاجَّة آدم وموسى عليهما السلام ما يدلُّ على أنَّ المخلوقيةَ بها وَصْفُ تعظيم حيث قال له موسى: «أنت آدمُ الذي خَلَقَكَ الله تعالى بيده»(٣).

وكذلك في حديث الشفاعة أنَّ أهلَ الموقف يأتون آدمَ ويقولون له: «أنت آدمُ أبو الناس، خَلَقَكَ الله تعالى بيده»(٤).

ويُعلَمُ من ذلك أنَّ ترتيبَ الإنكار في «ما منعك أن تسجد» على خَلْقِ الله تعالى إياه بيديه لتأكيد الإنكار وتشديد التوبيخ، كأنه قيل: ما منعكَ أن تُعظِّمَ بالسجود مَنْ هو أهلٌ للتعظيم؛ للعناية الربَّانيَّة التي حَفَّتْ إيجاده.

وزعم الزمخشريُّ أنَّ «خلقتُ بيديَّ» من باب: رأيته بعينيَّ، فـ «بيديَّ» لتأكيد أنه مخلوقٌ لاشكَّ فيه، وحيث إنَّ إبليسَ تَرَكَ السجود لآدم عليه السلام لشبهةِ أنه سجودٌ لمخلوقٍ، وانضمَّ إلى ذلك أنه مخلوقٌ من طين، وأنه هو مخلوقٌ من نار، وزلَّ عنه أنَّ الله سبحانه حين أَمَرَ مَنْ هو أَجَلُّ منه وأَقربُ عباده إليه زلفى وهم الملائكة امتثلوا ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له؛ تعظيماً لأمر ربِّهم وإجلالاً لخطابه، ذَكَرَ له ما يتشبَّثُ به من

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦١٦٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي مسند الشاميين (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٠. والحديث ليس في الصحيح كما ذكر المصنف.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٠/ ١٤٥، والعظمة (٦٩٣)، والأسماء والصفات للبيهقي (٦٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٩٥)، ومسلم (٢٦٥٢): (١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٩٦٢٣)، والبخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشبهة، وأخرج له الكلامَ مخرجَ القول بالموجب، مع التنبيه على مزلَّة القدم، فكأنه قيل له: ما منعكَ من السجود لشيءٍ هو كما تقول مخلوقٌ، خلقتهُ بيديَّ، ولا شكَّ في كونه مخلوقاً؛ امتثالاً لأمري وإعظاماً لخطابي، كما فعلت الملائكة[1].

ولا يخفى أنَّ المقامَ نابٍ عمَّا ذكره أشدَّ النبو، وجَعْلُ ذلك من باب: رأيتُ بعيني، لا يفيد إلا تأكيد المخلوقية، وإخراجُ الكلام مخرجَ القول بالموجب مما لا يكادُ يُقبَلُ، فإنَّ سياقَ القول بالموجب أن يُسلّم له ثم ينكر عليه، لا أن يُقدّم الإنكار أصلاً ويؤتى به كالرَّمز، بل كالإلغاز، وأيضاً الأخبار الصحيحة ظاهرةٌ في أنَّ ذاك وَصْفُ تعظيم لا كما زعمه، وأيضاً جَعْلُ سجود الملائكة لآدم راجعاً إلى محض الامتثال من غير نظرٍ إلى تكريم آدم عليه السلام مردودٌ بما سُلِّمَ في عِدَّة مواضعَ أنه سجودُ تكريم، كيف وهو يقابل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] وكذلك تعليمه إياهم، فليلحظ فيه جانب الآمر تعالى شأنه، وجانب المسجود له عليه الصلاة والسلام توفيةً للحقَّين، وكأنه قال ما قال وأخرج الآية على وجهٍ لم يخطرْ ببال إبليس حَذَراً من خَرْم مذهبه، ولا عليه أن يُسلِّم دلالة الآية على التكريم، ويخصَّهُ بوجهٍ، وحينئذٍ لا تدلُّ على الأفضلية مطلقاً، حتى يلزمَ خَرْمُ مذهبه، ولعَمْري إنَّ هذا الرجلَ عَقَّ أباه آدم عليه السلام في هذا المبحث من «كشافه» حيث أَورد فيه مثالاً لما قرَّره في الآية، جَعَلَ فيه سقاط الحشم مثالاً لآدم عليه السلام، وبَرَّ عدوَّ الله تعالى إبليس، حيث أقام له عُذْرَهُ وصوَّبَ اعتقاده أنه أفضلُ من آدم لكونه من نارٍ وآدم من طين، وإنما غَلَّطه من جهةٍ أخرى وهو أنه لم يقسْ نفسَهُ على الملائكة إذ سجدوا له، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوطُ الرتبة ساقطُ المنزلة، وكم له من عَثْرةٍ لا يُقال لصاحبها لَعَاً[2] مع الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم في هذا المقام، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من مهاوي الهوى، ويثبِّتَ لنا الأقدام.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٣.

(٢) يقال للعاثر: لعاً لك، وهو دعاء له بأن ينتعش. مختار الصحاح (لعا).

وقرئ: «بيديَّ» بكسر الياء، كمصرخِيِّ[1]. و«بيدِي» على التوحيد[2].

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بهمزة الإنكار وطَرْحِ همزة الوصل، أي: أتكبَّرتَ من غير استحقاق. ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ أو: كنتَ مستحقّاً للعلوِّ فائقاً فيه. وقيل: المعنى: أَحَدَثَ لك الاستكبارُ، أم لم تزلْ منذ كنتَ من المستكبرين. فالتقابلُ على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه، وعلى الثاني باعتبار الحدوث والقِدَم، ولذا قيل: «كنت من العالين» دون: أنت من العالين.

وقيل: إنَّ العالين صِنْفٌ من الملائكة يقال لهم: المهيمون، مستغرقونَ بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله، لا يعلمُ أحدهم أنَّ الله تعالى خَلَقَ غيرَهُ، لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام، أو هم ملائكةُ السماء كلُّهم، ولم يُؤمروا بالسجود، وإنما المأمورُ ملائكةُ الأرض، فالمعنى: أَتَرَكْتَ السجودَ استكباراً، أم تركتَهُ لكونك ممن لم يُؤمَرْ به؟! ولا يخفى ما فيه.

و«أم» في كلِّ ذلك متصلةٌ، ونقل ابنُ عطيةَ عن كثير من النحويين أنها لا تكون كذلك إذا اختلفَ الفعلان نحو: أَضَرَبْتَ زيداً أم قَتَلْتَهُ[3]. وتعقَّبه أبو حيان بأنه مذهبٌ غيرُ صحيح، وأنَّ سيبويه صَرَّحَ بخلافه[4].

وقرأَتْ فرقةٌ منهم ابنُ كثيرٍ فيما قيل: «استكبرت» بصلة الألف[5]، وهي قراءةُ أهل مكة، وليست في مشهورِ ابن كثير، فاحتمل أن تكونَ همزةُ الاستفهام قد حُذفت لدلالة «أم» عليها، كقوله:

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٨٣، والدر المصون ٩/ ٣٩٨، والبحر ٧/ ٤١٠. ووقع في الأصل و(م): بكسر الدال، وهو خطأ، وقراءة «بمصرخيِّ» بكسر الياء لحمزة كما سلف ١٣/ ٢٦٦.

(٢) وهي قراءة الجحدري، ينظر القراءات الشاذة ص٣٠، والكشاف ٣/ ٣٨٣، والبحر المحيط ٧/ ٤١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥١٥.

(٤) البحر المحيط ٧/ ٤١٠.

(٥) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٥، والبحر المحيط ٧/ ٤١٠.

بسبعٍ رمينا الجمرَ أم بثمانِ(١)

واحتمل أن يكون الكلامُ إخباراً، و«أم» منقطعة، والمعنى: بل أنت من العالين، والمراد استخفافه سبحانه به.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ قيل: هو جوابٌ عن الاستفهام الأخير، يؤدِّي مؤدَّى أنه كذلك ـ أي: هو من العالين ـ على الوجه الأول، وأنه ليس من الاستكبار سابقاً ولاحقاً في شيءٍ على الوجه الثاني، ويجري مجرى التعليل لكونه فائقاً، إلا أنه لمَّا لم يكنْ وافياً بالمقصود لأنه مجردُ دعوى أُوثر بيانه بما يُفيدُ ذلك وزيادة، وهو قوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ أما الأول فظاهرٌ، وأما الثاني فلأنه ذَكَرَ النوعين تنبيهاً على أنَّ المماثلة كافيةٌ، فضلاً عن الأفضلية، ولهذا أَبهمَ وفصَّل وقابل، وآثر «خلقتني» و«خلقته» دون: أنا من نارٍ وهو من طين، ليدلَّ على أنَّ المماثلةَ في المخلوقية مانعةٌ، فكيف إذا انضمَّ إليها خيريَّةُ المادة، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الآمر كان أولى أن يستنكفَ، فإنه ـ أعني السجود ـ حقُّ الآمر، واستلطفه صاحب «الكشف» ثم قال: ومنه يُعلَمُ أنَّ جوابَ إبليس من الأسلوب الأحمق.

وجعل غيرُ واحدٍ قوله: «أنا خيرٌ منه» جواباً أولاً وبالذات عن الاستفهام بقوله تعالى: (مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ) بادِّعاء شيءٍ مستلزمٍ للمانع من السجود على زَعْمه، وقوله: «خلقتني» إلخ تعليلاً لدعوى الخيريَّة.

وأيًّاما كان فقد أخطأ اللعينُ؛ إذ لا مماثلة في المخلوقية، فمخلوقيةُ آدم عليه السلام باليدين، ولا كذلك مخلوقيَّته، وأَمْرُ خيريَّة المادة على العكس في النظر الدقيق، ومع هذا الفضلُ غيرُ منحصرٍ بما كان من جهتها، بل يكونُ من جهة الصورة والغاية أيضاً، وفَضْلُ آدم عليه السلام في ذلك لا يخفى، وكأنَّ خطأه لظهوره لم يتعرَّضْ لبيانه، بل جعل جوابه طَردَهُ، وذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما ظهر من اللَّعين من المخالفة للأمر

---

(١) عجز بيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٠٩، وصدره:

فوالله ما أدري وإنـي لحاسبٌ

الجليل، وتعليلِها بأظهر الأباطيل، أي: فاخرجْ من الجنة، والإضمارُ قبل ذِكْرها لشهرةِ كونه من سكانها.

وعن ابن عباس أنه كان في عَدْنٍ لا في جنة الخلد. ثم إنه يكفي في صِحَّة الأمر كونُه ممن اتَّخذَ الجنةَ وطناً ومسكناً، ولا تتوقَّفُ على كونه فيها بالفعل وَقْتَ الخطاب كما هو شائعٌ في المحاورات، يقول مَنْ يُخاصم صاحبَهُ في السُّوق أو غيره في دار: اخرجْ من الدار، مع أنه وقت المخاصمة ليس فيها بالفعل، وهذا إن قيل: إنَّ المحاورةَ لم تكن في الجنة.

وقيل: «منها»، أي: من زمرة الملائكة المعزَّزين، وهو المرادُ بالهبوط، لا الهبوطُ من السماء كما قيل، فإنَّ وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، وكانت ـ على ما روي عن الحسن ـ بطريق النداء من باب الجنة، على أنَّ كثيراً من العلماء أنكروا الهبوطَ من السماء بالكلية، بناءً على أنَّ الجنةَ التي أُسْكِنَها آدمُ عليه السلام كانت في الأرض.

وقيل: اخْرجْ من الخِلْقة التي أنت فيها، وانسلخْ منها. والأمرُ للتكوين، وكان عليه اللَّعنةُ يفتخرُ بخِلْقته، فغيَّرَ الله تعالى خِلْقته، فاسودَّ بعد ما كان أبيضَ، وقَبُحَ بعد ما كان حَسَناً، وأظلمَ بعد ما كان نورانيّاً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧﴾ تعليلٌ للأمر بالخروج، أي: مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامة، فالرجمُ كنايةٌ عن الطرد؛ لأنَّ المطرودَ يُرجَمُ بالحجارة، أو: شيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهُب. كذا قالوا.

وقد يقال: المراد بـ «رجيم»: ذليل، فإنَّ الرَّجْمَ يستدعي الذِّلّة، وهو أبعدُ من توهُّمِ التكرار مع الجملة بعدُ من الوجه الأول وأوفقُ؛ لِمَا في «الأعراف» من قوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الآية: ١٣].

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ﴾ أي: إبعادي عن الرحمة، وفي «الحجر»: ﴿اللَّعْنَةَ﴾ [الآية: ٣٥] فإن كانت «أل» فيه للعهد، أو عِوَضاً عن الضمير المضافِ إليه، فَعَدَمُ الفرق بين ما هناك وما هنا ظاهرٌ، وإن أُريد كلّ لعنةٍ فذاك؛ لما أنَّ لعنةَ اللاعنين

من الملائكة والثقلين أيضاً من جهته تعالى، فهم يَدْعونَ عليه بلعنة الله تعالى وإبعاده من رحمته.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ يوم الجزاء والعقوبة، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللعنةَ مع كمال فظاعتها ليست كافيةً في جزاء جنايته، بل هي أُنموذجٌ مما سيلقاه مستمرَّةٌ إلى ذلك اليوم، لكن لا على أنها تنقطعُ يومئذٍ كما يُوهمه ظاهرُ التوقيت ـ ونُسِبَ القولُ به إلى بعض الصوفية ـ بل على أنه سيلقى يومئذٍ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ما تُنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أي: أمهلني وأَخِّرني، والفاء متعلِّقةٌ بمحذوفٍ ينسحبُ عليه الكلام، كأنه قال: إذا جعلتني رجيماً فأمهلني ولا تُمتني.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: آدمُ وذرِّيتُهُ للجزاء بعد الموت، وهو وقتُ النفخة الثانية، وأراد اللَّعينُ بذلك أن يجدَ فُسْحَةً من إغوائهم، ويأخذَ منهم ثأره، وينجو من الموتِ؛ لأنه لا يكونُ بعد البعث، وكان أَمْرُ البعث معروفاً بين الملائكة، فَسَمِعَهُ منهم فقال ما قال، ويمكن أن يكونَ قد عَرَفَهُ عقلاً، حيث عَرَفَ ببعض الأمارات أو بطريقٍ آخر من طُرُقِ المعرفة أنَّ أفرادَ هذا الجنس لا تخلو من وقوع ظُلْمٍ بينها، وأنَّ الدار ليست دارَ قرارٍ، بل لا بدَّ من الموت فيها، وأنَّ الحِكْمة تقتضي الجزاء.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ ورودُ الجواب بالجملة الاسمية مع التعرُّضِ لشمول ما سأله الآخرين على وجهٍ يُشعرُ بأنَّ السائلَ تَبَعٌ لهم في ذلك، صريحٌ في أنه إخبارٌ بالإنظار المقدَّر لهم أزلاً، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به، قد وقع إجابةً لدعائه، وأنَّ استنظارَهُ كان طَلَباً لتأخير الموت؛ إذ به يتحقَّقُ كونه منهم، لا لتأخير العقوبة كما قيل، فإنَّ ذلك معلومٌ من إضافة اليوم إلى الدين، أي: إنك من جملة الذين أُخِّرَتْ آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه حكمةُ التكوين.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ الذي قدَّرتُهُ وعيَّنته لفناء الخلائق، وهو وقتُ النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذي هو المسؤول، فالفاءُ ليست لربط نفس الإنظار بالاستنظار، بل لربط الإخبار المؤكَّد به، كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧] وقول الشافعي:

فـإن تـرحـم فـأنـت لِـذاك أهـل[١]

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ قَسَمٌ بسلطان الله عزَّ وجلَّ وقهره، وهو كما يكون بالذات يكون بالصفة، فالباء للقَسَم على ما عليه الأكثرون، والفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار، أي: فأُقسمُ بعزَّتك.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: أفرادَ هذا النوع بتزيين المعاصي لهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، وعَصَمهمْ عن الغواية.

وقرئ: «المخلِصين» على صيغة الفاعل[٢]، أي: الذين أَخلصوا قلوبهم أو أعمالهم لله تعالى.

﴿قَالَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ بِرَفْع الأول على أنه مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أو خبرٌ محذوف المبتدأ، ونَصْبِ الثاني على أنه مفعولٌ لما بعده قُدِّمَ عليه للقَصْر، أي: لا أقولُ إلا الحقَّ، والفاءُ لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها، أي: فالحقُّ قَسَمِي.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على أنَّ الحقَّ إما اسمهُ تعالى، أو نقيضُ الباطل عَظَّمَهُ الله تعالى بإقسامه به، ورُجِّحَ بحديث إعادة الاسم معرفة، أو: فأنا الحقُّ، أو: فقَوْلي الحقُّ، وقوله تعالى: «لأملأن» إلخ حينئذٍ جوابٌ لِقَسَمٍ محذوفٍ، أي: والله لأملأنَّ.. إلخ، وقوله تعالى: «والحق أقول» على كلِّ تقدير اعتراضٌ مقرِّرٌ على

---

(١) وعجزه: وإن تَطْرُدْ فمَن يرحم سواكا، وسلف ١٣/ ٤٧٥.

(٢) التيسير ص١٢٨، والنشر ٢/ ٢٩٥، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب.

الوجهين الأولين لمضمون الجملة القَسَمية، وعلى الوجه الثالث لمضمونِ الجملة المتقدِّمة، أعني فقَوْلي الحق.

وقول: «فالحق» مبتدأ خبرُهُ «لأملأنَّ» لأنَّ المعنى: أن أملأ، ليس بشيءٍ أصلاً.

وقرأ الجمهور: «فالحقَّ والحقَّ» بنصبهما[1]، وخُرِّجَ على أنَّ الثاني مفعولٌ مقدَّمٌ كما تقدَّم، والأولُ مُقْسَمٌ به حُذِفَ منه حَرْفُ القَسَم فانتصب، كما في بيت «الكتاب»:

إنَّ عليك اللهَ أن تُبايعا تؤخذَ كرهاً أو تجيءَ طائعا[2]

وقولك: اللهَ لأفعلنَّ. وجوابه: «لأملأنَّ»، وما بينهما اعتراضٌ.

وقيل: هو منصوبٌ على الإغراء، أي: فالزموا الحقَّ، و«لأملأنَّ» جوابُ قَسَم محذوف.

وقال الفرَّاء: هو على معنى قولك: حقّاً لآتينَّكَ. ووجود «أل» وطرحُها سواءٌ، أي: لأملأنَّ جهنَّمَ حقّاً[3]. فهو عنده نَصْبٌ على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة، ولا يخفى أنَّ هذا المصدرَ لا يجوزُ تقديمه عند جمهور النحاة، وأنه مخصوصٌ بالجملة التي جزآها معرفتان جامدان جموداً محضاً.

وقال صاحب «البسيط»: وقد يجوز أن يكون الخبرُ نكرةً، والمبتدأ يكون ضميراً، نحو: هو زيدٌ معروفاً، وهو الحقُّ بيِّناً، وأنا الأميرُ مفتخِراً، ويكون ظاهراً نحو: زيدٌ أبوك عَطُوفاً، وأخوكَ زيدٌ معروفاً. فكأنَّ الفراءَ لا يشترطُ في ذلك ما يشترطون.

وقرأ ابن عباس ومجاهد والأعمش بالرفع فيهما[4]، وخُرِّجَ رَفْعُ الأول على

---

(١) التيسير ص١٨٨، والنشر ٢/ ٣٦٢، وقراءة: «فالحقُّ» بالرفع لحمزة وعاصم وخلف.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ١٥٦، والمقتضب ٢/ ٦٣، والخزانة ٥/ ٢٠٣، وقال البغدادي: هو من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٣) معاني القرآن له ٢/ ٤١٣.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/ ٥١٦، والبحر المحيط ٧/ ٤١١.

ما مرَّ، ورَفْعُ الثاني على أنه مبتدأٌ، والجملةُ بعده خبرٌ، والرابطُ محذوفٌ، أي: أقوله، كقراءة ابن عامر: «وكلٌّ وَعَدَ الله الحسنى»[1] وقول أبي النجم:

قد أصبحتْ أمُّ الخيار تدَّعي   عليَّ ذنباً كلُّه لم أصْنَعِ[2]

بِرَفْعِ «كلّ» ليتأتَّى السَّلْبُ الكُلِّيُّ المقصودُ للشاعر.

وقرأ الحسنُ وعيسى وعبد الرحمن بن أبي حماد عن أبي بكر بجرِّهما[3]، وخُرِّجَ على أنَّ الأولَ مجرورٌ بواو القَسَم محذوفةً، أي: فوالحقِّ، والثاني مجرورٌ بالعَطْفِ عليه كما تقول: والله والله لأقومنَّ، و«أقول» اعتراضٌ بين القَسَم وجوابه، وجعله الزمخشريُّ مفعولاً مقدَّماً لـ «أقول» والجرُّ على حكاية لَفْظِ المقسَم به، قال: ومعناه التوكيدُ والتشديدُ[4]. وإفادته ذلك زيادة على ما يفيده أصلُ الاعتراض؛ لأنَّ العدولَ عمَّا يقتضيه من الإعراب إلى الحكاية لمَّا كان لاستبقاء الصورة الأولى، دلَّ على أنها من العناية في شأنها بمكانٍ، وهذا جارٍ في كلِّ حكايةٍ من دون فِعْلِ قولٍ وما يقوم مقامه، فيدلُّ فيما نحن فيه على فَضْل عنايةٍ بشأن القَسَمِ، ويفيد التشديد والتوكيد.

وقرئ بجرِّ الأول على إضمار حرف القَسَم، ونَصْبِ الثاني على المفعولية[5].

﴿مِنكَ﴾ أي: من جنسك من الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ في الغواية والضلالة ﴿مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم عليه السلام ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ توكيدٌ للضمير في «منك» والضميرِ المجرور بـ «من» الثانية، والمعنى: لأملأنَّ جهنَّم من المتبوعين والتابعين أجمعين، لا أتركُ منهم أحداً، أو توكيدٌ للتابعين فحسب، والمعنى: لأملأنَّها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس، لا تفاوُتَ في ذلك بين ناسٍ وناسٍ بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم، وتأكيدُ التابعين دون المتبوعين لما أنَّ حالَ التابعين إذا بلغ إلى أن اتَّصل إلى أولاد الأنبياء، فما بالُ المتبوعين!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥. والقراءة في الإملاء ٢/ ٣١٠، والبحر ٣/ ٣٣٣.
(٢) الرجز في ديوان أبي النجم ص ١٣٢، والكتاب ١/ ٨٥، والخزانة ١/ ٣٥٩.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٠، والمحرر الوجيز ٤/٥١٦، والبحر المحيط ٧/ ٤١١.
(٤) الكشاف ٣/ ٣٨٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٣٨٤.

وقال صاحب «الكشف»: صاحبُ هذا القول اعتبر القُرْبَ، وأنَّ الكلامَ بين الحقِّ تعالى شأنه وبين الملعون في شأن التابعين، فأكَّد ما هو المقصود، وتَرَكَ توكيدَ الآخر للاكتفاء.

هذا، واعلم أنَّ هذه القصةَ قد ذُكرتْ في عِدَّة سُوَرٍ، وقد تُرِكَ في بعضها بعضُ ما ذُكر في البعض الآخر؛ للإيجاز ثقةً بما ذُكِرَ في ذلك، وقد يكونُ فيها في موضعين مثلاً لفظان متَّحدان مآلاً مختلفان لفظاً؛ رعايةً للتفنُّن، وقد يُحمَلُ الاختلافُ على تعدُّد الصدور، فيقال مثلاً: إنَّ اللَّعينَ أَقْسَمَ مرَّةً بالعِزَّة، فحكى ذلك في سورة «ص» بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾، وأخرى بإغواء الله تعالى الذي هو أثرٌ من آثار قدرته وعِزَّته عزَّ وجلَّ، وحُكْمٌ من أحكام سلطانه، فحكى ذلك في سورة «الأعراف» بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الآية:١٦]. وقد يُحمَلُ الاختلافُ على اختلاف المقامات كتَرْكِ الفاء من قوله: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف:١٤] ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ في الأعراف [الآية:١٥] مع ذكرها فيهما في «ص»، والذي يجبُ اعتباره في نقل الكلام إنما هو أصلُ معناه، ونفس مدلوله الذي يفيده، وأما كيفيةُ إفادته له فليس مما يجبُ مراعاته عند النقل ألبتَّة، بل قد تُراعى وقد لا تراعى حَسب اقتضاء المقام. ولا يقدحُ في أصل الكلام تجريدُهُ عنها، بل قد تُراعَى عند نقله كيفياتٌ وخصوصياتٌ لم يُراعِها المتكلِّمُ أصلاً، حيث إنَّ مقامَ الحكاية اقتضتها وهي ملاك الأمر، ولا يُخِلُّ ذلك بكَوْن المنقول أصل المعنى كما قد حقَّقه صَدْرُ المفتين أبو السعود، وأطال الكلام فيه، فليراجع[1].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على القرآن، كما روي عن ابن عباس، أو على تبليغ ما يُوحَى إليَّ، أو على الدعاء إلى الله تعالى على ما قيل. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: أجراً دنيوياً جلَّ أو قلَّ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ من الذين يتصنَّعون ويتحلَّون بما ليسوا من أهله، وما عرفتموني قَطُّ متصنِّعاً ولا مدَّعياً ما ليس عندي حتى أنتحلَ النبوَّةَ وأتقوَّلَ القرآن، فأمره ﷺ أن يقول لهم عن نفسه هذه المقالة ليس لإعلامهم بالمضمونِ، بل

---

(١) ينظر تفسيره ٧/ ٢٣٧-٢٣٨.

للاستشهاد بما عرفوه منه عليه الصلاة والسلام، وللتذكير بما علموه، وفي ذلك ذمُّ التكلُّف.

وأخرج ابن عدي عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة»؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «هم الرحماء بينهم» قال: «ألا أنبئكم بأهل النار؟» قلنا: بلى. قال: «هم الآيسون القانطون الكذّابون المتكلِّفون»[١].

وعلامة المتكلِّف ـ كما أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن المنذر ـ ثلاثٌ: أن يُنازل مَنْ فوقَهُ، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم[٢].

وفي الصحيحين[٣] أنَّ ابن مسعود قال: أيها الناس، مَنْ عَلِمَ منكم علماً فليقل به، ومَنْ لم يعلمْ فليقل: الله تعالى أعلم، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو، أي: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ جليلُ الشأن من الله تعالى. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ للثقلين كافَّة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ أي: ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما، أو خبره الذي يقال فيه في نفس الأمر، وهو أنه الحقُّ والصِّدقُ. ﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ قال ابن عباس وعكرمة وابن زيد: يعني يوم القيامة، وقال قتادة والفراء والزجاج: بعد الموت[٤]، وكان الحسن يقول: يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

وفُسِّر نبؤه بالوعد والوعيد الكائنين في الدنيا، والمراد: لتعلمُنَّ ذلك بتحقُّقه إذا أخذتكم سيوفُ المسلمين، وذلك يوم بدر. وأشار إلى هذا السُّدِّيُّ. وأيًّاما كان ففي الآية من التهديد ما لا يخفى.

❁ ❁ ❁

(١) الكامل ٣/ ١٠٤٨، وفي إسناده أبو الجارود زياد بن المنذر، وهو متروك.
(٢) الشعب (٥٠٦٤) وفيه: ينازع. بدل: ينازل. وابن المنذر هو أرطاة بن المنذر الألهاني، أبو عدي الحمصي، توفي سنة (١٦٣هـ). التهذيب ١/ ١٠٢.
(٣) البخاري (٤٧٧٤)، ومسلم (٢٧٩٨)، وهو عند أحمد (٤١٠٤).
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٤١٣، والزجاج ٤/ ٣٤٢.

هذا، وممَّا قَالَهُ بَعْضُ السَّادة الصُّوفيَّة في بَعْض الآيات، قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ إنه ظاهرٌ في أنَّ الجمادَ والحيوان الذي هو عند أهل الحجاب غيرُ ناطقٍ حيٌّ له علم بالله عزَّ وجلَّ، ونقل الشعرانيُّ عن شيخه عليٍّ الخوَّاص قُدِّسَ سِرُّهُ القول بتكليف البهائم من حيث لا يشعرُ المحجوبون، وجُوِّزَ أن يكونَ نذيرُها من ذواتها، وأن يكون خارجاً عنها من جنسها، وقال: ما سُمِّيَتْ بهائمَ إلا لكَوْن أمر كلامها وأحوالها قد أُبهم على غالب الخَلْق، لا لأنَّ الأمرَ مُبْهَمٌ عليها نفسها. وحكى عنه أنه كان يُعامل كلَّ جمادٍ في الوجود معاملةَ الحيِّ، ويقول: إنه يفهمُ الخطابَ، ويتألَّمُ كما يتألَّم الحيوان.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النفوسَ مجبولةٌ على الظلم وسائر الصفات الذميمة، وإلى أنَّ الذين تزكَّتْ أنفسُهم قليلٌ جدًّا بالنسبة إلى الآخرين.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نقل الشعرانيُّ أنَّ خلافته عليه السلام، وكذا خلافةُ آدم كانت في عالم الصُّور وعالم الأنفس المدبّرة لها، دون العالم النورانيِّ، فإنَّ لكلِّ شخصٍ من أهله مقاماً معلوماً عيَّنه له ربُّهُ سبحانه. وللشيخ الأكبر قُدِّسَ سِرُّهُ كلامٌ طويلٌ في الخلافة، ويُحكى عن بعض الزنادقة أنَّ الخليفةَ لا يُكتَبُ عليه خطيئة، ولا هو داخلٌ في رِبْقة التكليف؛ لأنَّ مرتبته مرتبةٌ مستخلفةٌ. وهو كفرٌ صُراحٌ.

وفرَّق العلماء بين الخليفة والملك. أخرج الثعلبيُّ من طريق العوام بن حَوْشب قال: حدثني رجلٌ من قومي شَهِدَ عمر رضي الله عنه أنه سأل طلحة والزبير وكعباً وسلمان رضي الله عنهم: ما الخليفةُ من الملك؟ فقال طلحة والزبير: ما ندري. فقال سلمان: الخليفةُ الذي يَعْدِلُ في الرعية، ويَقْسِمُ بينهم بالسَّوية، ويُشفق عليهم شفقةَ الرجل على أهله، ويقضي بكتاب الله تعالى. فقال كعب: ما كنتُ أحسبُ أحداً يعرفُ الخليفةَ من الملك غيري[1]. فقوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾

---

(١) الدر المنثور ٥/٣٠٦، وهو في تفسير الثعلبي ١/ ١٧٧ بزيادة: ولكن الله عز وجل ملأ سلمان حكماً وعلماً وعدلاً.

كالتفسير لهذه الخلافة، وفيه إشارةٌ إلى ذَمِّ الهوى، وفي بعض الآثار: ما عُبد إلهٌ في الأرض أبغضُ على الله تعالى من الهوى، فهو أعظمُ الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فيه إشارةٌ ـ بناءً على المشهور في القصة ـ إلى أنَّ كلَّ محبوبٍ سوى الله تعالى إذا حَجَبَكَ عن الله تعالى لحظةً، يلزمكَ أن تُعالجه بسيفِ نفي لا إله إلا الله، وقد سمعتَ استدلال الشبليِّ بذلك على تخريق ثيابه، وما قيل فيه.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لم يقصد بذلك السؤالِ إلا ما يُوجبُ مزيدَ القرب إليه عزَّ وجلَّ، وليس فيه ما يُخِلُّ بكماله عليه السلام، وإلا لعوتِبَ عليه، وقد تقدم الكلام في ذلك، ومنه يُعلَمُ كَذِبُ ما في «الجواهر والدرر» نقلاً عن الخوّاص، قال: بلغنا أنَّ النملة التي كلَّمتْ سليمانَ عليه السلام قالت: يا نبيَّ الله، أعطني الأمان وأنا أنصحك بشيءٍ ما أظنُّكَ تعلمه. فأعطاها الأمانَ، فأسرَّتْ إليه في أذنه، وقالت: إني أشَمُّ من قولك: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ رائحةَ الحسد، فتغيَّر سليمانُ واغبرَّ لونُه، ثم قالت له: قد تركتَ الأدبَ مع الله تعالى من وجوه؛ منها عدمُ خروجك من شُحِّ النفس الذي نهاك الله تعالى عنه إلى حَضْرة الكرم الذي أمركَ الله تعالى به، ومنها مبالغتُكَ في السؤال بأن لا يكون ذلك العطاءُ لأحدٍ من عبيد سيِّدك من بعدك، فَحَجَرْتَ على الحقِّ تعالى بأن لا يُعطي أحداً بعد موتك ما أعطاه، كلُّ ذلك لمبالغتك في شِدَّة الحرص، ومنها طلبُكَ أن يكونَ ملكُ سيِّدك لك وَحْدَك، تقول: ﴿وَهَبْ لِي﴾، وغابَ عنك أنك عبدٌ له لا يصحُّ أن تملك معه شيئاً، مع أنَّ فرَحَكَ بالعطاء لا يكون إلا مع شهود ملكك له، وكفى بذلك جهلاً، ثم قالت له: يا سليمان، وماذا مُلْكك الذي سألته أن يُعطيكه؟ فقال: خاتمي. قالت: أفٍّ لملكٍ يحويه خاتم. انتهى.

ويدلُّ على كَذِبِ ما بلغه وجوهٌ أيضاً لا تخفى على الخَوَاصِّ، والعجبُ من أنها خفيتْ على الخوَّاص.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يشيرُ إلى فَضْل آدم عليه السلام، وأنه أكملُ المظاهر، واليدان عندهم إشارةٌ إلى صِفَتَي اللُّطف والقهر،

وكلُّ الصفات ترجعُ إليهما، ولا شكَّ عندنا في أنه أفضلُ من الملائكة عليهم السلام.

وذكر الشعرانيُّ أنه سألَ الخوَّاصَ عن مسألة التفضيل الذي أشرنا إليه، فقال: الذي ذهب إليه جماعةٌ من الصوفية أنَّ التفاضلَ إنما يصحُّ بين الأجناس المشتركة، كما يقال: أفضلُ الجواهر الياقوت، وأفضلُ الثياب الحُلَّة. وأما إذا اختلفت الأجناسُ فلا تفاضُلَ، فلا يقال: أيُّما أفضلُ الياقوت أم الحُلَّة؟ ثم قال: والذي نذهبُ إليه أنَّ الأرواحَ جميعها لا يصحُّ فيها تفاضُلٌ إلا بطريق الإخبار عن الله تعالى، فمَنْ أخبره الحقُّ تعالى بذلك، فهو الذي حَصَلَ له العلمُ التامُّ، وقد تنوَّعتِ الأرواحُ إلى ثلاثة أنواع: أرواحٌ تُدبِّرُ أجساداً نوريَّةً، وهم الملأ الأعلى. وأرواحٌ تُدبِّرُ أجساداً ناريةً، وهم الجنُّ. وأرواحٌ تُدبِّرُ أجساداً ترابية، وهم البشر. فالأرواح جميعُها ملائكةٌ، حقيقةٌ واحدةٌ، وجنسٌ واحدٌ، فمَنْ فاضَلَ من غير علمٍ إلهيٍّ، فليس عنده تحقيقٌ، فإنَّا لو نظرنا التفاضُلَ من حيثُ النشأةُ مطلقاً، قالَ العقل بتفضيل الملائكة، ولو نظرنا إلى كمال النشأة وجمعيَّتها، حكمنا بتفضيل البشر، ومن أين لنا ركونٌ إلى ترجيح جانبٍ على آخر، مع أنَّ الملك جزءٌ من الإنسان من حيثُ روحُهُ؛ لأنَّ الأرواحَ ملائكةٌ، فالكلُّ من الجزء والجزءُ من الكلّ، ولا يقال: أيُّما أفضلُ جزءُ الإنسان أو كلُّه. فافهم. انتهى.

والكلام في أمر التفضيل طويلٌ، محلُّه كتبُ الكلام، ثم إنَّ حَظَّ العارف من القصص المذكورة في هذه السورة الجليلة لا يخفى إلا على ذوي الأبصار الكليلة. نسأل الله تعالى أن يوفِّقنا لفَهْم كتابه بحُرْمة سيِّد أنبيائه وأحبابه صلى الله عليه وسلم وشَرَّفَ وعظَّم وكرَّم.